فِي ظِلَالِ الرَّسَائِل

رِسَالَةُ التَّعالِيمِ

د. صَلَاح عَبد الحَقّ

بسم الله الرحمن الرحيم

فِي ظِلَالِ الرَّسَائِل

الجُزءُ الأَوَّلِ

د. صَلَاح عَبد الحَق

شركة العصر للنشر والخدمات والتجارة
ASIR YAYINCILIK DANIŞMANLIK
HİZMETLERİ İÇ VE DIŞ TİCARET

رقم الإصدار 13
الترقيم الدولي 978-605-74168-2-7

اسم الكتاب في ظلال الرسائل
اسم المؤلف صلاح عبد الحق

الاخراج الفني AsaletAjans
a.alataar@gmail.com

الطبعة الأولى - يوليو 2026 م
صفر 1448هـ

Step Ajans Matbaa Ltd. Şti.
Sertifika No: 45522
Göztepe Mh. Bosna Cd.
No: 11 Bağcılar/İSTANBUL
Tel: +90 212 446 88 46

دار النشر شركة العصر للنشر والخدمات والتجارة
Asır Yayıncılık Danışmanlık Hizmetleri
İç ve Dış Ticaret Ltd. Şti.
Sertifika No: 48203
Havaalanı Mh. Kışla Cd.
No: 15/2 Esenler/İSTANBUL
asir.pstc@gmail.com
www.alasir.net - infi@alasir.net

Copyright © 2026
شركة العصر للنشر والخدمات والتجارة
إسطنبول © تركيا 2026
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

رِسَالَـةُ التَّعاليمِ

(أَرْكَانُ البَيْعَةِ)

التعريف بفضيلة القائم بأعمال المرشد العام لجماعة الإخوان المسلمين

الدكتور صلاح عبد الحق، القائم بأعمال المرشد العام لجماعة الإخوان المسلمين، والرئيس السابق عن «المنتدىٰ الإسلامي العالمي للتربية»، من مواليد القاهرة عام ١٩٤٥م. التحق بجماعة الإخوان المسلمين عام ١٩٦٢م، متأثرًا بفكر الإمام حسن البنا. واعتُقل في محنة الإخوان عام ١٩٦٥م، وظل في السجن قرابة تسع سنوات، حتىٰ أُفرج عنه عام ١٩٧٤م. وبعد خروجه، انخرط في العمل الإسلامي والدعوي، ولا سيما في الأوساط الطلابية بالجامعات المصرية خلال سبعينيات القرن العشرين، ثم واصل نشاطه في مجالات التربية والدعوة، محاضرًا ومربيًا وداعية. وتخرج في كلية الطب بجامعة عين شمس عام ١٩٧٦م، وتخصص في الأمراض الجلدية.

المولد والنشأة

وُلد صلاح عبد الحق في أكتوبر عام ١٩٤٥م، ونشأ في حي مصر الجديدة شرقي القاهرة، في أسرة كان والده فيها مفتشًا للغة الإنجليزية بوزارة التربية والتعليم. وله شقيقان، وهو أوسطهم

وانتسب عبد الحق في صباه، مع أسرته، إلىٰ «نادي هليوبوليس الرياضي»، وكان يتردد علىٰ مسجد النادي للصلاة والاستماع إلىٰ دروس إمام المسجد. ومن خلال تلك الدروس تعرّف، عام ١٩٥٧م، علىٰ

جماعـة الإخـوان المسـلمين.

وفي المرحلة الثانوية، تعرّف إلىٰ عدد من أعضاء الجماعة من الطلاب السوريين الذين قدموا إلىٰ مصر للدراسة الجامعية عقب إعلان الوحدة بين مصر وسوريا عام ١٩٥٨م، ثم التحق بجماعة الإخوان المسلمين عام ١٩٦٢م.

اعتقاله وسجنه

اعتُقل الدكتور صلاح عبد الحق مع عدد من زملائه في محنة عام ١٩٦٥م، وكان آنذاك في العشرين من عمره، وفي السنة الثالثة بكلية الطب. كما اعتُقل أخواه، وقضوا فترة من اعتقالهم في السجن الحربي.

وخلال فترة سجنه، تعرّض للتعذيب الشديد في محاولة لإجباره علىٰ الاعتراف بحمل السلاح، وهو ما رفضه رفضًا قاطعًا. وظل ثابتًا علىٰ موقفه، واستمر في السجن قرابة تسع سنوات، حتىٰ أُفرج عنه عام ١٩٧٤م.

ورافقه خلال فترة الاعتقال كلٌّ من الدكتور محمد بديع، الذي أصبح لاحقًا المرشد العام لجماعة الإخوان المسلمين، والدكتور محمود عزت.

دراسته الجامعية

التحق الدكتور صلاح عبد الحق بكلية الطب في جامعة عين شمس عام ١٩٦٢م، غير أن اعتقاله أدىٰ إلىٰ انقطاعه عن الدراسة وتأخر تخرجه حتىٰ عام ١٩٧٦م. وخلال فترة سجنه، حرص علىٰ متابعة دراسته ومطالعة المواد العلمية قدر استطاعته.

وبعد الإفراج عنه عام ١٩٧٤م، تقدم للامتحانات في العام نفسه،

واستأنف دراسته حتىٰ حصل علىٰ بكالوريوس الطب في ديسمبر عام ١٩٧٦م، ثم أتم سنة الامتياز عام ١٩٧٧م. وواصل تحصيله العلمي حتىٰ حصل علىٰ درجة الماجستير في الأمراض الجلدية عام ١٩٨٢م.

سفره وزواجه

سافر الدكتور صلاح عبد الحق إلىٰ المملكة العربية السعودية عام ١٩٨٥م، وعمل هناك طبيبًا للأمراض الجلدية. وخلال إقامته، اتصل بعدد من العلماء والدعاة، وتزوج من ابنة الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا، أستاذ الأدب والنقد بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية وأحد مؤسسيها، وصاحب عدد من المؤلفات المعروفة، من أبرزها «صور من حياة الصحابة» و«صور من حياة التابعين».

عمله في الجماعة

عُرف الدكتور صلاح عبد الحق باهتمامه بالعمل التربوي داخل جماعة الإخوان المسلمين، محاضرًا ومربيًا، وبارتباطه بفكر الإمام حسن البنا وتأثره بمنهجه. وشارك في النشاط الإسلامي والدعوي داخل الجامعات والأوساط الطلابية خلال سبعينيات القرن العشرين، ثم واصل عمله في مجالات الدعوة والإرشاد والتربية.

وتولىٰ رئاسة «المنتدىٰ الإسلامي العالمي للتربية» لأكثر من خمسة عشر عامًا. كما اختير عضوًا في مجلس الشورىٰ العام لجماعة الإخوان المسلمين، وممثلًا لرابطة الإخوان المسلمين المصريين في الخارج، خلال فترة تولي الأستاذ إبراهيم منير، رحمه الله، القيام بأعمال المرشد العام.

سماته الشخصية

يتصف الدكتور صلاح عبد الحق بالهدوء، والبعد عن الظهور، وحسن الإنصات، والحزم في المواقف. ويصفه من عرفوه بقوة الطرح وعمق الفكرة، مع عناية بالاستشهاد بالقرآن الكريم والسنة النبوية وأدبيات الدعوة الإسلامية. وتظهر هذه السمات في أحاديثه وكتاباته، إلىٰ جانب خبرة طويلة في العمل الدعوي واهتمام بتراث الإمام حسن البنا.

تكليفه قائمًا بأعمال المرشد العام

انتخب مجلس الشورىٰ العام الدكتور صلاح عبد الحق قائمًا بأعمال المرشد العام، خلفًا للأستاذ إبراهيم منير، رحمه الله. وحظي اختياره بتأييد مجلس الشورىٰ العالمي للإخوان المسلمين بالإجماع، وفق ما أعلنته الجماعة.

ومن أبرز الأولويات التي طُرحت للمرحلة المقبلة: إعادة التعريف بالجماعة، وتعزيز حضورها، والسعي إلىٰ لمّ شمل أعضائها، ومتابعة ملف المعتقلين وأسرهم، وإتاحة دور أكبر للشباب في إدارة المرحلة المقبلة.

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علىٰ سيدنا محمد ﷺ، المربي الأول، والقائد القدوة، وعلىٰ آله وصحبه ومن سار علىٰ نهجه إلىٰ يوم الدين.

أما بعد..

فإن الله تعالىٰ لا يقيم هذا الدين بالأماني، ولا يورث قيادته بالعواطف المجردة، وإنما يقيمه برجالٍ ربانيين، عرفت قلوبهم الإيمان، واستنارت عقولهم بالفهم، واستقامت نفوسهم علىٰ الطاعة، وتربت أرواحهم علىٰ البذل والصبر والثبات، كما قال تعالىٰ: ﴿**مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا**﴾ [الأحزاب: 23]. وما نهضت أمة، ولا قامت دعوة، ولا استقرت جماعة، إلا علىٰ هذا الأساس المتين.

ولقد عايشنا في مسيرة العمل للإسلام عقودًا طويلة، رأينا فيها أجيالًا أقبلت علىٰ الدعوة بحب صادق، ثم حالت بينها وبين غاياتها عوائق الطريق، ورأينا آخرين ثبتوا حتىٰ لقوا الله؛ لأنهم تربوا علىٰ منهج واضح، وربطوا حركتهم بالوحي، وجعلوا التربية قبل الحركة، وبناء الإنسان قبل بناء المؤسسات، مصداقًا لقوله «ﷺ: إنما العلم بالتعلم، وإنما الحلم بالتحلم».

ومن هنا بقيت رسائل الإمام الشهيد حسن البنا، رحمه الله، حيَّة في النفوس، متجددة في معانيها، لا لأنها كلمات بليغة، وإنما لأنها خرجت من قلب مخلص، وتجربة دعوية عميقة، ورؤية تربوية صنعت رجالًا حملوا الفكرة في الرخاء والشدة، وفي السعة والمحنة، وربطت بين الإيمان والعمل،

وبيـن العبـادة والجهـاد، وبيـن إصـلاح النفـس وإصـلاح المجتمـع.

ومـن بيـن تلـك الرسـائل تظـل رسـالة التعاليـم الوثيقـة الجامعـة، والدسـتور التربـوي، والمنهـاج العملـي الـذي صـاغ الشـخصية الإخوانيـة، ورسـم معالـم الطريـق للمجاهديـن مـن الإخـوان المسـلمين، وجعـل مـن أركان البيعـة العشـرة منهجًـا متكامـلًا لبنـاء الفـرد، وتكويـن الصـف، وإعـداد الجماعـة التـي تحمـل الإسـلام فهمًـا وسـلوكًا ودعـوةً وحركـة.

ولـم تكـن هـذه الأركان مجـرد عناويـن تربويـة، بـل احتـوت في ثناياهـا معالـم مشـروع متكامـل، تحـدث عـن الفهـم والإخـلاص والعمـل والجهـاد والتضحيـة والطاعـة والثبـات والتجـرد والأخـوة والثقـة، وربـط هـذه المعـاني جميعًـا بغايـة كـبرىٰ، هـي إقامـة الإنسـان المسـلم الـذي يعـرف ربـه، ويحسـن فهـم دينـه، ويـؤدي واجبـه، ويحمـل هـم أمتـه، ويسـير في طريـق الإصـلاح بعلـم وبصيـرة وصبر.

وقـد أثبتـت الأيـام أن الأزمـات لا تكشـف قـوة التنظيمـات بقـدر مـا تكشـف عمـق التربيـة، وأن الصـف الـذي يربـىٰ علـىٰ الفهـم الصحيـح والإخـلاص والأخـوة والثقـة يبقـىٰ متماسـكًا مهمـا تغيـرت الظـروف، بينمـا تتسـاقط الصفـوف التـي قامـت علـىٰ الحماسـة المجـردة أو ردود الأفعـال. وكـم رأينـا أفكارًا عظيمـة ذبلـت لأنهـا افتقـدت التربيـة، ورأينـا صفوفًـا قليلـة العـدد عظيمـة الأثـر لأنهـا أحسـنت بنـاء الإنسـان قبـل الانشـغال ببنـاء البنيـان. ولذلـك ظلـت رسـالة التعاليـم، بعـد مـرور عشـرات السـنين، مدرسـة في صناعـة الرجـال، ومصـدرًا لإحيـاء معـاني الانضبـاط والالتـزام والمسـؤولية والوعـي.

وهـذا الكتـاب ليـس شـرحًا لألفـاظ الرسـالة، ولا تعليقًـا علـىٰ عباراتهـا، وإنمـا هـو وقـوف في ظلالهـا، واستكشـاف لمـا تحملـه مـن كنـوز تربويـة ودعويـة

وحركية، ومحاولة لربط معانيها بواقع المسلمين اليوم، واستحضار مقاصدها في زمن كثرت فيه التحديات، وتشعبت فيه المسارات، وأصبح الناس أحوج ما يكونون إلىٰ وضوح الرؤية، وسلامة المنهج، ووحدة الصف.

وقد شاء الله تعالىٰ أن يكون أصل هذا الكتاب مجالس علمية وتربوية جمعتني بطائفة من طلابي وإخواني، كنا نقف فيها مع رسالة التعاليم وقفات تدبر ومدارسة، نستخرج معانيها، ونربط أصولها بواقع الدعوة، ونقيسها علىٰ ما عشته وعايشته من مسيرة العمل للإسلام عبر أكثر من ستين عامًا. ولم تكن تلك المجالس دروسًا نظرية بقدر ما كانت حوارًا بين النص والتجربة، وبين المنهج والواقع، وبين ما قرأناه في الرسائل وما رأيناه في ميادين الدعوة والتربية.

ثم تتابعت رغبة إخواني وأبنائي في الدعوة في جمع تلك المحاضرات، وإعادة صياغتها، وإضافة ما فتح الله به من تأملات ومراجعات، حتىٰ خرجت في هذا الكتاب، رجاء أن ينتفع به طالب العلم، والمربي، والداعية، وكل من يريد أن يسلك طريق الإصلاح علىٰ بصيرة، مستفيدًا من ميراث الدعوة، ومن خبرة السنين التي أثبتت أن التربية الصادقة هي أساس الثبات، وأن بناء الإنسان هو أول طريق بناء الأمة.

وإني أرجو أن يجد فيه المسلم عامة، والعامل للإسلام خاصة، والأخ المجاهد في جماعة الإخوان المسلمين علىٰ وجه الخصوص، ما يعينه علىٰ مراجعة نفسه، وتجديد عهده، وتعميق فهمه، واستحضار الغاية التي من أجلها بايع، وأن يتعامل مع أركان البيعة لا بوصفها معلومات تحفظ، بل معالم طريق، وعهدًا مع الله، ومنهج حياة، وتربية تمتد من القلب إلىٰ السلوك، ومن الفرد إلىٰ الجماعة، ومن الجماعة إلىٰ نهضة الأمة.

ونختم بقول الإمام حسن البنا؛ حيث يقول في مقدمة رسالة التعاليم:

«فَهـذِهِ رِسَـالتِي إِلَـىٰ الإِخْـوَانِ المُجاهديـنَ مِـنَ الإخـوانِ المُسـلِمينَ الذيـن آمنُـوا بِسُـمُوِّ دَعوتِهـم، وَقُدسِـيّةِ فِكرتِهـم، وَعَزمُـوا صَادقيـنَ علَـىٰ أنْ يَعيشُـوا بِهـا، أَوْ يَموتُـوا فِـي سَـبيلِهَا، إِلَـىٰ هَـؤلاءِ الإخـوانِ فَقـطْ أُوجِّـهُ هَـذِهِ الكَلمَـاتِ، وَهِـيَ لَيسَـتْ دُرُوسًـا تُحفَـظُ، ولكنَّهـا تَعليمَـاتٌ تُنَـفَّذُ، فإِلَـىٰ العَمـلِ أيهَـا الإخـوانُ الصَّادقُـونَ: ﴿وَقُـلِ اعْمَلُـوا فَسَـيَرَىٰ اللهُ عَمَلَكُـمْ وَرَسُـولُهُ وَالْمُؤْمِنُـونَ وَسَـتُرَدُّونَ إِلَـىٰ عَالِـمِ الْغَيْـبِ وَالشَّـهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُـمْ بِمَـا كُنْتُـمْ تَعْمَلُـونَ﴾ [التوبة:105]، ﴿وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْـتَقِيمًا فَاتَّبِعُـوهُ وَلا تَتَّبِعُـوا السُّـبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُـمْ عَـنْ سَـبِيلِهِ ذَلِكُـمْ وَصَّاكُـمْ بِـهِ لَعَلَّكُـمْ تَتَّقُـونَ﴾ (الأنعام:153). أمّا غيـرُ هـؤلاءِ.. فَلهُـم دُروسٌ وَمُحاضـرَاتٌ، وكُتـبٌ وَمَقـالاتٌ، ومظَاهِـرُ وإداريّـاتٌ، ﴿وَلِـكُلٍّ وِجْهَـةٌ هُـوَ مُوَلِّيهَـا فَاسْـتَبِقُوا الْخَيْـرَاتِ﴾ [البقـرة: 148]، وَكُلًّا وعـدَ اللهُ الحُسْـنَىٰ.

وَالسلامُ عَليكُم ورحمَةُ اللهِ وبَركاتُـهُ

حَسَن البنَّا».

أسـأل الله تعالـىٰ أن يجعـل هـذا العمـل خالصًـا لوجهـه الكريـم، وأن ينفـع بـه أبنـاء الأمـة، وأن يـرد المسـلمين إلـىٰ دينهـم ردًا جميـلًا، وأن يجمـع العامليـن للإسـلام علـىٰ الحـق والهـدىٰ، ويؤلـف بيـن قلوبهـم، ويبـارك في جهودهـم، ويجعلهـم مفاتيـح للخيـر، مغاليـق للشـر، إنـه ولـي ذلـك والقـادر عليـه.

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: 69].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

د. صلاح عبد الحق

القائم بأعمال فضيلة المرشد العام لجماعة الإخوان المسلمين

المحرم 1448هـ الموافق يونيو (حزيران) 2026م

مـهادٌ عـامٌّ

يقولـونَ إن أعمـالَ أصحَـابِ الرَسـالات لَا تُـفهَمُ عَلَىٰ حقيقتِهَـا عنـدَ كثيرٍ مـن النـاسِ؛ لأنّهـم لَا يدركـونَ غايـة تلكَ الأعمـالِ، وقـد سُئِلَ الإمـامُ البنَّـا رَحِمَهُ ٱللَّهُ عندمَـا رأَوْهُ يُـلقِيٰ دُروسًـا، ويُكـوِّنُ أُسَـرًا وكَتَائـبَ، وَيُـنظِّمُ رحـلاتٍ وأَسـفَارًا، ويُـؤلِّف الرسَـائلَ والنشَـراتِ وَالكُتـبَ، وَيصـدرُ تعليمـاتٍ وبَيانَـاتٍ، وتَحضـرُ كَلِمَاتُـه وآرَاؤُهُ فِـي كلِّ شَـأنٍ يُـهِمُّ الأمـةَ، أَوْ قَضيـةٍ مِـن قَضايَاهَـا، أَو مَوقـفٍ مِـن مَواقِفِهَـا، فَـلا يعـدمُ رَأيًـا أو فَتْوَىٰ، أو اجتِهَـادًا.

فقالوا: أَتُـرِيدُ أَنْ تُحدِثَ انقِلابًا عَلَىٰ نِظامِ الحُكمِ فِي مِصرَ؟!

شُـبهَاتٌ متجـدِّدَةٌ .. وإجاباتٌ واضحَة حَاسمَةٌ

سُئلَ الإمـام البنَّـا هَـذَا السـؤالَ صَراحـةً؛ فأجـابَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « وَهَـذِهِ فِـي الوَاقِـعِ أَعْجَـبُ الاتِّهَامَـاتِ، وَلَا نَـدْرِي أَيَّ نِظَـامِ حُكْـمٍ يَعْنِـي هَـؤُلَاءِ المُتَّهِمُـونَ. إِنَّ نِظَـامَ الحُكْـمِ فِـي مِصْـرَ إِمَّـا دِينِـيٌّ، وَهُـوَ الإِسْـلَامُ الَّـذِي يَنُـصُّ الدُّسْـتُورُ عَلَىٰ أَنَّـهُ دِيـنُ الدَّوْلَـةِ الرَّسْـمِيُّ، وَإِمَّـا مَدَنِـيٌّ، وَهُـوَ النِّظَـامُ الدِّيمُقْرَاطِـيُّ الَّـذِي يَقُـومُ عَلَـىٰ إِرَادَةِ الشَّـعْبِ وَاحْتِـرَامِ حُرِّيَّتِـهِ، وَالَّـذِي فَصَّلَـهُ الدُّسْـتُورُ تَفْصِيـلًا؛ فَهَـلِ الإِخْـوَانُ المُسْـلِمُونَ يَعْمَلُـونَ عَلَـىٰ قَلْـبِ أَحَـدِ هَذَيْـنِ النِّظَامَيْـنِ؟ اللَّهُـمَّ لَا! وَأَلْـفَ مَـرَّةٍ: لَا! فَـإِنَّ أَسَـاسَ دَعْـوَةِ الإِخْـوَانِ هُـوَ الإِسْـلَامُ، وَلَا وَسِـيلَةَ لِهَـذِهِ الدَّعْـوَةِ وَلَا حِمَايَـةَ لَهَـا إِلَّا بِالدُّسْـتُورِ الَّـذِي يَكْفُـلُ الحُرِّيَّـاتِ؛ فَكَيْـفَ يُوَجَّـهُ إِلَـىٰ الإِخْـوَانِ مِثْـلُ هَـذَا الاتِّهَـام؟ وَالحَـقُّ أَنَّ الَّـذِي قَلَـبَ نِظَـامَ الحُكْـمِ فِعْـلًا هُـوَ هَـذِهِ الحُكُومَـاتُ الَّتِي أَهْمَلَـتْ أَحْكَامَ الإِسْـلَامِ، وَعَطَّلَتْ رُوحَ الدُّسْـتُورِ.

هَـذِهِ المُنْكَـرَاتُ الفَاشِـيَةُ، وَهَـذِهِ الـدُّورُ المُشَـيَّدَةُ لِلَّهْـوِ وَاللَّعِـبِ وَالخَمْـرِ وَالمَيْسِـرِ وَالرَّقْـصِ وَالعَبَـثِ وَالفَسَـادِ، وَهَـذِهِ الفَرَائِـضُ المُهْـدَرَةُ الَّتِـي لَا يُؤَدِّيهَـا الكِبَـارُ لِيَكُونُـوا قُـدْوَةً لِغَيْرِهِـمْ مِـنَ النَّـاسِ، وَهَـذِهِ الأَحْـكَامُ المُسْـتَمَدَّةُ مِـنْ غَيْـرِ كِتَـابِ أَحْكَـمِ الحَاكِمِيـنَ؛ كُلُّ ذَلِـكَ هَـدْمٌ لِلْإِسْـلَامِ، وَقَلْـبٌ لِنِظَـامِ المُجْتَمَـعِ الَّـذِي يُؤْمِـنُ بِالإِسْـلَامِ.

وَهَـذِهِ المَظَالِـمُ الوَاقِعَـةُ عَلَـىٰ الأَفْـرَادِ وَالجَمَاعَـاتِ، وَإِهْـدَارُ الحُقُـوقِ، وَكَبْـتُ الحُرِّيَّـاتِ، وَمَنْـعُ المَجَالِسِ وَالبَرْلَمَانَـاتِ، وَتَزْيِيفُ إِرَادَةِ الشَّـعْبِ فِي الانْتِخَابَـاتِ؛ قَلْـبٌ لِنِظَـامِ الحُكْـمِ المَدَنِـيِّ الَّـذِي يَقُـومُ عَلَـىٰ الدُّسْـتُورِ.

وَلَيْـسَ المَسْـؤُولَ عَـنْ ذَلِـكَ الإِخْـوَانَ المُسْـلِمِينَ، وَلَكِـنِ الحَاكِمُـونَ المُسَـيْطِرُونَ، وَإِنَّمَـا يُرِيـدُ الإِخْـوَانُ صَـلَاحَ الحَـالِ وَاسْـتِقَامَةَ الأَوْضَـاعِ الدِّينِيَّـةِ وَالدُّنْيَوِيَّـةِ فِـي هَـذَا البَلَـدِ الأَمِيـنِ، بِوَسِـيلَةٍ مَعْرُوفَـةٍ مَشْـرُوعَةٍ، هِـيَ الدَّعْـوَةُ وَالاجْتِمَـاعُ وَالتَّرْبِيَـةُ وَحُسْـنُ التَّوْجِيـهِ، وَذَلِـكَ حَـقٌّ لِـكُلِّ مُوَاطِـنٍ، لَا يَحُـولُ بَيْنَـهُ وَبَيْنَـهُ إِلَّا كُلُّ ظَالِـمٍ مُعْتَـدٍ جَبَّـارٍ، وَاللهُ مِـنْ وَرَائِهِـمْ مُحِيـطٌ»[1].

ورغـمَ أن إجابَـاتِ الإمـام البَنَّـا رَحِمَهُ اللَّهُ مهذبـةٌ، وأن أسـلوبَه حَـذِرٌ؛ فـإنّ المتربصيـنَ يتخـذونَ تلـكَ الإجابَـاتِ فَخًّـا، أو ينصبونَهَـا شِـراكًا؛ مِـنْ أَجـلِ حَصـرِهِ فِـي ثُنائيّـاتٍ قَلَّمَـا أفلـتَ مِنْهَـا غَيـرُهُ؛ مِمَّـنْ كانـوا أحـدَ رجليـنِ أمَـامَ مثـلِ هاتيـكَ الأسـئلةِ: فمنهـم مَـنْ وَاجَـهَ، وصَـارَعَ وارتَطـمَ، ومنهـمْ مَـن آثَـرَ الانسـحابَ والعزلـةَ.

أمـا الإمـام البنَّـا رَحِمَهُ اللَّهُ فقـد أدركَ أنّهـا تحديـاتٌ هائلـةٌ تكسـرُ الإراداتِ، وتفـلّ العزائـم، ولكـنَّ الله وفَّقـهُ، فاسـتطاعَ أنْ يُفلِـتَ مِـن تِلـكَ الثنائيـاتِ،

(1) مجموعة رسائل الإمام البنا؛ رسالة قضيتنا بين يدي الرأي العام المصري والعربي والإسلامي. وهي آخر رسالة كتبها الإمام البنا قبيل اغتياله بوقت قصير في يناير 1949، ونشرت بعد استشهاده. ص 743.

وأعانه عَلَىٰ ذَلِكَ مَا وُهِبَهُ مِنْ رُؤيةٍ واضِحَةٍ. وما أكثرَ مَا قالَ الإمامُ البنا رَحِمَهُ اللَّهُ بأنّ: «رُؤيته الوَاضِحَة لِحقيقَةِ مَا يُرِيدُ أَنْ يَقُومَ بِهِ، هُوَ البناءُ، وَلَيسَ الهَدْم»، وَكثيرًا مَا كَانَ يقول: «يَاوَيحَ أمة تقدرُ عَلَىٰ الهدم، وَلَا تُحسِنُ البِناءَ». وما استطاع كثيرونَ أن يَفهمُوا أنَّ الرجُلَ جَاءَ مِن أجلِ أَنْ يُحيِيَ أمتَهُ وَيُقيمَ دَولتَهَا. وما استطاعَ ذَوو العقلية التسلطيةِ الاستبدادية الديكتاتورية أنْ يَفهمُوا هَذَا المَعنَىٰ، وتلك الغايةَ الّتِي نَذرَ لَها الإمامُ البنا رَحِمَهُ اللَّهُ جهودَه كلها؛ فظنُّوا أن الحركةَ الضخمةَ التي قادَها تهدفُ إلىٰ قلب نظام الحكمِ!

ولقد ردَّ عليهم الإمام البنا بأنَّ وجودَ مثل هذه الحركةِ ضرورة لوجودِنَا وريادتنا كذلك، وهي حركة ودعوة يُسوِّغها الإسلامُ الّذِي هُوَ أساس دعوتنا، والدستورُ الّذِي كفلَ الحقوق والحريات ؛ لأن مَا نقومُ به إنمَا هوَ فرضٌ وواجبٌ لَا إذنَ لَهُ.

بِهذه الإجابة استطاع الإمامُ البنَّا أن يدحضَ شُبهتَهم، كما قالَ: ولو انحازتِ القوةُ إِلَىٰ جانب الحق لخاصمنَاهُم كمَا يُخاصِمُوننَا ولحاسبنَاهم كما يُحاسبونَنا، ولَحاكمنَاهم كَما يحاكمونَنا. ولكنْ إِلَىٰ الله المشتكَىٰ وَهُوَ المستعَانُ .. لَمْ يَحِنْ وقتُنا بعدُ.

يُرِيدُ الإمَامُ البَنَّا بِذَلِكَ أَنْ يَقُولَ لَهُمْ بِأَنَّ دَعْوَتَنَا وَحَرَكَتَنَا تَقُومُ عَلَىٰ أَسَاسٍ مَكِينٍ، يَقْتَضِي وُجُودَهَا، وَيُسَوِّغُ مَا تَقُومُ بِهِ مِنْ عَمَلٍ وَجُهْدٍ، وَأَسَاسُ تِلْكَ الحَرَكَةِ وَغَايَتُهَا: تَصْحِيحُ الفِكْرَةِ، وَنَشْرُ الدَّعْوَةِ، وَتَرْبِيَةُ الفَرْدِ، وَتَكْوِينُ الجَمَاعَةِ. **فَإِنَّ خُطَّتَنَا الصَّبْرُ وَالمُطَاوَلَةُ وَالتَّرْبِيَةُ وَالتَّكْوِينُ وَالانْتِظَارُ.**

لقد استطاعَ الأستاذ البنا رَحِمَهُ اللَّهُ بهذا الأسلوب الذي ردَّ به عليهم أن

يسـحبَ البسـاطَ مـن تحـت أرجلِهـم، وأَنْ يدعـمَ رؤيتـه ويُقويَـها، وخلاصـة تلـك الرؤيـة: «الإِسْـلامُ أسـاسُ دَعوتِـنَا، الّتـي يحميهـا الدسـتور الّـذِي كفـلَ الحريـاتِ».

وقـد تكـون إجابـة الإمـام البنـا متقدمـة جـدًا؛ تضمنتهـا بعـض رسـائله مـن أكثـر مـن سـبعين عامـا، لكنهـا مـا زالـت إجابـةً حاضـرةً معاصـرةً، تصلـحُ للرد عَلَـىٰ مَـا يثـارُ الآن، ويـردده الكارهـون للمشـروع الإسـلامي، مثـل: الحكـم الدينـي والحكـم المـدني، المرجعيـة الدينيـة والنظـام الديمقراطـي، الدولـة المدنيـة والدولـة الدينيـة؛ فـكأن الرجـلَ يُجيـبُ بِهـذه الإجابـاتِ الدقيقـة الّتِـي بلغـتْ قُرابـةَ قـرنٍ مـن الزمـان؛ علـىٰ إشـكاليات معاصـرةٍ أو متجـددة.

ثَـلَاثَـةُ مُقومَاتٍ لِلنَّجَاحِ

لا غِنَـىٰ – فِيمَـا يَـرىٰ الإمـام البنـا – لـكلِّ عمـلٍ يُـرَادُ لَـه النَّجَـاحُ، أو حركةٍ تريـدُ أن تحقـقَ أهدافهـا؛ عَـنْ ثَلاثـةِ أركَانٍ:

وَيَضْـرِبُ الإِمَـامُ البَنَّـا مِثَـالًا تَارِيخِيًّـا بِمَـا شَـهِدَتْهُ أَلْمَانِيَـا فِـي عَهْـدِ هِتْلَـرَ مِـنِ انْتِقَـالٍ مِـنْ أَوْضَـاعٍ شَـدِيدَةِ القَسْـوَةِ وَالضَّعْـفِ إِلَـىٰ حَالَـةٍ مِـنَ القُـوَّةِ؛ فَيَقُـولُ: «إِنَّ هَـذَا الرَّجُـلَ وَاجَـهَ أَوْضَاعًـا غَايَـةً فِـي القَسْـوَةِ، فَأَحَالَهَـا إِلَـىٰ أَوْضَـاعٍ غَايَـةً فِـي القُـوَّةِ».

ثُـمَّ شَـرَحَ الإِمَـامُ البَنَّـا تِلْـكَ الأَوْضَـاعَ، مُشِـيرًا إِلَـىٰ مَـا وَاجَهَتْهُ أَلْمَانِيَا فِـي عَهْـدِ هِتْلَـرَ مِـنْ تَدَهْـوُرٍ اقْتِصَـادِيٍّ، وَبَطَالَـةٍ وَاسِـعَةٍ، وَتَمَـزُّقٍ دَاخِلِـيٍّ، وَقُيُـودٍ مَفْرُوضَـةٍ عَلَـىٰ الصِّنَاعَـةِ وَالجَيْـشِ بِحُكْـمِ مُعَاهَـدَةِ فَرْسَـايَ[2] وَالاتِّفَاقِيَّـاتِ الَّتِـي أَعْقَبَـتِ الحَـرْبَ العَالَمِيَّـةَ الأُولَـىٰ، ثُـمَّ مَـا جَـرَىٰ مِـنْ تَحْوِيـلِ هَـذِهِ الأَوْضَـاعِ خِـلَالَ سَـنَوَاتٍ قَلِيلَـةٍ إِلَـىٰ قُـوَّةٍ اقْتِصَادِيَّـةٍ وَعَسْـكَرِيَّةٍ وَسِيَاسِـيَّةٍ.

وَلَا يَقْصِـدُ الإِمَـامُ البَنَّـا بِهَـذَا المِثَـالِ تَمْجِيـدَ التَّجْرِبَـةِ النَّازِيَّـةِ، أَوْ إِقْـرَارَ فِكْرِهَـا أَوْ سِيَاسَـاتِهَا وَمُمَارَسَـاتِهَا، وَإِنَّمَـا أَرَادَ أَنْ يُقَـرِّرَ مَعْنًـىٰ مُحَـدَّدًا، وَهُـوَ أَنَّ وُضُـوحَ الرُّؤْيَـةِ، وَحُسْـنَ الإِعْـدَادِ، وَتَنْظِيـمَ الجُهُـودِ، وَتَوْفِيـرَ الوَسَـائِلِ المُكَافِئَةِ لِلْأَهْـدَافِ، يُمْكِـنُ أَنْ يَنْقُـلَ الأُمَـمَ مِـنَ الضَّعْـفِ إِلَـىٰ القُـوَّةِ. وَلِذَلِـكَ يُؤَكِّـدُ المَعْنَـىٰ المُـرَادَ بِقَوْلِـهِ: إِنَّنَـا لَسْـنَا نَازِيِّيـنَ وَلَا فَاشِـيِّينَ وَلَا دِيكْتَاتُورِيِّيـنَ، وَلَكِنَّهَـا الرُّؤْيَـةُ الوَاضِحَـةُ الَّتِـي يُـدْرِكُ بِهَـا الإِنْسَـانُ مَـا يَجِـبُ عَلَيْـهِ فِعْلُـهُ، ثُـمَّ يُهَيِّـئُ لِغَايَاتِـهِ حَرَكَـةً جَـادَّةً، وَيُهَيِّـئُ لِهَـذِهِ الحَرَكَـةِ وَسَـائِلَ مُكَافِئَـةً.

أولًا- الـرّؤيـةُ الـواضِـحَـةُ

أما الرؤيَـة الواضحة، فيراها الإمام البنا تتلخص فِي أمرين:

اغْتِـرَاب الأُمَّـة وضَيـاع الدّولة

وَيُرِيـدُ الإِمَـامُ بِـأَوَّلِ الأَمْرَيْـنِ (**اغْتِـرَابَ الأُمَّـةِ**): أَنَّهَـا انْفَصَلَـتْ عَـنْ مَرْجِعِيَّتِهَـا الإِسْـلَامِيَّةِ؛ فَـلِأَوَّلِ مَـرَّةٍ فِـي تَارِيـخِ المُسْـلِمِينَ مُنْـذُ قِيَـامِ الدَّوْلَـةِ الإِسْـلَامِيَّةِ، تَكُـونُ مَرْجِعِيَّـةُ الأُمَّـةِ غَيْـرَ القُـرْآنِ وَ وغَيْـرَ الإِسْـلَامِ. وَبَعْـدَ أَنْ كَانَ الإِسْـلَامُ هُـوَ المِعْيَـارَ الحَاكِـمَ وَالمَرْجِـعَ الضَّابِـطَ لِمَسَـارَاتِ الحَيَـاةِ السِّيَاسِـيَّةِ

(2) **معاهـدة فرسـاي**: معاهـدة سـلام وُقِّعـت عـام 1919م في أعقـاب الحـرب العالميـة الأولـىٰ بيـن دول الحلفـاء وألمانيـا، وفرضـت علـىٰ ألمانيـا قيـودًا سياسـية وعسـكرية واقتصاديـة قاسـية، مـن أبرزهـا تقليـص حجـم الجيـش، وتقييـد التسـلح والصناعـات الحربيـة، وإلزامهـا بتعويضـات ماليـة كبيـرة، وقـد تركـت آثـارًا عميقـة في الأوضـاع الألمانيـة خـلال مرحلـة مـا بيـن الحربيـن.

وَالاجْتِمَاعِيَّـةِ وَالفِكْرِيَّـةِ وَالثَّقَافِيَّـةِ وَالاقْتِصَادِيَّـةِ، تَغَيَّـرَ المِعْيَـارُ، وَأَصْبَحَـتِ المَرْجِعِيَّـةُ مُسْـتَمَدَّةً مِـنْ مَصَـادِرَ وَمَنَاهِـجَ وَضْعِيَّـةٍ.

وأما الأمـرُ الثانِي (**ضياعُ الدولـة**)، فيريـد بـه الإمـام البنـا مـا حـدث لأول مـرةٍ فِي التاريـخ كذلـك؛ حيـثُ سـقطتِ الخلافَـةُ، وَهُـوَ حـادثٌ فاجـعٌ - كمَـا يقولـونَ - فِـي لحظـةٍ مؤثـرةٍ، ولأَولِ مـرةٍ فِـي تاريـخ العالـمِ الإسـلاميِّ، لا يكـونُ هنـاك شـعبٌ مُسـلِمٌ حُـر، وقـد نظـر الإمـام البنـا إلـىٰ هـذه الأحـداث العظـام (كمـا يقـولُ الشـيخ الغزالـيُّ): عَلَـىٰ أنّهـا فواجـعُ، وأنَّ المسـلمينَ قـد أَصبحُـوا فِـي وضـع قَلـقٍ: فَوْضَـىٰ عارمَـة، وتَمـزُّق وتشَـرْذُم، وضَعـف شَـديد .. أمـامَ قـوةٍ جَبـارةٍ، ونظـام قـويٍّ جـادٍّ فِـي مُعسْكَـرِ الأعـداءِ والخُصُـومِ.

ثانيًا- الحَـركَـةُ الجَادّة

أدركَ الإمـامُ البنـا أن هـذا الوضـعَ القلـق للمسـلمينَ يقتضـي (حركـةً جـادةً)، وتتمثَّـلُ هَـذِهِ الحركـة الجـادة فِـي أمريـن أيضـا:

1- العملُ المُنظَّـمُ:

أي أنَّـه لـن يكـون متروكًا للظـروف والمصادفـات؛ فلكـي تُغيِّـرَ هَـذِهِ الأوضـاعُ الّتِي هِيَ غايـة فِي القسـوة لتصبحَ أوضاعًـا غايـةً فِي القـوة، لا بـدّ مـن عمـل منظـم مُؤسَّسـيٍّ جـادٍّ، وليـس مطروحًـا أن كل مـن جالـت بخاطـره فكـرة، أو عَنَّـت لـهُ رؤيـة ينفذهـا منفـردًا، وإن بـذل قصـارىٰ جهـده، وسـخر لهـا كل وقتـه، فالأمـم والنهضـات لا تبنـىٰ بالجهـود الفرديـة المبعثـرة، وإنمـا لا بـد لهـا مـن التـزامٍ، ومنهـاجِ عمـلٍ مُنظَّـمٍ، لخَّصَـه الإمـام البنـا فِـي أمريـن:

الالْتِـزام — المنْهَاج

فالالتـزَامُ يكـونُ بصيغـةٍ مـنَ الحـق كمَـا طرحَهَـا، و**المِنْهـاج**: بَيعـةٌ عَلَـىٰ عمـلٍ. ولقـد طـرح الإمـام البنـا صيغـةً مِـنَ الحـقِّ، وأخـذَ عَلَيهَـا بيعـةً عَلَـىٰ عَمْـلٍ، ولـم يـترك هـذا العمـل يسير جزافًـا، ولكنه سعىٰ إلىٰ توحيـد الـرؤىٰ، وتجميـع الجهـود وتنظيمهـا، كـي تضطلـع الملاييـن بالعمـل الهـادف إلـىٰ اسـتعادة مجـد أمتنـا وتجديـد نَهضتهـا وعزتِهـا.

2- الوفرة والهيبة

وقـد أدرك الإمـام البنـا كذلـك أن كل عمل منظـم يحتاج إلىٰ **(وَفْـرَةٍ وَهَيْبَةٍ)** تتيحهمـا كَثـرَةُ الأنصَـارِ؛ إذ كان رَحِمَهُ اللَّهُ يقـول إنَّ عُـدّةَ الدعَـواتِ، ونجاحهـا بأمريـن: **أولهمـا- عُمـومُ الدعايـةِ، ثانيهمـا- كَثْـرَةُ الأنصـارِ**. ومـن تكلـم عـن الإمـام البنـا أو اتصـل، يعلـم أنـه واجـهَ جِيـلًا أَفسَدتْـهُ رُوحُ الميوعـةِ، وعُقَـدُ النقـصِ، والدونيـةُ؛ فأحسَـنَ تَربيتَـه وتَوجيهَـه، وَواجَـه مُجتمعًـا مُمزّقًـا، فَـقَدَ قُـوةَ الإيمـان، وقـوةَ الجماعـةِ؛ فَوجَّهـه بقُـوةِ الإيمـانِ وقُـوةِ الجماعـة، فأسـرَعَ إِلَيْـهِ يقـوِّي روابطَـه، ويَـرفعُ دَرجـةَ أُخوَّتِـهِ لِكَـيْ يَجعَـلَ منـهُ هَـذِهِ الملاييـن الَّتِي حملـت منهاجـه، ونشـرت دعوتـه ورسـالته بيـن أبنـاء الأمـة الإسـلامية.

ثَالِـثًا- الـوَسَائِـلُ المكافِئَـةُ

لـن تـؤتي الرؤيـة الواضحـة والحركـة الجـادة ثمارَهُمَـا، حتـىٰ تؤازِرَهُمـا وَسائِـلُ تكافِـئُهما، وتكـون سـببًا في تحقيـق الرؤيـة وإنزالهـا علـىٰ أرض الواقـع، وتتمثـل تلـك الوسـائل في أمريـن:

جُهُود ذَاتِيّـة — وَسَائِل رَسْـمِيَّة

فأمـا **الجهـود الذاتيـة**، فقـد تمثلـت في وعيـه الباكـر؛ إذ أدرك الإمـام البنـا منـذ يفاعتـه أنَّ عَلَيهِ واجبًا ينبغـي أن يؤديـه، كمـا أن لديـه طاقـةً؛ ينبغـي ألا يدخِرَهَـا إلا لِخدمَـةِ وَطنِـه وقضَايَـا أُمتِـهِ الكُبْـرَىٰ.

وأمّـا **الوسـائلُ الرسـمية**، فكثيـرًا مَـا وَصفَهـا الإمـامُ البنـا بأنَّهـا: «الأشَـدُّ أَثَـرًا، وَالأَقْـوَىٰ خَطَـرًا»، فِي تكييفِ الشعوب، وتَوجيهِ النهضَـاتِ؛ ولذَلِـكَ كَانَ يقـول دائمًـا: إنّ الرضـا برتبـة الوعـظ والإرشَـادِ، والدعـوةِ والإقنـاعِ، وتَزكيـة الأرواحِ وتَهذيـبِ النفـوسِ؛ إنّمـا هُـوَ سـبيل الفلاسـفَةِ الخيَاليّيـنَ، لا المُصلحيـنَ العَمَلييّـنَ، ونَحـنُ قَـومٌ عَمليُّـونَ، نتّخِـذُ الوسـائل الرسـميةَ: كالـوِزارَةِ، وَالمدرسَـةِ، وَالبَرلَمـانِ، والمَحكمَـةِ، والصحـفِ، وَالمجـلاتِ، والمسـارِح، والخيَّـالاتِ [دُورُ السينمَا]، والحَاكِي، وَالمِذيَـاعِ؛ حَتَّىٰ نستطيعَ تَغييـرَ الأمَـة؛ لأنّهـا وسـائلُ أصحـاب الدعـواتِ فِي تكييـف الأمـمِ وتوجيـهِ الشـعوبِ.

يقول الإمام البنا:

«وَوَسَـائِلُ الدِّعَايَـةِ الآنَ غَيْرُهَـا بِالأَمْـسِ كَذَلِـكَ؛ فَقَـدْ كَانَـتْ دِعَايَـةُ الأَمْسِ كَلِمَـةً تُلْقَىٰ فِـي خُطْبَـةٍ أَوِ اجْتِمَـاعٍ، أَوْ كَلِمَـةً تُكْتَـبُ فِـي رِسَـالَةٍ أَوْ خِطَـابٍ، أَمَّـا الآنَ فَنَشَـرَاتٌ وَمَجَـلَّاتٌ وَجَرَائِـدُ وَرِسَـالَاتٌ وَمَسَـارِحُ وَ(خَيَـالَاتٌ) وَحَـاكٍ وَمِذْيَـاعٌ، وَقَـدْ ذَلَّـلَ ذَلِـكَ كُلُّـهُ سُـبُلَ الوُصُـولِ إِلَـىٰ قُلُـوبِ النَّـاسِ جَمِيعِهِـمْ، نِسَـاءً وَرِجَـالًا، فِـي بُيُوتِهِـمْ وَمَتَاجِرِهِـمْ وَمَصَانِعِهِـمْ وَمَزَارِعِهِـمْ.

لِهَـذَا كَانَ مِـنْ وَاجِـبِ أَهْـلِ الدَّعْـوَةِ أَنْ يُحْسِـنُوا تِلْـكَ الوَسَـائِلَ جَمِيعًـا، حَتَّـىٰ يَأْتِـيَ عَمَلُهُـمْ بِثَمَرَتِـهِ المَطْلُوبَـةِ»[3].

(3) مجموعة رسائل الإمام البنا. *رسالة دعوتنا*. ص124.

لَحْظَتَانِ فَارِقَتَانِ

لقد بدا الإمامُ البنّا واقعيًّا في طرحِهِ، رُغمَ قُدرتِه عَلَىٰ الخيالِ؛ عندما قدَّم هَذِهِ الرؤيةَ الواضحةَ حولَ: **اغترابِ الأمَّة، وضياعِ الدولة**، وقد أسعفَه في تكوين تلك الرؤيةِ استِشرَافُه الموروثَ التاريخيَّ؛ حيثُ رأىٰ أن أصعبَ لحظتينِ واجهتِ الأمةَ، وقَدَّمَتْ فِيهَا خسائرَ جمّةً هُمَا: **لَحظة تَهديدِ نَموذَجِ الدولَةِ، ولحظةُ تَهديدِ سَلامةِ الفكرةِ**.

فأما اللحظةُ الأُولىٰ (**تَهديد نموذج الدولة**)؛ فهيَ أَولُ تَهديدٍ في تاريخِ الإِسْلام، وبخاصةٍ بعدَ أنِ انتصرَ المسلمونَ وأقام بِهم رَسُولُ الله ﷺ دولةً، وتركها أَمانَةً بين يدي أصحابِهِ، ووصَّىٰ أُمتَه باتباعِ خلفائِهِ الراشدينَ مِن بعدِهِ والاقتداءِ بسُنّتِهم[4]. لقد هُدِّدَ نموذجُ الدولةِ الراشِدِيةِ قبلَ أن يَبدَأَ، وَوُلِدَ ذلك التهديدُ عَقِيبَ وفاةِ النبي ﷺ، وقبلَ أن يُدفَنَ جسدُه الكريم ويُوارىٰ الثَّرىٰ، عندما اختلف المهاجرونَ والأنصار، حول مَن يخلفُ رسولَ الله ﷺ، حتىٰ قال بعضُهم: مِنَّا أميرٌ ومنْكُم أميرٌ، وما حديثُ سقيفةِ بَنِي ساعدَةَ بسرٍّ، وكادتْ الروحُ القبليةُ البالية التي خلَّصَهم الإسلام منها تَستيقظ في نفوسِهم من جديدٍ، لولَا أن قَيَّض اللهُ لذلك الخلافِ سيدَنا أبَا بكرٍ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ)، فحسَمَه بحكمةٍ حازمةٍ ؛ تؤكدُ (كَوامِنَ العظَمةِ فِي نفوس الصحَابةِ)، وأزالَ الشقاق في سرعة وعدلٍ، ونبل يُقِرُّ للأنصارِ بفَضْلِهم ونبلِهم ومكانتِهم، ولا ينسىٰ في الوقت ذاته فضلَ المهاجرين وسَابقَتَهم في الإسلام، ومِن ثم تضمنَتْ خُطبةُ أبي بكرٍ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ)، موجباتِ أنْ يَكونَ الخليفة من المهاجرينَ: فهُم أول الناسِ إيمانًا بالله

(4) روىٰ العرباض بن سارية عن رسول الله ﷺ أنه قال: «... فإنَّه مَن يَعِشْ منكم فسيَرىٰ اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسُنَّتي وسُنَّةِ الخُلَفاءِ الرَّاشِدينَ المَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عليها بالنَّواجِذِ، وإيَّاكم ومُحدَثاتِ الأُمورِ؛ فإنَّ كُلَّ بدعةٍ ضَلالةٌ». حديث صحيح، أخرجه مطولاً أبو داود (4607)، والترمذي (2676)، وابن ماجه (44)، وأحمد (17144) باختلاف يسير.

ورسـولِه، وهُـم أوليـاء النبـيِّ ﷺ وعشـيرته، وأحـقُّ النـاسِ بالأمـر مـن بعـدِه، لا ينازعُهـم في ذلـكَ إلا ظالـم، ومما قالـه عُمـر بـنُ الخطـابِ (رَضِـيَ اللهُ عَنْـهُ)، في هـذَا الموْقـفِ العَصيـبِ: «... فلَمَّـا أَرَدتُ أن أتَكَلَّـمَ، قـالَ أبـو بَكـرٍ: علـىٰ رِسـلِكَ، فكَرِهـتُ أنْ أُغضِبَـه، فتكَلَّـمَ أبـو بَكـرٍ، فـكانَ هـو أحلَـمَ مِنِّـي وأوقَـرَ، واللهِ مـا تَـرَكَ مِـن كَلِمـةٍ أعجَبَتني في تَزويـرِي إلَّا قَـالَ فِـي بَديهَتِـه مِثلَها أَو أفضَـلَ منهَـا حتَّـىٰ سَـكَتَ، فقـالَ: مـا ذَكَرتُـم فيكُـم مِـن خَيـرٍ فأنتُـم لـه أهـلٌ [يريـد: الأنصـار]، ولَـن يُعـرَفَ هـذَا الأمـرُ إلَّا لهـذَا الحَـيِّ مِـن قُرَيـشٍ [يريـد المهاجريـنَ]؛ هُـم أَوْسَـطُ العَـرَبِ نَسَـبًا ودارًا...»[5].

وأمّـا اللحظـةُ الثانيـةُ (**تَهديـدُ سـلامةِ الفِكـرَةِ**)، فقـدْ تمثَّلـتْ في حُـروبِ الـردّةِ، التـي مثلـت خطـرًا علـىٰ وحـدَةِ المُسـلمينَ ودِينِهـم؛ إذ كانـت حركـةُ الـردةِ أولَ تَمـرد مُسـلحٍ، يهـدد (شُـموليةَ الإسـلام)، وتلـكَ أهـمُّ خصائـصِ ذلـكَ الديـنِ الخاتَـمِ الذي ارتضـاهُ الله لأمة محمـدٍ ﷺ وجَعلَه المِنهَـاجَ الخَاتَمَ لِلبشَـريةِ كُلِّهَـا إلـىٰ أَن يـرثَ الله الأرض ومَـن علَيهـا، فَقـد فَـرّقَ المرتـدونَ بيـنَ الصـلاة والـزكاةِ، وَأرادوا أن يـؤدُّوا الصـلاة، ويمتَنِعُـوا عـن أداءِ الـزكاةِ، وهـذَا تَجزيءٌ للإسـلام وتَـهديدٌ لشـموليتِه، يُشـبِهُ تَجزيءَ العَلمانييـنَ المُعاصريـنَ، وَمُحـاولات تحويـل الإسـلام إلـىٰ نحلـةٍ دينيـةٍ (مُحاولـة نَصرنَـةِ الإسـلام كمـا يقولـون). وقـد قيـضَ الله أبـا بكـر الصديـق (رَضِـيَ اللهُ عَنْـهُ)، لتلـكَ اللحظـة العصيبـةِ كذلـك؛ فتصَـدَّىٰ للمرتديـنَ بـكل قـوةٍ وحَسْـمٍ، حتـىٰ يحافـظَ علَـىٰ **سلامَـةِ الفكـرةِ**، واسـترخَصَ في سـبيلِ تلـكَ الغايـةِ كلَّ تضحيـةٍ، وإنِ اضْطُـرَّ مـن أجلِهَـا إلـىٰ التضحيـةِ بجيـلٍ فريـدٍ مـن صحابـةِ رسُـولِ الله ﷺ، وقـالَ في

(5) انظر حديث السقيفة مطولا عن عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما) في: صحيحي البخاري (رقم: 6830)، ومسلم (رقم: 1691).

ذلـك قولتَه الذائعَةَ: «لأقَاتلَنَّ مَن فَـرَّقَ بينَ الصَّلاةِ وَالـزَّكَاةِ»[6].

إنَّ هذَينِ الخَطريـنِ (تَشـويه الفكـرةِ - وتَهديـد نَمـوذج الدولـةِ)، كانَا أقوَىٰ تَهديـد يواجِـهَ المسـلمينَ عَقِـبَ وفـاة النبـي ﷺ، ويبعـثُ الخَـوفَ في نفـوس الصحابـة الكـرام مِـن أنْ يضيـعَ الإسـلامُ فِي مواجهـة هذيـنِ الخطريـنِ، وقـد صـوَّرَ الفَـارُوقُ عُمـرُ بـنُ الخطـابِ رضي الله عنه ذلـكَ الخَـوْفَ، كَمَـا صـورَ جَسـامةَ التَّضحِيَّـاتِ التـي بُذِلَـتْ والنفـوس التـي أُزهقَـتْ للقضـاءِ علـىٰ المرتديـنَ؛ فيمَـا قالَـه يـومَ اليمَامـةِ: «أَلحَّـتِ السـيوفُ عَلَـىٰ أهـلِ السَّـوابقِ، وَلَـم يَكُـنِ المُعـوَّلَ يَومئـذٍ إلَّا عَليهِـم. خَافُـوا علـىٰ الإسْـلام أَنْ يُكَسَـرَ بَابُـهُ فيَدخُـلَ مِنْـهُ إنْ ظَهـرَ مُسـيْلِمَةُ. فَمنَـع اللهُ الإسـلامَ بِهِـم حَتَّـىٰ قُتِـلَ عَـدُوُّهُ. وأَظْهَـرَ كَلِمَتَـهُ وقَدِمُـوا - رَحِمَهُـم الله - عَلَـىٰ مَـا يُسَـرُّونَ بـهِ مِـن ثَـوابِ جِهادِهِـم مَـنْ كَـذَبَ عَلَـىٰ الله وعَلَـىٰ رُسـولِهِ. فَاستَحَـرَّ بِهِـم القتـلُ. فرحِـمَ الله تِلْـكَ الوجُـوهَ».

وعبـارةُ الفـاروقِ (رَضِـيَ اللهُ عَنْـهُ)، تـدلُّ علـىٰ أن المسـلمينَ يومئـذٍ قـد ضَحَّـوْا بجيـلٍ عظيـمٍ جـدًّا مِـنَ الصحَابـةِ؛ ومنهـم كثيـرونَ مـن حفظـةِ القـرآنِ الكريـمِ، لكـنَّ هَـذِهِ التضحيَّـاتِ قُدِّمَـتْ فِـي سَـخاءٍ بَالـغٍ. لمـاذَا؟؟ لأنَّ الأمـر يَستدعِي هَـذَا. وكانـت وقفـةُ الصديـق القويـة هـي التـي عصمـت المسـلمين مـن هذيـن الخطريـن [تَشـويه الفكـرةِ - وتَهديـد نَمـوذج الدولـةِ]، وأَبْـقَتْ دِيـنَ الله سـالمًا» رغـم التضحيـاتِ العزيـزةِ، وَالخسَائِـرِ الجمّـة؟

والسـؤالُ: مـاذَا أدرك الإمـامُ البنـا مـن هَـذَا؟ مَـا الّـذِي فَهِمَـهُ الإمـامُ البنَـا مـن ذلـك الاستشـرافِ التاريخـيِّ؟

(6) مِـنَ الواضـح أن أبـا بكـرٍ أدرك أن الـزكاةَ هـي التجسـيد الملمـوسُ، وربمَـا التجسـيدُ المـادي الوحيـد، لوحـدةِ القبائـل، وهـي العلاقـةُ الوحيـدة التـي يمكـن لَهـا أن تربـطَ فيمـا بينهـم، فكل قبيلـةٍ كَانَ يُمكـن لَهـا أن تُصلِّـيَ وَرَاءَ إمَامهـا، ويَقتصـر الحـالُ علـىٰ هـذا، في حيـن تتطلـب الـزكاةُ نوعًـا مـن العلاقـة المتبادلَـةِ، والتنظيـم المَركـزي لجَمْعِهَـا وصَرفِهَـا، مِـن هُنـا أَصـرَّ أبـو بكـرٍ علـىٰ ضـرورةِ اسـتمرار القبائـل في دفـع الـزكاةِ. انظـر محمـد سـهيل طقـوش: *تاريـخ الخلفـاء الراشـدين، الفتوحـات والإنجـازات السياسـية*، دار النفائـس، ص 61.

تَـفَـرُّدٌ فِي الـرّؤْيَـةِ وَالـفَـهْـمِ (شُـموليّة الفِكرةِ وَوَحدَةُ الأمّةِ)

فَهِـمَ الإمـام البنَّـا رَحِمَهُ اللَّهُ وأَدْرَكَ أنَّ سـلامةَ الفكـرةِ والحفـاظَ عَلَـىٰ وحـدةِ الأمـةِ؛ يستحق مَـا يُـبذَلُ مـن أَجلـهِ أَو فِـي سـبيله مـن تضحيـاتٍ، وَعَلِـمَ أنَّ ذَلِـكَ رُبَّمـا يُكلِّفُـه راحتَه وَحيَاتَـهُ. ومـن ثَم كانـتِ الغايةُ الكبرىٰ التي نَـذَرَ لَها حيَاتَـهُ وَوقتَه وجِهـادَهُ، هِـي: **تَصحيـحُ الفكـرةِ، وَالحِفـاظُ عَلَـىٰ وحدةِ الأمَّـةِ**.. وكثيـرًا مـا كانَ يؤكـدُ شُـموليةَ الإسـلام، ويلـحّ عليهـا في رسـائله وكتاباتـه، فيقـول: «الإِسْـلامُ نظـامٌ شـاملٌ يتنـاولُ مظاهِـرَ الحيـاةِ جَميعًـا؛ فهُـوَ: دَولَـة وَوطَـنٌ أَوْ حُكومَـةٌ وأُمَّـةٌ، وَهُـو خُلُـقٌ وقُـوةٌ أو رَحمَـةٌ وعَدالَـةٌ، وهـوَ ثَـقافةٌ وقَانـونٌ أَوْ عِلْـمٌ وقَضـاءٌ، وهُـوَ مَـادَّةٌ وثَـرْوةٌ أو كَسْـبٌ وغِنًـىٰ، وهُـوَ جِهـادٌ ودَعـوةٌ أَوْ جَيـشٌ وفِكْـرَةٌ، كَمـا هـوَ عقيـدَةٌ صَادقَـةٌ وَعِبـادَةٌ صَحيحَـةٌ سَـواءً بِسـوَاءٍ»[7]. ولـم تكـن غايـة البنَّـا رَحِمَهُ اللَّهُ أنْ يؤسـسَ جماعـةً دعويـةً فحسـبُ، ولكنَّـه أرادَ أن يؤسِّـسَ جماعـةً تتجلَّـىٰ فيهـا مظاهـرُ (شُـموليةِ الإسْـلَام)، وَمِـن ثَـم فإنَّ جماعـةَ (الإخَـوان المُسـلمينَ) في تصـورِ الإمـام البنَّـا ورؤيتِـهِ: «دَعـوَةٌ سَـلفيّةٌ، وطَريقـةٌ سُـنيةٌ، وحَقيقَـةٌ صُوفيّـةٌ، وهَيئـةٌ سِيَاسِـيَّةٌ، وجَماعـةٌ رِيَاضِيّـةٌ، ورَابِطَـةٌ عِلْمِيّـةٌ ثَـقافِيّةٌ، وشَـرِكَةٌ اقتِصَاديّـةٌ، وفِكـرَةٌ اجتِمَاعيّـةٌ»[8].

وهكـذا نـرىٰ شـموليةَ فكْرتِنَا ودعوتنـا مستمدة من شـمولية الإسـلام لكلِّ منَاحِـي الحيـاة، وقـد أفـاد الإمـام البنـا مـن نمـوذج الدولـة الراشـدي ضـرورة استبقاء ذلـك الشـمول وحمايتـه، ومقاومـة أي تشـويه لذلك الشـمول [تشـويه الفكـرة، أو تشـويه الدولـة]؛ مهمـا تكلفـت هـذه الحمايـة، أو تلـك المقاومـة مِـن تضحيـاتٍ. ولذلـك كان أول أصـل مـن أصـول رؤيـة الإمـام البنـا لفهـم الإسـلام يؤكـد شـمولية الفكـرة (الإسـلام نظـام شـامل)، وكان آخـر أصـل مـن أصولـه العشـرين يؤكـد (وحـدة الأمـة): «وَلَا نُكفِّـر مُسـلِمًا أَقَـرّ بِالشـهَادتينِ

(7) مجموعة رسائل الإمام البنا، *رسالة التعاليم*، ص269.
(8) مجموعة رسائل الإمام *البنا*، *رسالة المؤتمر الخامس*. ص332.

وَعَمِلَ بمُقتضاهُمَا، وأدَّىٰ الفرائِضَ – بِرَأْيٍ أَو مَعْصِيَةٍ – إِلَّا إِنْ أَقَرَّ بكلِمَةِ الكُفْرِ، أَو أنكَرَ مَعلُومًا مِنَ الدِّينِ بالضرُورَةِ، أَوْ كَذَّبَ صَرِيحَ القُرآنِ، أَو فسَّرَهُ عَلَىٰ وَجْهٍ لا تَحتمِلُه أساليبُ اللغَةِ العَربيةِ بِحَالٍ، أَو عَمِلَ عَمَلًا لا يَحتَمِلُ تَأْوِيلًا غَيرَ الكُفْرِ»[9].

فوحدَةُ الأمَّةِ والحِفَاظُ عَلَيْهَا غايتان يؤكدهما (الأصل الأَولُ والأصل العشرُونَ)، وَمَا بَينَهُما من أصولٍ؛ إنَّما هِيَ فروعٌ يُمكِنُ الاختِلافُ فِيهَا أو الاتفاقُ عَلَيهَا. أمَّا الأَصْلان اللّذان لَا يُمْكِنُ التَّساهلُ فِيهمَا، فَهُما: شُموليّةُ الفِكرَةِ وَوَحْدَةُ الأُمّةِ؛ فلَا يمكن أبدًا أَنْ نترخَّصَ فِيهِمَا، بل تُبذَلُ فِي سَبِيلِهما التضحياتُ الّتِي بذلتْ من قبلُ من أجل الحفاظِ عليهما، وقد بذَلَ الإمام البنّا رَاحتَه وحَياتَهُ، من أجل أن يفهم المسلمون ضرورة حماية هذين الأصلين. ولم يكن هذا فهمٌ خاصٌ ابتدعه، وإنما وَرِثَ ذَلِكَ الفَهْمَ استشرافِهِ مَوارِيثَ خير القرونِ، وقد تفرد حسن البنا بهذا الفهم الشمولي من بين المصلحين المعاصرين، ولم يكن غريبًا أن يدرك روبير جاكسون هذا التفرد، فيصف الإمام البنا بـ«الرجل القرآني»، ويقول عنه: «كان حسن البنا الداعية الأول في الشرق الذي قدم للناس برنامجًا مدروسًا كاملًا، لم يفعل ذلك أحد قبله، لم يفعله جمال الدين الأفغاني ولا محمد عبده، ولم يفعله زعماء الأحزاب والجمعيات الذين لمعت أسماؤهم بعد الحرب العالمية الأولىٰ... وأستطيع بناءً علىٰ دراساتي الواسعة أن أقول: إن حياة الرجل وتصرفاته كانت تطبيقًا صادقًا للمبادئ التي نادىٰ بها. وقد مَنحَهُ (الإسلَامُ) -كما كانَ يَفْهَمُهُ ويدعو إليه- حُلَّةً متألقةً، قوية الأثرِ في النفوسِ، لَم تُتَحْ لزعماء السياسة ولا لرجال الدينِ»[10].

(9) مجموعة رسائل الإمام البنا، *رسالة التعاليم*. ص271.

(10) روبير جاكسون: *حسن البنا (الرجل القرآني)*، ترجمة أنور الجندي، ط 1، المختار الإسلامي للطباعة والنشر، القاهرة، 1397هـ – 1997م، ص 10.

وصحيح أن الإمام البنا قد لفتَ إليه كل الأنظار بهذا الفهم الذي رُبَّما رآه الناسُ فَهمًا غريبًا في ذلك الوقتِ، لكنه الفهمُ الصحيح للإسلام، وقد آمن الإمام البنا بهذَا الفهم إيمانًا لا يتطرقُ إليهِ شكٌّ، وحرصَ عَلَىٰ تأكيدِ أن هذا الفهم مستمَدٌّ مِنَ الإسلام ومبادئِه، ومن ثم تَراهُ يعرِّفُ الركنَ الأولَ من أركانِ بيعتِهِ العَشْرِ، وَهوَ رُكْنُ (الفَهْمِ)، فيقولُ: «أَنْ تُوقِنَ بأنَّ فِكرتَنا إسلاميَّة صَمِيمَةٌ، وَأَنْ تَفْهَمَ الإِسْلامَ كَمَا نَفْهَمُهُ، في حُدودِ هَذِه الأصولِ العِشْرينَ المُوجزَةِ كُلَّ الإيجَازِ»[11]؛ وَقَد أشرنَا مِن قبلُ إلَىٰ أنَّ هذِهِ الأصُولَ العشرينَ تَهدفُ إلىٰ الحفاظِ عَلَىٰ شمولية الإسلام (سَلامةِ الفكرة)، والحفاظ عَلَىٰ (وَحْدَةِ الأُمَّةِ)؛ لأنّهما أهمُّ ثُغْرَتيْنِ أُتِيَتْ منهما أمتنا الإسلامية؛ فإذ شُوِّهتِ الفِكرةُ فَسَدَ الواقعُ، وإذا ضاعتِ الوحدةُ ضاعتِ الأمةِ، يقول الإمام البنا: «فدعوة الإخوان دعوة بيضاءُ نَقية غير ملونة بلون، وهي مع الحقِّ أينَمَا كَانَ، تُحبُّ الإجماع، وتكره الشذوذَ، **وإنَّ أعظم ما مُنِيَ بهِ المسلمونَ الفُرقةُ والخِلافُ، وأسَاسُ مَا انتصَرُوا بِهِ الحُبّ وَالوَحْدَةُ**»[12].

رُؤيةٌ علَىٰ مِنهَاجِ النُّبوّةِ

كانتِ الرؤيةُ الوَاضِحَةُ (إذنْ) أهم ما ورثه الإمامُ البنا من استشرافهِ ميراثَ خير القرونِ، مهتديًا بسنة رسول الله ﷺ الذي جَمَعَ مَا تَفَرَّقَ مِنْ مِيراثِ الرُّسلِ: مِنْ عَقلٍ، ورُوحٍ، ومِنْ دِينٍ ودولةٍ تكونُ سياجًا للمجتمع؛ لقد جمع ﷺ ما تَفرَّقَ مِنْ مِيراثِ الرُّسلِ الكرام، فكانَ ذلكَ الجمعُ كَسبَهُ وإضافتَهُ، وَحقَّقَ مَا مَهّدُوا لَه من مُهماتٍ خذلَهُم في تَحقيقِهَا أَقوَامُهم.

ويبقىٰ السؤال: كيف خذلَتِ الأقوامُ السابقةُ أنبياءَها، فَلَمْ يحققُوا

(11) مجموعة رسائل الإمام البنا، *رسالة التعاليم*. ص269.
(12) مجموعة *رسائل الإمام البنا*، [*رسالة دعوتنا*]، ص 137.

فضائـلَ النُّبـوةِ وميـراث الوحـي؟

إذا بدأنـا بسـيدنا موسىٰ (عليـه السـلام)، فقـد أعجـزَهُ قومُـه بأخلاقهـم الذميمـةِ عـن إتمـام رسَـالته، فمـاتَ فِي التيـهِ مَعهـم دونَ أن يحقق غايتَـه وينجزَ مهمتَـه، وكذلـك سـيدنَا عِيسىٰ (عليـه السـلام)، وَهُـوَ نبـي بـازغ الشـرفِ فِـي بنـي إسـرائيل (كمـا يقـول عنـهُ الشـيخُ الغزالـي رَحِمَهُ اللَّهُ)، إلَّا أن قومَـه أَعجَـزُوه عَـن أن يُتِـمَّ مُهمتـه فَـرُفِعَ عَلَيـهِ السَّـلامُ. وَدَاوودُ وسُـلَيمان عليهِمَـا السـلامُ، فرغْـمَ أنّهمـا نَجحـا فِـي حيزٍ مَحدودٍ وَفِي وقتٍ محدودٍ فِي أن يُـقيمُوا دَولَـةً، فـإن خِـلالَ قَومِهـم السَّـيئة، وأخْلاقَهـم الذميمَـةَ سـرعانَ مَـا أفسـدَتْهَا، حَتَّىٰ إنَّ سـيدنَا سـليمانَ(عليه السـلام)، تخلـصَ مِـن جَيشِـه وخَيلِـهِ ﴿**رُدُّوهَـا عَلَـيَّ ۖ فَطَفِـقَ مَسْـحًا بِالسُّـوقِ وَالْأَعْنَـاقِ**﴾، وَاسـتبدلَ بِهـا الاسـتعانةَ بِقُـوىٰ الكَـونِ الهائلَـةِ، ودعـا ربـه: ﴿**قَـالَ رَبِّ اغْفِـرْ لِـي وَهَـبْ لِـي مُلْـكًا لَا يَنبَغِـي لِأَحَـدٍ مِّـن بَعْـدِي ۖ إِنَّـكَ أَنـتَ الْوَهَّـابُ**﴾؛ لكـي أُتِـمَّ مُهمَّتِـي، وَهَـذَا تعبيـر صـارِخٌ عـن لَحظَـةٍ صَارِخَـةٍ فِـي تاريـخ الرسـل؛ أن يسـتعيضَ عـنْ جَيشِـه وخَيلِـه بِقُـوىٰ الكـونِ الهائلَـةِ، كَمـا أنـه تعبيـرٌ صَـارِخٌ عـن فسَـادِ الأمـمِ وسُـوءِ أخلاقهـا، مِمَّـا يُوقِعُهـا تحـتَ سُـنّةِ الاسـتبدَالِ؛ فَتَـنتقِلُ مُهمتُهـا إلـىٰ أُمَّـةٍ أخـرَىٰ، وقـد كانَ ذلـكَ إيذَانًـا بـأن هَـذِهِ المُهمّـةَ (لِكـي تتحقـقَ) ينبغـي أنْ تتحـولَ مِـن بَنِـي إسـرائيلَ إِلَـىٰ أمـةٍ أخْـرىٰ تتهيـأُ لِلنُّهُـوضِ برسـالةِ الوَحْـي، وتكاليـفِ النبـوةِ.

حَتْمِيّةُ العَملِ المـنَظَّـمِ

وهـذَا أيضًـا مِمَّـا أفـادَه الإمـامُ البنَّـا مـن المـوروث النبـوي و استشـراف المـورثِ التاريخِـيِّ؛ فقـدْ أدرَكَ أَنَّ عقائـدَ الأمـمِ الراسـخةَ، وأفكارَهـا، ونُـظُمَها، وعَادَاتِهـا، وتَـقاليدَها؛ أَعجَـزتِ الرسُـلَ الكـرامَ (عليهـمُ السـلامُ) عَـن إنجـازِ مُهمتِهـم؛ لأنَّ رُسـوخَ الأمـم يَحتـاجُ مـن أجـل إزالتِـه إِلَـىٰ مَنَعـةٍ وعُصبَـةٍ قويـةٍ، وَهَـذَا مَـا أَدركَـه الإمـام البنـا رَحِمَهُ اللَّهُ، فكانَ أَوَّلُ شـيءٍ فِـي تكويـنِ

حركتـه الجـادة كمـا تكلمنَـا: العَمـلُ المنظَّـمُ تنهَـضُ بـهِ المَلاييـنُ (الهَيبـةُ وَالوَفـرَةُ)، وأنَّ ذلـكَ العمـلَ المُنظَّـم لَيسَ مَـتروكًا للتوَافُـقِ والمصادفـاتِ، وإنَّمَـا التـزام بصيغـةٍ مِـنَ الحـقِّ ومنهـاجٍ وبَيعـةٍ عَلَـىٰ عَمـلٍ، حَتَّـىٰ يَستطيع أَنْ يُـزِيلَ رُسُـوخَ الـدُّولِ المعاديـةِ للإسـلام بعقائِدهـا، وفَلسـفَاتِها، وعَادَاتِهـا وتَقاليدِهـا، ونُظمِهـا؛ لأنَّ رسـوخَ تلـكَ الأنظمـةِ يُعجـزِكَ عـن أداء رسـالتكَ، وإتمـام مُهمتِـكَ، وإنْ كانـتْ نَبيلـةً شَـريفةً. هـذهِ النُّظُـمُ تُعجِـزُكَ؛ لأنـكَ لَا تأخُـذُ بالأسـباب، والسُّـبلِ المطلوبـةِ التـي أسـماها ابـنُ خَلـدون (المُطالبـةَ القَويـةَ بِالعُصْبَـةِ وَالمَنعَـةِ)، ويؤكـدهُ - قَبـلَ ابـنِ خلـدون - حَديـثُ المُصطفـىٰ ﷺ عـن أبـي هريـرةَ (رَضِـيَ اللهُ عَنْهُ) أنـه قـالَ: «... ورحمـةُ اللهِ علـىٰ لـوطٍ، إنْ كان لَيـأوي إلـىٰ رُكـنٍ شـديدٍ؛ إذ قال: ﴿**لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ**﴾، **فمـا بَعَـثَ اللهُ مِـن بَعْـدِه نبيًّـا إلَّا في ذِروةٍ مِـن قَومِـه**»[13].

فلابـد للحـق مـن منعـة وقـوة تحملـه وتحميـهِ، ولِـذَا أَتـمَّ رسـولُنا ﷺ الرسـالة، وأدَّىٰ الأمانـة، لأنـه كان في منعـة مـن قومـه، ثـم قَـوَّاهُ الله بصحابتـه الكـرام (مهاجريـن، وأنصـار)، فكانـوا بعـدَ تأييـدِ الله تعالـىٰ جُنـودَ الدَّعـوَةِ، وحَمَلَـةَ الفِكْـرةِ، ومـن ثـم نقـول بـأن رسـولَنا ﷺ حَقَّـق مَـا مهَّـدَ لَـهُ إخوانه من الرسـل الكـرام، وجَمـعَ مِـن ميراثهـم مَـا تَـفرقَ، فلـم يكـن ﷺ مجـردَ نَبـيٍّ، بـل كانَ خيـرَ الرسـلِ، واصطفـاهُ ربُّـه تعالـىٰ ليكـونَ نبـي خيـر الأمـم، وتلـك سـنة الله الماضيـة وهـو التفاضـل بيـن مخلوقاتِـهِ، وإن كانـوا رسـلًا مبشـرين ومنذريـن، قـال تعالـىٰ: ﴿**تِلْكَ الرُّسُـلُ فَضَّلْنَـا بَعْضَهُـمْ عَلَـىٰ بَعْـضٍ مِّنْهُـم مَّـن كَلَّـمَ اللهُ وَرَفَـعَ بَعْضَهُـمْ دَرَجَـاتٍ**﴾، وليـسَ هـذا انتقاصًـا مـن قدرهـم صلـوات

(13) حديـث صحيـح، أخرجـه البخـاري (4694)، ومسـلم (151)، والترمـذي (3116) واللفـظ لـه. ومعنـىٰ (إنْ كان لَيَـأوي إلـىٰ رُكـنٍ شـديدٍ)، أي: كان يَطلُـبُ العـزَّةَ والمَنعَـةَ مِـن قَومِـه حتَّـىٰ لا يُـؤذُوا ضُيوفَـه بتَعمُّدِهـم إلـىٰ فِعْـلِ الفاحِشـةِ فيهـم، وإنَّمـا تَرحَّـم عليـهِ النَّبـيُّ ﷺ لِسَـهوِه حِـينَ ضـاقَ صَـدرُه، وأنَّـه كان يَـأْوِي إلـىٰ اللهِ تعالـىٰ؛ فَـاللهُ عـزَّ وجـلَّ أَشَـدُّ الأركَانِ وأَقواهَـا .. وفي روايـةٍ: «فَمـا بَعَـثَ اللهُ مِـن بَعْـدِه نبيًّـا إلَّا ثَـرْوةٍ مِـن قَومِـه»، والمُـرادُ بالـذِّروةِ: أَعْلاهـا نَسَـبًا، والمُـرادُ بالثَّـروةِ: الكَثـرةُ والمَنَعـةُ.

الله عليهـم، ولكنهـا دروسٌ نتعلمهـا مـن تاريخهـم وجهادهـم.

ولقـد كان ذلـك الميـراثُ النبـويُّ، والاستشـرافُ التاريخي أساسَ الرؤيـةِ الواضِحَةِ لَـدىٰ الإمـام البنَّـا، وعِمادهـا، فلقد هـدَاهُ ذلِكَ الاستشـرَافُ التاريخي إلـىٰ أنَّـهُ سـوفَ يَبـذلُ جُهـدًا ضَخمًـا جِـدًّا، مـن أجـلِ سَـلامةِ الفِكـرةِ وَوحـدَةِ الأمَّـةِ. كمـا هـداهُ إلـىٰ أنـه سـوفَ يحتـاجُ لكـي يزيـحَ النظـمَ الراسـخةَ، ويُغيّـرَ تِلـكَ الحـالَ القاسـيةَ البئيسـةَ، وينقلهـا إِلَـىٰ حـالٍ غايـةٍ فِـي القُـوةِ؛ يحتـاج مـن أجـلِ ذَلِـكَ إِلَـىٰ عمـلٍ مُنظَّـمٍ (التـزامٍ وَمِنهَـاجٍ) تَضطلِـعُ بِـهِ المَلايين لكي يُـوفِـرَ الهَيبَـةَ والوَفْـرةَ، أو (المَنَعـةَ وَالعُصْبَـةَ) بأسـلوبِ الأقدميـنَ، وقـد كان الإمـام البنـا دائمًـا يصـوغ المصطلحـاتِ صياغـةً عصريـةً، تُـقرِّبُها إلـىٰ أفهـامِ النـاسِ، فاسـتبدل (الهيبـةَ والوفـرةَ) بمـا اصطلـح عليـه الأقدمـونَ (العصبـة والمنعـة).

مِـنْهاجُ العَملِ وَدُستُورُه

كان أولُ شـيء عَملـهُ الإمـام البنـا رَحِمَهُ اللَّهُ أنـه أسـرع إِلَـىٰ تكويـن أنصـار للدعـوة يكافحُ بهـم ويُسـانِدُونه؛ لأنـه أيقـنَ مـن اطلاعـه عَلَـىٰ ميـراث القـرونِ السـابقةِ أنَّ إتمـامَ المهمـة التـي نـذر نفسـه مـن أجلهـا، والتـي هـي عمـل الأنبيـاء والمرسـلين، لا تتحقـق إلا بِعَمـلٍ منظَّـمٍ (المِنْهـاج والالتِـزَامُ)، أي التـزام بصيغـةٍ مِـنَ الحـقِّ، وهـي الّتِـي طرحَهـا فِـي الأصـولِ العشـرين، وقـد أراد الإمـام البنـا رَحِمَهُ اللَّهُ بتلـك الأصـولِ العِشـرينَ، أنْ تَلتَقِـيَ عَلَيهَـا الأمَّـةُ مِـنْ أَجـلِ أُمـورٍ ثـلاثٍ:

1 - **أنْ يُخفِّفَ مِنَ الغُلُوِّ.**
2- **أنْ يَضْبِطَ المَسِيرَ.**
3 - **أنْ يُوحِّدَ مِنَ فُرْقَةٍ.**

ومـن ثـم كانـت الصيغـة التـي وضعهـا الإمـام البنـا في أصولـه العشـرين،

موضـع اهتمـام العلمـاء، وممـن كتـب عنهـا وشـرحها الشـيخ الغزالـي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وسـماها (دسـتورُ الوحـدة الثقافيـةِ بيـنَ المسـلمين)، في كتابـه المشـهور الـذي شـرح فيـه (الأصـول العشـرينَ) التـي وضعهـا الإمـام البنـا لتوحـد فهـم المسـلمين للإسـلام، كمـا أنّهـا صيغـة مـن الحـق أراد الإمـام البنـا بالتزامهـا، أن تتوحـد رؤيـة الأمـة الإسـلامية، وفِكْرُهَـا في مواقفهـا التـي تصـدر عنهـا، وفي حركتهـا كذلـك، وعلـىٰ هـذه الصيغـة التـي طرحهـا الإمـام البنـا أخـذ بيعـة [التـزام ومنهـاج]، تتوحـد بِهـا رؤيـة العامليـن لديـن الله تعالـىٰ، ولا يُـترَكُ عَملُهـم للموافقـاتِ والمُصادفَـاتِ.

ويبـدو الإمـامُ البنـا في صيغتـه التـي طرحهـا كأنـهُ أسـتاذٌ يعلـم ويشـرَحُ ويُـفصِّلُ، ويَتجنّبُ الإجمـالَ، فقـد كان يـرىٰ أن الإجمـال مـع الجهل (الغفلةَ) يؤديـان إِلَـىٰ الفوضـىٰ والحيـرة، التـي وقعـتْ فيهـا جماهيـرُ الأمَّـةِ، ولـذا تـراهُ في حركتِـه وجهـادِه ودَعوتِـه يذكِّـرُ الأمَّـةَ الإسـلاميةَ بـ(وَاجبَـاتٍ غَفـلَ النـاسُ عنهَـا)؛ إذْ صَـارَ كل صالـحٍ في الأمَّـةِ يقـولُ: نَفْسِـي نَـفْسِي، وَلا يُبالِـي إنْ هُـو نَجَـا، بغيـرِهِ مـن إخوانـه المسـلمينَ الغافليـنَ، حتـىٰ لقـد صُـدِمَ الإمـامُ بإجابـةِ بَعـضِ مَـن تَوسَّـمَ فِيهـمُ الخَيـرَ، وَرَجَـا أنْ يُعاوِنُـوهُ عَلَـىٰ أداءِ رِسَـالتِه، وتَحقيـق مهمتِـه، فـإذا بِـهِ (الشـيخ يوسـف الدجـوي) [14] يُجيبُـه مُتمثـلًا ببيـتَ شـعرٍ يُلخِّـص مَنهجَـه فِـي الحَيـاةِ:

وَمَـا أُبَـالِـي إِذَا نَـفْسِي تُـطَـاوِعُـنِي
عَلَىٰ النَّجَاةِ بِمَنْ قَـدْ مَاتَ أَوْ هَلَـكَا[15]

وقَـدْ رَوَىٰ الإمـامُ البنَّـا قِصَّـةَ هَـذِهِ الإجابَـةِ مُفصَّلَـة فِـي (مُذكـراتِ الدعْـوةِ

(14) يوسف بن أحمد نصر الدِّجْوي (1287–1365هـ/ 1870– 1946م): فقيه مصري، عمل بالتدريس في الأزهر، وكان عضوًا في هيئة كبار علماء الأزهر الشريف. له كتابات في شتىٰ الأمور الإسلامية.

(15) يُنسَبُ هذَا البيتُ إلىٰ محي الدينِ بنِ عربيٍّ، مع استبدالِ كلمَةِ (تُساعِدُني) بـ (تُطَاوِعُنِي)، هَكذَا:

فَمَا أُبَالِي إِذَا نَفْسِي تُسَاعِدُنِي عَلَىٰ النَّجَاةِ بِمَنْ قَدْ مَاتَ أَوْ هَلَكَا

والداعيَـةِ)، خـلالَ حديثِـهِ مَـع الشَّـيخِ الدِّجـوِيِّ، وبَعـضِ عُلمـاءِ الأُمَّـةِ كَـي يَقُومـوا بواجبِهـم تِجـاهَ أُمتِهـم، ويُسـاعدُوهَا علَـىٰ النهـوضِ مِـن كَبْوتِهَـا، يقـول الإمـامُ البنَّـا: «كنـت أقـرأ للشـيخ يوسـف الدجـوي رَحِمَهُ اللَّهُ كَثيـرًا. وكانَ الرجـلُ سَـمْحَ الخُلُـق، حُلْـوَ الحديـثِ صَافِيَ الـرُّوحِ. وبِحُكـمِ النشـأة الصوفيـة كانَ بيني وبينـه رحمَـهُ الله صلـةٌ روحيـةٌ وعِلميـة تحملُنـي علـىٰ زيارتِـهِ الفَينـةَ بعـدَ الفَينـةِ، بمنزلـه بقصـرِ الشـوقِ، أوْ بعَطفـةِ الدويـدَارِي بحَـيِّ الأزْهَـرِ، وكنـتُ أَعـرفُ أنَّ لَـه صِـلاتٍ بكثيـرٍ مـن رِجَـالِ المعسـكَرِ الإسـلاميِّ، مِـن عُلمـاءَ أَو وُجَهـاءَ، وأَعـرِفُ أَنَّهُـم يُحبونَـه ويُقدِّرونَـه فعزمـتُ عَلـىٰ زيارتِـهِ، ومُكاشـفَتِهِ بِمَـا فِي نَـفْسِي، والاستعَانَـةِ بِـه علَـىٰ تحقيـقِ هـذهِ الفِكْـرَةِ وَالوصُـولِ إِلَـىٰ هـذهِ الغايـةِ. وزُرْتُـه بعـدَ الإفطـارِ، وكانَ حولَـه لفيف مـن العلماءِ وبَعـض الوجهاء، ومِـنْ بَينِهـم رَجـلٌ فاضـلٌ لَا أَزَالُ أَذكُـرُ أنَّ اسـمَه (أَحْمَـد بِـك كَامِـل) وإنْ لَـم ألتَـقِ بـهِ بَعـدَ هـذهِ المَـرَّةِ.

تحدثـتُ إلـىٰ الشـيخِ فِي الأمـرِ فأظهـرَ الألـمَ والأسـفَ وأخـذَ يُعـدِّدُ مَظاهِـرَ الـدَّاءِ وَالآثـارَ السَّـيئةَ المُترتبـةَ عَلَـىٰ انتِشَـارِ هـذهِ الظاهـرَةِ فِي الأمَّـةِ، وَخَلـصَ مِـن ذلـكَ إِلَـىٰ ضَعـفِ المُعسْـكرِ الإسـلامِيِّ أمـامَ هَـؤلاءِ المُتآمريـنَ عَليـهِ، وَكيـفَ أنَّ الأزهَـرَ حَـاولَ كثيـرًا أَنْ يَصُـدَّ هـذَا التيَّـارَ فَلـمْ يَسـتَطِعْ، وتَطَـرَّقَ الحَديـثُ إِلَـىٰ جَمعيـةِ «نَهضَـة الإِسْـلَام» التِـي ألفَهـا الشـيْخُ، هُـوَ وَلَفيـفٌ مِـن العُلمـاءِ، ومـعَ ذلِـكَ لَـمْ تُجْـدِ شَـيْئًا، وإِلَـىٰ كفـاح الأزهـرِ ضـدَّ المبشِّـرينَ والمُلحِدِيـنَ، وإلـىٰ مؤتمـرِ الأديـان فِي اليابـانِ، ورسَـائل الإسـلام التي أَلَّـفَها فَضيلتُه وبعَـثَ بِها إِلَيـهِ، وانتَهَـىٰ ذلـكَ كُلِّـه إِلَـىٰ أَنَّـهُ لَا فَائـدةَ مِـن كُلِّ الجُهـودِ، وَحَسْـبُ الإنسَـانِ أنْ يَعمَـلَ لنَفسِـهِ وَأنْ يَنجُـوَ بِهَـا مـن هـذا البـلاءِ. وأذْكُـرُ أنـه تمثَّـلَ بِهـذَا البيـت، الـذي كانَ كثيـراً مـا يَتمثَّـلُ بِـهِ، والـذِي كَتبـه لـي فِي بعـضِ بطاقاتِـهِ فِي بَعـضِ المناسـبَاتِ:

وَمَـا أُبَـالِـي إِذَا نَـفْسِي تُطَاوِعُـنِي
عَلَىٰ النَّجَـاةِ بِمَـنْ قَـدْ مَـاتَ أَوْ هَلَـكَا

وَأوصَانِـي أنْ أعمَـلَ بِـقَدْرِ الاستطاعةِ، وأَدَعَ النتائـجَ للهِ ﴿**لَا يُكَلِّـفُ اللهُ نَفْسًـا إِلَّا وُسْـعَهَا**﴾ [البقـرة: 286].

لَـمْ يُعجبني طَبعًا هـذَا القـولُ، وأخذَتنِي فَـوْرَةُ الحَماسـةِ، وتمثَّل أمامِي شـبحُ الإخفـاقِ المُرعـبِ، إذَا كَانَ هَـذَا الجَـوابُ سَـيكونُ جَـوابَ كُلِّ مَـن ألقَـىٰ مِـن هـؤلاءِ القَـادَةِ فَقُلْـتُ لَـه فِـي قُـوةٍ: إنّنـي أُخالِفُـكَ يَـا سَـيّدِي كُلّ المُخالفَـةِ فِي هَـذَا الّـذِي تَـقُولُ. وأَعتَقِـدُ أَنَّ الأَمْـرَ لَا يَعْـدُو أَنْ يَكـونَ ضَعْفًـا فَقـط، وقُعـوداً عَـن العَمـل، وهُروبًـا مِـنَ التبعَـاتِ: مـن أي شـيءٍ تخَافُـونَ؟ مِـن الحُكومَـةِ أَو الأزهَـرِ؟ يَكفِيكُـم مَعاشُـكُم واقعُـدُوا فِـي بُيوتِكُـم واعْمَلُـوا للإِسْـلام، فالشـعْبُ معكُـم فِـي الحقيقَـةِ لَـو واجهتُمُـوه، لأنـه شَـعبٌ مُسـلِمٌ، وقَـد عرفْتُـه فِي المقَاهـي، وفي المسـاجِدِ، وفي الشـوارعِ، فرأيتُـه يَـفِيضُ إيمَانًا، ولكنّه قُـوةٌ مُهملَة مِـن هَـؤلاءِ المُلحديـنَ وَالإباحِيّيـنَ، وجرائدهـم ومَجلّاتِهم لَا قيـامَ لهـا إلا فِـي غَفْلتِكُـم، ولـو تَنبَّهتُـم لدخلُـوا جُحورَهُـم.

يَـا أُسـتاذُ! إنْ لَـم تُريـدُوا أن تعملُـوا لله فاعمَلُـوا للدنيـا وللرغِيـفِ الّـذِي تأكلـونَ، فإنـه إذا ضَـاعَ الإسـلامُ فِـي هَـذِهِ الأمةِ ضَـاعَ الأزهـرُ، وضَـاعَ العلماءُ، فـلا تَجِـدُونَ مَـا تأكلـون، ولا مَـا تُنفِقُـونَ، فدافِعُـوا عَـن كِيانِكُـم إنْ لَـم تُدافِعُـوا عَـنْ كِيـانِ الإسْـلام، واعْملُـوا لِلدنْيـا إنْ لَـم تُريـدُوا أنْ تَعمَلُـوا للآخـرةِ، وإلَّا فقـد ضاعـتْ دُنياكُـم وآخرتُكـم عَلَـىٰ السـواءِ!.

وكنـتُ أتكلَّـمُ فِـي حماسـةٍ وتأثرٍ وشِـدَّة، مـن قلبٍ مُحـترقٍ مَكلـوم، فانبَرىٰ بعـضُ العلمـاءِ الجالسينَ يـردُّ عليَّ فِـي قسـوة كذلـكَ، ويَـتَّهمُني بأنني أسـأتُ إِلَـىٰ الشـيخِ وخَاطبتُـه بمَـا لَا يليـق، وأسـأتُ إِلَـىٰ العلمـاءِ وَالأزهَـرِ، وأسـأتُ

بذلِكَ إِلَىٰ الإسلامِ القويِّ العزيزِ، والإسلام لَا يَضْعُفُ أَبَدًا واللهُ تكفَّل بنَصْرِه.

وقبلَ أَنْ أردَّ عَلَيهِ انبرَىٰ أحمدُ بك كَامِل هَذَا، وَقَالَ: «لَا يَا أستَاذ، من فضلِكَ هَذَا الشابُّ لَا يريدُ منكُم إلا الاجتماعَ لنُصرَةِ الإسلام. وإنْ كنتُم تُريدونَ مَكانًا تَجتمعُونَ فِيهِ فَهَذِهِ دَارِي تَحت تَصرُّفِكُم افعلُوا بِها مَا تريدونَ، وإن كنتُم تُريدونَ مَالًا فلَن نَعدمَ المُحسنِينَ من المسلمينَ، ولكن أنتُم القادة فسِيرُوا ونحنُ وَراءَكُم. أما هَذِهِ الحُجَجُ فَلَمْ تَعُدْ تَنفَعُ بِشَيءٍ». هُنا سألتُ جَارِي عن هَذَا الرجلِ المؤمنِ: مَن هُو؟ فذكر لِيَ اسْمَه - وَما زالَ عَالِقًا بذِهْنِي ولم أَرَهُ بَعدُ - وانقسَمَ المَجْلِسُ إِلَىٰ فريقينِ: فَريقٍ يؤيدُ رأيَ الأستاذِ العالِم، وفَريقٍ يؤيدُ رَأيَ أحمَد بك كامل، والشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ سَاكِتٌ. ثُم بَدَا لَهُ أنْ يُنهِيَ هَذَا الأمرَ فَقَالَ: عَلَىٰ كل حالٍ نَسألُ اللهَ أنْ يُوفِّقَنا لِلعمَلِ بِمَا يُرضِيهِ، ولا شكَّ أن المقاصِدَ كُلَّها مُتجِهَةٌ إِلَىٰ العَمَل، والأمورُ بِيَدِ اللهِ. وَأَظُنُّنا الآن عَلَىٰ موعدٍ معَ الشيخِ مُحمَّد سَعد فهيَّا لِنَزُورَه.

وانتقلْنَا جَمِيعًا إِلَىٰ منزِلِ الشيخ محمَّد سَعدٍ (وَهُوَ قريبٌ من منزِلِ الشيخ الدجْوِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ)، وتَحريْتُ أنْ يَكونَ مَجلِسِي بجوارِ الشَّيخِ الدِّجوِيِّ مُباشرَةً، لأستطيعَ الحديثَ فِيمَا أُريدُ. ودعَا الشيخُ مُحمَّدُ سعدٍ بحَلوياتِ رَمضانَ، فقُدِّمَتْ وتقدَّمَ الشيخُ لِيأكُلَ فدنَوتُ مِنه، فلَمَّا شعَرَ بِي بجِوارِهِ سَألَ: مَن هَذَا؟ فقلْتُ: فُلَان.

فقالَ: أنتَ جِئتَ مَعنَا أيْضًا؟ فقلتُ: نَعم يَا سَيِّدِي، وسَوفَ لَا أفارقُكُم إلا إذَا انتهَينَا إِلَىٰ أمرٍ. فأخذَ بيدِهِ مَجموعَةً مِنَ النُّقْلِ ونَاولَنِيهَا وقالَ: خُذْ، وَإن شَاءَ الله نُفكِّر، فقلتُ: يا سبحانَ الله، يا سَيدِّي إنَّ الأمرَ لَا يحتمِلُ تَفكيرًا، ولكنْ يَتطلَّبُ عَملًا، ولو كانَتْ رَغبَتِي فِي هَذَا النُّقْلِ وأمثَالِه

لاستطعتُ أَن أشتريَ بقِرشٍ، وأظَلّ فِي مَنزلِي وَلاَ أتكَلَّفُ مَشقةَ زِيارَتِكُم. يا سَيّدِي إنَّ الإسلاَمَ يُحارَبُ هَذِهِ الحَربَ العَنيفةَ القَاسيةَ، ورِجَالُه وحُماته وأئمةُ المسلمينَ يَقضُونَ الأوقاتِ غارقينَ فِي هَذَا النعيمِ. أتَظُنّونَ أنَّ اللهَ لَا يحاسبُكُم عَلَىٰ هَذَا الّذِي تَصنَعُونَ؟ إنْ كنتُم تَعلمونَ للإسلامِ أئمةً غيرَكُم وَحُماةً غيرَكُم فَدُلُّونِي عَليهِم؛ لأذهبَ إليهم، لعلِّي أَجِدُ عندَهم مَا ليسَ عِندَكُم !!

وسادتْ لحظةُ صمتٍ عَجيبةٍ، وفاضَتْ عَينَا الشيخِ رَحِمَهُ اللَّهُ بدَمْعٍ غَزيرٍ بَلَّلَ لِحيتَه، وبَكىٰ بعضُ مَن حَضرَ. وقطَعَ الشيخُ رَحِمَهُ اللَّهُ هَذَا الصمتَ بأنْ قَالَ فِي حُزنٍ عَميقٍ، وفي تأثرٍ بَالغٍ: ومَاذا أَصنَعُ يَا فُلانُ؟ فقلتُ: يَا سيِّدي الأمرُ يَسِيرٌ، وَلَا يُكلِّفُ الله نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا. لَا أُريدُ إلا أنْ تَحصُرَ أسماءَ مَن نتوسَّمُ فِيهم الغيرَةَ عَلَىٰ الدِّينِ، مِنْ ذَوِي العِلمِ والوَجاهَةِ وَالمنزِلَةِ، ليفكِّرُوا فِيمَا يَجبُ أَنْ يَعملوهُ: يُصدِرُونَ ولَو مَجلةً أسبوعيةً أمامَ جرائد الإلحادِ والإباحيّةِ، ويَكتبونَ كُتبًا ورُدُوداً عَلَىٰ هَذِهِ الكُتبِ، ويؤلِّفونَ جَمعياتٍ يأوي إِلَيْهَا الشبابُ، ويُنَشِّطُونَ حَركةَ الوَعظِ والإرشادِ.. وهكذَا مِن هَذِهِ الأعمالِ. فقالَ: جَميلٌ. وأَمَرَ برفْعِ «الصِّينِيّةِ» بِمَا عليهَا، وإِحضَارِ وَرقةٍ وَقلمٍ. وقالَ: اكتُبْ. وأخذْنَا نتذاكَرُ الأَسماءَ، فكَتَبْنَا فَريقًا كَبيرًا مِنَ العلماءِ الأَجِلّاءِ أَذكُرُ مِنهُم: الشيخَ رَحِمَهُ اللَّهُ، وفضيلةَ الأستاذِ الشيخ مُحمَّدِ الخِضْرِ حُسَين، والشيخَ عبدَ العزيزِ جَاويش، والشيخَ عَبدَ الوَهَّابِ النّجارِ، والشيخَ مُحمَّد الخُضرِيّ، وَالشّيخَ محمد أحمَد إبراهِيم، والشيخَ عَبدَ العزيزِ الخُولِي رَحِمَهم اللهُ.

وَجاءَ اسمُ السيدِ رَشِيد رِضَا رَحِمَهُ اللَّهُ، فقالَ الشيخُ: «اكتُبوهُ اكتبُوهُ فإنَّ الأمر ليسَ أمرًا فَرعِيًّا نختلفُ فيه، ولكنه أمرُ إسلامٍ وكُفرٍ، والشيخُ رَشِيدٌ خيرُ مَن يدافع بقلمِه وعِلمه ومَجلّتِه». وكَانتْ هَذِهِ شهادةً طيبةً من الشيخِ

للسيدِ رَشيدٍ رَحمَهما الله، مع مَا كانَ بينَهُما من خِلافٍ فِي الرأيِ حَولَ بعضِ الشؤُونِ. وكان من الوجهاءِ: أحمَد باشَا تَيمُور، ونَسِيم باشا وأبُو بَكر يحيىٰ باشا، ومتولي بِك غُنيم، وعبد العزيز بك مُحمَّد (وَهُوَ عبدُ العزيز باشَا مُحمَّد الآن)، وعبد الحميدِ بك سعيد رحمَهم اللهُ جَميعًا، وكثيرونَ غيرُ هؤلاءِ.

ثم قالَ الشيخ: وإذنْ فَعليكَ أن تمُرَّ عَلَىٰ مَن تَعرِفُ، وأمُرَّ عَلَىٰ مَن أَعرِفُ، ونَلتقي بعد أسبوعٍ إن شاءَ اللهُ.

التقَيْنَا مَرّاتٍ، وتكونَتْ نواة طيبة من هؤلاءِ الفضلاءِ وَواصلَتِ اجتمَاعَها بعدَ عِيدِ الفِطْرِ، وأعقَبَ ذَلِكَ أن ظهرَتْ مَجلةُ «الفَتْح» الإسلاميةُ القويةُ يَرْأَسُ تَحريرَهَا الشيخُ عبد الباقِي سُرور نَعيم رَحِمَهُ اللهُ، ومُديرُها السيد مُحبُّ الدينِ الخطيب، ثُمّ آلَ تحريرُها وإدارتُها إليهِ، فنهضَ بِهَا خيرَ نُهوضٍ، وكانت مشعلَ الهداية والنورِ لهذا الجيلِ مِن شبابِ الإسلام المثقَّفِ الغَيورِ.

وظلتْ هَذِهِ النخبة المباركةُ من الفضلاءِ تَعملُ حَتَّىٰ بعدَ أن فارقْتُ دَارَ العلوم، وظَلَّ يُحرّكُها نَفَرٌ مِن هَذَا الشبابِ المُخلصِ حَتَّىٰ كانت هَذِهِ الحركاتُ (جمعية الشبان المسلمين) فيمَا بعدُ»(انتهىٰ)[16].

سبحانَ الله هلْ رَأيتُم حَمِيَّةً للعمل للدينِ، وإخْلاصًا للدعوةِ إليه، مثلمَا فعلَ الإمام البنَّا وَهُوَ مَا زالَ بعدُ شَابًّا صغيرًا، ولمَّا كانتْ دَعوتُه خالصةً لوجهِ الله الكريم، فقد تمخَّضتْ عن عمل للشيخ الدجويِّ؛ ظهرَتْ آثارُه بِمَجلّةٍ إسلاميةٍ قويةٍ، وجَمعيةِ (الشّبانِ المسلمينَ) التىٰ مَا زالتْ قائمةً للآنِ.

(16) حسن البنا: *مذكرات الدعوة والداعية*، ط 1، مركز الإعلام العربي، 1432هـ - 2011م، ص74.

ولعلك تلحظ أن الإمام البنا ذكَّرَ الشيخ الدجوي، بأن الإسلام يتكون من: تكاليف فردية، وتكاليف اجتماعية، وأنَّ الأولىٰ مقدمةٌ للثانيةِ؛ حَتَّىٰ لَا يَعتذِرَ أحدٌ بِانشغالِهِ بِنفسِه عن واجباته تجاه أُمّته، أَوِ يُعنَىٰ بواجباتِ الأمَّةِ، ويقصرَ بواجباتِهِ تجاهَ نَفسِهِ، أي أن الإمام البنا أراد أن يذكر كل مسلم بضرورة أن يوازن بين واجباته الفردية، وواجباته تجاه مجتمعه وأمته، ولا ريب أن الغفلة التي أصابت كثيرًا من أبنائه قد أنستهم واجب الجمع بين الأمرين، والموازنة بينهما، بحيث لا يطغىٰ جانب علىٰ آخر.

وقد أشرنا من قبل إلىٰ حرص الإمام البنا علىٰ تفصيل منهاج عمله، وخطته؛ لأنه أدرك أن الإجمال يَزيد الأمرَ فوضَىٰ وحَيرةً، ممَّا يؤدي إلىٰ التذبذب والاضطرابِ، ومن ثم حرص علىٰ وجود منهاج لينتج فائدةً تؤدي إلىٰ واجب يزيل عوائقَ، وحرص كذلك علىٰ أن يسير منهاج العمل وَفْقَ خُطَطٍ مُحكمَةِ الخطواتِ، مُرتبَةِ اللحظَاتِ، بحيث يؤدىٰ كل واجب في اللحظة التي تقتضيه، لا يقدم عليها ولا يؤخر، ما استطاعَ المسلم إلىٰ ذلك سبيلًا، وكثيرًا مَا كَانَ يقولُ: «إنّ النجاح ليسَ فِي الخطةِ الدقيقةَ، وَلَا فِي الوقتِ المُناسِبِ، إنَّما فِي اللحظةِ المناسبةِ؛ لأن الوقتَ لحظات وكل لحظةٍ تَفترقُ عَن غَيرِهَا»، ويتمثل ببيت المتنبي:

هُوَ الجَدُّ حَتَّىٰ تَفْضُلَ العَيْنُ أُختَهَا
وَحَتَّىٰ يَكونَ اليَوْمُ لِليَوْمِ سَيِّدَا

ومعنىٰ بيت المتنبي أن الأوقات واللحظات متفاوتة في فضلها، وعلىٰ المسلم أن يغتنم كل لحظة تخدم دعوته، فرب لَحظةٍ كانتْ فرصةً، ثم تَمضِي، وربما لَا تعودُ إلا بعدَ حِينٍ لَا يَعلَمُ مدَاهُ إلَّا اللهُ.

جُهْدٌ لا يُضيِّعُه اللهُ تَعالَىٰ

نخلصُ مِمَّا سبقَ إلىٰ أن الإمام البنا رَحِمَهُ اللَّهُ أراد أن يجمعَ العَامليـنَ للإِسْلام (بل الأمة كُلِّها) علىٰ صيغة من الحقِّ، يأخذُ علَيها بيعةً تُخفِّفُ مِنَ الغُلوِّ وتَضبِطُ المَسِيرَ، وتُوحِّدُ مِنَ الفُرقةِ، وهي بيعةٌ عَلَىٰ عمل يُنتِجُ فائدةً ويُؤدِّي وَاجِبًا، وَيُزِيلُ عَائِقًا، ولذلكَ قالَ: «إِنْ لَمْ تُنتِجْ فَائِدَةً، فَلَا يَفوتُكَ وَاجِبٌ»؛ لأنه أدركَ من سِيَرِ المرسلينَ أنّهم أدَّوْا مَا عليهم، لكنَّ العوائقَ التي واجهتْهُم (من العاداتِ والعقائدِ والفلسفَاتِ... إلخ) قد أعجزتْهم عن إنجازِ غاياتِهم، فَعلَىٰ كل مسلمٍ أن يؤدي مُهمتَه ووَاجبَه، فإنْ وَفَّقَه اللهُ فَبِهَا ونِعْمَتْ، وإنْ لَم يَبلُغْ غَايتَه، فَسيأتِي مِنْ بَعدِهِ مَن يُتِمّ رسَالتَه، وَيُكمِلُ سَعيَه، وجُهدُهُ فِي الحَالَينِ مَأجورٌ غَيرُ ضَائعٍ فِي مِيزَانِ اللهِ تَعالَىٰ. يقول الإمام البنا: «وَليسَ فِي الدُّنْيَا جِهَادٌ لا تَضحيةَ مَعهُ، وَلَا تَضِيعُ فِي سَبيلِ فِكرَتِنَا تَضحيَةٌ، وإنمَا هُوَ الأجْرُ الجَزيلُ، وَالثوابُ الجَميلُ»[17].

وَفِي آخِرِ سُطورِ رِسَالتِهِ (هَل نَحنُ قَومٌ عَمَليّونَ؟) يؤكدُ الإمَامُ البنَا هَذَا المَعنَىٰ: [لا يضيع جهد في سبيل الله]، ومِنْ ثم يدعو كل المسلمينَ إلىٰ مؤازرَةِ العَامليـنَ مِنَ الإخوانِ المسلمينَ، وَمُساندَتِهم بكل سبيل؛ «وأن يؤازِرُوا أولئِكَ القومَ الذينَ وَقفُوا كلَّ شَيءٍ في سَبيلِ الله والدعوةِ، وَينضَمُّوا إلَيهم ليُساهِمُوا معَهم في هذِهِ النهضَةِ المُوفَّقَةِ، **التِي يَكْسِبُ العَامِلُ فِيهَا كلَّ يومٍ نَصْرًا جَديدًا، إِنْ لَم يُؤدِّهِ إِلَىٰ الفتحِ فَسَيؤَدِّي إِلَيهِ مَنْ بَعدَهُ بِفَضْلِ مَجهودِهِ إِنْ شَاءَ اللهُ: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا**

(17) حسن البنا: *مجموعة رسائل الإمام البنا*، ط 1، (سلسلة من تراث الإمام البنا)، دار النداء، إسطنبول – تركيا، 2015م، ص 274.

﴿كُنْتُـمْ تَعْمَلُـونَ﴾ [التوبـة: ١٠٥][18].

وَمعَنىٰ ذلـك أن كلَّ عامـلٍ فِـي سَـبيلٍ لَا يَنبغِـي أنْ يَنتظِـرَ نَتائـجَ عمَلِـه، وَهَـذَا العمَـلُ الّـذِي نَعمَلُـه رُبّمـا لَا نَـرَىٰ نتائِجَـهُ، وَيَأتِـي بعدَنَـا مَـن يَجنِـي ثِمَـارَهُ، وجِيلُنـا هَـذَا خيـرُ مثالٍ لهـذَا المعنَىٰ؛ لأنّ هـذا الجيـلَ هـوَ نِتـاجُ ثمـرةٍ بذرَهَـا حَسـنُ البَنَّـا وإخوانُـه مِـنْ سَـنواتٍ قَاربَـتْ قَـرْنًا مِـنَ الزّمَـانِ، ولَـمْ يَـرَوْا تلـك الثمـرَةَ، لَكِنَّهـا فِـي مِيـزانِ حَسناتِـهم، ولِهـذَا فالعامِـلُ المُنتظِـرُ لِلنتَائـجِ قَـدْ يُصيبُـهُ اليـأسُ إنْ لَـم يَـرَ ثَمـراتِ عَملِـه، ولكنَّـه إذَا أخْلَـصَ جُهـدَه للهِ، لَـم تَشـغَلْهُ النتَائِـجُ، فَيكُـونُ ذَلِـكَ زَادًا لَـهُ يُـثبِّتُه عَلَـىٰ طريـقِ الدعـوَةِ. وكثيـرًا مَـا ذَكَّـرَ الإمـامُ البنَّـا إخوانَـهُ بِهـذَا المَعْنَـىٰ، يَبتَغِـي بذلـكَ التذكيـرِ مُواصلَـةَ السَّـعْيِ، وَالثبَـاتَ عَلَـىٰ الأَمْـرِ؛ يقـولُ الإمـامُ البنَّـا رَحِمَهُ اللَّهُ: «العَامِـلُ يَعمَـلُ لأداءِ الواجـبِ أولًا، ثُـم للأجْـرِ الأُخْـروِيِّ ثَانيًـا، ثُـمَّ للإفَـادَةِ ثَالثًـا، وَهُـو إنْ عَمِـلَ فَقَـدْ أَدَّىٰ الواجِـبَ، وَفَـازَ بثَـوابِ اللهِ، مَـا فِي ذَلِـكَ مِـنْ شَـكٍّ، مَتَـىٰ تَوفَّـرَتْ شُـروطُه. وَبَـقِيَتِ الإفـادَةُ، وَأمرُهَـا إلَـىٰ اللهِ، فقَـد تَأتِـي فُرصَـةٌ لَـم تَكُـنْ فِـي حِسابِـهِ تَجعَـلُ عَملَـهُ يَأتِـي بِأبْـرَكِ الثمَـراتِ، عَلَـىٰ حِينِ أَنَّـهُ إذَا قَعَدَ عَـنِ العَمل فَقَـدْ لَـزِمَـهُ إثْـمُ التَّقْصِيـرِ، وَضَـاعَ منهُ أَجْـرُ الجِهـادِ، وَحُـرِمَ الإفَـادَةَ قَطْعًـا، فَأيُّ الفَرِيقَيـنِ خَيـرٌ مَقامًـا وَأَحْسَـنُ نَـدِيًّـا؟[19]».

(18) حسن البنا: مجموعة *رسائل الإمام البنا*، ص 114.

(19) مجموعة رسائل الإمام البنا، *رسالة إلىٰ أي شيء ندعو الناس*، ص69.

ضَوابِطُ بَيْعَتِنَا وَأَرْكَانُهَا

تَمهِيدٌ

يَطْـرَحُ الجُهـدُ الضَّخـمُ الـذِي قَـامَ بِـهِ الإمَـامُ البَنّا رَحِمَهُ اللَّهُ سُـؤالًا يَحتَـاجُ دَائِمًا إِلَـىٰ إِجَابَـةٍ أَوْ تَـفسِيرٍ؛ كَيـفَ تَأتَّـىٰ لِهـذَا الشَّـابِ الـذِي لَـمْ يَعِـشْ طَوِيـلًا أَنْ يُنجِـزَ ذَلـكَ الإِنْجَـازَ الفِكْـرِيَّ وَالتَّرْبَـوِيَّ وَالحَرَكِـيَّ الـذِي أَتْعَـبَ مَـنْ بَعـدَهُ، وَبَـهَـرَ العَالَمَ كُلَّـهُ؟!

وَالحَـقُّ أَنَّنَـا لَا نَستَطِيعُ فِي إِجَابـةِ هَـذَا السـؤَالِ أَنْ نَستَبعِدَ تَوفِيـقَ اللهِ تَعالَىٰ وتَأييـدَهُ وَتَسـدِيدَهُ لِلإِمَـامِ البنَّـا رَحِمَهُ اللَّهُ، غيـرَ أَنَّنَـا لَا نَستبعِدُ فِـي الوَقْـتِ ذَاتِـهِ أَنَّ الإمـامَ البنَّـا كَانَ ذَا هِمَّـةٍ عَاليـةٍ، وَقَـدْ نَـذَرَ هِمتَـه وجُهـدَهُ وَوقتَـه، وَنَـفْسَه لِديـنِ اللهِ تعالـىٰ، مَهمَـا كَانَـتِ العَواقِـبُ، وَالحَـقُّ كَذلِـكَ أَنَّ هَـذِهِ الدَّعـوةَ قَـد كَلفَتْـهُ رَاحتَـهُ وحَيَاتَـه، تَقبلَـهُ اللهُ فِـي الشُّـهدَاءِ وَالصَّالحِيـنَ.

لَقـد بـدَأَ الإمَـامُ البنَّـا رَحِمَهُ اللَّهُ دَعوتَـهُ، وَالمُسـلِمُونَ فِـي وَضـعٍ قَلـقٍ: ضَعْـفٍ وَفَوضَـىٰ بِـلا حُـدودٍ، أَمَـامَ قُـوةٍ وَنِظَـامٍ بِـلا حُـدودٍ، تَكلـمَ عَنْهَـا الإمـامُ البنَّـا رَحِمَهُ اللَّهُ، وعَبَّـرَ عَنْهَـا بِقَولـهِ: «وَلَـولَا ثِـقَلُ القُيـودِ مِـنْ جِهَـةٍ، وَالفَوضَـىٰ فِـي التوْجيـهِ مِـنْ جِهَـةٍ أُخْـرَىٰ، لَـكانَ لِهـذِهِ اليقَظـةِ أَرْوَعُ الآثـارِ، وَلَـنْ تَظـلَّ هَـذِهِ القُيـودُ قُيـودًا أَبـدَ الدَّهْـرِ فَإِنَّمَـا الدهْـرُ قُلَّـبٌ، وَمَـا بَيـنَ طَرفَـةِ عَيـنٍ وَانتِبَاهتِهَـا يُغيِّـرُ اللهُ مِـنْ حَـالٍ إِلَـىٰ حَـالٍ، وَلَـن يَظـلَّ الحائـرُ حَائِـرًا، فَإِنَّمَـا بَعـدَ الحَيْـرَةِ هُـدًىٰ، وَبَعـدَ الفَوْضَـىٰ اسـتقْرَارٌ، وَللهِ الأمـرُ مِـنْ قَبـلُ وَمِـنْ بَعـدُ»[20].

(20) حسن البنا: *مجموعة رسائل الإمام البنا*، ط 1، (سلسلة من تراث الإمام البنا)، دار النداء، إسطنبول – تركيا، 2015م، *رسالة دعوتنا*، ص 145.

ويريـدُ الإمـامُ البنّـا (بِـثِقَل القُيـودِ) الوَاقِـعَ الخَارِجِـيَّ المُتربِّـصَ، مِـنَ الخُصـومِ وَالأعـدَاءِ الذيـنَ أَرَادُوا أنْ يُلجِئُـوهُ إِلَـىٰ المُواجهَـةِ، ويَضَعُـوهُ فِـي مَـأزِقٍ، وَهَـذَا مَـا تَجنَّبـهُ رَحِمَهُ اللَّهُ قَـدْرَ استِطَاعتِه، وأمـا (فَوضَـىٰ التوْجيـهِ) فإنَّـه يَـقْصِدُ بِهَـا الوَاقِـعَ المُتردِّي الـذِيٰ وَاجهَـهُ فِـي أُمتِـهِ وعبَّـر عَنـهُ أيضًـا أَوْ شَـرحَهُ بأسَـالِيبَ كَثِيـرَةٍ، حَتَّـىٰ يُـقرِّبَ إِلَـىٰ السَّـامِعِ السَّـببَ وَراءَ هَـذَا الجُهْـدِ الضَّخْـمِ الـذِي بَذلَـه رَحِمَهُ اللَّهُ.

ونستطيعُ أَنْ نُلخِّـصَ واقـعَ المُسـلمينَ المتَـردِّيَ الـذِي دَفـعَ الإمـامَ البنَّـا رَحِمَهُ اللَّهُ إِلَـىٰ تَأسيسِ هَـذهِ الدَّعـوَةِ، فِـي أَربعَـةِ أُمـورٍ، شَـرحَهَا هـو بنَـفسُه في كَثيرٍ مِـنْ كَلامِـه الـذِي شَـخَّصَ فِيـهِ أَدوَاءَ المُسـلِمينَ وَوَصَـفَ عِلَلَهُـم وَأمرَاضَهُـم التِي أَوْجَدتَهـا الجُهـودَ الهَدَّامَـةَ التِي سُـلِّطَتْ عَلَـىٰ أُمّتِنَـا، فـأَدَّتْ إِلَـىٰ آفـاتٍ أَوْ أَمـورٍ تَستَوجِبُ المُقاومَـةَ، وتَـدْعُو كُلَّ مُسلِمٍ أَنْ يُشـمِّر وَيَـنهَضَ لِمُواجهَتِهَـا، فَتَـقدَّمَ الإِمَـامُ البنَّـا رَحِمَهُ اللَّهُ وَحَمَـلَ الرَّايَـةَ لمواجَهَـةِ آفـات المُجتَمـعِ المُسْـلِمِ التِي يُمكِـنُ تَلخِيصُهَـا فِـي أَربعَـةِ أُمُـورٍ:

الأَمـرُ الأَوَّلُ: فقـدَانُ الثقَـةِ فِـي صَلاحِيّـةِ الإِسْـلامِ، صَلاحِيّتِـه فِـي البقَـاءِ وَالخلُـودِ، وَأَهْلِيتِـهِ فِـي إِصْـلاحِ الوجُـودِ.

الأمـرُ الثـاني: فقـدَانُ ثِقَـةِ المُسْـلِمِين بَعضِهِـمْ فِـي بَعـضٍ، ممَّـا رَسَّـخَ مَعانِـيَ اللاُمبَـالاةِ وَعَـدمِ الاكـتِرَاثِ، وَهـذَا الوَضـعُ البَئِيسُ هُـوَ مَـا حَـاوَلَ الإِمـامَ البنَّـا تَغييـرَهُ؛ فدَعَـا إِلَـىٰ التعَـارُفِ وَالتفَاهُـمِ، وَتَحـدَّثَ عَـنِ التكَافـلِ لِكَـيْ يَتقَـاربَ المُسـلمُونَ، حَتَّـىٰ يَـثِقَ بَعضُهُـم فِـي بَعـضٍ.

وَلَقـدْ نَشـأَ عَـن فقـدَانِ الثـقَةِ بيـنَ المسـلمينَ يَـأْسٌ مِـنَ التغْيـيرِ؛ إِذْ صَـارُوا يَـرَوْنَ الحَـوادِثَ أَكْبَـرَ مِنْهُـم، أَوْ أَنَّهُـم أَشْـفَقُوا مِـنَ الفِعْـلِ أَوِ التغْيـيرِ، فَهُـم يَائِسُـونَ مِـنْ أَنْ يَفعَلُـوا أَوْ مُشـفِقُونَ إِنْ فَعَلُـوا، فأَصبحُـوا بَيـنَ شَـرَّيْنِ أَحْلاهُمَـا

مُـرٌّ: اليَـأْسُ وَالإِشْـفَاقُ، وَلا رَيـبَ أَنَّ هَذيـنِ الشُّـعورَينِ الخَاطِئَيـنِ (اليـأْسُ وَالإِشْـفَاقُ) وَلِيـدَا الجُهُـودِ الهَدَّامَـةِ التِي سُـلِّطَتْ علىٰ أُمَّتِـنَا!

الأَمـرُ الثَّالِـثُ: أنَّ الإسـلامَ لَا شَـأنَ لَـهُ بِالسياسـةِ، وَلا مَحـلَّ لَـه فِـي القيـادَةِ، وَهُـوَ تَصـوُّرٌ أَوِ انطِبـاعٌ خَاطِـئٌ زَرعَتْـهُ كَذلِـكَ الجُهـودُ الهَدامـةُ فِـي عُقـولِ كَثِيرٍ مِـنَ المُسـلمينَ، وَقَـد وَصَـفَ الإِمَـامُ البنَّـا ذَلِـكَ الواقِـعَ المُـتردِّي؛ عِندَمَـا تَكلَّـمَ عَـنْ رُوحِ المُيوعَـةِ وَالشُّـحِّ وَالبُخْـلِ وَالأثـرَةِ وَالأنَانيَّـةِ مِـنْ ناحيـةٍ، وَعِندَمَـا تَكلَّـمَ عَـنْ عُقَـدَةِ النقْـصِ وَالدُّونيـةِ التِي دَعَـتِ الأُمَّـةَ إِلَىٰ الإِعْجَـابِ بِالخَصْـمِ وَتَقليـدِهِ فِـي كلِّ مَـا صَـدَرَ عَنـهُ.

وَكَثِيـرًا مَـا يَصـفُ الإِمَـامُ البنَّـا وَاقِـعَ المُسـلِمينَ، وَمَـا أَصَابَهُـم مِـنْ عِلَـلٍ وأَدواءٍ، عَلَـىٰ جَميـعِ المُسـتويَاتِ، كَـيْ يَعلَـمَ المُسـلمونَ أَنَّ التَّبِعَـةَ ثَـقيلةٌ، وأنَّ النهضَـةَ تَحتَـاجُ إِلَـىٰ مَجهـودٍ ضَخـمٍ، بَـدَأَهُ الإِمَـامُ البنَّـا رَحِمَهُ اللَّهُ؛ فكلَّفَـه فِـي النهَايـةِ رَاحتَـهُ وَحَياتَـه.

وَمِـنْ صُـوَرِ التّـردِّي التِي أَشَـارَ إليهَـا، حَديثُـه عَـنْ: حَاكِـمٍ اعْتَنَـىٰ بنفْسِـهِ أَكثـرَ مِمَّـا اعتنَـىٰ بغَيـرِهِ، وَمحْكُـومٍ خُـدِعَ بِالباطِـلِ وَغفـلَ عَـنِ الوَاجِـبِ، وَضَيـاعِ قُـوةِ الإيمَـانِ وقُـوةِ الجمَاعَـةِ.

كَمـا تَحـدَّثَ عَـنِ اسـتمرَارِ النظَـام وَزَوالِ الإِمَـام، وَازدِهَـارِ التَّشـرِيعِ، وَغِيَـابِ التنْفيـذِ. وَهَـذهِ كُلُّهـا صُـوَرٌ لِلفَوْضَـىٰ التِي عَمَّـتْ وَاقِـعَ المُسـلِمينَ، فَـدَعَتِ الإِمَـامَ البنّـا رَحِمَهُ اللَّهُ إِلَـىٰ تَأسِـيسِ عَمَـلٍ ضَخْـمٍ، يَسـتوْعِبُ طَاقـاتِ المُسـلِمِينَ وَقُدراتِهِـم، وَيُوجِّهُهَـا لِتحْقيـقِ غَايتَيـنِ: **أُولَاهُمَـا**- أَنْ تَكُـونَ هَـذهِ الجُهـودُ جُـزْءًا مِـنْ تَيـارٍ إِسْـلامِيٍّ أَصِيـل، بَـدَلًا مِـنْ أَنْ تُوظَّـفَ فِـي خِدمَـةِ تَـيّارٍ عَلمَانِـيٍّ دَخيـل. **وَثَانِيتُهُمَـا**- الجَمعُ بيـنَ تَطلُّعـاتِ الشـعُوبِ مِـنْ نَاحِيَـةٍ وَالتبنِّـي الكامـلِ لِلإِسْـلامِ مِـن نَاحيَـةٍ أُخْـرَىٰ.

وَإِذَا أَمكنَنَـا أَنْ نُوظِّـفَ عُقـولَ المُسـلِمينَ وَطاقَاتِهِـم لِتحقيـقِ هَاتيـنِ الغَايتيـنِ؛ فَـلا رَيـبَ أنَّ مَـا نَـرَاهُ الآنَ مِـنْ تَخـوُّفِ الشُّـعوبِ مِـنَ الإِسـلامِ، وَفقـدانِ الثقَـةِ فِـي صَلاحيتِـهِ وَأَهْليتِـهِ لِلبقَـاءِ وَالخُلُـودِ وَإِصْـلاحِ الوجُـودِ مِـنْ جِهَـةٍ أُخْـرَىٰ؛ يُمكِـنُ أَنْ يَتغيّـرَ إِلَـىٰ تَبَـنٍّ كَامـلٍ لِلإِسْـلامِ، وَدَورِهِ فِي نُهـوضِ المُسـلمينِ وَوَحْدَتِهِـم؛ بعدَمَـا أُلغِيَـتِ الخِلافَـةُ الَّتِي كَانَـتْ تُمثِّـلُ مَعنَىٰ الأُمَّـةِ الوَاحـدَةِ فِـي مَقاصَدِهَـا وَأهدَافِهَـا، وَأُلغِيَـتِ الجَامِعَـةُ الإِسْـلَامِيةُ؛ بِمَـا كانَـتْ تَعْنِيـهِ مِـن رُوحِ الأُخـوَّةِ، وأُلْغِـيَ الحُكـمُ بشَـرعِ اللهِ تعالـىٰ، مَـعَ أَنَّ الحُكْـمَ بِالإِسلامِ مَعدودٌ كَما يقولُ الإِمَامُ البنَّا رَحِمَهُ اللهُ «فِي كُتبِنَا الفِقهيةِ مِنَ العَقائدِ وَالأُصُـولِ، لَا مِـنَ الفِقهيَّـاتِ وَالفُـروعِ»[21]. لكـنَّ الأمـةَ الإِسـلاميةَ فَقـدَتْ مَرجعيَّتَهـا بسـقُوطِ الخِلافـةِ وَإِلغَائِهَـا؛ مِمَّـا فَتـحَ الطريـقَ أمـامَ مرجعيّـاتٍ أُخـرَىٰ لِتَسُـودَ حَيـاةَ المُسـلمينَ، وتُوجِّهَهَـا فِـي جَوانبِهَـا المُختلِفَـةِ: الثقَافيـةِ، وَالفِكريَّـةِ وَالاجتِمَاعِيّـةِ وَالسِّياسِـيَّةِ!

الأَمـرُ الرَّابِـعُ: مَحْـوُ مَعالِـمِ الإِسْـلامِ فِـي كُلِّ مَناحِـي الحَيـاةِ، فِـي: البَيـتِ وَالمَدرسَـةِ وَالمَحكمَـةِ، مِمَّا أَفْقَـدَ الأُمَّـةَ هُويَّـتَهَا.

تِلْـكَ هِـيَ الأَسـبابُ التِـي أَوْجَدَهَـا وَاقِـعُ المُسـلِمينَ المُـتردِّي، وَالتِـي دَعَـتِ الإِمَـامَ البنَّـا إِلَـىٰ التقَـدُّمِ بِهـذِهِ الفِكـرَةِ (الإِخـوَانُ المُسـلمُونَ)، لإِصـلاحِ هـذَا الواقـعِ البَئِيـسِ، وَإِنْهـاضِ المُسـلمينَ مِـنْ عَثرَتِهِـمْ.

وَقَـدْ حَـدَّدَ الإِمَـامُ البنَّا لهـذِهِ الدعـوَةِ غَايتيـنِ: **إِحْيَاءُ الأُمّـةِ، وَإِقَامةُ الدولَـةِ**، ولـكلِّ غايـةٍ مِنهُمَـا وَسيلَـةٌ، فأمّـا إحيَـاءُ الأمَّـةِ فَوسيلَـتُه (الفِكْـرَةُ أَوِ الرؤيَـةُ أَوِ المِنْهَـاجُ)، وَأَمَّـا إِحيَاءُ الدَّولَـةِ فَوسِيلَـتُه (الصَّـفُّ أَوِ التنْظِيمُ)، وَلَيسَ المَقصودُ (التَّنظِيـمَ السِّـريَّ) عَلـىٰ نَحْـوِ مَـا يَتبـادَرُ إِلَـىٰ الأذهَـانِ عِنـدَ سَـماعِ كَلِمَـةِ

(21) حسن البنا: *مجموعة رسائل الإمام البنا، رسالة المؤتمر الخامس*، ص 351.

(التنْظيـم) لأوَّلِ وَهلـةٍ، بِسَـبب الإعَـلام المُضَلِّـل الـذِي رَبـطَ الكَلِمـةَ بِظِـلالٍ مُخيفَـةٍ مُرِيبـةٍ، وَإِنَّمـا المُـرادُ (العَمـلُ المُنظَّـمُ) الـذِي تَضطَلِـعُ بِـهِ المَلَايِيـنُ.

فَـأَمّا (الفِكْـرَةُ) فَقَـدْ طَرَحَهَـا الإمَـامُ البنَّـا جَامِعَـةً شَـامِلَةً، لَا تَحمِـلُ طَابعًـا خَاصًـا، قِوامُهـا العِلْـمُ وَالتربيَـةُ وَالجِهَـادُ، ولَا تَحمِـلُ طَابعًـا فِـئَويًّا أَوْ فِكرِيًّا، أَوْ مَذهبيًّـا، أَوْ فِقهيًّـا، وَقَـدْ خَـدَمَ الإمـامُ البنَّا فِكرتَـهُ بِوسِيلَتينِ مُهِمَّتيـنِ: **الأُولَىٰ**- الأُسلُوبُ الـذِي عَـرَضَ بِـهِ فِكرَتَـهُ، **والثَّانيـةُ**- الجُمهـورُ الـذِي اختـارَهُ ليتَبَنَّىٰ هَـذِهِ الفِكـرَةَ وَيَحمِلَهـا، فَاختَـارَ أَنصَـارًا مُستعِدِّينَ لِلتضْحيَـةِ مِـنْ أَجْـلِ تَنفيـذِ المَطلُـوبِ.

وَإِذَا تَحدَّثْنـا عَـنِ الأُسـلُوبِ الـذِي عَـرَضَ بِـهِ الإمَـامُ البنَّـا فِكرتَـه، أَمكنَنَـا أَنْ نَقـولَ: إنَّـه قدَّمَهَـا **سَهلَـةً وَاضِحَـةً جليـةً** لا غمُـوضَ فِيهَـا، كَـيْ تَصِـلَ إِلَىٰ النـاسِ بِـلا عَوائـقَ. انظُـرْ قَولَـهُ: «الإِسْـلامُ نظَـامٌ شَـامِلٌ يَتنـاولُ مَظاهِـرَ الحيَـاةِ جَمِيعًـا»، كَمَـا عَـرَضَهَا **بَسِيطَـةً** تناسِـبُ كلَّ البيئَـاتِ، فَـلا تَـقبلُها بيئَـةٌ وَتَـنفِـرُ مِنهَـا أُخْـرَىٰ، مِثْلَمَـا خَتـمَ رِسَـالةَ (التعَاليـمِ) بِقولِـهِ: «أَيّهَـا الأخُ الصَّـادِقُ: هَـذَا مُجمَـلٌ لدعْوتِـكَ، وَبيـانٌ مُوجَـزٌ لفكرَتِـكَ، وَتَستَطِيعُ أَنْ تَجمَـعَ هَـذِهِ المَبـادِئَ فِـي خَمْسِ كَلمَـاتٍ: (اللهُ غَايتُنَا، وَالرسُـولُ قُدوَتُنـا، وَالقُرآنُ شِـرْعَتُنا، وَالجِهَادُ سَـبِيلُنا، وَالشَّـهَادَةُ أُمنِيّتُنَـا). وَأَنْ تَجمَـعَ مَظاهِرَهَـا فِـي خَمْسِ كَلِمَـاتٍ أُخْـرَىٰ: البسَاطَـةُ، وَالتِّلاوَةُ، وَالصَّلاةُ، والجُنديّـةُ، وَالخُلُـقُ. فَخُذْ نَـفْسَكَ بِشـدَّةٍ بِهذِهِ التعَاليـمِ، وَإِلَّا فَفِـي صُفـوفِ القَاعِدِيـنَ مُتَّسَـعٌ لِلكُسَـالَىٰ وَالعَابِثِيـنَ»[22].

وَعَرَضَهَـا **مُحَـدَّدَةً** كذلِـكَ، بِحيـثُ يَسـهُلُ الاسـتِدلَالُ عَلَيهَـا، فقـالَ: «وَالقُـرآنُ الكَرِيـمُ وَالسُّـنّةُ المُطهـرَةُ مَرجِـعُ كُلِّ مُسـلِمٍ فِـي تَعـرُّفِ أحـكامِ الإسْـلَامِ، وَيُـفْهَمُ القُـرآنُ طِبْـقًا لِقَواعـدِ اللغَـةِ العَربيـةِ مِـنْ غَيـرِ تكلُّـفٍ وَلَا

(22) حسن البنا: *مجموعة رسائل الإمام البنا، رسالة التعاليم*، ص 283.

تَعسُّفٍ، وَيُرجَعُ فِي فَهْمِ السُّنّةِ المُطهرَةِ إِلَىٰ رِجَالِ الحَديثِ الثِّقَاتِ»[23].

ثُمَّ عَرضَها **أَصِيلَةً**، فَلَمْ يَخْترعْهَا أَوْ يَبتَدِعْهَا، وَإِنَّمَا اسْتمدَّها مِن ذاكرَةِ الأمةِ التِي مَا زالَتْ تَحفظُهَا وتَعِيهَا، وكُتبُ التاريخِ شَاهِدٌ يُقِرُّ بِأَصَالَتِهَا، وبذَلِكَ تَكونُ دَعوَةُ (الإِخْوَانِ المُسلِمِينَ) - بِمَا تَهيّأَ لَهَا مِنْ: وُضُوحٍ، وَبَسَاطةٍ، وَتَحديدٍ، وَأَصَالةٍ - فِكرَةً فَذةً تَجتَمِعُ عَلَيهَا الأمةُ أَوْ «صِيغَةً مِنَ الحَقِّ تَجتمِعُ عَلَيهَا الأمّةُ».

كَمَا **نَأَىٰ الإمامُ البنَّا بِفكرَتِهِ عَن مَواطِنِ الخِلافِ**؛ لأنَّ مَواطِنَ الخِلافِ هِيَ التِي مَزقَتِ الأُمَّةَ شِيعًا وَشَراذِمَ، كَمَا كَانَ يَقُولُ: «إِنَّ أَعظَمَ مَا مُنِيَ بِهِ المُسْلِمُونَ الفُرقةُ والخِلَافُ، وأَسَاسُ مَا انتصَرُوا بِهِ الحُبّ وَالوَحْدَةُ»[24].

كَمَا أنّه ابتَعدَ بِهَا عَن مَواطِنِ الخِلَافِ لِغَايَةٍ مُهمّةٍ جِدًّا؛ وَهِيَ أنْ يَحتَفِظَ لِنفْسِهِ بِمنطِقَةِ القُوَّةِ مِنَ الإِسْلام وَالدَّعوةِ، وهِيَ غَايَاتُ الدِّين وَعزائمُه الكُبرَىٰ، وَمِنْ ثَمَّ قَالَ: «إِذَا قِيلَ لكُمْ: إِلامَ تَدعُونَ؟ فَقُولُوا: نَدعُو إِلَىٰ الإِسلامِ الذِي جَاءَ بِهِ مُحمَّدٌ ﷺ، وَالحُكُومَةُ جُزءٌ مِنْهُ، وَالحُرِيَّةُ فَرِيضَةٌ مِنْ فَرائِضِهِ، فَإِنْ قِيلَ لَكُمْ: هَذِهِ سِيَاسَةٌ! فقُولُوا: هَذَا هوَ الإِسْلامُ، وَنَحنُ لَا نَعرِفُ هَذِهِ الأَقْسَامَ»[25].

وَهَذِهِ الغَايَاتُ وَالعزائِمُ لَنْ يَختَلِفَ مَعهُ فِيهَا أَحَدٌ مِنْ جُموعِ المُسلمينَ إِلَّا أَنْ يكونَ مُكَابِرًا. وَقَدِ اهتَدَىٰ الإِمَامُ البنَّا فِي عِنايتِهِ بِمنطِقَةِ القُوَّةِ مِنَ الإِسْلامِ بِهَدْيِ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ فَالحُكْمُ رُكنٌ أَصِيلٌ مِنْ أَرْكَانِ الإِسْلامِ، وَالحُرِيَّةُ فريضة مِنْ فرائض الإِسْلام ، مَنحَهَا دِينُنا الحَنِيفُ لِلشُّعُوبِ وَالأُمَمِ وَالأفرَادِ وَالجمَاعَاتِ، وَحَذَّرَنَا نَبِيُّنَا الكَرِيمُ مِنَ الذلَّةِ، وَالعُبودِيَّةِ،

(23) حسن البنا: *مجموعة رسائل الإمام البنا، رسالة التعاليم*، ص 269.
(24) حسن البنا: *مجموعة رسائل الإمام البنا، رسالة دعوتنا*، ص 137.
(25) حسن البنا: *مجموعة رسائل الإمام البنا، رسالة بين الأمس واليوم*، ص 517.

فَقـالَ: «مَـنْ أَعْطَىٰ الذِّلَّـةَ طَائعًا غَيـرَ مُكْـرَهٍ فَليسَ مِنَّـا»[26]. وَرُغْـمَ مَـا فِي هَذَا الحَديـثِ مِـنْ ضَعـفٍ، فَـإِنَّ سُـنةَ رَسُـولِ اللهِ ﷺ لَـم تَخْـلُ مِـنْ حَـثٍّ المُسـلِمِ عَلَىٰ العِـزّةِ وَالكرامَـةِ، فَعَـنْ حُذَيْفَـةَ قَالَ: قَـالَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ: «لاَ تَكُونُـوا إِمَّعَةً تَقُولُـونَ إِنْ أَحْسَـنَ النَّـاسُ أَحْسَـنَّا وَإِنْ ظَلَمُـوا ظَلَمْنَـا، وَلَكِـنْ وَطِّنُـوا أَنْفُسَـكُمْ، إِنْ أَحْسَـنَ النَّـاسُ أَنْ تُحْسِـنُوا وَإِنْ أَسَـاءُوا فَـلاَ تَظْلِمُـوا»[27]. بِهـذِهِ العَزائـمِ والغَايـاتِ الكُبـرَىٰ مِـنَ الإِسْـلام، اختَـارَ الإِمَـامُ البنَّـا لِدعوتِـهِ مَنطقـةَ قُـوَّةٍ، كَـيْ لَا يَجـرَّهَ أَحـدٌ إِلَـىٰ مَناطـقِ الخِـلَافِ فَيسـهلُ بَعـدَ ذَلِـكَ الاجتِـرَاءُ عَلَيـهِ وعَلَـىٰ دعوتِـه، وَيَسـهُلُ تَشوِيـهُ هَـذِهِ الدعْـوَةِ، فَتَفْقِـدُ الأمـةُ الحَماسَـةَ لِلعمَـلِ معُـه.

والحـقُّ أنّ اختيـارَ مَناطـقِ القُـوةِ نَهـجُ قُرآنِـيٌّ تَجلَّـىٰ فِـي مَسـلَكِ سَـيّدِنَا مُوسَـىٰ (عليه السلام)، وَانظُـرْ كَيفَ كان يُحاوِلُ فِرعَـونُ إبعَـادَهُ عَـنِ القَضيّـةِ الجَوهريّـةِ؛ إِذْ يَسأَلُـهُ: ﴿فَمَـا بَـالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ﴾ [طه: ٥١]، أي: فَمَـا شـأنُ الأُمَـمِ الخَاليـةِ مِـنْ قَبلِنَـا لَـم تُقِـرَّ بِمَـا تقـولُ، ولَـمْ تُصـدِّقْ بِمَـا تَدعُـو إِلَيـهِ، وَلَـمْ تُخْلِـصِ لَـه العِبـادَةَ، وَلكنَّهـا عَبـدَتِ الآلهـةَ وَالأوثَـانَ مِـنْ دُونِـهِ؛ ذَلِـكَ أَنَّ فِرعـونَ لَمّـا أَخـبرَهُ مُوسَـىٰ بـأنَّ ربَّـهُ الـذِي أَرسَـلَه هُـوَ الـذِي خَلـقَ وَرزَقَ وَقَـدَّرَ فَهـدَىٰ، شَـرعَ يَحتَـجُّ بِالقُـرونِ الأُولَـىٰ، أَيْ: الذِيـنَ لَـمْ يَعبـدُوا اللهَ، أَيْ: فَمَـا بَالُهـم إِذَا كَانَ الأمـرُ كَمَـا تقـولُ، لَـمْ يَعبـدُوا رَبّكَ بَـل عَبـدُوا غَيـرَهُ؟ يُرِيـدُ فرعـونُ بِذلِـكَ أَنْ يُخـرِجَ سَـيدَنَا مُوسَـىٰ عَـنِ القَضيَّـةِ الأساسـيةِ التِـي أُرسِـلَ مِـنْ أَجْلِهَـا: (تَحريـرُ بَنِـي إِسـرَائيلَ، وَتَعبِيدُهُـمْ للهِ تَعالَـىٰ)، ولكـنَّ مُوسَـىٰ (عليه السـلام) فَطِـنَ لِهـذَا الأمـرِ، فـردَّ عَلَـىٰ سـؤالِهِ: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَىٰ﴾[طه: ٥٢]؛ أي: أَنَّهُـم قَدِمُـوا إِلَـىٰ مَـا قَدَّمُـوا، وَلَاقَـوْا أَعمَالَهُـم، وَسَـيُجازَوْنَ عَلَيْهَـا، فَـلا مَعنَـىٰ لسـؤَالِكَ وَاسـتفهَامكِ يَـا فِرعَـونُ

(26) أخرجه الطبراني في (المعجم الأوسط)، رقم (471)، وهو حديث ضعيفٌ.
(27) رواه الترمذي في سُنَنِه، رقم (2007)، وقالَ: هـذا حديـث حسـنٌ غَريـبٌ لا نعرفه إلا من هـذا الوجْهِ، وأخرجهُ البزار (2802) بلفظه.

عَنْهُم، فَتِلْكَ أُمَّـةٌ قَدْ خَلَتْ، لَهـا مَـا كَسبَتْ، وَلَكُـمْ مَـا كَسَبْتُم.

كأنَّ مُوسَىٰ يقـولُ لَـه: إنمَـا بُعثـتُ برسَالـةٍ غَايتُهـا الأحيَـاءُ لَا الأمـوَاتُ: ﴿فَأْتِيَـاهُ فَقُـولَا إِنَّـا رَسُـولَا رَبِّـكَ فَأَرْسِـلْ مَعَنَـا بَنِـي إِسْـرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُـمْ ۖ قَـدْ جِئْنَـاكَ بِآيَـةٍ مِّـن رَّبِّـكَ ۖ وَالسَّـلَامُ عَلَىٰ مَـنِ اتَّبَـعَ الْهُـدَىٰ﴾ [طـه: 47]. يقـولُ السَّـعدِيُّ فِـي تَفسـيرِهِ: «أَيْ: فَأتيَـاهُ بِهَذيـنِ الأَمرَيـنِ: دَعوتِـهِ إِلَـىٰ الإِسْـلامِ، وَتَخلِيـصِ هَـذَا الشَّـعبِ الشَّـريفِ بَنِـي إسـرَائيلَ - مِـنْ قَيـدِهِ وَتَعبيـدِهِ لَهُـم، لِيتحَـرَّرُوا وَيَملِكـوا أَمرَهُـم، وَيُقِيـمَ فِيهُـم مُوسَـىٰ شَـرعَ اللهِ وَدِينَـه».

فاختـارَ مُوسَـىٰ مَنطقـةَ القُـوّةِ: التوحيـدَ، وَتَخليـصَ بَنِـي إسـرَائيلَ مـن الـذّلِّ والعُبوديـةِ، لِيعُـودُوا أحـرارًا فِـي عِبـادَةِ رَبّهِـم وَخَالقِهِـم.

كَمـا ابتعـدَ الإمَـامُ البنَّـا عَـن مَواطـنِ الخِـلافِ؛ لأنـه صَاحِـبَ قَضيّـةٍ تَهـمُّ الأُمَّـةَ، وَهِـيَ قَضيَّـةُ (الحُكْـمِ وَالحُريّـةِ)، وَلَيـسَ صَاحِـبَ شَـغبٍ يَجـرُّ المُسـلِمينَ إِلَـىٰ خِلافَـاتٍ فَرعيّـةٍ تَزيدُهُـمْ فُرْقَـةً.

فقَضيّـةُ الإمـامُ البنّـا رَحِمَهُ اللَّهُ الأساسـيةُ أَنْ تَعيـشَ الشُّـعوبُ حُـرةً مُسـتقلةً، وَأَنْ تَختَـارَ أَشـكَالَ الحُكْـمِ الّتِـي تُلائِمُهَـا، وهَـذَا هُـوَ المِيثـاقُ الـذي يُمكـنُ أَنْ تَجتمِـعَ عَلَيـهِ الإنسَـانيةُ، يَقـولُ الإمَـامُ البَنَّـا رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَقَـدْ وَطَّـنَّا أَنْـفُسنَا عَلَىٰ أَنْ نَعيـشَ أَحـرارًا عُظمَـاءَ أَوْ نَمُـوتَ أَطْهَـارًا كُرمَـاءَ. وَنَحـنُ لَا نَطمَـعُ فِـي حَـقِّ سِـوانَا، وَلَا يَسـتَطِيعُ أَحَـدٌ أَنْ يُنكِـرَ عَلَيْنَـا حَقَّنَـا. وَإِنَّ خَيـرًا لِكُلِّ أُمَّـةٍ أَنْ تَعيـشَ مُتعَاوِنَـةً مَـعَ غَيرِهَـا، مِـنْ أَنْ تَعِيـشَ مُتنافِسَـةً مَـعَ سِـواهَا حِينًـا مِـنَ الدَّهْـرِ»[28].

وَلعلّـكَ تَلحَـظُ أنَّ أعـداءَ الإخـوَانِ يُحاولُـونَ الآنَ إِظهارَهُـم أَصْحَـابَ شَـغَبٍ، وَتَخريـبٍ، غَايتُهـم الحُكْـمُ لِذاتِـهِ، يُـرِيدُونَ بذَلـكَ أنْ يَحرِمُـوا

(28) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، *رِسَالَة المُؤتمرِ السَّادسِ*، ص 450.

الإخـوَانَ مِـن مَنطقَـةِ قُوّتِهِـم، وَيَجرُّوهُـمْ إِلَـىٰ مَنطقَـةِ الدفَـاعِ عَـنِ أنفسـهم، لأَنَّهُـمْ يُجيـدُونَ الحِزبيـةَ وَمعَارِكَهـا، وَقَـد كَانَ الإمَـامُ البنَّـا يُـؤكِّدُ كَراهيّـةَ الإِسْـلام لِزعْزَعـةِ الحُكْـم، أَي أَنَّ غَايتَنـا لَيسَـتْ أَنْ نَشـغَبَ عَلَـىٰ النـاسِ أَوِ الحُكّام أَو غَيرِهِـمْ، وَإِنَّمـا غَايتُنَـا أَنْ نُـقَرِّرَ حَقائقَ دَعَـا إِلَيْهَـا الإِسْـلامُ وقَرَّرَهَـا للأُمَـمِ وَالشـعُوبِ وَالجمَاعَـاتِ والأَفْـرَادِ وَهُـوَ حَقُّهُـم فِـي أَنْ يَعيشُـوا سَـادةً فِي أَوطانِهـم أَئمَّـةً فِي دِيارِهِـمْ، يَختـارُونَ أشـكالَ الحُكـمِ التِي تُلائمُهُـم، إِلَىٰ غيرِ ذَلِكَ مِـنَ المَعانِي التِي أَكّدَهَـا الإمَـامُ البنَّـا ، وَهِـيَ مَعـانٍ تَـوَجَّهَ بِهَـا إِلَـىٰ الأُمـمِ الغَربيـةِ التِي تَحـرِمُ أُمتَنـا حُريَّـتَها وَاستِقْلالَهَا، كَمَـا أَكَّـدَ هَـذِهِ المَعانِي فِـي رِسَـالَةِ المُؤتمَـرِ الخَامـسِ كَذلـكِ، حَيـثُ يَقـولُ: «كَمَـا يَعتقِـدُ الإِخـوَانُ أَنَّ هُنـاكَ فَارِقًـا بَيـنَ حُريّـةِ الـرّأيِ وَالتفكيـرِ وَالإبانَـةِ وَالإفصَـاحِ وَالشُّـورَىٰ والنَّصِيحَـةِ، وَهـوَ مَـا يُوجِبُـه الإِسْـلامُ، وَبيـنَ التعصُّـبِ لِلـرأْيِ وَالخُـروجِ عَلَـىٰ الجَمَاعـةِ والعَمـلِ الدَّائـبِ عَلَـىٰ تَوسـيعِ هُـوّةِ الانقِسَـامِ فِـي الأُمَّـةِ وَزعْزَعَـةِ سُـلطانِ الحُـكّام، وَهُـوَ مَـا تَستلْزِمُهُ الحِزبيّـةُ وَيَأبَـاهُ الإِسْـلامُ وَيُحرِّمـهُ أَشَـدَّ التحْرِيـمِ، وَالإِسْـلامُ فِـي كُلِّ تَشـريعَاتِهِ إِنَّمَـا يَدعُـو إِلَىٰ الوَحْـدَةِ وَالتعَـاوُنِ»[29].

بِهَـذَا الأُسـلُوبِ، وَتِلْـكَ المَعَانِي التِي سَـلفَتِ الإِشَـارَةُ إِلَيهَا، طَـرَحَ الإِمَامُ البَـنَّا فِكْرتَـهُ؛ حَيْثُ شَخَّصَ العِللَ التِي أَفقدَتِ الأُمَّـةَ هُوِيّـتَها وَفَتحَتِ الطريقَ أَمـامَ مَرجِعيّـاتٍ أُخـرَىٰ لِتقُودَهـا نَحْـوَ تَغريـبٍ وَعُبوديـةٍ للغَـرْبِ مُخيفيـنِ، وَذَلِـكَ مَـا لَحظَـهُ الأستَاذُ أَبُـو الحَسـنِ النـدوِيُّ فَصـوَّرَ الفَـرقَ بَيـنَ الإمـامِ البنَّـا رَحِمَهُ اللَّهُ وَكثيريـنَ مِـن عُلمـاءِ عَصـرِهِ، الذيـنَ خضَعُـوا لِلمـادَّةِ وَالسُّلطَـةِ، وَانسَـحَبُوا مِـن مَيـدانِ الدعـوةِ وَالإرشَـادِ، وَالكِفَـاحِ وَالجِهَـادِ، وَاستَسْـلَمُوا (لِلأمـرِ الوَاقـعِ)، فَخَفَـتَ صـوتُ الأمـرِ بالمعـروفِ وَالنهـيِ عَـنِ المُنكـرِ،

(29) حسن البنا: مجموعة رسائل الإمام البنا، *رسالة المؤتمر الخامس*، ص 365.

فِـي حِيـنَ نَشـطَ دُعـاةُ الفَسـادِ وَالهـدْمِ، وَالخلاعَـةِ والمُجـونِ، وَالإلحـادِ وَالزندَقَـةِ[30].

أمَّا الإمامُ البنَّا؛ فقدْ «عَاشَ مُتَّصِلًا بالحيَاةِ وَالشعْبِ، وَتتبَّعَ الحَوادِثَ، وَلَـم يَعِـشْ فِـي بُـرجٍ عَاجِـيٍّ، وَفِـي عَالَـمِ الأحْـلامِ وَالأوهـامِ، عَـرفَ رَزِيّـةَ الإسـلامِ وَالمُسـلمينَ، وَنكبَـةَ الدعْـوةِ الإسـلاميّةِ فِـي هَـذَا الجُـزءِ الـذِي كَانَ يَجِـبُ أَنْ يَكـونَ زَعِيمًـا لِلعَالَـمِ العَربـيِّ كُلِّـهِ، وَزَعِيمًـا للعَالَـمِ الإسْـلامِيِّ عَـنْ طَرِيقِـهِ، وَقَـدْ بَـقِيَ قُـرُونًا كِنانـةَ الإسـلامِ، وَمَصـدَرَ العِلْـمِ وَالعِرفَانِ، وَأَسـعَفَ العَالَـمَ العَربـيَّ وَأَنجَـدَهُ، بَـلْ أَنْـقَذَهُ، فِـي فَـتراتٍ دَقيقـةٍ عَصيبـةٍ فِـي التارِيـخِ الإسْـلامِيِّ، وَلَا يَـزَالُ يَحتضِـنُ الأزهـرَ الشَّـريفَ، أَكبَـرَ مَركـزٍ ثَقافِيٍّ إسْـلامِيٍّ وَأقدَمَـهُ»[31].

هَـذَا جَانِـبُ (الفِكْـرةِ)، وَالجَانِـبُ الآخَرُ **هوَ جانـبُ (التنظِيمِ)**؛ حَيـثُ أَدرَكَ الإمـامُ البنّـا رَحِمَهُ اللَّهُ، أنَّ نَهضـةَ العالَـمِ الإسـلامِيِّ بِحاجـةٍ إلـىٰ اصْطِفَـافٍ، وَإِلَـىٰ مَشـروعٍ ضَخـمٍ يُـوازِي الوَاقـعَ البئِيسَ الـذِي تَـردَّتْ فيهِ الأمـةُ الإسـلاميةُ، وَأنَّ هَـذا المَشـروعَ لَا يُمكِـنُ أَن يَنهـضَ بِـهِ فَـرْدٌ، أَوْ فَصِيـلٌ واحـدٌ مهمَـا كَانَـتْ قُوةُ أفـرادِهِ وَقُدرَاتُهـم، وَمِـن ثَـمَّ فَـلَا بَـدَّ مِـن (تَنظيـمٍ) قَـوِيٍّ يَنهـضُ بِهذَا المَشـرُوعِ الضَّخـمِ الـذِي تَحتـاجُ إِلَيـهِ الأُمَّـةُ، وَلِهـذَا سَـعَىٰ الإمَـامُ البنَّـا إِلَـىٰ تَكويـنِ ذَلِـكَ (التَّنظِيـمِ)، أَو العَمـلِ المُنظَّـمِ الـذِي تَضطَّـلِعُ بِـهِ المَلاييـنُ؛ لأنّـه أَعلـنَ أَكثـرَ مِـنْ مُـرّةٍ حَاجَـةَ أُمتِـهِ، إِلَىٰ قُـوَّةِ الأُمَّـةِ الضَّاربَـةِ؛ لأنَّ الإخـوَانَ وَحْدَهُم لَيسُـوا قَادِرِيـنَ، وَلكِنَّهُـم يُفسِـحُونَ المَجَـالَ لأُمتِهِـمْ، وَلَـنْ يَستَطِيعَ (الإخْـوَانُ) إنجَازَ هَـذَا المَشْـرُوعِ الضَّخْـمِ الـذِي يَجِـبُ أَنْ تَنهـضَ بِـهِ الأمَّـةُ كُلّهـا بعدَ أنْ تَـتوحَّدَ فِي عَمـلٍ مُنظَّـمٍ عَلَـىٰ مِنهَـاجِ الإِسْـلامِ، وَتَـنبذَ دَواعِـي التفَـرّقِ وَالتشَـتُّتِ، وَمَـا

(30) انظر مقدمة الأستاذ الندوي لكتاب الإمام حسن البنا: *مذكرات الدعوة والداعية*، ط 1، مركز الإعلام العربي، 1432هـ - 2011م، ص 15.

(31) حسن البنا: *مذكرات الدعوة والداعية*، ص 16.

تَنظيمُ (الإخوَانِ المُسْلِمِينَ) إِلَّا نَـوَاةٌ لِهَـذِهِ الوَحْدَةِ المَأْمُولَـةِ.

يَـقُولُ الأستَاذُ البَنَّـا: «إِنَّ الأَمْـرَ جِـدُّ خَطِيرٍ، وَلَقَـدْ حَـاوَلَ المُصلحُـونَ أَنْ يَصِلُـوا إِلَـىٰ وَحـدةٍ وَلَـوْ مُؤقَّتـةٍ لِمواجَهَـةِ هَـذِهِ الظُّـرُوفِ العَصِيبَـةِ التِـي تَجتَازُهَـا البِلادُ، فَيئِسُـوا وَأَخْفَقُـوا، وَلَـمْ يَعُـدِ الأمرُ يَحتَمِلُ أَنصافَ الحُلولِ، وَلا مَنَاصَ بَعدَ الآنِ مِنْ أَنْ تُحلَّ هَـذِهِ الأحزَابُ جَميعًا وَتُجْمَعَ قُوَىٰ الأُمَّـةِ فِـي حِـزبٍ وَاحـدٍ يَعمَـلُ لِاسـتِكْمالِ اسـتِقْلَالِهَا وحُريتِهـا، وَيَضـعُ أُصـولَ الإصلَاحِ الدَّاخلِيِّ العَامِّ، ثُـمَّ تَـرسُمُ الحـوَادِثُ بَعـدَ ذَلِـكَ لِلنَّـاسَ طَرَائِـقَ فِي التنظِيـمِ فِـي ظِـلِّ الوَحـدَةِ التِي يَـفرِضُهَا الإِسْـلَامُ»[32].

وَنلَاحِـظْ أَنَّ لُغـةَ الإمـام البنَّـا فِـي كَلامـهِ السَّـالفِ حَاسِـمَةٌ جَازِمَـةٌ؛ لأنّـهُ يَـرَىٰ أَنّ (التَّنظِيـمَ المُتآخِـيَ) هُـوَ سِـرُّ قُـوّةِ الأُمَـمِ، وَسَـبِيلُ نَهضَتِهَـا، وَسَـبَبُ نُصرَتِهَـا، وَمِـن ثَـمَّ لَا يَـفتُرُ عـن تأكيـد حَتميّـةَ تَوَحُّـدِ الأمَّـةِ فِـي عَمـلٍ مَنظَّمٍ؛ إِذْ يَقـولُ فِـي مَوضـعٍ سَـابقٍ: «وَيَـوْمَ واجـهَ المُسـلِمُونَ العالَـمَ كُلَّـه صَفًّـا وَاحِـدًا وَقَلْبًـا وَاحِـدًا فِـي ظِـلِّ هـذِهِ الأخـوّةِ الصادقَـةِ الحَقَّةِ، لَـمْ تَثبُـتْ أَمامَهُـم مِمَالِكُ الروَابـطِ الإداريّـةِ أَوِ السيَاسِـيّةِ المُجـردَةِ سَـاعةً مِـنْ نَهـارٍ، وَانهَـزَمَ أَمَامَهُـم - بغَيـرِ نِظَـامٍ - الـرّومُ وَالفُـرسُ عَلَـىٰ السـوَاءِ. وَكَوّنُـوا إمبرَاطُوريّـةً ضَخْمَـةً تَمتَـدُّ مِـنَ المُحيـطِ إِلَـىٰ المُحِيـطِ، ذَاتَ عِلـمٍ وَحَضَـارَةٍ، وَقُـوةٍ وَإِشـرَاقٍ. وَيَـومَ غَفَلُـوا عَـنْ سِـرِّ قُوتِهِـمْ، وَلَـمْ يَأخـذُوا بِهَـدْيِ كِتَابِهِـم: ﴿وَلا تَنَازَعُـوا فَتَفْشَـلُوا وَتَذْهَـبَ رِيحُكُـمْ وَاصْبِـرُوا إِنَّ اللهَ مَـعَ الصَّابِرِيـنَ﴾ [الأنفـال:٤٦]، وَدَبَّ إِلَيهِـم دَاءُ الأُمَـمِ مِـنْ قَبلِهِـم، مِـنْ تَغلِيـبِ المَصالِـحِ المَادِيّـةِ الزائِلَـةِ عَلَـىٰ الأُخـوَّةِ الإيمانيـةِ البَاقِيـةِ؛ تَمزَّقَـتْ هَـذِهِ الإمبراطوريـةُ أَيـدِيَ سَـبَا[أي متفرقيـن]، وَلَعِبَـتْ بِهَـا المَطَامِـعُ الخَارجيَّـة وَالدَّاخليّـةُ، وَانتَهَـىٰ أَمرُهَـا مُؤخَّـرًا بَعـدَ الحـربِ العَالميّـةِ الأُولَـىٰ إِلَـىٰ الانْهِيَـارِ، وَالوُقـوعِ فِـي أَسْـرِ خُصُومِهَـا مِـنْ

(32) حسن البنا: مجموعة *رسائل الإمام البنا*، رسالة مشكلاتنا في ضوء النظام الإسلامي، ص 655.

غَيـرِ المُسـلِمينَ، الذِيـنَ احتَلُّـوا أَرْضَهَـا، وَمَلكُـوا أَمْرَهَـا، وَتَـقاسَمُوهَا فِيمَـا بَينَهُـم، وَظَـنُّوا أنّه قَـدِ انتَهَىٰ أمرُ الإِسْـلامِ وَخُتِمَتِ الحُـروبُ الصِّليبيةُ أَفْضَلَ خِتَـامٍ»[33].

وَقَـدْ أشـرْنَا مِـن قَبـلُ إِلَـىٰ أنَّ الإِمَـامَ البنَّـا رَحِمَهُ اللَّهُ دَعَـا إِلَـىٰ (الفكـرَةِ) لإِحيَـاءِ الأُمّـةِ، وَأَسّـسَ (التَّنظِيـمَ) لإقامةِ الدوْلَـةِ، وَهُـوَ العَمـلُ المُنظَّـم الـذِي تَضطَلِـعُ بِـهِ المَلايينُ.

وَمَعنَـىٰ العَمَـلِ المُنظَّـمِ أنـهُ غيـرُ مَـترُوكٍ للتوَافـقِ (القناعـة الشـخصية)؛ فليسَ لأيِّ أَخٍ أَنْ يَفعلَ مَا بَـدَا لَـهُ، أَوْ يُمـارِسَ الدعـوَةَ وَفْـقَ هَـواهُ ومِزاجَـهُ، فَيختَـارُ مَتَىٰ يَعمَـلُ، وَمَتىٰ يَـترُكُ العَمـلَ، وَمَتىٰ يَستريحُ وَمَتىٰ يَجِـدُّ؛ فَيصبِـحُ أَمـرُ الدعـوَةِ مَـتروكًا للرغبـة والهـوىٰ، وَلَـم يَكُـنِ الإَمَـامُ البنَّـا يَسـتريحُ لهـذَا الصِّنـفِ مِـنَ النـاسِ، لأنَّ الأمـرَ جِـدُّ خَطِيـرٍ كَمَـا قَـالَ آنِـفًا، وَهُـوَ يُرِيـدُ عَمـلًا ضَخْمًـا مِـن أَجْـلِ إقامةِ الدَّولـةِ، وَإحيَـاءِ الأُمَّـةِ.

ثُـمّ إنَّـهُ أَمـامَ وَاقِـعٍ مُتربِّـصٍ تُهيمِـنُ عَلَيـهِ قُـوًىٰ نَافـذَةٌ، وقَـدْ تُلجِئُـه إِلَـىٰ المُواجهَـةِ، أَوِ الصـدَامِ وَالصـرَاعِ، أَو إِلَـىٰ تحديـاتٍ هَائلـةٍ تَكسِـرُ الإرادَاتِ فَتدفَعُـهُ إِلَىٰ الانْسِـحَابِ وَالعُزلَـةِ، أَوْ تَدفَعُـهُ إِلَـىٰ الارتِطَامِ وَالصـرَاعِ، أَو تَجرُّهُ إِلَـىٰ العُنـفِ وَالحَـربِ قَبـلَ اكتِمَـالِ البنَـاءِ؛ وَلـكُلِّ هَـذِهِ المَخاطِـرِ المُتَـربِّصَةِ بَالدعـوَةِ، رَفـضَ الإمـامُ البنَّـا أَنْ يَكـونَ (العَمـلُ) خَاضِعًـا للتوافُـقِ، أَوِ الهَـوَىٰ، وَأَرادَ أنْ يكـونَ (العمـلُ) مُؤَسَّسِـيًّا منُظَّمًـا، تَخضَـعُ قَـرَاراتُـهُ لِمبـدَأِ الشُّـورَىٰ التِي أَوْجَبَهـا الإِسْـلامُ، وَيُـطِيعُ أبنَـاءُ الصَّـفِّ، مَـا لَـمْ يُؤْمَـرُوا بِمَعصِيَـةٍ.

وَلِذَلِـكَ أخـذَ بَيعَـةً عَلَـىٰ عَمَـلٍ تَحتـاجُ إِلَيـهِ الأمـةُ، وبمُوَاصفـاتٍ يَحتاجُهَـا العَمـلُ.

(33) حسن البنا: مجموعة *رسائل الإمام البنا*، رسالة مشكلاتنا في ضوء النظام الإسلامي، ص 640.

وَهُنَا نَقُولُ: يَنبغِي أَنْ يَفهَمَ كُلّ أَخٍ أَوْ كُلُّ مُسلمٍ تُهمّهُ حَقيقةُ (الإِخْوَانِ) وَدَعوتُهم؛ أنَّ قِوامَ دَعوةِ (الإخوَان المُسلِمونَ)، وأَوْجَزَ مَا تُوصفُ بِهِ، أَنَّها: **بَيعةٌ عَلَىٰ عَمَلٍ تَحتاجُهُ الأمّةُ، وبمواصفَاتٍ يَحتاجُهَا العَملُ**. تِلكَ حقيقةُ تَنظِيم (الإِخْوَانُ المُسلمُونَ). فهُمْ صَفٌّ مُنظَّم، يُبايعُ عَلَىٰ عَمَلٍ.

وَقَدْ أَسَّسَ الإِمَامُ البَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ هَذَا الصَّفَّ، أَوْ ذَلِكَ التَّنْظِيمَ، تَلْبِيَةً لِحَاجَةِ الأُمَّةِ إِلَىٰ صَفٍّ قَادِرٍ مُنْضَبِطٍ مُسْتَقِرٍّ، يَجْمَعُ بَيْنَ كَفَاءَةِ العَمَلِ، وَقُوَّةِ التَّمَاسُكِ، وَالقُدْرَةِ عَلَىٰ التَّلَاؤُم مَعَ مُتَطَلَّبَاتِ العَمَلِ الإِسْلَامِيِّ. لأن هُناكَ كثيرًا مِنَ النَّاسِ يَستطيعُ أَن يَعمَلَ بمفرَدِهِ، فَيفهَمَ ويُجاهِدَ ويَعملَ ويُضحِّي، وَقَد يكونُ هذَا الفردُ غيرُ المُنتظِمِ صَالِحًا في ذاتِهِ، غيرَ أنّ صُحبةَ هذَا الفَردِ السَّائبِ غيرِ المُنتظمِ قَد تَضرُّ أكثرَ مِمَّا تَنفَعُ؛ وَإِنْ كَانَ صَالحًا فِي ذاتِهِ؛ فَفِي هَذَا الرَّجُل وَأَمْثَالِهِ تَبْرُزُ خُطُورَةُ الصَّلَاحِ إِذَا تَجَرَّدَ مِنْ فِقْهِ النِّظَامِ وَتَقْدِيرِ التَّبِعَةِ؛ فَقَدْ يُغْرِي الرَّجُلُ بِصَلَاحِهِ، ثُمَّ يُفَرِّقُ بِخِلَافِهِ وعدم طاعتِه؛ وَتِلْكَ آفَةٌ مِنْ أَخْطَرِ آفَاتِ العَمَلِ الجَمَاعِيِّ. أيْ: أَنَّهُ يُغرِي الجَمَاعةَ بصَلاحِهِ، ويُفرقُها بخِلافِه؛ لأنّهُ لَيسَ لَهُ خَطٌّ وَاضِحٌ.

أُسْلُوبُ الإِمَامِ البَنَّا فِي خِدْمَةِ الدَّعْوَةِ

هَذَا وَيَنبغِي أَنْ نُؤكِّدَ أنَّ الإمامَ البنَّا قَدْ خَدمَ فِكرَتَهُ بِوَسَائِلَ كَثِيرَةٍ؛ فَقَدْ **خَدَمَهَا بأُسلوبِ عَرضِهِ الفَريدِ الدَّقيقِ الوَاضِحِ المُوجَزِ الجَامعِ**؛ حَيثُ كَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ يَعمِدُ إِلَىٰ المَعنَىٰ المقصُودِ مِن أَقْرَبِ سَبِيلٍ فيشرحُه وَيوضِّحُه دُونمَا إِطَالةٍ أَوْ إِسهَابٍ؛ لأنَّ الرجُل كانَ يُريدُ أنْ يُنجِزَ أعمالًا كثيرةً فِي أَوقاتٍ قَليلةٍ، وَلِذلِكَ **لَمْ يَكُنْ لَديهِ فُرصَةٌ لأَنْ يَتحَوَّلَ (تَنظِيمُهُ) أَوْ دَعوَتُهُ إِلَىٰ مَدارِسَ فِكريّةٍ حِوَاريةٍ، أَوْ إِلَىٰ مُنتدَياتٍ خَطابيةٍ**، وَلذَلِكَ كَانُ أسلوبُه مُحدَّدًا بَسيطًا، ومُباشِرًا يَعمِدُ إِلَىٰ المَعْنَىٰ المُرادِ فيشْرَحُه،

وَإِلَىٰ الاسْتِشهَادِ المَطلوبِ فَيوضِّحُه حَتَّىٰ يَكونَ وَافِيًا شَافيًا.

كَمَا اعتمَدَ رَحِمَهُ اللَّهُ أُسْلُوبًا تَذكيريًّا؛ يُكثِرُ فِيهِ مِنَ التذْكيرِ بِالآخِرَةِ؛ لأنّه كَانَ يَرىٰ أنَّ الشَّعْبَ المِصْرِيَّ شَعبٌ مُتديِّنٌ بِطبيعَتِه؛ لَا يُجاهِرُ بِمعصيَةٍ، وَإِذَّا خُوِّفَ بِاللهِ خَافَ، وَلِذَلِكَ جَمعَ الإمَامُ البنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ فِي خِطابِهِ بينَ التَّرغيبِ وَالترهِيبِ، **وَكَانَ أسلُوبُهُ جَذَّابًا مُشوِّقًا بَاعِثًا عَلَىٰ الرغبةِ وَالتساؤُلِ بَعيدًا عَنِ الغِلظَةِ وَالأستَاذِيَّةِ، خَليطًا مِنَ العَربيّةِ والعَاميِّةِ،** وَكَان إِذَا تكلَّمَ بِالعَاميَّةِ أَعطَاهَا جَلالَ العَربيةِ حَتَّىٰ لَا تَنْبُو عَنهُ الأَذوَاقُ، **وكَانَ يَتجَنَّبُ اللَّومَ وَالتعْرِيضَ والتأنيبَ والتجرِيحَ رُغمَ حُضورِ المَآسِي وَالمُنكرَاتِ،** لأنهُ لَمْ يَكتَفِ - كَما نَعلَمُ - بِجُمهورِ المَسجِدِ؛ فَجُمهورُ المَسجِدِ لَا يَكفِي، وَاتجَهَ إِلَىٰ جُمهورِ الشوَارِعِ وَالمقَاهِي، وَلِذلِكَ تجنبَ في حَديثِهِ إليهِمْ التجريحَ والتأنيبَ، أَوِ اللَّمزَ وَالهَمْزَ، أَوِ التَّلمِيحَ بِالمُنكرَاتِ المَوجُودَةِ، حَتَّىٰ لَا يُحرجَهُم أَوْ يُنفِّرَهُم.

كَمَا خَدمَ الإمامَ البنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ فِكرَتَهُ بِالجُمهُورِ الذِي اختَارَهُ لِحَمْلِهَا، فَاختَارَ جُمهورًا مِنَ البُسَطاءِ المَغمُورِينَ، جُمهُورًا يَجمَعُ بَينَ رُوّادِ المسَاجِدِ وَرُوّادِ المَقاهِي؛ جُمهورًا لَا يَتسِمُ بِصِفَةٍ تُميِّزُهُ خُلقيًّا، أو عَقلِيًا، أوْ نَفْسِيًّا، غَيرَ صِفَةٍ وَاحدَةٍ هِيَ صِفَةُ الإِصْغَاءِ وَالاتِّباعِ، ولا يُرادُ بِهَذِهِ الصِّفَةِ أنهُ اختَارَ جُمْهُورًا لَا شَخصيّةَ لَهُ؛ وَإِنمَا **يُرادُ بِصِفَةِ الإِصغَاءِ والاتّباعِ: أَنَّ هَذَا الجُمهُورَ كَانَ لَديهِ الرَّغبةُ فِي التعَلُّمِ وَالقَبولِ،** وَهَذَا مَا كانَ يَكفيهِ؛ لأن البنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ كانَ يُريدُ أَنْ يَجعلَ مِن جُمهورِ البُسطاءِ المَغمُورينَ أَبطَالًا فَاتحِينَ، وقَد كَانَ- وَذَلِكَ مَا شَهِدَ بِه الأستاذُ أَبُو الحَسنِ الندويّ - كما قَالَ بأنَّ الإمَامَ البنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ خَلَقَ «كَمَا يقُولُ شَاعرُ الإِسلامِ الدكتُورُ مُحمَّدُ إِقبَال: (فِي جِسْمِ الحَمَامِ الرَّخْوِ الرَّقيقِ قَلْبَ الصُّقُورِ والأُسُودِ)، حتَّىٰ

استطاعَ هَـذَا الجِيـلُ أَنْ يَصنَـعَ عجَائـبَ فِـي الشـجَاعةِ وَالبسَـالَةِ وَالاسـتِقَامَةِ وَالثَّبـاتِ»[34].

وَيَكفِي أَنْ تَعْلَـمَ أَنَّ بَعـضَ مَـنِ اختَارَهُـم الإِمَـامُ البنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ لِيحْمِلُـوا فِكرتَه، كَانُـوا حَدِيـثَ عَهـدٍ بِالتعَبُّـدِ، لَا يُحسِـنُونَ الوُضُـوءَ، وَلا يُتقِنـونَ الصـلاةَ، فَبـدَأَ مَعهُـم مِـنْ أَوَّلِ خُطـوةٍ وَأَوَّلِ دَرسٍ؛ مِـنَ (الحَنفِيّـةِ= الصنبـور)؛ كَـيْ يُعلِّمَهُـم كَيفيةَ الوُضوءِ، وَفَضلَـهُ وآدابَـهُ[35].

بَـدَأَ الإمـامُ البنَّـا بِهَـؤُلاءِ البُسـطَاءِ المَغْمُورِيـنَ فَجعـلَ مِنهُـم مَصَابِيـحَ هِدَايـةٍ ورَشـادٍ، وَأخـرَجَ مِنهُـم أَبْـطالًا فَاتِحيـنَ، لأنَّ الرجُـلَ تَواضـعَ فِـي مَطالـبِ الإيمَـانِ، وتقـدَّمَ بِدعْوتِـهِ إِلَـىٰ كُلِّ مَـن شَـهِدَ أنـهُ لَا إِلَـه إِلّا اللهُ، وَأَنَّ مُحمَّـدًا رَسُـولُ اللهِ، مَهْمَـا كَانَ مُقصِّـرًا فِيمَـا سِوَىٰ ذَلِـكَ مِـنْ تَعالِيـمِ الإِسْـلامِ وَأفـكَارِهِ، ثُـمَّ اسـتَدْرَكَ الإِمَـامُ البنَّـا مَـا فَاتَهُـمْ بِوصْفِـهِ المُعلِّـمَ المُوجِّـهَ النّاصِـحَ. وَإِنَّمَـا تَقـومُ الدعـوَاتُ عَلَـىٰ قُـدرَةِ المُعلِّـمِ وَإِخـلَاصِ التلاميـذِ، مَـا دَامَ المُعلِّـمُ مُتمكِّـنًا قَـادِرًا، ومَـا دامَ التلاميـذُ يَتصِفُـونَ بِالإِصْغَـاءِ وَالاتّبـاعِ، بِمَعنَىٰ: القُـدرَةِ عَلَـىٰ التعَلُّـمِ وَالاسـتِعْدَادِ للقَبـولِ، **وأَضَـافَ الإِمَـامُ البنَّـا صِفَـةً أخـرَىٰ، وَهِـيَ: حُسْـنُ الاسـتعدَادِ لِإِصْـلاحِ العيُـوبِ وَأَنْ يُكلِّفُـوا أنفُسَـهُم غَايـةَ مَـا يَسـتَطِيعُونُ**، وَلَيـسَ وَراءَ ذَلِـكَ شَـيءٌ فِـي مَطالِـبِ الإِيمَـانِ، بَـلْ يَكفِـي أَنْ يَكـونُ لَـدَىٰ الشَّـخصِ الراغِـبِ فِـي الانْضِمَـامِ إِلَـىٰ هَـذَا الصَّـفِّ؛ القُـدرَةُ عَلَـىٰ الإصغَـاءِ، والاستعدَادُ لِإصلَاحِ العيُـوبِ، والاستعْدَادُ لبَـذْلِ أَقْصَـىٰ مَا يَستَطِيعُ، والبَاقِـي يَنهَـضُ بِـهِ المُعلِّـمُ. وَمَـا جَـدوىٰ التلاميـذِ المُخلِصيـنَ إِذَا قَادَهُـم زُعَمَـاءُ أَغْـرارٌ، يَسـتَعجِلُونَ النتَائِـجَ قَبـلَ اكتِمَـالِ الوَسـائِلِ، وَيرضَـوْنَ مِـنَ الغَنِيمَـةِ بِالإِيَـابِ؟!

(34) حسن البنا: *مذكرات الدعوة والداعية*، تقديم الشيخ أبي الحسن الندوي. ص 19.
(35) انظر السابق، ص 85.

وَإِنَّمـا النَّهضَـاتُ: أَسْـلَافٌ يَـبدَؤُونَ، وَأَخْـلافٌ يُـتِمُّونَ، يَـزِيدُونَ البِنَـاءَ طَبقـةً، ويَقطَعُـونَ بِالأمَّـةِ شَوْطًـا ﴿**وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ [التوبـة: 105].

بِهـذَا الأسـلوبِ، وَذَلـك الجُمهـورِ اللذيْـنِ اختارَهُمـا الإمَـامُ البنَّـا رَحِمَهُ اللَّهُ استطَاعَ أَن يَدفَـعَ العَمـلَ الإسـلَامِيَّ إِلَـىٰ الحَـدِّ الـذِي وَصَـلَ إِلَيْـهِ وَأَنْ يُخـرِجَ مِـنْ هَـؤلاءِ البُسَـطاءِ المَغْمُورِيـنَ أُسُـودًا. أذكـرُ مِنهُـم نَموذَجًـا رَأيتُـه بنَفسِـي، وَأَنَـا فِـي السّـجنِ مَـعَ الأستـاذِ يُوسُـف هَـوَّاش رَحِمَهُ اللَّهُ وَكُنـتُ مَعـهُ فِي زنزَانـةٍ وَاحِـدَةٍ، وَأَذكـرُ أَنّهـم جَمَعُونَـا فِـي يـوم، وقَالُـوا غـدًا سَـتصْدُرُ الأحـكَامُ، فَجَعـلَ كُلُّ وَاحـدٍ يُفكِّـر: أَيأْخُـذُ حُكمًـا قَاسِـيًا أم تُخفَّـفُ الأحـكامُ فِـي ظِـلِّ الظُّـروفِ التِـي كُنّـا فِيهَـا؟ ثُـمَّ دَخلْـتُ الزنزانَـةَ بَعدَمَـا أعْلمُونَـا بِهـذَا الخَـبر، فَرأَيْـتُ الأستاذَ يُوسُـفَ هَـوّاش رَحِمَهُ اللَّهُ مُسترخِيًا فِي رُكـنٍ مِن أَركانِ الزنْـزَانةِ، يَضـعُ يَديـهِ المُشـبَّكتَينِ تَحتَ رَأْسِـهِ، وَيضـعُ إِحْـدَىٰ رِجْلَيـهِ عَلَىٰ الأُخـرَىٰ؛ أَيْ يَنـامُ هَادئًـا مُسْتَسْـلِمًا مُطْمَئِنًـا وَاثِـقًا غَيرَ مُكـترِثٍ كَأَنَّـه لَـم يَسـمَعْ مَـا سَـمِعْنَا!

فَلمَّـا رأيتُـه عَلَـىٰ هـذه الحَـالِ مِـنَ الاطمِئنَـانِ وَالهُـدوءِ، وَهُـوَ المُتَّهَـمُ رَقْـمُ (2)، وَأَنَـا المُتهَـمُ رَقـمُ (34)، شَـجَّعنِي أَنْ أسألَـه عَـن تَصـوُّرِهِ لأحـكامِ الغَـدِ، وكَيـفَ يَـرَاهَا؟ وَقَـدْ حَدثْـتُ نَـفْسِي: إِذَا كَانَ المُتهَـمُ رَقْـمُ (٢) عَلَـىٰ هَـذِهِ الحَـالِ مِـنَ الهُـدوءِ وَالسكِينَةِ، فَمُؤكَّـدٌ أَنّنِي سَـآخُذُ (بَـرَاءَة) وأَنَـا المُتهَـمُ رَقْـم (٣٤)، تَصـورْتُ ذَلِـكَ، فقلـتُ لَـه: تَسـمَحُ لِـي يـا أُسـتَاذ مُحمَّـد أَنْ أَسـأَلَكَ سُـؤَالًا؟ قَـالَ: تَـفضَّلْ، قُلـتُ لَـه: كيـفَ تَـرىٰ أَحْـكَامَ الغَـدِ؟ قَـالَ: أَمَّـا نَحـنُ فَمقتُولُـونَ لَا مَحَالـةَ، فَاسـتَغرَبْتُ مِـنَ الإجَابـةِ: مَقتُـولٌ لَا مَحالـةَ، وَتَجلِـسُ عَلَـىٰ هَـذِهِ الحَـالِ؟!

هـذَا نَمـوذَجٌ مِـنَ النمَـاذجِ الّتِـي رَبّاهَـا الإمـامُ البنَّـا رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَـىٰ عَينِـه، لَقَـد ظَفِـرُوا بِمُعلِّـمٍ قَديـرٍ وَهُـوَ الأُسـتَاذُ البَنَّـا رَحِمَهُ اللَّهُ، فَقُلْـتُ لَـهُ: ومَـا الحَـلُّ إذنْ؟ قَـالَ: أمَّـا نَحْـنُ فَقَـدْ تَهيَّأْنَـا لِلقَـاءِ اللهِ، يَـقصِدُ نَـفْسَهُ وَإِخوَانَـهُ، فُقلتُ: وَكَيـفَ تَـرَىٰ الغَـدَ بِالنسـبَةِ لنَـا نَحـنُ؟ قَـالَ: أمَّـا أَنتُـم، فَـإِذَا صَبرتُـمْ وَتَحمَّلتُـمْ حَتَّـىٰ تَخرُجُـوا بِالدَّعْـوَةِ مِـنْ هَـذَا المَـأْزِقِ بِصَبرِكُـم وتَحمُّلِكُـمْ فَسـوَفَ يَصنَـعُ اللهُ بِكُـمْ فِـي الأَرْضِ أَدْوَارًا عَمِيقَـةَ الآثَـارِ، المُهِـمُّ أَنْ تَصبِـرُوا وَتَـتحَمَّلُوا، وَلَـمْ يَكُـنْ هَـذَا الكَلامُ لِي وَحْـدِي بِالطَّبْـعِ، وَإِنمَـا كَانَ لإِخْـوَةٍ كَثِيرِيـنَ كانُـوا مَعِي، وَمِنهُـم الدكتُـورُ مُحمَّـد بَـدِيع المُرشِـدُ العَـامُّ، وَالدُّكتُـورُ مَحمُـود عِـزَّت نَائِبُ المُرشِـدِ، وَالأَخُ مُحمَّـد البُحيـرِيّ وغَيرُهُـم.

ثُـمَّ ذَهبْنَـا فِي اليَـوم التَّالِـي لِسَـمَاعِ الأَحْـكَام، وَلَـمْ نَـرَهُ بَعـدَ ذَلِـكَ، وَقَـد كَانَ مَـا قَـالَ؛ لأَنَّـهُ تَهيّـأَ وَاسـتعَدَّ لِلقَـاءِ اللهِ تعالَـىٰ، هَـلْ تَعلَمُـونَ أنّ مُؤهَّـلَ الأُسـتَاذِ مُحمَّـد هَـواش دُبلُـومُ تِجَـارَةٍ؟! لكـنّ هَـذَا الرجُـلَ نَمـوذجٌ لِلبُسـطاءِ المَغمُوريـنَ الذِيـنَ رَبّـىٰ مِنهُـم الإمـامُ البنَّـا رَحِمَهُ اللَّهُ أَبطـالًا وَاجَهُـوا المَـوْتَ لَا يَحفِلُـونَ بِمقَاومـةِ ذِي بَـأسٍ أَوْ سُـلطانٍ.

وَمِثْلُـهُ الأستَاذُ (يُوسُـفُ طَلْعَـت)، حَيـثُ كَانَ نَجَّـارًا، ولكنَّـه كَانَ مَسـؤُولَ النِّظَـام سَـنةَ (1954م)، وَقَـد كَتبَـتِ الجَريـدَةُ الفَرنْسِيةُ (وَهِـيَ الجَريـدةُ التِي سُـمحَ لَهـا بِحُضُـورِ تَنفيـذِ أَحْـكَام الإِعَـدام) بِالمَانشِـتّ الكَبِيـرِ، فِـي الصّفْحَـةِ الرّئِيسَـةِ تَحْـتَ صُـورِ السِّـتَّةِ الذِيـنَ نُـفِّذَ فِيهِـم حُكْـمُ الإِعـدَام، تقُـولُ: قَبـلَ دَقِيقَتيـنِ مِن تَنفيـذِ الحُكْـم، وَالأستَاذُ يُوسُـفُ طَلعَـت يُـدْخِلُ رَأسَـهُ فِـي حَبْـلِ المِشْـنقَةِ، وَالشَّـيخُ يَقـولُ لَـهُ: تَشَـهَّدْ، أَي انْطِـقْ بِالشَّـهَادَةِ، وَالضَّابِـطُ الوَاقِـفُ بِجِـوارِهِ يَسأَلُـهُ: عَايـز حَاجَـة يَـا يُوسُـف؟ فيـرُدُّ قَائـلًا، رافعًـا صَوتَـه، وَالـكُلُّ يَسْـمَعُ: «اللهُـمَّ سَـامِحْنِي وَسَـامِحْ مَـنْ ظَلَمَنِي وَأَسَـاءَ إِلـيَّ»، كَانَـتْ هَـذِه آخِـرُ كَلمـاتٍ قَالَهـا قَبـلَ تَنفيـذِ الحُكْـمِ.

فالإِمَـامُ البنَّـا تَواضَـعَ فِـي مَطالِـبِ الإِيمَـانِ، لأنّـهُ كَانَ وَاثقًـا فِـي قَدرَتِـه مُعلِّمًـا، يَسـتطِيعُ أنْ يَجعَـلَ مِـنْ بُسـطاءَ مَغمُوريـنَ أَبْطَـالًا فَاتحِيـنَ.

وَالإمـامُ البنَّـا نَـفْسُهُ كَتـبَ ذَلِـكَ، حِينَمَـا جَـاءَهُ المَكْوَجِـي وَالحَـلَّاقُ وَالنَّجَّـارُ وَغَيرُهُـم، مِنَ الستَّةِ الأوائِـلِ الذِينَ سـمِعُوا مِنهُ وَفَهِمُوا عَنهُ، وزَارُوهُ فِي بَيتِه وَأَبْـدَوْا تَأثرَهُـم بدَعوتِه وَعَزمَهُـم عَلَىٰ العَمل غَيرَ أَنّهـم لَا يَعرِفُـونَ السَّـبِيلَ[36]؛ وتَأثّـرُ هَـؤلاءِ البُسطاءِ بِأسـلُوبِ الإمـام البَنّـا رَحِمَهُ اللَّهُ دَلِيـلٌ وَاضِـحٌ عَلَىٰ أنَّ أُسلوبَ الرجُل كَانَ بَسيطًا مُباشِرًا فَريدًا، لَا يُطِيلُ وَلا يُمِلُّ، إِذْ كَانَ لَا يتجَـاوزُ عَشْـرَ دقائِقَ، يَقصِـدُ إِلَـىٰ المَعنَـىٰ الـذِي يُـرِيدُ تَوصيلَـه فَيوضِّحَـهُ وَيَشْـرَحَهُ شَـرْحًا يَـترُكُ أَثَـرُهِ فِي النفْسِ وَاضِحًا شَـافِيًا.

إنَّ كَثِيـرًا مِـن مَواقـفِ حَسـنِ البَنّـا رَحِمَهُ اللَّهُ تَـدُلَّ عَلَـىٰ أنّ هـذَا الشَّـابَّ كَانَ يَعـرِفُ غَايتَـه وَوِجْهَتَـه، ويَقصِدُهَـا مِـنْ أَقـرَبِ سَـبيل. يَذكـرُ الأسـتاذُ عَبـاسُ السِّيسـيُّ فِـي كِتابِـهِ (حَسـنُ البنَّـا مَواقـفُ فِـي الدَّعـوَةِ وَالتربيَـةِ) أَنَّ الطَّالِـبَ حَسـنَ البنَّـا حِيـنَ تقـدَّمَ إِلَـىٰ لجنـةِ الامتحَـانِ الشَّـفهِيِّ فِـي دَارِ العُلـومِ، سَـأَلَه أحـدُ المُمتَحِنَيْـنِ:

- مَاذَا تَحفَظُ مِنَ الشعْرِ القَديم؟
- فأجابَ: أَحفَظُ المعُلَّقاتِ السَّبعَ.
- قـالَ الأسـتَاذُ المُمتحِـنُ: أَسـمِعْنِي مُعلقـةَ طَرَفَـةَ بـنِ العَبْـدِ، فَأخـذَ حَسـنُ البنَّـا يَسـتظْهِرها فِـي فَصاحـةٍ وثَبـاتٍ، وَلمّـا تأكّـدَ المُمتَحِـنُ مِـن جَـودَةِ حِفْظِـهِ، قَـالَ لَـهُ: عَلَـىٰ رِسْـلِكَ، أُرِيـدُكَ أَنْ تَختـارَ بَيتًـا أعْجَبـكَ مِـنْ هَـذِهِ القَصِيـدَةِ، فَأطـرقَ حَسـنُ البنَّـا هُنَيْهـةً، ثُـمّ قَـالَ:

إِذَا القَـوْمُ قَـالُوا مَـنْ فَـتًىٰ خِلْـتُ أَنَّـنِي عُـنِيـتُ فَـلَمْ أَكْسَـلْ وَلَمْ أَتَبَلَّـدِ

(36) انظر حسن البنا: *مذكرات الدعوة والداعية*، ص 95.

فَما كَانَ مِنَ الأستاذِ المُمتحِنِ إلَّا أَنْ رَفعَ عِمَامَتَه مِنْ فَوقِ رَأسِهِ وَهُوَ يُردِّدُ: الله .. الله... فالتفَتَ إليهِ المُمتحِنُ الآخَرُ، وَقَالَ لَهُ: مَاذَا جَرَىٰ يَا مَولَانَا؟، فأَجابَهُ بأنَّ هذَا الفَتَىٰ – يَقْصِدُ حَسنَ البنّا – سَيكونُ لَهُ شَأنٌ عَظيمٌ، وَأَعادَ عَلَىٰ سَمعِهِ بَيتَ الشِّعرِ الذِي أَعجَبَ البنَّا مِنَ القَصيدَةِ، فَشاركَه إعْجَابَهُ وَتفَاؤُلَهُ.

وَيؤكِّدُ **الأستاذُ عباسُ السِّيسِيّ** سُهولةَ أُسلوبِ الإمَامِ البنَّا، وَنَفاذَهُ إلَىٰ القُلوبِ، إذ يقولُ: سَمعتُ قَبلَ أَنْ أَرَىٰ الإمَامَ البنَّا بِستّةِ أَشهُرٍ أَنَّه قَادِمٌ إلىٰ الإسكندريةِ لإلقاءِ محاضرةٍ فِي مَوْسِمٍ مِنَ المَواسِمِ الإسلاميةِ، فَقلتُ فِي نَفْسِي: لَو فَهِمْتُ كَلمتَينِ مِنَ الكَلامِ الذِي سيقُولُهُ هذَا الرجُلُ، فهذَا إنجازٌ عَظِيم جِدًّا؛ لأنني كُنتُ أَسْمَعُ أنّه مُجتهِدٌ لِقرُونٍ خَلَتْ؛ أَيْ عَالِمٌ كَبيرٌ جِدًّا، وتَوقَّعْتُ أَنْ يَتكلَّمَ بأسلُوبٍ لَا يَفهَمُه أَمْثالِي؛ لأنّنِي كُنتَ شَاويشًا بالجيشِ، مِنْ خِرِّيجِي المَدارسِ الثَّانويَّةِ العَسكريَّةِ، التِي تُخرِّجُ عُمَّالًا مَهَرَةً فِي الجَيشِ. ثُمَّ يقُولُ: فلمَّا حَضرْتُ المُحاضرَةَ وَسَمِعْتُ الرجُلَ وَهُوَ يتكَلَّمُ وجَدْتُهُ يُحدِّثُ النّاسِ وَكَأَنَّهُ يَعرِفُهُم وَيَعرفُونَهُ، وَلَم يَكُنْ أُسلُوبُ الإمام البنَّا هُوَ مَا يَجعَلُه يَصِلُ إِلَىٰ الناسِ فقَطْ، وَلكنَّ حضُورَهُ المُحبَّبَ نَفسَهُ لأنهُ كَانَ يُحدِّثُ الناسَ بِلَا غِلظَةٍ أَوِ استعْلاءٍ أَوْ تَأنيبٍ أو تَجريحٍ أَوْ لَومٍ.

وبِهَذَا الأسلوبِ البَسيطِ استطَاعَ البنَّا أَنْ يُقدِّمَ دَعوتَه، بِهَذِهِ الصيغَةِ مِنَ الحقِّ الّتِي أَرادَ أَنْ تَجتمِعَ عَلَيهَا القلوبُ مِنْ أَجْلِ إحيَاءِ أُمَّتِهِ، وَكَانَتْ هَذِهِ هِيَ الخُطْوةَ الأُولَىٰ، وَالخُطوَةُ الثَّانيةُ العَملُ المُنظَّمُ من خلالِ صفٍّ قَادرٍ عَلَىٰ العَملِ، قَادِرٍ عَلَىٰ التلاؤُمِ.

وَلكَي تَتحقَّق القُدرَةُ دَاخِلَ هَذَا الصَّفَّ، طَرحَ الإمَامُ البنَّا **أركَانَ البيعةِ**

العَشْـرَةَ؛ بَعضُهَـا يُحقِّـقُ مَطلَبَ (الصـفِّ القَادرِ علىٰ العَمَل)، وَبَعْضُها يُحَقِّـقُ مَطْلـبَ (القُـدْرَةِ عَلَـىٰ التـلاؤُم) داخـلَ هَـذَا الصَّـفِّ، وَهَـذِهِ الأَركانُ هِـيَ: (**الفَهـمُ، وَالإِخْـلاصُ، وَالعَمـلُ، وَالجِهَـادُ، وَالتضْحيَـةُ، وَالطَّاعَـةُ، وَالثَّـباتُ، وَالتَّجَـرُّدُ، وَالأُخُـوَّةُ، وَالثقَـةُ**).

وَقَـد أَشـرْنَا مِـن قَبـلُ إِلَـىٰ أَنَّ الغايـةَ التِـي تَغيّاهَـا الإِمَـامُ البنَـا لا تتحقّـقُ إِلَّا بعمَـلٍ مَنظَّـمٍ، وَمِنهَـاجٍ يَضبِـطُ ذَلِـكَ العَمَـلَ، ولهـذَا كانَـتِ البيعـةُ التي أخذَهَـا عَلَـىٰ إِخوَانِـه (**بَـيعَةً عَلَـىٰ عَمَـلٍ**)، وقـد أرادَ بهـذَه البيْعَـة -العَهْـد وَالمِيثَاق- أَنْ يتحقّـق فِي هـذَا العَمـلِ عنصـرُ (الالتـزام) وأَلّا يَخضَـعَ للأهـوَاءِ، ثُـمَّ أرادَ لِهـذَا العَمـلِ أَن يَسِـيرَ وَفْـقَ مِنْهَـاجٍ يُنتـجُ فائـدةً، ويُـؤَدِّي وَاجِبًـا، ويُـزِيلَ عوائقَ.

وَحتّـىٰ تُؤتِـيَ تِلْـكَ البيعـةُ ثِمارَهـا، وضـعَ لهـا الإمـامُ البنَـا ضوَابـطَ تَعْصِـمُ العَامليـنَ المُتحقِّقيـنَ بأركانِهـا مِـنْ سُـوءِ الفهـمِ، أَو غَبـشِ الرؤْيَـةِ، أو اسْـتِبطَاءِ التمْكيـنِ، أو تَمـزُّقِ الروابـطِ، أَوْ فِقـدَانِ الثقَـةِ، وَتَمثلَـتْ تِلـكَ الضوابـطُ فِي (الأركانِ العَشْـرة) التِي تَضمَّنَتْهَـا رِسَالَـةُ البيعـةِ أَوِ (التعَالِيـم)، وَهَـذِهِ الأركانُ العَشـرة دُليـلٌ كَذلِـكَ عَلَـىٰ حِـرْصِ الإِمَـامِ البنّـا عَلَـىٰ التفْصِيـلِ وَوضُـوحِ الرؤْيَـةِ، فَلـم يَأْخـذْ مِـن إخوانِـه بيعـةً علَـىٰ أمـرٍ غَامـضٍ أَوْ عمـلٍ مُبهَـمٍ، وإِنَّمَـا وَضَّـحَ الأَركانَ التِـي يُبايـعُ عَلَيْهَـا كُلّ أخٍ يُريـدُ أَنْ يَنضَـمَّ إِلـىٰ كَتيبـةِ العَامليـنَ المُجاهديـنَ، لِيعْمَـلَ مَـعَ إخوانِـه مُطْمئِنًـا، لا يَستَشْـعِرُ أنّـه يُطِيـعُ طاعـةً عَميـاءَ، وَلكنّـه يُطِيـعُ وَفْـقَ رُؤيَـةٍ واضِحَـةٍ، وَعَهـدٍ أَوْ مِيثَـاقٍ وَاضِـحِ الأَرْكَانِ؛ إِذْ كانَ الإِمـامُ البنّـا يَـرَىٰ أَنَّ مُقتضيـاتِ الإِيمَـانِ: حُـبٌّ وبَـذْلٌ، ولَـن يَبـذُلَ عاقـلٌ فِي سَـبيلِ دَعـوةٍ لَا يُحبُّهَـا، وَلَا يَـفْهَمُهَا.

وَسَـتكونُ لَنـا وِقْفَـةٌ - بِـإِذنِ اللهِ تَعَالَـىٰ - مَـعَ كُلِّ رُكـنٍ مِـن هَـذِهِ الأَركَانِ، نُحـاوِلُ فِيهَا أَنْ نَستخْلِصَ أَهَمَّ مَلامِحِهِ، وَظِلالِـهِ الهَادِيَـةِ فِي الدَّعـوَةِ وَالحركَةِ.

رُكنُ الفَهمِ

الـفَهْمُ أَوَّلُ الأَركَانِ

أرادَ الإمـامُ البنـا لدعـوةِ الإخـوانِ المسـلمينَ أنْ تكـونَ عَمـلًا مُؤسَّسِـيًّا منظمًـا، ووضـعَ لهـذَا التَّنظيـمِ قَواعِـدَ صَارِمـةً، ممثلـةً فِـي أركانِ البيعـة؛ كـيْ يتحقَـق بِهَـا الصـفُّ القـادرُ المُنضبِـطُ المُستقِـرُّ مِـن ناحيـةٍ، وَلكَـيْ تَمنـح ذَلـكَ الصـفَّ المنضَبِـطَ القُـدرةَ عَلَـىٰ التـلاؤُم مِـن نَاحيَـةٍ أُخـرَىٰ؛ لأن السـيرَ المُشـتركَ يَحتـاجُ إِلَـىٰ قـدرٍ مِـنَ الفَهْـمِ المُشْـتَركِ.

ومِـن ثَـمَّ لَـم يَكُـنْ غَريبـا أنْ يَجعـلَ الإمـامُ البنَّـا رُكنَ «**الْـفَهم**» الركـنَ الأوّلَ مِـن أركَانِ البيعَـة؛ لأنَّـهُ آمـنَ بـأنَّ «**حقيقَـةَ الإيمَـانِ بِـاللهِ هِـيَ حَقيقَـةُ الفَهـمِ عَنـهُ**»، كمَـا كانَ يقُـولُ، ثُـمَّ وضـعَ بيـنَ يَـدَي الصـفِّ عِشـرينَ أَصْـلًا للفهـمِ، اسـتَخْلَصَهَا مـن قراءاتِـهِ الواسِـعَةِ للعلـومِ الإسـلاميةِ؛ كالعَقيـدَةِ، وَالفقـهِ وأُصولِـه، والسـنةِ وعلومِهَـا، والتفْسـيرِ وعلـوم القـرآنِ، وَالسياسَـةِ الشَّـرعِيَّةِ؛ لِتكـونَ تِلـكَ الأُصـولُ عَونًـا عَلَـىٰ اختيـارِ الصـوَابِ، وَإِنْ تَزاحمَـتِ البدائـلُ، وكثـرَ الضجيـجُ.

وأذكـرُ فِـي هـذَا السياقِ أنّ بعـضَ مُعاصِريـهِ سألَـهُ أَنْ يَضـعَ كُتبًـا فِـي تِلـكَ العلـومِ وَالأفكارِ؛ فأجابَـه إجابَـةَ العالـم الحصيـفِ المـدركِ لفقـه الأولويـاتِ فيمـا تحتـاج إليـهِ الأمـة: «**إِنَّ الإسـلامَ فِـي حاجـةٍ إِلَـىٰ تأليـفِ الرجـالِ الذيـنَ خَلـتْ مِنهـم تِلـكَ الـدورُ والقصُـورُ**»، مِمَّـا يَعنِـي أنَّ فَهـمَ الإمَـامِ البنَّـا الواسـعَ الفَسـيحَ قَـد أَسـعَفَه فـأدركَ وَاجِـبَ وَقتِـه، ولِـذَا ضَحَّـىٰ ببعثـةٍ أُتيحَـتْ لَـه، وَتَخلَّـىٰ عَـن الوظيفـةِ، ورَضِـيَ براتِـبٍ تقاعـدِيٍّ قليـلٍ؛ لِيتفـرَّغَ لأدَاءِ وَاجبِـه،

ويَكـونَ بيـنَ إِخْوانِـه ليـلًا ونَهـارًا.

والسؤالُ: لِمَ جعلَ الإمامُ البنَّا (الفَهْمَ) أَوَّلَ أَرْكَانِ البيعةِ؟

لقَـد تجَلَّىٰ فقـهُ الإمـام البنَّـا وفَهمُـه العَمِيـقُ الدقيـقُ فِـي تَرتِيبِـهِ أركانَ البيعَـةِ العَشْـرة؛ إِذْ كَانَ يُتصـوَّرُ أَوْ يُتوقَّـعُ، أنْ يَجعـلَ رُكْـنَ (العَمَـل) أول هذه الأركانِ، مَـا دَامَـتْ البيعـةُ فِي دعـوةِ (الإخـوان المسـلمينَ) بيعـةً عَلَـىٰ العَمـل، لَكنَّـه قَـدّمَ رُكنَـي (الْـفَهْم وَالإخـلاص) عَلَـىٰ رُكْـنِ (العَمَـل)، وهـو **ركـنُ الأركانِ فِـي بَيعتِنَـا**، لأنّهُمَـا شَـرطانِ لقُبـولِ أيِّ عَمـل، مُنظَّمًـا كَانَ أَوْ غيـرَ مُنظَّـمْ، فمَـنْ عَمِـلَ بغَيـرِ فَهـمٍ ضَـلَّ وأَضَـلَّ، وَمَـنِ افتقـدَ الإخـلاصَ فيمـا يعمـلُ، فَعمَلُـه مَـردُودٌ غَيـرُ مَقبـولٍ، وكَأَنِّـي بالإمـام البنَّـا رَحِمَهُ اللَّهُ قـدَ وضـعَ نُصـبَ عَينيـهِ قولَـةَ فضيـل بـنِ عِيـاضٍ التِـي اشـترطتِ (الفهـمَ والإخـلاصَ) لِـكلِّ عَمـل حَسـنٍ مَقبـولٍ، قَـالَ فُضيـلُ بـنُ عِيـاضٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي تفسـيرِ قـولِ اللهِ تعالَـىٰ: ﴿**لِيَبْلُوَكُـمْ أَيُّكُـمْ أَحْسَـنُ عَمَـلًا**﴾ [الملك: 2]: «أَحْسَـن عَمـلًا: أَخْلَصُـهُ وأَصْوَبُـهُ. وقَالَ: العَمـلُ لَا يُقبَـلُ حتَّىٰ يَكـونَ خَالِصًـا صَوابًـا، الخالـصُ: إذا كَانَ للهِ، وَالصَّوابُ: إِذَا كَانَ عَلَـىٰ السُّـنةِ»[37].

وَفِـي كِتَـابِ العِلْـمِ مِـنْ صَحِيـحِ البُخَـارِيِّ، نَـرَىٰ الإِمَـامَ البُخَـارِيَّ يُتَرْجِـمُ بَابًـا بِعُنْـوَانِ: «بَـابُ العِلْـمِ قَبْـلَ القَـوْلِ وَالعَمَـلِ»، ثُـمَّ يَسْـتَدِلُّ لِذَلِـكَ بِقَـوْلِ اللهِ تَعَالَـىٰ: ﴿فَاعْلَـمْ أَنَّـهُ لَا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ﴾ [مُحَمَّـد: 19]، وَيَقُـولُ: «فَبَـدَأَ بِالعِلْـمِ، وَأَنَّ العُلَمَـاءَ هُـمْ وَرَثَـةُ الأَنْبِيَـاءِ، وَرَّثُـوا العِلْـمَ، مَـنْ أَخَـذَهُ أَخَـذَ بِحَـظٍّ وَافِـرٍ، وَمَـنْ سَـلَكَ طَرِيقًـا يَطْلُـبُ بِـهِ عِلْمًـا سَـهَّلَ اللهُ لَـهُ طَرِيقًـا إِلَـىٰ الجَنَّـةِ». ثُـمَّ أَوْرَدَ قَوْلَـهُ تَعَالَـىٰ: ﴿إِنَّمَـا يَخْشَـىٰ اللهَ مِـنْ عِبَـادِهِ العُلَمَـاءُ﴾ [فَاطِـر: 28]، وَقَوْلَـهُ: ﴿وَمَـا يَعْقِلُهَـا إِلَّا العَالِمُـونَ﴾ [العَنْكَبُـوت: 43]، وَقَوْلَـهُ: ﴿وَقَالُـوا لَـوْ كُنَّـا

(37) انظر *تفسير البغوي*: 5/ 124.

نَسْـمَعُ أَوْ نَعْقِـلُ مَـا كُنَّـا فِـي أَصْحَـابِ السَّـعِيرِ﴾ [المُلْك: 10]، وَقَوْلَـهُ: ﴿هَـلْ يَسْـتَوِي الَّذِيـنَ يَعْلَمُـونَ وَالَّذِيـنَ لَا يَعْلَمُـونَ﴾ [الزُّمَـر: 9]. وَأَوْرَدَ قَـوْلَ النَّبِـيِّ ﷺ: «مَـنْ يُـرِدِ اللهُ بِـهِ خَيْـرًا يُفَقِّهْـهُ فِـي الدِّيـنِ»[38].

وَهَلِ العِلمُ والفَهْمُ وَالفِقْهُ، إلَّا ألفَاظٌ مُترادفَةٌ في المَعَنَىٰ اللُّغويِّ العَامّ؟

وَمِـنْ ثَـمّ بَـدَأَ الإمـامُ البنّـا بِالفَهْـمِ حَتَّـىٰ يَنضَـمَّ الأخُ إلـىٰ كَتيبَـةِ العَامليـنَ عَلَـىٰ بَصِيـرَةٍ مِن أَمْـرِهِ ﴿**قُـلْ هَـذِهِ سَـبِيلِي أَدْعُـو إِلَـىٰ اللهِ عَلَـىٰ بَصِيـرَةٍ أَنَـا وَمَـنِ اتَّبَعَنِـي وَسُـبْحَانَ اللهِ وَمَـا أَنَـا مِـنَ الْمُشْـرِكِينَ**﴾ [يوسـف: 108]. أرادَ الإمـامُ البنـا أنْ يَشعُـرَ كلُّ أخٍ عَامـلٍ أنـه اختَـارَ تِلـكَ السَّـبيلَ عَـن فَهْـمٍ وعِلْـمٍ، حَتـىٰ يشعُـرَ أنَّـه أحسـنَ الاختيـارَ، واهتَـدَىٰ إلـىٰ طريـقِ الحـقِّ، ولا تَتطـرّق إلـىٰ قلبـه شُـبهة، تُـثيرُ لديـهِ الشَّـكَّ والارتيـابَ، ولأنـه يـرىٰ أن حقيقـةَ الإيمـان هِـيَ الفَهْـمُ عـن الله.

وَكَانَ الإِمَـامُ البَنَّـا يُـدْرِكُ أَنَّ مِـنَ القَضَايَـا مَـا تَعْظُـمُ فِيـهِ تَبِعَـةُ الخَطَـأ، وَلَا تَحْتَمِـلُ العَثَـرَاتِ غَيْـرَ المَحْسُـوبَةِ، وَفِـي مُقَدِّمَتِهَـا قَضَايَـا الدِّيـنِ وَالحَـرْبِ وَالسِّيَاسَـةِ. فالخطـأُ في الديـنِ: ضَيـاعٌ للدُّنيَـا والآخِـرَةِ، والخَطـأُ في الحَـربِ: إنْهَـاكٌ لِلأمَّـةِ وَتَـبديدٌ لمُقدرَاتِهَـا، وَالخَطـأُ فِـي السيَاسَـةِ: إعنَـاتٌ لِلأمَّـةِ وَتَحمِيلُهـا مَـا لا تطيـقُ.

ولأنَّ الفَهـم عَاصِـمٌ - بعـدَ الله- مِـنَ الخطـأ؛ بَـدأَ بـهِ الإمـامُ البنَّـا أركانَ بَيعتِهِ، حتَّىٰ تَصِحَّ البدايـاتُ فتَصِحَّ النهَايـاتُ، فَالبِدَايَـاتُ السَّـلِيمَةُ تَهْـدِي إِلَىٰ نِهَايَـاتٍ سَـلِيمَةٍ، أَمَّـا البِدَايَـاتُ الخَاطِئَـةُ فَـلَا تُفْضِـي إِلَـىٰ غَايَـةٍ، وَلَا تَبْنِـي عَمَـلًا رَاسِـخًا.

(38) انظر صحيح *البخاري*: كتاب العلم.

ولكـيْ تُـدركَ قيمـةَ (الفَهْـمِ) وأَهميتَـهُ في بدايـةِ كل عمـل، فتذكَّـرْ مَعِـي أخِـي الكَريـم أنّ سـوءَ الفَهْـمِ عَـن اللهِ ورسُـولِهِ قـد نَخـرَ كالسُّـوسِ في بنيـانِ هـذه الأمـةِ، ومَزَّقَهَـا شِـيعًا وَفِـرقًا، وقَدِيمًـا قالُـوا: «**وَبِضِدِّهَـا تَتميـزُ الأَشـيَاءُ**«؛ لأن هنـاكَ أمـورًا لا تُعـرَفُ مَحاسِنُها إِلَّا إذا عُرِفَـتْ مَسـاوِئُ أَضدَادِهَـا، فَليسَ يَعـرِفُ محاسِـنَ الإسـلامِ إِلَّا مَـن خَـبرَ مَسـاوِئَ الجَاهليـةِ، وليـسَ يَعـرِفُ مَحاسِـنَ الفَهْـمِ الصَّائـبِ إِلَّا مَـنْ عَـرفَ العَواقِـبَ الوَخِيمَـةَ لسُـوءِ الفَهْـمِ، وكيـفَ كانَ وَبـالًا عَلَـىٰ أمتِنَـا، وَمَـا أصـدقَ الشَّـاعِرَ العربـيَّ حِيـنَ قَـالَ:

وَالـضِّـدُّ يُـظهِـرُ حُسْنَهُ الضِدُّ(39)

فـإِنْ أَردْتَ قَـولًا جَامِعًـا شـافيًا فِـي هذيـنِ الضِّديْـنِ؛ فَخيرُ مَـن يُنبِيـكَ بِذلِكَ العلَّامـةُ ابـنُ القَيِّـمِ؛ حيـثُ يقـولُ فِـي كتابِـه (الـروح): «أَنْ يُفهَـمَ عَـن الرسُـولِ ﷺ مُـرادَهُ مِـن غيـرِ غُلُـوٍّ ولَا تَقصيـرٍ، فَـلا يُحمَّـلَ كَلامُـه مـا لا يحتَمِلُـهُ، وَلا يُـقَصَّرَ بـهِ عَـن مُـرادِه وَمَـا قصَـدَه مِـنَ الهُـدَىٰ والبيَـانِ. وقَـد حَصَـلَ بِإهمَـالِ ذَلِـكَ والعـدُولِ عَنـهُ مِـنَ الضـلال والعُـدولِ عَـن الصـوابِ مَـا لا يَعلمُـه إلا اللهُ. بَـل سُـوءُ الفهْـمِ عَـنِ الله ورسـولِهِ أَصـلُ كلِّ بدعـةٍ وضَلالـةٍ نشـأت في الإسْـلام، بَـل هُـوَ أصـلُ كلِّ خَطـأٍ فِـي الأصُـولِ والفُـروع؛ لَا سيَّما إِنْ أُضيـفَ إِلَيـه سُـوءُ القَصْـدِ، فَيتفِـقُ سُـوءُ الفهـم في بعـضِ الأشـياءِ مِـنَ المتبُـوعِ مَـعَ حُسْـن قَصْـدِهِ، وسـوءُ القصـدِ مـن التَّابـعِ. فيَـا مِحنـةَ الديـنِ وَأَهلِـهِ! واللهُ المُستعَانُ.

وَهَـل أَوقـعَ القَدريَّـةَ وَالمُرجئَـةَ وَالخـوَارِجَ والمُعتزِلَـةَ والجَهميّـةَ والرَّافضَـةَ وسَائِـرَ طوائـفِ أهـلِ البِـدَعِ إِلَّا سُـوءُ الفَهْـمِ عَـنِ الله ورسُـولِه، حَتَّـىٰ صَـارَ

(39) هذَا عَجُزُ بَيتٍ مِنْ قصيدةٍ تُعرفُ بِـ (القَصيدَةِ اليتيمَةِ)، وهذَا تَمامُهُ:

ضِـدَّانِ لَمَّا اسْتُجْمِعَا حَسُـنَا وَالـضِّـدُّ يُـظهِـرُ حُسْنَهُ الضِـدُّ

وَهِيَ مِن قصَائِـدِ العَربِ الشَّـهيرَةِ، لَكـنَّ العلمـاءَ مختلفُـونَ في نِسبتِهَا، ومِنهُـم مـن نَسَـبَها إِلَـىٰ الشـاعرِ دَوْقَلَـةَ المَنْبِجِي. قيـلَ إِنَّهـا سُـمِّيت باليتيمـةِ؛ لأنَّ صاحبَهـا (دَوْقَلَـةَ) لَـم يَكتُـبْ غيرَهَـا، وقيـلَ: لأَنَّهـا لا شَـبِيهَ لهَـا في الشـعرِ العَربـيِّ؛ لقـوَّة معَانِيهَـا ووضـوحِ مقاصِدِهَـا.

الدِّينُ بأيدِي أكثَرِ النَّاسِ هُوَ مُوجَبَ[ما أوجبته] هذِهِ الأفهامِ! وَالذِي فَهِمَهُ الصحَابةُ وَمَن تَبِعَهم عَنِ اللهِ وَرَسُولِه، فَمهجُورٌ لَا يُلتفَتُ إليهِ، وَلَا يَرفَعُ هؤلاءِ بِهِ رَأْسًا!»[40]. هذَا نموذجٌ لوَعيِ السلَفِ بِخطُورَةِ سُوءِ الفَهم ومَغبّتِه.

وَفِي المُعاصِرينَ كذَلِكَ مَن يَضعُ أَيدِيَنا علَىٰ أهميَّة (الفَهْمِ)، وَيُبيّنُ مَخاطِرَ الانحرافِ أوِ الخَلل فِيهِ، يقولُ د. عبدُ المجيدِ النَّجار في كتابه القيّم (فقهُ التدَيّن فَهمًا وتَنزيلًا): «وتُعتَبرُ مرحلةُ الفَهم المرحلةَ الأساسيةَ فِي التَّديُّنِ، باعتِبَارِ أنّها يتوقّفُ عَليهَا تَمثُّلُ حَقيقةِ الدِّينِ، التِي سَتصبحُ عَقيدَةً وسُلوكًا، فالخَللُ الذِي يَطرأُ فِيهَا، يُفضِي إلَىٰ أن التدينَ سَيكونُ جَاريًا علَىٰ باطل، غَيرِ مُرادِ اللهِ تعَالَىٰ، بقَدرِ ذَلِكَ الخَلل الطَّارئِ في الفَهْمِ، وهوَ ما يؤدِّي حَتْمًا إلىٰ بَوَارٍ في حياة الإنسَانِ، بحَسَبِ الباطل الذِي يَجرِي عليهِ التديُنُ، والحالُ أنَّ التدينَ غَايتُه تَسديدُ الحياةِ بحقِيقَةِ الدِّينِ، وتحقيقُ مَصلحةِ الإنسانِ، التي هي الغرضُ الأعلَىٰ لأصل الدّينِ... وَلذَلِكَ فَإنَّ الخَلَلَ الذِي يَطرأُ في تنزيل الدِّين عَلَىٰ وَاقع الحياةِ، يؤدِّي مِن طَرفٍ قَريبٍ فِي عِصيانِ الأحكَام، إلَىٰ المُروقِ مِنَ الإسلام، كَمَا رَآهُ بعضُ المُسلمينَ مِثلَ المُعتزلَةِ وَالخوارج، وهوَ يُؤَدِّي عندَ سائرِ المُسلِمِينَ إلَىٰ وضعِ إيمَانِي شَديدِ الضعفِ يكادُ لا يُغنِي في ميزانِ الدِّينِ شَيئًا»[41].

ولَقدْ وَرِثَتْ أمّتُنا الإسلاميةُ صُورًا كثيرةً مِن صُورِ الانحرَافِ فِي الفَهْمِ؛ مِثلَما وجدْنَا بَعضَ الفرقِ تُسرِفُ في تَمجِيدِ العقْلِ حَتَّىٰ لَتكَادُ تُؤلِّهُهُ، وتقَدِّمُهُ علَىٰ الوحي، بلْ تُحاصِرُ الوحيَ حتَّىٰ لتكَادُ تُلغِيهِ، كمَا

(40) ابن قيم الجوزية: *كتاب الروح*، ط 3، دار ابن حزم، ص 183.
(41) د. عبد المجيد النجار: *فقه التدين فهمًا وتنزيلًا*، سلسلة كتاب الأمة، 2/ 18.

وجدْنَا بعضَ فِـرَقِ الصوفيةِ تُحبِّبْ إلَىٰ الناسِ السَّلبيّةَ، وَتُـزيِّنُ لَهم العُزلَـةَ وَالانْسِحَابَ من إصلاحِ المجتمعِ وتقْويمِه، ووَجَدْنَا مَن يُـفتَنَ بالشبهاتِ الّتِي أثارَهَا اليهودُ والنصَارَىٰ حولَ كتابِ اللهِ تعالىٰ، ومَا تولَّد عَنهَا؛ مِثلَ فِتنةِ (خَلْقِ القُرآن)، التِي امْتُحِنَ فِيهَا الإمامُ أحمدُ بنُ حَنبل، وَوجَدنَا كَذَلِكَ مَنْ يُرجعُ سَببَ الواقعِ البَئِيسِ الذي تحياهُ الأمةُ إلىٰ تَمَسُّكِها بنصوصِ الوحْي (الكتَابِ وَالسُّنةِ) اللذيـنِ تجاوزَهُمَا، ثم يزعمُ أمثالُ هؤلاءِ أنَّ التجديدَ لن يتحققَ إلَّا بِاطّراحِ الكِتَابِ والسُّنةِ، أو النظرِ إلَيهمَا عَلَىٰ أنّهمَا كأقوالِ الرجَالِ، أو أنّهما نَوعٌ مِنَ التراثِ قابلٌ للفَحصِ والاختبارِ، قابلٌ للتردُّدِ والشكِّ، قَابلٌ للتأجيلِ والطعنِ!!

أدركَ الإمامُ البنَّا أنَّ مِثلَ هَذهِ الأفكارِ المُنحرفةِ، والشُّبهَاتِ المُتزاحِمَة، تُربِكُ المُسلِمَ المُعاصِرَ، وَتَصرِفُهُ عَن السَّبيلِ القَويم، وَالنهْجِ المُستقِيمِ في اتخَاذِ الإِسْلَامِ مِنهَاجَ حَياةٍ، ولِهذَا قدَّمَ لِهذَا الجِيلِ الحائرِ مَبادِئَ فَهمٍ تُعينُه عَلَىٰ اختيارِ الصوَابِ رُغْمَ تزاحُمِ البدَائلِ، وَضَجيجِ الأصوَاتِ، فبدأَ أَركانَ البيعَةِ بركنِ (الفَهْمِ).

وَحَريٌّ بِنَا أنْ نَذْكُرَ الكلماتِ التِي قدَّمَ بِها الإمامُ البنَّا رسَالةَ البيعَةِ أَوِ (التعَاليم)، لِيُدرِكَ كلُّ أخٍ أنَّ هذهِ الرسَالةَ تَحديدًا لَم تَكُنْ تَرفًا فِكْريًّا يقْرؤُهَا الإخوَانُ فَيُعجَبُونَ بِبلاغَةِ إِمَامِهم ودِقَّتِه وَإيجَازِهِ، وَلكنَّها كَمَا قَالَ «**تَعلِيمَاتٌ تُنَفَّذُ**»؛ وَلِهذَا خَصَّ بِهَا الإِمَامُ البنَّا الإِخوَانَ المجاهدينَ من الإخوانِ المُسْلمينَ؛ الذيـنَ آمنُوا بأنَّ دَعوَتَهُم أَسْمَىٰ الدعوَاتِ، وَلَمْ يُقدِّمْهَا لكلِّ مَن صَحِبَ الإِخْوانَ، ومَا زَالَ مرتابًا يقدِّمُ رِجْلًا ويُؤَخِّرُ أُخْرَىٰ؛ لأنَّ الخللَ فِي أَيِّ رُكنٍ من أركانِ البيعَةِ، مَعناهُ أنَّ الجماعةَ تَنكبَّتِ الطَّريقَ، وضَلَّتِ السبيلَ.

يقـولُ الإمـامُ البنَّـا في مُقدمـةِ رِسَـالةِ البَيعـةِ (التَّعاليم): «الحَمـدُ للهِ والصلاةُ وَالسـلامُ عَلَـىٰ إمَـامِ المُتقيـنَ، وقَائـدِ المُجاهديـنَ سيـدِنَا مُحمـدٍ النبِـيِّ الأمـيِّ، وَعَلَـىٰ آلِـهِ وَصَحبِـه وَمَـن تَبِـعَ هُداهُـم إلـىٰ يـومِ الدِّيـنِ.

أمَّا بَعْـدُ:

فَهـذِهِ رِسَـالتِي إِلَـىٰ الإِخْـوَانِ المُجاهديـنَ مِـنَ الإخـوانِ المُسـلِمينَ الذيـن آمنُـوا بِسُـمُوِّ دَعوتِهـم، وَقُدسِـيّةِ فِكرتِهـم، وَعَزمُـوا صَادقيـنَ علَـىٰ أنْ يَعيشُـوا بِهـا، أَوْ يَموتُـوا فِـي سَـبيلِهَا، إِلَـىٰ هَـؤلاءِ الإخـوانِ فَقـطْ أُوجِّـهُ هَـذِهِ الكَلمَـاتِ، وَهِـيَ لَيسَـتْ دُرُوسًـا تُحفَـظُ، ولكنَّهـا تَعليمَـاتٌ تُنَـفَّذُ، فإِلَـىٰ العَمـلِ أيهَـا الإخـوانُ الصَّادقُـونَ: ﴿وَقُـلِ اعْمَلُـوا فَسَـيَرَى اللهُ عَمَلَكُـمْ وَرَسُـولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَـتُرَدُّونَ إِلَـىٰ عَالِـمِ الْغَيْـبِ وَالشَّـهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُـمْ بِمَـا كُنْتُـمْ تَعْمَلُـونَ﴾ [التوبـة:105]، ﴿وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْـتَقِيمًا فَاتَّبِعُـوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّـبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُـمْ عَـنْ سَـبِيلِهِ ذَلِكُـمْ وَصَّاكُـمْ بِـهِ لَعَلَّكُـمْ تَتَّقُـونَ﴾ (الأنعـام:١٥٣). أمّـا غيـرُ هـؤلاءِ.. فَلهُـم دُروسٌ وَمُحاضـرَاتٌ، وكُتـبٌ وَمَقـالاتٌ، ومظَاهِـرُ وإداريّـاتٌ، ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَـةٌ هُـوَ مُوَلِّيهَـا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْـرَاتِ﴾ [البقـرة: ١٤٨]، وَكُلًّا وعـدَ اللهُ الحُسْـنَىٰ.

وَالسلامُ عَليكُم ورحمَةُ اللهِ وبَركاتُهُ

حَسَن البنَّا»[42].

ثُـمَّ عَـرَّفَ الإمَـامُ البنَّـا رَحِمَهُ اللهُ رُكْـنَ (الفَهْـم)، فقَـالَ: «إنَّمـا أريـدُ بِالفهْـمِ: أَنْ تُوقِـنَ بـأنَّ فِكرتَنـا «**إِسْـلاميّةٌ صَمِيمـةٌ**»، وَأَن تَفهـمَ الإِسْـلامَ كَمـا نَـفهمُه، فِـي حُـدودِ هَـذِهِ الأُصـولِ العِشـرينَ المُوجـزةَ كُلَّ الإيجَـازِ ....»[43].

ثُـمَّ أخـذَ يَسـرُدُ أُصُـولَ الفَهـمِ العِشـرينَ أَصْـلًا أَصْـلًا، ويَحتـاجُ كُلُّ أَصـلٍ

(42) حسن البنا: مجموعة رسائل الإمام البنا، *رسالة التعاليم*، ص 368.

(43) السابق: الصفحة نفسها.

مِنْهـا إِلَـىٰ وِقفـةٍ خاصـةٍ؛ ولَقـدْ عُنِـيَ بِهَـا بعـضُ العُلمـاءِ فَشـرحُوهَا، وَمِنْهُـم - تَمثيـلًا لا حَصْـرًا - الأُسـتاذُ جُمعـةُ أَمِيـن رَحِمَهُ اللَّهُ؛ حيـثُ شـرحَها في كتابـهِ (فَهـمُ الإسـلامِ فِـي ظـلالِ الأُصُـولِ العِشـرينَ)، وشَـرحَها مِـنْ قَبلِـه الشـيخُ الغزالـيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابـهِ المهـم (دُسـتورُ الوَحـدةِ الثقافيـةِ بيـنَ المُسـلمينَ)، وعنـوانُ الشـيخِ الغَزالـيِّ نَاطـقٌ بقيمَـةِ هَـذهِ الأصـولِ التِـي قدَّمَهـا البنّـا رَحِمَهُ اللَّهُ، وَكَأَنِّـي بِالشـيخِ الغَزالِـي ينصَـحُ بِهـذَا العُنـوانِ المُسـلمينَ، ويَهمِـسُ في آذانِهِـمْ: أيهَـا المُسـلِمُونَ: إذَا أردتُـم دُسـتُورًا يوحِّدُكُـم فِكريًّـا ومَعرفيًّـا وثَقافيًـا، فعَليكُـم بأصُـولِ الفَهـمِ العِشـرينَ التِـي صَاغَهَـا الإمَـامُ البنَّـا رَحِمَهُ اللَّهُ.

مَواقِفُ فِي الفَهمِ السَّدِيدِ

وَفِي أقـوالِ قَـادَةِ الدعـوَةِ، وَمواقِفِهـم مَـا يُؤكِّـد هـذَا الفَهْـمَ الشـامِلَ العَميـقَ لرسَـالَةِ الإسْـلامِ، ودَورِهَـا فِي نَهضَـةِ الأُمَّـةِ واسـتردَادِ عِزّتِهَـا السَّـليبةِ.

فالإمـامُ البنَّـا رَحِمَهُ اللَّهُكانَ يـرىٰ بفَهمِـهِ الثَّاقـبِ أنَّ مُسـاندَةَ المُسـلِمِينَ لدعْـوَةِ الإخـوانِ؛ وَاجِـبٌ لَا يَـنبغِي لِمُسْـلِمٍ أنْ يَتخلَّـفَ عَنـهُ؛ لأنـهُ رَآهـا أَمـلَ الأمـةِ فِي العِـزةِ وَالكرامـةِ، ومِـن أقوَالِـه: «لِيَحْـرِصْ كُلُّ أَخٍ عَلَـىٰ الاجتِمَاعَـاتِ المُحـدَّدَةِ مَهمَـا كَانـتْ أَعـذَارُهُ، ثُـم لْيبَـادِرْ كُلُّ مِنكُـم إِلَـىٰ تَسـديدِ مَـا عَليـهِ لِصُنـدُوقِ أُسْرَتِـهِ، حَتَّـىٰ لَا يتخَلَّـفَ عَـنِ الوَاجِبَـاتِ مُتخلِّـفٌ؛ فَـإِذَا أَديتُـم هَـذِهِ الوَاجِبَـاتِ الفَرديـةَ وَالاجتمَاعيّـةَ فَـإِنَّ أركَانَ هـذا النظـام سَـتتحَقَّقُ وَلَا شَـكَّ، وَإِذَا قَصّرتُـم فَسَـيتَضَاءَلُ حَتَّـىٰ يَمـوتَ، وفِـي مَوتِـهِ أكبرُ خَسَـارَةٍ لِهَـذِهِ الدعْـوَةِ، وَهِـيَ اليَـوْمَ أملُ الإسْـلامِ وَالمُسـلِمِينَ»[44].

وَلَمَّـا دَخـلَ عَلَيـهِ مجموعـةٌ مِـن (شـبابِ مُحمَّـدٍ)، ورَفَعُـوا فِـي وَجْهِـهِ السـلاحَ يطالبونَـه بـأَنْ يُغيِّـرَ مِـنْ خُطتِـهِ فِـي مَنهجِـهِ المُعتـدِلِ السِّـلْمِيِّ الهـادِئِ

(44) حسن البنا: مجموعة *رسائل الإمام البنا*، *رسالة نظام الأسر*، ص 524.

إِلَىٰ الارتطامِ والصراعِ بِنظامِ الحُكمِ الموجودِ فِي ذَلِكَ الوقتِ، بِدَعْوَىٰ عَلمانِيتِه وَابتعادِهِ عَن الإسلامِ، فمَا كَانَ مِنهُ رَحِمَهُ اللَّهُ إِلّا أَنْ أَزَاحَ عَن سُترتِهِ وَأَظهَرَ صَدرَهُ، وقالَ لَهم: «أَطْلِقُوا الرَّصَاصَ، وَلكنِّي لَمْ أَكُنْ لأَدَعَ يَقينِي لِشُكُوكِكُمْ»، فَسحبَ البِساطَ مِن تَحتِ أرجُلِهم، يُرِيدُ أَنْ يقولَ لَهم: إِنَّ مَا وصلتُ إِلَيْهِ قَد كَلفْتُ نفسِي فِيهِ عناءَ البَحثِ وَالدراسَةِ، وَاستَنبطْتُهُ مِن كتابِ اللهِ، وَمن سُنّةِ رَسُولِه، وَهُوَ مَا أَورثَنِي الاطمئنانَ واليقينَ، وأورَثَنِي الرضَا والارتياحَ حَتَّىٰ لعذاباتِ النتَائجِ، أَمَّا مَا أنتم عَلَيهِ فولِيدُ أحلامٍ وأوهامٍ.

وَمِنْ فِقْهِ المَوْقِفِ السِّيَاسِيِّ أَلَّا تَكُونَ مُخَاصَمَةُ الحَاكِمِ وَإِحْرَاجُهُ مَوْقِفًا ثَابِتًا فِي جَمِيعِ الظُّرُوفِ؛ فَقَدْ يَقِفُ الحَاكِمُ فِي وَجْهِ عَدُوٍّ قَوِيٍّ لِلْمُسْلِمِينَ، يَدْفَعُهُ وَيَحُولُ دُونَ بُلُوغِ غَايَتِهِ، وَعِنْدَئِذٍ يَكُونُ مِنْ سُوءِ التَّقْدِيرِ أَنْ يَسْتَنْفِدَ المُسْلِمُونَ قُوَّتَهُمْ فِي مُخَاصَمَتِهِ، وَهُوَ يَحُولُ دُونَ وُصُولِ عَدُوِّهِمْ إِلَىٰ غَايَتِهِ مِنْهُمْ.

وَلِهَذَا قَالَ فِي **رِسَالَةِ المُؤْتَمَرِ الخَامِسِ**:

»إِنَّ طَرِيقَكُمْ هَذا مَرْسُومَةٌ خُطُوَاتُه، مَوْضُوعَةٌ حُدُودُه، وَلَسْتُ مُخَالِفًا هَذِهِ الحُدُودَ الَّتِي اقْتَنَعْتُ كُلَّ الاقْتِنَاعِ بِأَنَّهَا أَسْلَمُ طَرِيقٍ لِلْوُصُولِ«[45].

ومن مواقفِ الفهمِ السديدِ؛ أنّ الواجبَ أولًا: فمما يُرْوَىٰ عن الأستاذِ سَيدِ قُطب رَحِمَهُ اللَّهُ، أنّهُ قد طُلبَ إليهِ - رُغْمَ عِلَّتِهِ وَمرضِهِ، وبَعدَ خروجِهِ مِنَ السِّجن عَامَ (١٩٦٥م) - رِعايةُ شُؤونِ تَنظيمِ (١٩٦٥م)؛ رِعايةُ هؤلاءِ الشبَابِ بنُصحِهِم وإرشَادِهِم وتنظيمِهم ومُراقبتِهِم وَتَعهُّدِهِم كذلِكَ، فَرضِيَ الرجُلُ وَلَم يتخلَّفْ وَلَم يقدِّمْ أعذارَه وتَعلَّاتِهِ، وإنْ كَانتِ الأعذارُ قَائمةً وَالتَّعلَّاتُ حَاضرَةً، ولكنَّه أدركَ أنَّ هَذَا وَاجِبُ وَقتِهِ، فتقدَّم إِلَيْهِ

(45) *مجموعة رسائل الإمام البنا*، ص 338.

وَهُـوَ مطمئـنٌّ ومرتـاحٌ لعذابـاتِ النتائـجِ، وقَـدْ انتَهـتْ بِإعدَامِـهِ.

ولمَّـا وقـفَ هَـذَا الموقـفَ العَصيـبَ، وَهُـوَ فِي اللحظَـاتِ الأَخيـرةِ، مقبلٌ علىٰ لقـاءِ رَبّـهِ، جَـاءُوا إِلَيْـهِ فِي زنزانتِه قبلَ تَنفيـذِ الحُكـمِ بسـاعاتٍ قليـلاتٍ، وعرضُـوا عَلَيـهِ أن يكتـبَ كَلمـةَ اعتـذارٍ واحـدَةٍ، وقالُـوا لَـهُ: لَـن يَعرفَهـا أحـدٌ مِـنَ النَّـاسِ، يُخفِّـفُ بِهـا عَنـكَ وَعـن أَهْـلِ بَيتِـكَ، وكَانَ أَخـوهُ محمـدُ قُطْـب وأَخواتُـهُ الثَّـلاثُ أَمِينَـة ونَـفِيسَة وَحَميـدَة جَميعًـا فِي السـجنِ الحَربـيِّ، فأَبىٰ الرجُـلُ، وقَـد كانَ الأمـرُ كَمَـا قَـالَ أبـو تَمَّـامٍ:

وَقَـدْ كَانَ فَـوْتُ المَـوْتِ سَهْـلًا فَـرَدَّهُ
إِلَيْـهِ الْحِـفَاظُ المُـرُّ وَالخُلُـقُ الْوَعْـرُ

لكنـهُ أَبـىٰ، وَرَدَّ عليهـم: «إِنَّ تَنفيـذَ الحُكْـمِ أَجْـدَىٰ عَلَـىٰ الدعـوَةِ مِـن تخفيفِـهِ، ثُـم إِنَّ هُنَـا أَصحَابًـا أَسْـتَحْيِي مِـنَ اللهِ أَنْ أَنجُـوَ بِنفْسِـي وأَدَعَهـم، وَإِنْ قَـدَّرَ اللهُ ممَاتِـي فلعَـلَّ اللهَ يَصنَـعُ بِهـذَا القـدَرِ شَـيئًا رَائعًـا لِهـذا الدِّيـن». وَهُـوَ مَـا كَانَ. إِحساسًـا مِنـهُ بـأن ذَلِـكَ واجـبُ وَقتِـهِ.

وكَمـا يقـولُ الإمـامُ البنّـا رَحِمَهُ اللَّهُ: «إِنَّ العامـلَ يَعمـلُ لأداءِ الوَاجـبِ أَوَّلًا، ثُـمَّ لِلأجْـرِ الأُخـرَوِيِّ ثَانيًـا، ثُـمَّ للإفـادَةِ ثَالِثًـا، وَهُـوَ إِنْ عَمِـلَ فَقَـدْ أَدَّىٰ الوَاجـبَ، وفَـازَ بثَـوابِ اللهِ مَـا فِي ذَلِـكَ مِـنْ شَـكٍّ، مَتَىٰ تَوفَّـرتْ شُـروطُه، وبَـقِيَتِ الإفادةُ وَأَمْرُهَـا إِلـىٰ اللهِ، فَقـد تَأتِـي فُرصـةٌ لَـم تَكُـنْ فِـي حِسـابِهِ تَجعـلُ عَملَـه يَأتِـي بِأَبـرَكِ الثمَـراتِ، عَلَـىٰ حِيـن أَنَّـهُ إِذَا قعـدَ عَـنِ العَمـلِ فَقَـدْ لَـزِمَـهُ إِثْـمُ التقْصِيـرِ، وَضـاعَ منـهُ أَجـرُ الجهـادِ، وَحُـرِمَ الإفـادةَ قَطعًـا، فَـأَيُّ الفَرِيقيـنِ خَيـرٌ مَقامًـا وَأَحسنُ نَـدِيًّـا؟»[46].

وكانَ الأُستاذُ **مُحمـدُ حَامـد أبـو النصْـرِ** – وهُـوَ مِـن أَوَاخـرِ مَـن قُبـضَ عَليهِ

(46) حسن البنا: مجموعة *رسائل الإمام البنا*، *رسالة دعوتنا*، ص 69.

مـن الإخـوَانِ[47] - يقُـولُ: «حضـر إِلَـيَّ ضُبـاطُ الشـرطة فِـي بلْدتِـي مَنفلـوط فِـي صعيـدِ مِصـرَ؛ للقبـضِ عَلـيَّ، وكنـتُ فِـي ذَلِـكَ الوقـتِ أَتَهيّـأُ لِتنـاوُلِ فَطُـورِي فَاسـتمْهَلتُهُمْ حَتَّـىٰ أَتنـاولَ الفَطُـورَ وَدَعوتُهُـم إِلَـىٰ تناولِـه مَعِـي»، وَقَـد كانَ رَحِمَهُ اللَّهُ مِـن أعيـان منفلـوطَ، وكانَ كِبـارُ الضبَّـاطِ يَعرفونَـه، ولِذلِـكَ اغرَوْرَقَـتْ أَعينُهُـم بالدمـوعِ، فَسُـئِلَ عَـن ذَلِـكَ، كَيـفَ؟ وقـد كَانَ مَوقفًـا غَريبًـا رَجُـلٌ يستعدُّ للذَّهـابِ إِلَـىٰ المعتقَـلِ عَلَـىٰ مَـا كانَ لَـه مـن رهبـةٍ فِـي النفُـوسِ فِـي ذَلِـكَ الوقْـتِ، فقَـالَ: «أردتُ أَنْ أُعَلِّمَهـم أَننِـي أَستَخِفُّ بوَعيـدِ الكَتِيبـةِ لِوعِيـدِ اللهِ، وأني أستَقِلُّ ذَلِـكَ فِـي جَنْـبِ اللهِ تعَالَـىٰ». فلمَّـا انتَهـىٰ مِـنْ طَعامِـه وَوقـفَ للخـروجِ مَعهـم قـالَ لَهـم: «لِـي شَـرطٌ وَاحـدٌ: أنْ تضعُـوا القيـودَ فِـي يَـدَيَّ قَبـلَ أَن أخـرُجَ أَمَـامَ النـاسِ»، وكانُـوا قَـد تَجمَّعُـوا أمـامَ القَصـرِ لِيَـرَوْا مَـا يَحـدُثُ. إنهـا عـزة المسـلم الـذي يتاجـر مـع الله، ولا يشـغله إلا شـيء واحـد: أن تنتصـر دعوتـه ويُرضـي ربـه!

وَعِندمَـا دخلْـتُ الزنزانـةَ فِـي أولِ ليلـةٍ لِـي فِـي السِّـجْنِ الحَربـيِّ، دخَـلَ مَعِـي فَـلّاحٌ مِـن أَهـلِ مصـرَ مِـن الإخـوانِ المُسـلِمِينَ اسـمُه **إسـمَاعيلُ عَبـدِ العـالِ** فِـي الخمسـينِيّاتِ مِـن عُمـرِهِ، قَـد مَـزَّقَ السَّـوطُ جَسَـدُهُ، يَـزْحَفُ عَلَـىٰ يديـهِ ورِجليـهِ مِـن شِـدَّةِ مَـا نـزلَ بـهِ مِـن العـذَابِ، فلمَّـا جلسَ مَعِـي واطمأننـتُ إِلَيْـهِ قلـتُ لَـه: ادعُ الله أن يخفِّـفَ عنَّـا مَـا نحـنُ فِيـهِ فيُعجَّـلَ بالإفـراجِ عَنّـا.

فمـا كانَ منـهُ إِلَّا أن نظـرَ إِلَـيَّ نظـرةً مُشـفقةً وقَـالَ لِـي: «يَـا أَخّ صَـلاح أَنَـا لَا أَشْـعُـرُ أَنَّـنِي فِـي سِـجْنٍ، ولَكـنْ سَـأدعُو الله مِـن أجلِكَ وَلكِـنْ بِشَـرْطٍ وَاحـدٍ».

قلتُ: وما هُوَ؟

قال: «ألَّا يكونَ عبدُ الناصِرِ حَيًّا».

(47) لِصِلَتِهِ القَدِيمَةِ بجَمَالِ عبدِ الناصرِ، فقَد كانَا مِنْ بَلدَةٍ واحدةٍ، وكانَ عبدُ الناصرِ يُجِلُّه ويَحترِمُهُ.

قلتُ: إذَنْ لَن نَخرُجَ أَبَدًا؛ لأنَّ اللهَ يُمِدُّ للظالمينَ مَدًّا، ولكِنْ لِماذَا؟

قـالَ: «لأنَّـهُ إنْ خَرجْنَا بعفْـوٍ تَحركَـتْ مَشاعِرُنَا بامتِنَانٍ هُـوَ لَا يَستَحِقُّه، بعدَمَا فعلَ بأصحابِنَا ودَعوتِنَا مَا فَعلَ».

قلـتُ لَـه: هـل تتصـوَّرُ أَنْ يُـصْدِرَ فِي حَقِّنا أحكامًا قاسيةً، إنَّنا لَـم نفعَلْ شَيئًا غيرَ أَنْ نَجتمِعَ عَلَىٰ قراءةِ القُرآنِ؟

فقـالَ: «يَـا أخّ صَـلاح لَـو حُكـمَ عَلـيَّ بسَـنةٍ أَو سَـنتينِ، فَلـنْ أَسـتطيعَ أَن أعـودَ إِلَـىٰ بلدَتِي لِيَـرَىٰ النـاسُ وَجْهِـي».

فقلتُ: لِماذَا؟

قـالَ: «لأنني لَسـتُ سَـارِقَ عَنـزةٍ. هَـذَا الحُكْـمُ يَأخـذُهُ سَـارقٌ، أمَّـا نحـنُ فنرجُـو إِصْـلاحَ العَالَـمِ، وإنَّمـا يكـونُ البرهَـانُ عَلَـىٰ قـدرِ الرجَـاءِ. بمعنَـىٰ أنَّ النـاسَ ينتظِرُونَ مِنَّا رَجـاءً كبيـرًا فِي تخليصِهِـم، وإصْـلاحِ العَالـمِ وَإرْشَـادِه؛ لأنّنـا أصحَـابُ دَعـوةٍ هَاديـةٍ، ودَعـوةُ النـاسِ إِلَيْهَـا فريضَـةٌ علينَـا، فـلَا بُـدَّ أَنْ يَـرَوْا مِنَّـا بُرهانًـا مِـنَ الأعمَـارِ وَالدِّمَـاءِ تُنفَـقُ فِي سَـبيلِ اللهِ»!

وَهَذَا هُوَ مَعنَىٰ «الواجبِ قبل الأَجْرِ»، أمَّا الإفادَةُ فَأمرُهَا إِلَىٰ اللهِ.

ركنُ الإخلَاصِ

ثُـمَّ جَعـلَ الإمـامُ البنَّـا (الإخْـلاصَ) الرُّكْـنَ الثَّانِـيَ مِـن أرْكَانِ بَيعتِـهِ، فَلِمَـاذَا؟؟

لأنّـهُ أرادَ ألّا يلتفـتَ أَحـدٌ مـن إخوانـهِ إلَـىٰ غيـرِ الغايـةِ الّتِـي يَـقْصِدُ إِلَيْهَـا؛ مِـن تَصَـدُّرِ المَجالـسِ، وَحَمْـلِ أَفخَـمِ الألقَـابِ، وَمِـنَ الظهـورِ بأكبَـرِ المظاهـرِ، ولهـذَا قـالَ بَعـضُ مَـن تكلَّـم عَـنِ الإخْـلاصِ مِـن أَسَـاتذَتِنَا: «إِنَّ فِقـدَانَ الإخـلاصِ يَـغتَالُ الصَّـفَّ»؛ إذَا فُقِـدَ الإخـلاصُ اغتِيـلَ الصّـفُّ، فَلِـمَ جَعلُـوا غِيـابَ الإخـلاصِ مُـرَادفًا لاغتِيَـالِ الصَّـفِّ؟ لأنّـه إِذَا قَـادَكَ إِنْسَـانٌ غَيـرُ مُخلـصٍ أَضَاعَـكَ، وقـد يبيعـكَ بثمـنٍ بخسٍ مـن أجـل تصـدر مجلس، أو مـن أجـل منصـب أو جـاهٍ، أو مـن أجـل أي لُعَاعَـةٍ[48] مِـنْ دُنيَـا. وَلِذلِـكَ اشـتَرَطَ الإمـام البنَّـا الإخـلاصَ، وشَـرحَهُ فقـالَ:

«وأُريـدُ بالإخـلاصِ: أنْ يَـقصِدَ الأخُ المسـلِمُ بقَولِـه وعَملِـه وَجِهَـادِه كلِّـه وَجْـهَ الله، وَابتِغَـاءَ مرضَاتِـه وَحُسْـنَ مَثوبتِـه مِـنْ غَيـرِ نَظـرٍ إِلَـىٰ مَغنـمٍ أو مَظهـرٍ أَوِ جَـاهٍ أَوْ لَقـبٍ أَوْ تَـقَدُّمٍ أَو تَأخُّـرٍ، وبذَلِـكَ يَكـونُ جُنـدِيَّ فكـرةٍ وَعَقيـدةٍ، لَا جُنـدِيَّ غَـرضٍ وَمنفعَـةٍ، ﴿قُـلْ إِنَّ صَلاتِـي وَنُسُـكِي وَمَحْيَـايَ وَمَمَاتِـي للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: 162]، وَبِذَلِـكَ يَـفهَمُ الأخُ المُسلِمُ مَعنَىٰ هُتافِهِ الدائـمِ (اللهُ غَايتُنـا) وَ(اللهُ أكبَـرُ وللهِ الحَمْـدُ)».

وقَـدْ تَعلَّمنَـا فِـي دَعوتِنَـا هَـذِهِ وتَربَّينَـا علـىٰ هـذَا المَعنَـىٰ: أنَّ«الخَفِـيَّ فِـي هَـذِهِ السَّـبيلِ خَيْـرٌ مِـنَ الظَّاهِـرِ»، إلَّا أن يكـونُ الظَّاهِـرُ لِغايَـةٍ إِدَاريـةٍ. وتَعلّمْنَـا

(48) اللُّعَاعَةُ: البقيةُ اليسيرةُ مِن كُلِّ شَيءٍ (أو الدنيا).

في هـذهِ الدعـوَةِ كَذلِـكَ: أنَّ مِـنْ أَعظَـمِ الشـرُورِ تَـرْكُ تَرتيبِ الخَيـراتِ، بحيـثُ يُـؤَدَّىٰ العَمـلُ دُونَ مراعـاةٍ للأولويَّـاتِ فيُـقدَّمُ مَـا حَقُّـهُ التأخيـرُ، ويُؤخَّـرُ مَـا حَـقُّـهُ التقدِيـمُ، وَقَـدْ تَدفَعُنـا العَجَلَـةُ المركُـوزةُ في طَبائِعِنَـا، والحِـرصُ عَلَىٰ رؤيـةِ نتيجـةٍ عَاجلـةٍ لِعَملِنـا؛ إلـىٰ أنْ نُشـغَلَ بِالنتائـجِ عَـنِ النيَّـاتِ، وَمِـنْ هُنَـا يَفْتَـرِقُ مَنْطِـقُ الثَّـوْرَةِ عَـنْ مَنْطِـقِ الدِّيـنِ؛ فَالثَّـوْرَةُ تَـزِنُ الأَعْمَـالَ بِنَتَائِجِهَـا، أَمَّـا الدِّيـنُ فَيَجْعَـلُ لِلنِّيَّـاتِ وَالمَقَاصِـدِ مَكَانَهَـا الأَصِيـلَ فِـي تَقْوِيـمِ الأَعْمَـالِ.

وَمِـن أَجْـلِ ذَلِـكَ حـذَّرَ الإمـامُ البنَّـا مِـن تَعجُّـلِ النتائـجِ، أَوِ الفِتْنـةِ بِهـؤلاءِ الزعَمـاءِ والأَغـرارِ الذِيـنَ يَسـتعجلُونَ النتائـجَ قَبـلَ اسـتكمالِ الأسـبابِ، فقـالَ: «أيهـا الإخـوانُ المسـلمونَ وبخاصـةٍ المُتحمِّسُـونَ المُتعجِّلُـونَ مِنكُـم: اسْـمعُوهَا مِنّـي كلمـةً عاليـةً داويـةً، مِـن فَـوقِ هَـذَا المِنبـرِ فِـي مُؤتمرِكُـم هـذا الجامِـعِ: إنَّ طريقَكـم هَـذَا مَرسُـومَةٌ خُطواتُـهُ مَوضوعَـةٌ حُـدودُهُ. ولَسـتُ مُخالِفًـا هَـذِهِ الحُـدودَ التي اقتنَعْتُ كُلَّ الاقتنَاعِ بِأنَّهـا أَسلَمُ طَرِيقٍ لِلوصُـولِ، أَجَلْ قَد تَكـونُ طَرِيقًـا طَويلـةً ولكِـنْ ليسَ هُنـاكَ غَيرُهَـا. إنَّمـا تظهـر الرجولـةُ بالصـبرِ والمثابـرَةِ وَالجِـدِّ وَالعمـلِ الدائـبِ، فَمـنْ أرادَ مِنكُـم أنْ يَسـتعجِلَ ثَمـرةً قَبـلَ نُضجِهَـا أَوْ يَـقْتطِفَ زَهـرةً قَبـلَ أوَانِهَـا فَلسْـتُ مَعـه فِـي ذَلِـكَ بحـالٍ، وخَيـر لَـهُ أنْ يَنصـرِفَ عَـن هـذهِ الدعـوَةِ إِلَـىٰ غَيرِهَـا مِـنَ الدعـوَاتِ»[49].

كمـا علَّـمَ إخوانَـهُ وأرشـدَهُم إلَـىٰ أنَّ الله كلفَهـم العَمـلَ وَلَـم يُكلِّفْهـمُ النتَائـجَ، فقـالَ: «أَيهَـا الإخـوانُ المُسـلِمونَ: إنَّكـم تَبتغُـونَ وَجـهَ الله وتَحصيـلَ مَثوبتِـهِ وَرِضوَانِـه، وَذلِـكَ مَكفُـولٌ لَكُـم مَـا دُمتُـم مُخلِصِيـنَ. وَلَـم يُكلِّفْكُـم اللهُ نتائِـجَ الأعمـالِ ولكـنْ كَلفَكُـم صِـدْقَ التوَجُّـهِ وَحُسْـنَ الاسـتِعدَادِ، ونَحـنُ بَعـدَ ذَلِـكَ إِمَّـا مُخطئـونَ فلنَـا أَجْـرُ العَامليـنَ المُجتهديـنَ، وَإِمَّـا مُصيبُـونَ فَلنَـا أَجْـرُ

(49) حسن البنا: مجموعة *رسائل الإمام البنا*، *رسالة المؤتمر الخامس*، ص 338.

الفائزينَ المُصِيبينَ»[50].

وَأذكُرُ فِي هذَا المقَام: أنَّ الشَّهيدَ أ. مُحمَّد يُوسُف هَوَّاش رَحِمَهُ اللَّهُ، كانَ معنَا فِي زِنْزَانَةٍ واحدةٍ، وَكَانَ يَنظرُ كُلَّ لَيلةٍ (ونَحنُ مَعه فِي الزنزانَةِ) مِن عَينٍ أوْ فتحةٍ فِي بابِ الزنْزانَةِ إلَىٰ الزنَازينِ الأخرَىٰ، وَهِيَ مُغلقَةٌ، وقَدْ سَكنَ الليلُ. يَنظُرُ (مِنَ العَينِ) وَيقولُ: «كَمْ فِي هَذِهِ الحُجرَاتِ مِنْ سَاجدٍ للهِ وقائمٍ يَذكُرُ إخوَانَهُ المُعتقَلينَ فِي هَذِهِ الزنازِينِ»، ثم يقول: «اللَّهُمَّ إنَّ العَبْدَ يَمنَعُ رَحْلَهُ فَامْنَعْ رِحَالَكَ»[51]. [يريدُ: أن يَحمِي الله عِبَادَه ورِجَالَه هَؤلاءِ المَحبُوسِينَ].

يَفعَلُ هَذَا كُلَّ ليلَةٍ، وَقَدْ جَلسْتُ معَهُ أَنا وَأخِي الدكتُور مَحمُود عِزَّت مِائَةَ يَوم قَبلَ استِشهَادِهِ، فوجدتُه يَنْظُرُ كُلَّ ليلةٍ مِنَ العَينِ، ويقولُ هَذِهِ الكَلماتِ دُونَ مَللٍ أَو كَللٍ، مع تَغييرِ مُا أُثِرَ عَنْ عَبدِ المُطَّلِبِ:

إِنْ كُنْتَ تَارِكَهُمْ وَقِبْـ ـلَتَنَا فَأَمْرٌ مَا بَدَا لَكْ[52]
إِنْ كُنْتَ تَارِكَهُمْ وَدَعْـ ـوَتَنَا فَأَمْرٌ مَا بَدَا لَكْ

فالنتَائجُ متروكةٌ للهِ تَعالَىٰ. وعلينَا أن نتقبلَ القدَرَ - كَمَا يقولُ أ. سَيدُ قُطْب رَحِمَهُ اللَّهُ - لِيصُوغَ العواقِبَ وقَد تكونَ خيرًا وبَركةً فِي النهَايَةِ ﴿**لَا تَدْرِي لَعَلَّ**

(50) السابق، ص 339.

(51) أصلُ هذَا الدعَاءِ بَيتانِ مِنَ الشعرِ قَالهُما عَبدُ المطلبِ بنُ هَاشمٍ، يومَ أراد أبرهة هدم الكعبة، قَامَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ، فَأَخَذَ بِحَلْقَةِ بَابِ الْكَعْبَةِ، وَقَامَ مَعَهُ نَفَرٌ مِنْ قُرَيْشٍ يَدْعُونَ اللهَ، وَيَسْتَنْصِرُونَهُ عَلَىٰ أَبْرَهَةَ وَجُنْدِهِ، فَقَالَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ وَهُوَ آخِذٌ بِحَلْقَةِ بَابِ الْكَعْبَةِ:

لَاهُـمَّ إِنَّ الْعَبْـدَ يَـمْـ ـنَعُ رَحْلَهُ فَامْنَعْ حِلَالَكْ
لَا يَغْلِبَنَّ صَلِيبُهُـمْ وَمِحَالُهُمْ غَدْوًا مِحَالَكْ

انظر: عبد الملك بن هشام: *كتاب سيرة ابن هشام*، تحقيق مصطفىٰ السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي، ط 2، مطبعة مصطفىٰ البابي الحلبي وأولاده بمصر، 1375هـ - 1955م: 1/ 48. ومَعنىٰ **لَاهُمَّ**: أَصْلُهَا اللَّهُمّ، وَالْعربُ تَحذفُ الْألف وَاللَّام مِنْهَا، وتكتفي بِمَا بَقِيَ، كَمَا تَقول: لَاه أَبوك، وَهِي تُرِيدُ: للهِ أَبُوكَ. **وَالْحِلَال** (بالْكَسْر): جَمع حلَّة، وَهِي جمَاعَة الْبيُوت، وَيُرِيد هُنَا: الْقَوْمَ الْحُلُولَ. وَالحِلالُ أَيْضا: مَتَاعُ الْبَيْت، وَجَائِز أَن يَكون هَذَا الْمَعْنىٰ الثَّانِي مرَادًا هُنَا. **وَغَدْوًا**: غَدًا، وَهُوَ الْيَوْم الّذي يَأتِي بعدَ يَوْمِكَ، فَحُذِفَتْ لَامُهُ، وَلَمْ يُسْتَعْمَلْ تَامًّا إِلَّا فِي الشِّعْرِ. **الْمِحَالُ**: الْقُوَّةُ والشِّدَّةُ.

(52) تَفَرَّدَ الواقديُّ بزيادةِ هَذَا البَيْتِ.

﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾[الطلاق: 1] . إنَّما المَطلوبُ أنْ تُـؤدِّيَ وَاجِبَكَ، وَهَذَا يَحتاجُ إِلَىٰ عَزْمَـةٍ قَويَّـةٍ جِدًّا، وَإرادَةٍ عازِمَةٍ نَبيلَةٍ؛ كَي تَستطيعَ أَنْ تُـؤدِّيَ وَاجَبَكَ وإنْ كنتَ فِي ظروفٍ مَيئوسٍ مِنْهَا، فقد كنَّا، ونحن في السجنِ، نَـرَىٰ الخروجَ مِنْ بَـابِ الزِّنْـزَانَةِ أَمَـلًا بَعِيدًا، ولكنا كنا نستحضرُ قولَ الإمامِ البنّا رَحِمَهُ اللَّهُ: «... لَسْنَا يَائِسينَ وَلا يَتطرقُ اليأسُ إِلَىٰ قُلوبِنَا وَالحَمْدُ لله. وكُلُّ مَا حَولَنا يُبشِّرُ بِالأملِ رُغْمَ تَشاؤُمِ المُتشائِمينَ»[53]. والأملُ هوَ عُدّةُ أصحابِ الدعوَاتِ، وبخاصةٍ فِي هَذِهِ الظروفِ المَيئوسِ مِنْهَا، ففي مِثلِ هَذهِ الظروفِ كتبَ أ. سَيّد قُطْب رَحِمَهُ اللَّهُ كتابَ «المُسْتَقبَلُ لِهذَا الدِّينِ»، وَمِمَّا قَالَهُ فِي هذَا الكِتابِ: «فَمِنْ طَبيعَةِ المنهجِ الّذِي يرسُمُه هَذَا الدينُ، ومِنْ حَاجَةِ البشَريّةِ إِلَىٰ هَذَا المَنهَجِ، نَستَمِدُّ نَحنُ يَقِينَنا الّذِي لَا يَتزَعْزَعُ، فِي أنَّ المُستَقبَلَ لِهذَا الدِّينِ، وأَنَّ لَه دَوْرًا فِي هَذِهِ الأَرْضِ هُوَ مَدْعُـوٌّ لأدائِه - أَرَادَ أعداؤُه كُلُّهم أَمْ لَم يُرِيدُوا - وأنَّ دَوْرَهُ هَذَا المُرتَقَبُ لَا تَملِكُ عَقيدَةٌ أُخْرَىٰ - كَمَا لَا يَمْلِكُ مَنهَجٌ آخَرُ - أنْ يُؤَدِّيَهُ. وأنَّ البشَرِيَّةَ بِجُمْلَتِهَا لَا تَملِكُ أَنْ تَستَغْنِيَ طَوِيلاً عَنْهُ»[54].

وَجَلِيٌّ أننَا مَعنيُّونَ فِي هذَا الكِتابِ بِظلالِ كَلمَاتِ الإِمَامِ البنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ، وليسَتْ غَايتُنا أَنْ نشرحَهَا شَرحًا مُفَصَّلًا، وَلَا سِيَّمَا أنَّ إِخوةً كِرَامًا قد سَبقُونا إِلَىٰ تناولِ هَذهِ الأركانِ وشَرحِهَا بشَيءٍ مِنَ التفْصِيلِ، وقد خَصَّ العُلماءُ (الإِخْلاصَ) بدِراسَاتٍ مُستقِلَّةٍ، وَمِنْ ثَمَّ يَحسُنُ لِمَنْ كانَ مُستزِيدًا عَنْ: معنَىٰ الإخلاصِ، وفَضلِه، وَضَرورتِه للسَّائرينَ إِلَىٰ الله تعالَىٰ، والسَّاعينَ إِلَىٰ تَحكِيمِ منهَاجِهِ، وَخُطورَةِ الرياءِ، والشهواتِ الخَفيَّة؛ أنْ يقرأَ كِتابَ شَيخِنَا الجَليلِ د. يُوسف القرضَاوِيّ رَحِمَهُ اللَّهُ (النِّيةُ والإخلَاصُ).

(53) حسن البنا: *مجموعة رسائل الإمام البنا*، رسالة دعوتنا، ص 144.

(54) سيد قطب: *المستقبل لهذا الدين*، ط (14)، دار الشروق، القاهرة، 1413هـ - 1993م، ص 8.

عَلَىٰ أَنَّنَا نُؤكِّدُ أنَّ الإمامَ البنّا رَحِمَهُ اللَّهُ قَدْ رَبَّىٰ إِخْوانَه عَلَىٰ الإِخْلاصِ، فَزَهِدُوا فِي أَعْرَاضِ الدنيَا، وَلَمْ يُغرِهِمْ مَنصِبٌ أَو جَاهٌ أَو أيَّ عَرَضٍ دُنْيَوِيٍّ؛ فقَد أرَادَ نِظامُ عَبدِ النَّاصرِ أَنْ يُغرِيَ الأستاذَ سَيدَ قُطْب رَحِمَهُ اللَّهُ بعرَضٍ زَائل؛ إِذْ عَرَضُوا عَلَيهِ ليلةَ إعدامِهِ أَنْ يُشِيرَ إِلَىٰ أيِّ جَرِيدَةٍ مِن الجرائدِ الكُبرَىٰ فيكُونَ رَئيسَ تَحرِيرِهَا، بلْ جَاءَهُ رَئيسُ المَباحثِ بِنفْسِهِ، وَطلبَ إليهِ ذَلِكَ، وقالَ لَه: كَذلِكَ فعلَ الشيُوعيّونَ مِنْ قَبلِكم، وَهُمْ أَذْكَىٰ مِنكُم يَعرفُونَ كَيفَ يُناوِرُونَ وَكَيفَ يَخدِمُونَ دَعوتَهم، أمَّا أنتُم فلا تعرفونَ ذَلِكَ!

وَلَمْ يَكُنِ الأُسْتَاذُ سَيِّدُ قُطْبٍ مِمَّنْ تَسْتَهْوِيهِ الأَعْرَاضُ الزَّائِلَةُ، أَوْ تَسْتَمِيلُهُمُ المُسَاوَمَاتُ عَنْ مَبَادِئِهِمْ؛ فَقَدْ أَبَىٰ أَنْ يَشْتَرِيَ الحَيَاةَ بِثَمَنٍ مِنَ النِّفَاقِ وَالخِيَانَةِ وَالغِشِّ، وَرَفَضَ أَنْ يَرْضَىٰ بِحَيَاةٍ يَرَاهَا دُونَ مَا يَلِيقُ بِالشَّرَفِ وَالمُرُوءَةِ. وَمَضَىٰ الرَّجُلُ ثَابِتًا عَلَىٰ مَوْقِفِهِ، مُتَرَفِّعًا عَنْ أَعْرَاضِ الدُّنْيَا وَمَغْرِيَاتِهَ.

وأبىٰ الرجُلُ وَالأعراضُ تفِرُّ مِنْ بَينِ يَديهِ وَتَنأَىٰ، ومَضَىٰ وَهُوَ يترفَّعُ وَلا يَلتفِتُ إِلَىٰ غَيرِ نَصيبِه الّذِي لَا يفُوتُ.

كَما أَرادَ الإِمَامُ البنَّا برُكْنِ (الإِخْلاصِ) أنْ يَحمِيَ الإخوانَ مِن أَنفُسِهِم، كَيْ لَا يُغتالَ الصَّفُّ؛ بِمعْنَىٰ أنَّ الأخَ قَدْ يَبدَأُ العمَلَ مُخلصًا للهِ ثُم يَنتهِي بِالعَملِ لِنفْسِهِ، وَهَذِهِ الظاهرَةُ نلحظُها كَثيرًا؛ إِذْ نَجِدُ الأخَ في بداياتِه عَامِلًا للدعوةِ قَاصِدًا غَايتَها، ثُم نَرَاهُ فجأةً يَتنكّبُ الغَايةَ، فيَقصِدُ بعملِه غَاياتٍ أخرَىٰ غيرِ غَايةِ الدعوةِ، يَبدأُ بالعملِ للهِ وَينتهِي بِالعمَلِ لنفْسِه، وَقَد حذَّرَ الإمامُ البنَّا مِنْ ذَلِكَ ودَعَا إِلَىٰ الابتعادِ عَن تَصدُّرِ المَجالِسِ وَحَمْلِ أفخَمِ الألقابِ، والظهُورِ بأفخَمِ المظَاهرِ، وقَالَ لَسْتَ مِنَّا ولَسْنَا مِنْكَ وَإِنْ تصدَّرْتَ فينَا أعلىٰ المناصبِ وسَوفَ يحُاسبكَ الله عَلَىٰ قعودِكَ

هَـذَا حِسَـابًا عَسيرًا، وَهَـذَا كلـه يُنافِي مَعنَىٰ الإخـلاص، وكانَ يؤكِّـد دائِمًـا مَعنىٰ قولِـه تَعالَىٰ: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾[الشرح: 7، 8]، ويُعلِّمُ إخوانَه دائمًا أَنَّ الخَفِيَّ فِي هَذِهِ السبيل خيرٌ مِنَ الظَّاهِرِ؛ كَمَا يعلمهُمْ أنَّ عَملَ القَلْبِ أَهَمُّ مِن عَملِ الجَارِحَةِ، وإِنْ كانَ تَحصِيلُ الكَمالِ فِي كِليهِمَا مُطلُوبًا شَرْعًا.

والصفُّ بخيرِ مَا أخلَص أبنَاؤُهُ العملَ للهِ تعَالَىٰ، وَابتَغَوْا مَرضَاتَهُ؛ فإذَا ضعفَ الإخلاصُ فِي نفوسِ الإخْوَةِ أَوْ حَتَّىٰ فِي نفُوسِ بَعضِهم، اغْتِيلَ الصَّفُّ؛ حيثُ تكثرُ فيهِ الانْقِسَامَاتُ والانشقَاقاتُ، وَيَدِبُّ الخِلافُ بين القلوبِ، وَلِذَلِكَ دَعَا الإمامُ البنَّا كلَّ أخٍ فِينَا إِلَىٰ أنْ يَأخُذَ نفسَه بِمعانِي الإخلاصِ، وَبمَا يُحقق فِيهِ تلكَ المَعانِي، ومِمَّا يُؤْثَرُ عنهُ قولُهُ: «إِنَّكُم مَظهَرٌ إداريٌّ لِغَايةٍ رُوحِيَّةٍ»، وَمَا أكثَر مَا ذكَّرَ إخوَانَهُ بِأنَّهم دُعاةُ تَربيةٍ، وأنَّ تربيةَ النفْسِ هِيَ أصعَبُ مَراحلِ التَّربيةِ. ولَيسَ يَخفَىٰ أثَرُ النشْأَةِ الصُّوفِيةِ لِلإمامِ البنَّا فِي دَعوتِه إِلَىٰ الإخلاصِ وحِرْصِهِ عليهِ، وَتَقديمِ عَملِ القلوبِ عَلَىٰ عَملِ الجَوارِحِ، بَلْ كَانَ يقولُ: إنَّ نظامَ الجماعةِ فِي بَعضِ مَراحلِهَا صُوفِيٌّ بَحتٌ مِنَ الناحِيَةِ الرّوحِيّةِ، ويَقْصِدُ بِهِ حُسْنَ الصِّلةِ بِاللهِ تَعالَىٰ [55].

وامتاحَ الأستاذُ سَيد قُطْب المعين ذَاتِهِ فقالَ: كُلُّ أَمرٍ خَطيرٍ يَحتاجُ إِلَىٰ حياةٍ مَوصُولَةٍ بِاللهِ جَلَّ شَأنُه، لأنَّ هَذَا هُوَ الذِي يُعينُ الأخَ عَلَىٰ ألَّا يَلتَفِتَ أَبدًا إِلَىٰ غَيرِ نَصيبِه الّذِي لَا يَفُوتُ، وَهُوَ مَا عِندَ اللهِ مِنَ الرضَا والمتَاعِ، بَعيدًا عَن تَصدُّرِ المَجَالسِ أَوِ الظهُورِ بأكبَرِ المظَاهِرِ، وَحَملِ أَفخَمِ الأَلقَابِ.

(55) وصفَ الإمامُ البنَّا رحمه الله مَرحلةَ التكْوينِ بهذَا الوَصْفِ، فَقالَ: «**التكْوِينُ**: باستخلاصِ العناصرِ الصَّالحةِ لِحَمْلِ أعباءَ الجِهادِ، وضَمِّ بعضِهَا إِلَىٰ بعضٍ، وَنظامُ الدعوَةِ (فِي هَذِهِ المرحَلةِ) صُوفِيٌّ بَحْتٌ مِنَ الناحيَةِ الرّوحِيَّةِ، وَعَسْكَرِيٌّ بحتٌ مِنَ الناحيَةِ العمَلِيةِ، وشِعارُ هَاتينِ النَّاحيتَينِ (أَمْرٌ وطَاعةٌ) مِنْ غَيرِ تَردُّدٍ وَلا مُراجعَةٍ وَلَا شَكٍّ وَلَا حَرجٍ». حسن البنا: مجموعة *رسائل الإمام البنا*، ص 275.

رُكنُ العَملِ

العَمَلُ رُكْنُ الأَرْكَانِ

أَمَّا رُكنُ (العَمَل) فَهوَ وَاسِطَةُ العِقْدِ فِي بَيعتِنَا؛ لأنَّ دَعْوتَنا فِي حَقيقَتِهَا وجَوهرِهَا بيعةٌ علىٰ العمل، ثُمَّ لأَنَّ بقيةَ الأركَانِ خَادِمةٌ لِركْنِ (العَمل)، فَهِيَ إِمَّا مُقدمَةٌ لَهُ أو شَرْطٌ لِقبَولِهِ، كَما قُلنَا فِي رُكنَي (الفَهْمِ وَالإِخْلاصِ)، أَوْ وَسِيلَةٌ لِانضِبَاطِهِ وَاستمْرارِهِ، وَتَحقيقِ الغَايةِ مِنهُ، ويَصدقُ ذلكَ علَىٰ بقيةِ الأركَانِ العَشَرة، فالفهمُ والإخلاصُ شَرطَانِ لِقبُولِ العَمل، وَمِنْ ثَمَّ سَبقَاهُ فِي تَرتيبِ الإمامِ البنَّا، وبَقِيّةُ الأركَانِ شُروطٌ لإحسَانِ العَمل وَإِجَادَتِهِ وَإِخراجِهِ فِي أفضَلِ صَورَةٍ، وَمِنْ ثَم جَاءَتْ تَاليةً لِرُكْنِ (العَمَلِ).

وَصحيحٌ أننَا أكدْنَا أهَميَّةَ رَكْنِي [الفَهْمِ والإخْلاصِ] لقبولِ أَيِّ عَمل. لَكنْ أَيكْفِي الفَهْمُ مهمَا كَانَ جَيدًا ناضِجًا دونُ عَمَلٍ؟، وأينَ يتحققُ الإخلاصُ أو يُختبَرُ إِذَا لَمْ يَكُنْ هُنالِكَ عَمَلٌ؟!

أَلَا فَليعْلَمْ كُلُّ أَخٍ أَنْ لَيسَتِ العِبرَةُ بِأَنْ نُحسِنَ فَهمَ الإِسْلام، وإِنَّما العِبرَةُ بِأَنْ نُجِيدَ تَنزيلَ فَهمِنَا عَلَىٰ أَرْضِ الواقعِ، وَقَدْ وَصَفَت أمنا عائشة رضي الله عنها النَّبيَّ ﷺ بقَولِهَا: «كَانَ خُلقُه القُرآنَ»[56]؛ أَيْ أَنَّ سِيرتَه وسُلوكَه ومُعاملاتِه كَانَتْ تَجسِيدًا لِلمَنهَجِ الربّانِيِّ الذِي أُرسِلَ بِهِ، ولَم يَكتَفِ النبي ﷺ بتِلاوَةِ القُرآنِ وَتَفهِيمِه أَوْ تَفْسِيرِهِ لِصَحَابتِه الكِرَامِ.

(56) عَنْ سَعدِ بنِ هشام بنِ عامرٍ في قولِ اللهِ تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4]، قَالَ: سألتُ عائشةَ رَضيَ اللهُ عنهَا: «يَا أُمَّ المؤمنينَ، أَنبئِيني عَنْ خُلُقِ رسولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَتْ: «أَتقرأُ القرآنَ؟». فَقلتُ: نَعَمْ، فقالَتْ: إنَّ خُلُقَ رَسُولِ اللهِ كانَ القُرآنَ. أخرجه البخاري في [الأدب المفرد] (308)، وأحمد (24601) باختلافٍ يَسيرٍ.

وَقَـد كَانَ الإِمَـامُ البنَّـا رَحِمَهُ اللَّهُ بارعًـا فِـي تَرجمَـةِ الأَفـكَارِ وَالمعَانِـي إِلَـىٰ أفعَالٍ وَأعمَالٍ، وَهِيَ مِنْ صِفاتِ القَائدِ المِحْوَرِيِّ، وقَد كانَ يَـرَىٰ أنَّ الفَهْمَ وَحدَهُ بِلا عَمل لَا يُجْدِي نَـفْعًا وَلَا يُحقِّقُ غَايـةً، وأن العملَ بِلَا فَهـمٍ إِنَّما هُـوَ جُهـودٌ مُبعثَـرةٌ، وأنَّ النفْسَ الإِنْسَـانِيَّة بِطَبيعَتِهَـا مَيَّالَـةٌ لأَنْ تَـرَىٰ الفكـرةَ مُمثَّلَـةً فِي الواقِعِ، مُترجمَـةً فِي حياةٍ مُبلورَةً فِي مُجتمَعٍ، والقُرآنُ الكَريـمُ إِنَّمَا هُـوَ كِتَـابٌ واقعِيٌّ لَا مَكانَ فِيهِ لأبطَالِ المَلاحِمِ وَصَانعِي المُعجزَاتِ، وأنَّ انتظَارَ الخَـوارِقِ إِنَّما هُـوَ شُعورٌ بِالعَجْزِ، وإِنَّما يَحكُمُنَا مَا يَحكُـمُ غَيرَنَا مِن قَوانينِ الجِدِّ والعَمل، فكانَ يَـرَىٰ أنّـهُ لَا بُـدَّ مِن تَحقيقِ الفِكرَةِ بِعَملٍ مُحـدَّدِ البِدايَـاتِ وَاضـحِ النِّهايـاتِ.

وَلِذلِـكَ وضعَـهُ ضِمْـنَ مَجَـالِ المُسـتَطَاعِ عِنْدمَـا وَضَـعَ أَهْدَافًـا قَريبـةً وأهدَافًـا أُخْـرَىٰ بَعيـدَةً، فالأهـدافُ القَريبـةُ هِـيَ (إِصْـلاحُ نَفْسِـكَ، وتَكويـنُ البَيـتِ المُسـلم، وإِرشَـادُ المجتمَـع)، وهِـيَ واجِـبُ كُلِّ مُسـلِمٍ عَلَـىٰ حدتَـهِ، وَلِـذَا جَعَلَهـا الإِمـامُ البنَّـا فِـي إِطَـارِ المُستَطاعِ.

والأهـدافُ البعيـدةُ هِـيَ (إِصـلاحُ الحُكُومـةِ، وتَحريـرُ الوَطـنِ مِـنْ كُلِّ سُـلطانٍ أَجنبـيٍّ، وَإِعَـادةُ الكِيَـانِ الدَّوْلِـيِّ لِلأُمَّـةِ الإِسْـلَاميّةِ بإِعَـادةِ الخِلافَـةِ وَأُسْتَاذِيّـةِ العَالَـمِ بنشْـرِ دَعـوَةِ الإِسلام فِـي ربُوعِـه)، وَهَـذِهِ الأهـدافُ وَاجـبُ الجماعـةِ كهَيئـةٍ مُتحِـدّةٍ عَاملـةٍ؛ وَلَا يَسـتَطِيعُهَا المُسـلِمُ بِمُفـرَدِهِ.

ويؤكـدُ د. عَبـدُ المَجيـدِ النَّجّـار أنَّ الفَهْـمَ وحـدَهُ لَا يَكفِـي دُونَ عَمَـل، فيقُـولُ: «وَالمرحلَـةُ الثَّانيـةُ مِـنَ التَّدينِ، هِـيَ مَرحلَـةُ التنْزِيل، وَنَعنِي بِالتنزِيلِ صَيـرورَةَ الحَقيقَـةِ الدِّينيَّـة، التِـي وَقَـعَ تَمثُّلُهـا فِـي مَرحلَـةِ الفَهْـم، إِلَـىٰ نَمـطٍ عَملِـيٍّ، تَجْـرِي عَليـهِ حَيـاةُ الإِنسَـانِ فِـي الواقِـعِ، عَقِيـدَةً مُوجهـةً لِجَميـعِ مناشِـطِ الإِنْسَـانِ، فِـي وَحـدَةٍ وتَناسُـقٍ، وسُـلُوكًا فَـرْدِيًّا وَاجتِمَاعِيًّا، يَنبثِـقُ مِـنْ

تِلْـكَ العَقيـدَةِ، لِيُوجِّـهَ حيـاةَ الإنسَـانِ فِـي جَميـعِ شِـعَابِهَا، وِجْهـةً تَكُـونُ فِيهَـا جَاريَـةً وَفْـقَ حَقيقَـةِ الدِّيـنِ وَهِدايتِـهِ.

وَإِذَا كَانَ فَهْـمُ الدِّيـنِ هُـوَ الأسـاسَ فِـي التدَيّـنِ، فـإنَّ تنزيلَـه فِـي وَاقـعِ الحيـاةِ هُـو الثمـرَةُ المُبتغَـاةُ مِـنْ أَصْـلِ الدِّيـنِ، وَهُـو لِذلِـكَ يُمثِّـلُ فِي التدَيُّـنِ المَرحلـةَ التِي تُكمِـلُ مَرحلـةَ الفَهْـمِ، وتَبلُـغ بِالدِّيـنِ إِلَـىٰ الغَايَـةِ مِـنْ نُـزولِـهِ. ولعـلَّ المنزِلَـةَ التـي يَتبوَّؤُهَـا التنزيـلُ فِـي الدِّيـنِ الإسـلاميِّ لَا تُدانِيهَـا فِـي الأَهميَّـةِ مَنزلَـةٌ فِي أيِّ دينٍ، أَوْ مَذهـبٍ فَلسفِيٍّ آخرَ، سَـواءٌ مِن حَيثُ القِيمَـةُ المِعياريَّـةُ، أَوْ مِن حَيثُ الشُّـمولُ فِي مَجالاتِ التنْزيل. ولِذلِكَ فإنَّ الخَلَلَ الـذِي يَـطْرأُ فِي تَنزيلِ الدِّينِ عَلَـىٰ واقعِ الحياةِ، يُـؤدِّي مِـنْ طَـرفٍ قَريـبٍ فِي عِصيـانِ الأَحكام، إِلَـىٰ المُـروقِ مِـنَ الإسـلام، كمَـا رَآهُ بَعـضُ المُسـلِمينَ مِثْـلَ المُعتزِلَـةِ وَالخـوَارِج، وَهُـوَ يُـؤَدِّي عنـدَ سَـائِرِ المُسـلمينَ إِلَـىٰ وَضـعٍ إيمانِـيٍّ شَـديدِ الضَّعْـفِ يَـكَادُ لَا يُغْنِـي فِـي مِيـزَانِ الدِّيـنِ شَيْـئًا»[57].

وَلأهميـةِ هَـذَا الركُـنِ وَمركزيتِـهِ، تَجِـدُ الإِمَـامَ البنَّـا يستوعبُ فِيـهِ - عَلَـىٰ وَجازَتِـهِ - غَايـةَ الإِخْـوانِ المُسـلِمينَ، وَتَجِدُهـا مُجْمَلَـةً فِي تَعريفِـهِ (العَمـلَ) المَنـوطَ بِهـذِهِ الدَّعـوةِ؛ بوَصفِـه الثمَـرةَ المَرجُـوَّةَ مِـنَ الفَهـمِ الشَّـامل، وَالإِخـلاصِ الـذي يجـب أَنْ يَتحلَّـىٰ بـهِ أبنـاءُ الصّـفِّ، ثُـم تَجِدُهَـا مفصَّلَـةً فِي مَراتِـبَ ذَلِـكَ (العَمَـل) وَخُطواتِـه التِي تَبـدَأُ مِـنْ إِصلاحِ الفَـردِ، وَتَـنتَهِي بأُستاذيّةِ العَالِـم، وَمَـا يَجِـبُ مِـن تِلْـكَ المَراتـبِ عَلَـىٰ الأخِ مُنفـرِدًا، وَمَـا يَجِبُ منهَـا عَلَـىٰ الجَماعَـةِ، أَيْ أَنَّـهُ لَا يتحقَّـقُ إِلَّا بعمَـلِ جَماعِـيٍّ مُنظَّـم، وَيَحسُـنُ أَنْ نَضـعَ مَـا قالَـه الإمـامُ البنّـا رَحِمَهُ اللَّهُ عَـنْ رُكـنِ (العَمـلِ) بَيـنَ يـدَيِ القَـارِئِ الكَريـم. يقـولُ الإمـامُ البنَّـا: «**وَأُريـدُ بالعمَـلِ**: ثَمـرةَ العِلْـمِ وَالإِخْـلَاصِ: ﴿وَقُـلِ اعْمَلُـوا فَسَـيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُـمْ وَرَسُـولُهُ وَالْمُؤْمِنُـونَ وَسَـتُرَدُّونَ إِلَـىٰ عَالِـمِ الْغَيْـبِ

(57) د. عبد المجيد النجار: *فقه التدين فهمًا وتنزيلًا*، سلسلة كتاب الأمة، 2/ 18.

وَالشَّـهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُـمْ بِمَـا كُنْتُـمْ تَعْمَلُـونَ﴾ (التوبـة:105) .

وَمراتِبُ العَملِ المَطلُوبةِ مِنَ الأخِ الصَّادِقِ:

1 - **إِصلاحُ نَـفْسِه** حَتَّىٰ يَكـونَ: قَـويَّ الجِسْـمِ، مَتِيـنَ الخُلُـقِ، مُثقَّـفَ الفِكْـرِ، قَـادرًا عَلَـىٰ الكَسْـبِ، سَـليمَ العَقيـدَةِ، صَحِيـحَ العِبـادَةِ، مُجاهـدًا لِنفْسِـهِ، حَريصًـا عَلَـىٰ وَقْتِـهِ، مُنظَّمًـا فِـي شُؤُونِـهِ، نَافعًـا لِغيْـرِهِ، وذَلِـكَ وَاجـبُ كُلِّ أَخٍ عَلَىٰ حِدَتِـهِ.

2 - **وَتكويـنُ بَيتٍ مُسلِمٍ**، بـأَنْ يَحمِلَ أَهْلَه عَلَىٰ احتِرامِ فِكرتِـهِ، والمُحافظَةِ عَلَـىٰ آدابِ الإِسلامِ فِـي مَظاهِـرِ الحيَـاةِ المَنزليـةِ، وَحُسْـنِ اختِيَـارِ الزوْجَـةِ، وَتَوقيفِهَـا عَلَـىٰ حَقِّهَـا وَواجبِهَـا، وَحُسـنِ تَربيـةِ الأولادِ، وَالخدَمِ وتَنشِـئَتِهِم علَـىٰ مَبـادِئِ الإِسْـلامِ، وذَلِـكَ وَاجِـبُ كُلِّ أَخٍ عَلَـىٰ حِدَتِـهِ كَذلِكَ.

3 - **وإِرْشَـادُ المُجتمَـعِ**، بنَشْـرِ دعوةِ الخَيرِ فِيهِ، ومُحاربةِ الرذَائِـلِ والمُنكراتِ، وتَشـجيعِ الفضَائـلِ، والأمـرِ بالمعـرُوفِ، وَالمبـادرَةِ إِلَـىٰ فِعْـلِ الخَيـرِ، وَكَسـبِ الـرأْيِ العَـامِّ إِلَـىٰ جانـبِ الفِكـرَةِ الإِسْـلاميةِ، وصَبْـغِ مظَاهـرِ الحيَـاةِ العَامـةِ بِهَـا دَائمًـا، وذَلِـكَ وَاجـبُ كُلِّ أَخٍ علَـىٰ حِدتِـهِ، وَوَاجِـبُ الجمَاعـةِ كَهيئَـةٍ عَامِلَـةٍ.

4 - **وَتَحريـرُ الوطَـنِ**؛ بتَخليصِـهِ مِـن كُلِّ سُـلطانٍ أَجنبـيٍّ - غَيـرِ إِسْـلامِيٍّ - سِياسـيٍّ أَوِ اقتصـادِيٍّ أو رُوحِـيٍّ.

5 - **وإِصْـلاحُ الحُكومَـةِ** حَتَّىٰ تَكـونَ إِسْلامِيَّـةً بِحَـقٍّ، وَبذلِـكَ تُـؤدِّي مُهمَّتَهـا كَخـادِمٍ للأمَّـةِ وأَجيـرٍ عِنْدَهَـا، وعَامِـلٍ عَلَـىٰ مَصْلَحَتِهَـا، وَالحكومـةُ إِسـلاميةٌ مَـا كانَ أَعضَاؤُهَـا مُسـلِمِينَ مُؤدِّيـنَ لفَرائـضِ الإِسـلامِ غَيـرَ مُتجاهِريـنَ بِعصيَـانٍ، وكَانَـتْ مُنفـذَةً لأَحْـكَامِ الإِسْـلَامِ وتعالِيمِـهِ.

وَلَا بـأْسَ أَن نَسـتعِينَ بغَيـرِ المُسـلمينَ عِنـدَ الضَّـرورَةِ فِي غيـرِ مَناصـبِ الوِلايَـةِ العامـةِ، وَلَا عِـبرَةَ بِالشـكْلِ الـذِي تَتخـذُهُ وَلَا بالنـوْعِ، مَـا دامَ مُوافِـقًا

للقوَاعـدِ العامـةِ فِـي نظَـام الحُكْـم الإسـلامِيِّ.

وَمِـنْ **صِفاتِهَـا**: الشـعُورُ بالتبَعيَّـةِ، والشَّـفقةُ عَلَـىٰ الرعيَّـةِ، وَالعدَالـةُ بيـنَ النـاسِ، والعِفَّـةُ عَـن المَـالِ العَـام، وَالاقتصَـادُ فيـهِ.

وَمِـن **وَاجبَاتِهَـا**: صِيانَـةُ الأمـنِ، وإنفَـاذُ القَانـونِ، ونَشـرُ التعْليـمِ، وَإعْـدَادُ القُـوَّةِ، وحِفْـظُ الصِّحّـةِ، وَرِعَايـةُ المَنافِـعِ العَامّـةِ، وَتنميَـةُ الثَّـرْوَةِ، وحِراسَـةُ المَـالِ، وتَـقْوِيةُ الأخـلاقِ، ونَشـرُ الدعـوَةِ.

وَمِـنْ **حَقِّهَـا** - مَتَـىٰ أدتْ وَاجِبَهَـا -: الـوَلاءُ والطاعـةُ، والمُسـاعدةُ بالنفْـسِ والأمـوَالِ. فَـإِذَا قَصَّـرَتْ: فَالنصْـحُ وَالإرشَـادُ، ثُـمَّ الخَلْـعُ والإبْـعَادُ، وَلَا طاعةَ لِمَخلـوقٍ فِـي مَعصيَةِ الخَالِـقِ.

6 - إعَـادةُ الكِيـانِ الدّولِـيِّ للأُمّـةِ الإسـلاميةِ، بتَحريـرِ أوطَانِهـا، وإحيـاءِ مَجدِهَـا، وتقريـبِ ثَقافتِهَـا، وجَمْـعِ كَلِمَتِهَـا، حَتَّـىٰ يُـؤَدِّيَ ذَلِـكَ كُلُّـه إلَـىٰ إعـادَةِ الخِلافـةِ المَفقُـودَةِ والوَحـدَةِ المنشُـودَة.

7 - وَأُستَاذِيّـةُ العَالـمِ بنَشـرِ دَعـوةِ الإسْـلام فِـي رُبوعِـهِ ﴿وَقَاتِلُوهُـمْ حَتَّـىٰ لا تَكُـونَ فِتْنَـةٌ وَيَكُـونَ الدِّيـنُ كُلُّـهُ لِلهِ﴾ [لأنفـال:39]، ﴿وَيَأْبَـىٰ اللهُ إلا أَنْ يُتِـمَّ نُـورَهُ وَلَـوْ كَـرِهَ الْكَافِـرُونَ﴾ [التوبـة:32].

وَهـذِهِ المَراتِـبُ الأربعَـةُ الأخِيـرَةُ تَجِـبُ عَلَـىٰ الجَماعـةِ مُتحـدَةً، وعَلَـىٰ كُلِّ أَخٍ بِاعتِبَـارِهِ عُضـوًا فِـي الجَماعَـةِ، وَمَـا أثقَلَهـا تَبِعَـاتٍ وَمَـا أعظَمَهَـا مُهمَّـاتٍ، يَـرَاهَا النـاسُ خَيـالًا وَيَـرَاهَا الأخُ المُسـلِمُ حقيقـةً، ولَـن نَيـأسَ أَبَـدًا، وَلَنـا فِـي اللهِ أعظَـمُ الأمَـل ﴿**وَاللهُ غَالِـبٌ عَلَـىٰ أَمْـرِهِ وَلَكِـنَّ أَكْثَـرَ النَّـاسِ لا يَعْلَمُـونَ**﴾ [يوسـف:21]»[58].

فِـي هَـذِهِ الكَلمـاتِ الوَجيـزَةِ يُلخِّـصُ الإمـامُ البنَّـا رَحِمَهُ اللَّهُ مشـروعَ (الإخـوَانِ المُسـلِمينَ)، وَمَـا يَبتغِيـهِ ذَلِـكَ المَشـروعُ الإسـلَامِيُّ الصَّميـمُ مِـن إِصْـلاحِ:

(58) حسن البنا: *مجموعة رسائل الإمام البنا، [رسالة التعاليم]*، ص 272، وما بعدها.

الفـردِ، والبيـتَ، والمجتمَـع، والحُكُومـةِ، والأمَّـةِ، ثُـم أُستاذيّـةِ العَالـم، بَـلْ يُلخِّـصُ قَبـلَ ذَلِـكَ مُهمَّـةَ الإِسْـلَام، التِي غَفـلَ عَنهَـا المُسْـلِمُونَ، وَقَـد جَعـلَ الإمـامُ البنَّـا هـذَا الركـنَ مَراتِـبَ وخُطـواتٍ مُتدرجَـةً، مِمَّـا جَعَـلَ (رِيتشَـارْد مِيتْشِـل) يَصِفُـهُ بأنـه أوَّلُ دَاعِيَـةٍ إسـلامِيٍّ يُرتِّـبُ العمَـلَ خُطـواتٍ، ويُوضِّحُهـا هَـذَا التوضيـحَ ويفصِّلُهـا هَـذَا التفصيـلَ، ويَجعَـلُ لِكُلِّ فَـرْدٍ واجبـاتٍ يُـؤَدِّيهَا عَلـىٰ حدَتِـهِ، ويُفْـرِدُ واجبَـاتٍ أخـرَىٰ لَا تِـتِمُّ ولَا تُـؤدَّىٰ إِلَّا بعَمـلِ جَمَاعِـيٍّ (دَوْر الجمَاعَـةِ كَهيئَـةٍ عَامِلَـةٍ)، وهـذَا مَـا تَضطَلِـعُ بِـهِ الجمَاهِيـرُ المُسْـلِمَةُ التي تتحقـقُ بِهـا (الهَيبـةُ وَالوَفْـرَةُ)؛ ومَعنَـىٰ ذلـكَ أنَّ ثَمّـةَ جهـودًا ذاتيـةً يَقُـومُ بِهـا الأخُ وَحـدَهُ، وَجُهـودًا لا يَسـتطيعُ أيُّ أخٍ أنْ يَنهـضَ بِهـا مُنفَـرِدًا، ولا تتحقـقُ إلّا بجمهـورٍ مُتسـانِدٍ مُتعاضِـدٍ (العمَـل الجَمَاعِـي).

ولا بُـدَّ لهـذا الجُهـدِ الجمَاعـيِّ أنْ يَكـونَ وَفْـقَ بَيعـةٍ (عَلَـىٰ عَمَـل) يُنْجَـزُ وَفْـقَ خُطَـطٍ مُحكمَـة، وخُطـواتٍ مُرتبـةٍ متدرِّجـةٍ، وتِلْـكَ سُـنَّةُ رُسُـل اللهِ وَالدُّعـاة إليـهِ؛ فلَـم يعـرفِ التاريـخُ رَجُـلًا فـاقَ رَسُـولَ اللهِ ﷺ فِـي إحـكَام خُططِـهِ، وَإِحسَانِـهِ فِـي تقديـرِ كُل خُطـوةٍ تـؤدي إِلَـىٰ الّتِـي تَليهـا، فمَـا أضـاعَ رسـولُ الله ﷺ لحظـةً دونَ استثمَارِهَا فِي سَـبيل الدعـوةِ إلـىٰ الله تعَالـىٰ؛ فمنـذُ أَن خَـرجَ مـن بيتِـه فِـي مكـةَ مُهاجـرًا إِلَـىٰ أنْ دَخَـلَ المَدِينَـةَ، وكُلُّ خُطوةٍ تُـؤَدِّي إِلَـىٰ تاليتِهَـا؛ حَتَّـىٰ (هُروبُـهُ في الصحـراءِ) مـن أعدائِـهِ المُصِرِّيـنَ علـىٰ قَتْلِـهِ: ﴿**وَإِذْ يَمْكُـرُ بِـكَ الَّذِيـنَ كَفَـرُواْ لِيُثْبِتُـوكَ أَوْ يَقْتُلُـوكَ أَوْ يُخْرِجُـوكَ وَيَمْكُـرُونَ وَيَمْكُـرُ اللّـهُ وَاللّـهُ خَيْـرُ الْمَاكِرِيـنَ**﴾ [الأنفـال:30]. حَتّـىٰ ذلـكَ الهـروبُ، وهـوَ مِـنْ (رُتُـوشُ) هـذِهِ الرحْلـةِ الشـاقّةِ (كمَـا يقولُـون)؛ كَانِ يَجْـرِي وَفْـقَ خُطـةٍ مُحكمَـةٍ.

حتَّـىٰ ثيـابُ الهِجْـرَةِ التِـي تَعفَّـرتْ وتَغبَّـرتْ خِـلالِ الرحلـةِ الشَّـاقة في الصحـراءِ، يُغيِّرهـا رسـولُ اللهِ ﷺ قَبـلَ أنْ يَدخُـلَ المدينـة، فَـيَلقَىٰ الأنصـارَ

بثياب بيضٍ نَاصِعَةٍ، كَي يَعلمُوا - كَما يقُولُ الأستاذُ سَيد قُطب - أنَّ مَا ينتظرُهُم مَا هُوَ إلَّا مُستقبَلٌ مُشرِقٌ؛ وكانَ ذَلِكَ مِمَّا وَقَعَ في الطريقِ إلَىٰ المدينَةِ؛ فَعنْ عُروةَ بنِ الزُّبيرِ: «أنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ لَقيَ الزُّبَيرَ في رَكبٍ مِنَ المُسلِمينَ كَانُوا تِجَارًا قَافِلِينَ مِنَ الشَّأْمِ، فكَسَا الزُّبَيرُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وأبَا بَكرٍ ثيابَ بَياضٍ»[59].

وَكَذَا رَوَىٰ أصحابُ السِّيَرِ أنَّ طلحةَ بنَ عُبيدِ الله لقِيهُمَا أيضًا وهوَ عَائِدٌ مِن الشامِ وَكَسَاهُما بعضَ الثِّيابِ[60]. فلمَّا أرادَ رسُولُ اللهِ ﷺ أنْ يدخُلَ المدينَةَ دخلَها فِي صمتٍ وَوقارٍ وَفي ضَحْوةٍ مِن نَهارٍ.

بِهَذَا الترتيبِ الّذِي وضَعَهُ رسولُ اللهِ ﷺ لرحلةِ الهجرةِ، غيرَ غافلٍ عنْ مثلِ هَذِهِ [الرتُوشِ]؛ يؤكِّدُ نبيُّنا ﷺ أنَّ الخُططَ المُحكَمَةَ الخُطواتِ، المُرتَّبَةَ اللَّحظاتِ؛ بحيثُ تُؤَدِّي كلُّ خُطوةٍ إلَىٰ الّتِي تَليهَا، فَلَا وَقتَ لِلضَّياعِ، فَقَد كانَ ﷺ يُدركُ مِنْ أولَ يومٍ بُعِثَ فيهِ أنَّ اللهَ تعالَىٰ اصطفاهُ لِينْجَحَ، ولَيسَ ثمةَ احتمالٌ لِسُقوطٍ.

والإمامُ البنَّا رَحِمَهُ اللهُ قارئٌ جيدٌ لسيرةِ المصطَفَىٰ ﷺ، واعٍ بِمَا فِيهَا منْ دُرُوسٍ وعِبَرٍ، وقدِ اهتدَىٰ من تلكَ السيرةِ العطِرَةِ إلَىٰ أنْ يكونَ كلُّ شيءٍ مُرتبًا، وألَّا يُترَكَ شَيءٌ لِلظُّروفِ والمُصادَفَاتِ، وَهَذَا ما أكَّدَهُ رَحِمَهُ اللهُ فِي أَهَمِّ رِسَالَةٍ مِن رَسَائلِه، وهِيَ (رِسَالَةُ المَنهَجِ)، حيثُ يقولُ: «طَرِيقُ الإخوانِ مَرسُومةٌ مَحدودَةٌ، مَعروفَةُ المراحلِ والخُطواتِ، لَيْسَتْ مَتروكَةً لِلظُّروفِ وَالمُصادفَاتِ، وَمَراحِلُ هذِهِ الطريقِ ثَلاثٌ: التعريفُ، والتكوينُ، والتنفيذُ، أو الدعوةُ العامةُ، ثم الدعوةُ الخاصةُ، ثُم العملُ أوِ تَغييرُ العُرفِ

(59) أخرجه البخاري (3906).

(60) انظر د. محمد أبو شهبة: *السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة*، ط 2، دار القلم - بيروت، 1412 هـ - 1992 م، 1/ 495.

العَـامِّ، ثُـم الإعـدادُ، ثُـم الإتْمَامُ...إلـخ»[61]، بَـلْ ألـحَّ الإمَـامُ البنَّـا رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَىٰ هـذَا المَعْنَىٰ، كمـا ذكرنـا سـابقا في [رِسَـالَة المُؤتمَـرِ الخَامسِ].

وثمـةَ حقيقـةٌ لا بُـدَّ مِـنْ تأكيدِهَـا لكـيْ نُتمِّـمَ بِهَـا مَـا بدَأنَـاهُ مِـنَ الحَديـثِ حَـولَ الأركان، وخُلاصَـةُ تِلـكَ الحَقيقَـةِ: أنَّ الدِّيـنَ - كَمـا هُوَ مَفهُـومٌ وَمعلُومٌ بَـدَاهَةً - جُملَـةُ تَعاليـمِ الوَحْـيِ المُنـزَّلِ المَعصُـوم، وَأنّ التَّديـنَ هُـوَ انفِعـالُ الإنسَـانِ بِهـذهِ التعَاليـمِ فِـي حيَاتِـه، عَـنْ إرادةٍ وَرغبَـةٍ واستِجَابتُه لَـه لِيُغالِـبَ بِهَـا العوائِـقَ مِـنْ شَـهواتِ النّفسِ وَعِنَـادِ البيئَـةِ، وَتُسـلِمُنا هَـذهِ الحَقيقـةُ إِلَـىٰ بـابٍ مُهـمٍّ يَتصِـلُ بِالعَمـلِ، وَهُـوَ مِـن أكثَـرِ أبـوَابِ العِلْـمِ غُموضًـا؛ عَنيـتُ مَـا تَعلـقَ (بِالتكليـفِ الإلَهـيِّ للبشَـرِ، بمَعنَـىٰ مَـا يقـع فِـي مَقـدُورِ المُكَلَّـفِ، وهـوَ لهـذَا مِـن أكثَـرِ أبـوابِ العِلْـمِ غُمُوضًـا، لِمَـاذَا؟ لأنَّ كَثِيـرًا مـن النـاسِ يَخلِـطُ بينَ مَـا هُـوَ واجبٌ فِـي حَـقِّ الفَـردِ، وَمَـا هُـوَ مرهُـونٌ بِوجُـودِ الأُمّـةِ أَو المُجتمـعِ وَالسّـلطانِ ذِي الشَّـوكَةِ، فَيخلِـطُ فِـي التكاليـفِ أَو فِـي الوَاجبَـاتِ المُناطَـةِ بِـهِ أَو كَمـا يُسـمُّونَها مَـا وَقَـعَ فِـي مقـدورِ المُكَلَّـف، ولذلِـكَ انتَبـهَ الإمـامُ البنَّـا رَحِمَهُ اللَّهُ إِلَـىٰ هَـذَا المَعْنَـىٰ؛ وجعـلَ ركـنَ (العَمَـل) سـبعَ مَراتِـبَ؛ لِكَـيْ يُفصِّـلَ هَـذَا الغمُـوضَ الّـذِي يَكتنِفُ مِثلَ هَـذَا التكليـفِ، فيُوقِـع كمَـا ذكرنَـا فِـي العَنـتِ الّـذِي يلحـقُ بِالفـردِ والأمـةِ كَذلِـكَ، حِيـنَ يَحـدُثُ نَـوعٌ مِـنَ الاشْـتِبَاهِ فِيمَـا يقُـومُ بـهِ الفَـرْدُ وَمَا تَـقُومُ بِـهِ الأمَّـةُ، أو مَـا يقُومُ بِـهِ المجتمَعُ ذُو السـلطَانِ.

فَالشَّعائِـرُ مثـلًا مُناطَـةٌ بالفَـردِ المُكَلَّـف مِثـلَ: الصَّـلاةِ وَالصِّيَـام والـزكاةِ وغيرِهَـا؛ لَكـنَّ تَنفِيـذَ الأحكَام مِثْـلَ: إقَامـةِ الحُـدودِ، وحِمَايـةِ الثغُـورِ، وصيَانـةِ الأمـنِ وَإنْـفَاذِ القانـونِ، ونَشْـرِ الدعْـوَةِ، وتقْويـةِ الأخـلاقِ، وحِفْـظِ المَـالِ العَامّ وَصِيَانتِـهِ؛ مَسـؤوليةُ الفـردِ تِجَـاهَ أُمّتـهِ؛ أيْ أنْ هـذِهِ الواجبـاتِ لَا تَتحقَّـقُ إلّا

(61) حسن البنا: مجموعة *رسائل الإمام البنا*، ص 248.

بتضافُـرِ جُهـودِ الفَـردِ وَالمُجتَمـعِ وَالحُكومَـةِ أَوِ الدَّولَـةِ والسُّـلطانِ، وَلَا يَستَطِيعُ أيُّ فَـردٍ أَنْ يَنهـضَ بِهَـا وَحْـدَهُ.

وَمِـن ثَـمَّ عُنِـيَ الإمَـامُ البنَّـا رَحِمَهُ اللَّهُ خِـلالَ رُكـنِ (العَمَـل) بالحُكُومَـةِ وَدَورِهَـا، فأشَـارَ إلـىٰ صِفَـاتِ الحُكومَـةِ الصَّالحَـةِ، وَواجِبَاتِهَـا: الشـعُورُ بالتبَعيّـةِ، والشَّـفقةُ عَلَـىٰ الرعيَّـةِ، وَالعدَالـةُ بيـنَ النـاسِ، والعِفَّـةُ عَـن المَـالِ العَـام، وَالاقتصَـادُ فيـهِ؛ فَهَـذِهِ أمـورٌ تُكَلَّـف بِهَـا الأمَّـةُ وَالسُّـلطانُ ذُو الشَّـوكَةِ، وَلَكِـنْ يظَـلُّ شُـمولُ الخِطـابِ الإلَهـيِّ لِلمُكَلَّـفِ لَا يُعْفِـي الفَـردَ مِن مَسـؤُوليتِهِ تِجـاهَ ذَلِـكَ، إنّـه مُطالَـبٌ أَنْ يَقـومَ بمَـا يُحقِّـق ذَلِـكَ الواجِـبَ فيُحقّـقُ الأمـةَ بِالاجتِمَـاعِ، وَالأمـةُ تُحقِّقُ وُجـودَ السلطَانِ، حَتَّـىٰ تُنَـفَّذَ بَعـدَ ذَلِـكَ مِثلُ هَـذِهِ التكليفـاتِ. وقَـدْ تكـونُ هـذِهِ التكليفـاتُ بعيـدةً عَـن حَقّ الفـردِ وَلكنَّه مَسـؤولٌ عنهَـا بِصِفَتِـهِ الشـخصيّةِ؛ فَهُـوَ مسـؤولٌ عَـن إقامتِهَـا، وإنْ كَان لَا يسـتَطِيعُ أَن يُـقيمَهَا لِوحـدِهِ، وإنْ حـاولَ إقَامَتِهَـا منفـردًا، فإنّـه يُوقِـعُ الأمّـةَ وَالمُجتمَـعَ في حَـرجٍ وَعَنـتٍ كَبيرَيـنِ مِثلَمـا حَـدثَ مَـعَ الجَماعَـاتِ الإسْـلَاميةِ المُعاصـرَةِ، عِندَمَـا حـاولَ بَعضُهـم أَن يُطبّـقَ بَعـضَ الأحـكام، وبعـضَ الحُـدودِ وَغَيـر ذَلِـكَ متصَوِّريـنَ أنَّـهُ يَحِـقُّ لَهـم ذَلِـكَ، بوصفِهِـمْ أَفـرَادًا فِـي جماعـةٍ مُسـلمَةٍ، أَوْ عُصبـةٍ مُسـلمةٍ أَو فَصيـل إسـلاميٍّ، ومـن ثـمَّ وَقَعُـوا فِـي إعنـات أنفسَـهُم إعنتًـا شَـديدًا، بَـلْ أَعنَتُـوا مُجتمَعَهُـم وأمَّـتَهُمْ كَذَلِـكَ.

وَمَـا أوقَعَهُـم فِـي ذَلِـكَ العَنـتِ إلَّا أَنَّهُـم لَـمْ يفَرّقُـوا بيـنَ الواجبَـاتِ الفَرديّـةِ وَالواجبَـاتِ الاجتِمَاعيَّـةِ، ويُحمَـدُ للإمـام البنَّـا رَحِمَهُ اللَّهُ أنـه فصّـلَ لإخوانِـهِ الفـرْقَ بَيـنَ المُهمَّتيـنِ، فجَنَّبَهـم مِثْـلَ هـذَا الانحـرَافِ، ونَحـنُ نَلحـظُ هـذَا التفصيـلَ فِي رُكْـنِ (الفَهْـم) بِأُصولِـهِ العِشـرينَ، كَمَـا فَصَّـلَ مَراتِـبَ العمـلِ السَّـبعةِ، وَلَـمْ يَترُكْهَـا لِـكلِّ أَخٍ يَجتَهِـدُ، وَلَا يَعلَـمُ إلا اللهُ وَحـدَهُ عَواقِـبَ اجتهَـادِهِ إِنْ أَخطَـأَ الفَهْـمَ، أَوْ لَـم يُـراعِ التـدَرُّجَ فِـي الخُطُـواتِ.

وَيبـدُو أَنَّ الإِمـامَ البنَّـا رَحِمَهُ اللَّهُ كانَ حَريصًـا عَلَـىٰ أن يـدركَ إخوانُـهُ الفَـرقَ الجليَّ بينَ مهمـةِ الفردِ المسلم، ومهمـةِ المجتمعِ والأُمّـةِ، حتىٰ لا تنحرفَ الدَّعـوةُ فيخْلِـطَ أبنَاؤُهَـا بيـنَ المُهمتَيـنِ، وَمِـنْ ثَـم نَـرَاهُ يفـرقُ بينهمَـا فِـي مَوضـعٍ آخـرَ مِـنْ رسَـائلِه، وتَحدِيـدًا رِسَالَـةَ «إِلَـىٰ أي شـيءٍ ندعُـو النـاسَ»، وَهُـوَ يشـرحُ قـولَ اللهِ تَعالَـىٰ: ﴿يَـا أَيُّهَـا الَّذِيـنَ آمَنُـوا ارْكَعُـوا وَاسْـجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُـمْ وَافْعَلُـوا الْخَيْـرَ لَعَلَّكُـمْ تُفْلِحُونَ﴾[الحج:77]، مُبيّنًـا أن هـذهِ الآيـةَ حَـددَتْ مُهمـةَ المُسـلِمِ؛ وتضَمنَـتِ الوَاجِبَـاتِ الفَرديـةَ، وَالواجبـاتِ الاجتماعيةَ(الجماعيـة). وقَـد فَهِـمَ الإمـامُ البنَّـا رَحِمَهُ اللَّهُ مِـنْ هَذهِ الآيةِ كذلـكَ أنّهَا جَعلَـتِ الأُولَـىٰ (التكالِيفَ الفرديّةَ) مُقدمَـةً لِلثانيَـةِ (التكاليـفِ الاجتِمَاعيـةِ)، وجَعلَـتِ العَقيـدةَ أَسَاسًـا لَهُمَـا معًـا، مِمَّـا يَعنِـي أَنَّـهُ لَا عُـذرَ وَلَا مَندوحَـةَ – فِيمَـا يـرىٰ الإمـام البنـا – لأنْ يَتَعلّـلَ الإنسَـانُ، أو يَعتـذِرَ بِـأنه مَشـغولٌ بنفسِـهِ عَـنِ العمـلِ للمَجْمُـوعِ، أو أنـه مَشـغُولٌ بالعمَـلِ للمجْمُـوعِ عَـنِ القيَـامِ بحـقِّ نفسِـهِ مِـنْ فَرائـضَ وشَـعائرَ، فالواجبَـانِ مُترابطَـانِ يُكمِـلُ أحدُهمَـا الآخـرَ، وهـذَا بَعـضُ مَـا قالَـه الإمـامُ البنَّـا فِـي هـذَا الصَّـدَدِ: «ثُـمَّ أَوضـحَ الحَـقُّ تَبـارك وتَعالَـىٰ للنَّـاسِ بعـدَ ذَلِـكَ الرابطـةَ بَيـنَ التكَاليـفِ مِنْ صَـلاةٍ وصَـوم بالتكَاليفِ الاجتماعيـةِ، وَأنَّ الأُولَـىٰ وَسِـيلةٌ للثانيَـةِ، وَأَنَّ العَقيـدَةَ الصَّحيحَـةَ أساسُـهُمَا مَعًـا، حتـىٰ لا يكـونَ لأنـاسٍ مَندوحَـةٌ مِـنَ القُعـودِ عَـن فَرائضِهِـم الفَرديَّـةِ بِحُجّـةِ أَنّهُـم يَعملُـونَ لِلمَجمُـوعِ، وَحَتـىٰ لَا يكُـونَ لآخريـنَ مَندوحَـةٌ مِـنَ القُعـودِ عَـنِ العمَـلِ للمَجمُـوعِ بِحُجّـةِ أنّهُـم مَشـغُولُونَ بعبَاداتِهِـم مُسـتغْرِقُونَ فِـي صِلَتِهِـمْ لِربِّهِـمْ، فَمَـا أدَقَّ وَمَـا أَحْكَـمَ، وَمَـن أَحسَـنُ مِـنَ اللهِ حَديثًـا؟

«أَيّهَـا المُسـلِمونَ: عِبـادَةُ رَبِّكُـم وَالجهـادُ فِـي سَـبيلِ التمْكيـنِ لِدينِكُـمْ وَإِعـزَازِ شَـريعتِكُم هِـيَ مُهمتُكُـمْ فِـي الحيَـاةِ، فَـإِنْ أَديتُمُوهَـا حـقَّ الأداءِ فَأنتُـمُ الفَائـزونَ، وَإِنْ أديتُـم بعضَهـا أَوْ أهْمَلْتُمُوهَـا جَميعًـا فإليكُـمْ أَسـوقُ قَـولَ الله

تَبـارَكَ وَتعَالَـىٰ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَـا خَلَقْنَاكُـمْ عَبَثًـا وَأَنَّكُـمْ إِلَيْنَـا لا تُرْجَعُـونَ، فَتَعَالَـىٰ اللهُ الْمَلِـكُ الْحَـقُّ﴾ [المؤمنـون:115-116]»[62].

وبذلكَ حَلَّ الإمامُ البنَّا رَحِمَهُ اللهُ إِشْكالًا كَبيرًا جِدًّا، يَضطربُ فِيهِ كثيرٌ مِنَ المُسلِمينَ، عِندَمَا يَستغرِقُه نوعٌ واحدٌ من الواجباتِ، أو نوعٌ واحدٌ مِنَ التكْليفِ؛ فإمَّا يَستغرِقُ فِي العبَادَةِ والانشِغَالِ بنَفسِهِ، وكَثِير مِنَ النَّاسِ أَو عُمومُهمْ يقعونَ فِي مِثلِ هَذَا الفَهْمِ المُضْطَرِبِ؛ فيَنْسَوْنَ تكاليفَ أخرَىٰ.

والحـقُّ أنَّ الإيمـانَ لَا يُـمِدُّ الإنسـانَ بالعَافيـةِ إلا بالاجْتمَـاعِ، وَالقِيَـامِ بالتكَاليفِ الفرديَّـةِ والاجتماعيَّةِ، وَالعَافيةُ في هذا السيَاقِ تَعنِي أَمْنَ المُسْلِمِ وَاستَطاعتَه القِيـامَ بِـكُلِّ مَـا أَمـرَ اللهُ بـهِ، فَـلا يَبلـغُ المُسـلِمُ المُنفـرِدُ العافيـةَ المَطلوبَـةَ فِي دِينِـهِ، وَإِنْ كَانَ صَالِحًا، وَلَا يُحقِّقُ تِلْكَ العَافِيَةَ إِلَّا بالاجتمَاعِ، وَلِذَلِـكَ جَعـلَ الإمـامُ البنَّـا رَحِمَهُ اللهُ مَراتِـبَ العمَـلِ المَطلوبَـةِ مِـنَ الأخِ المُسْـلِمِ تَبـدَأُ بإِصـلاحِ نَـفْسِهِ، وتَـتَدرَّجُ حَتّىٰ تنتهِيَ إِلَىٰ أُستاذِيةِ العَالَـمِ.

أَوْهَامٌ لَـحقَتْ بِـرُكْنِ العملِ

ثمـة أخطَـاءٌ في الفهـم تتصـلُ بِهـذَا الرُّكْـنِ (العَمَـل)، وهِـيَ مِـنَ الأخطـاء التـي تَسُـدُّ عَلَـىٰ المُسـلِمِ مَنافِـذَ التفكِيـرِ، وَمِنْهَـا:

انْـفصَالُ الإيمانِ عَن قَانُـونِ السَّببيةِ

بمعنَىٰ أنَّ مقدمـاتِ الْعَمـلَ غَيـرُ مُرتبطَـةٍ بِنتائِجَـهِ، وَهَـذَا وَهْـمٌ كَبيرٌ أفضَـىٰ إِلَـىٰ كَثيـرٍ مِـنَ الاضطـرابِ والعشْـوائيةِ والارْتِجَـالِ والتخبُّـطِ؛ مِمَّـا أَدَّىٰ إِلَـىٰ الهزيمَـةِ وَالإِخْفَـاقِ، والحَقيقَـةُ أنَّ كُلَّ عَمـلٍ لَـه أَسبَابُه الّتِي تـؤدِّي إِلَـىٰ النتَائـجِ، أو لَـهُ مُقدِّمَـاتٌ تُـؤدِّي إِلَـىٰ النتَائجِ، أو أنَّـهُ مُرتَبِـطٌ بِهدَفٍ أو غَايَـةٍ مَا. إِنَّ كُلَّ عَمـلٍ هُـوَ حركـةٌ لَهـا قصْـدٌ ولَهـا هـدفٌ كمـا فِي الحديـثِ الشـريفِ عَن

(62) حسن البنا: *مجموعة رسائل الإمام البنا، رسالة: إلىٰ أي شيء ندعو الناس*، ص 44.

عُمـرَ بـنِ الخطَّـابِ (رَضِـيَ اللهُ عَنـهُ) قَـالَ: «سَـمعتُ رَسـولَ اللهِ ﷺ يقـولُ: إِنَّمَـا الأعمـالُ بِالنيَّـاتِ، وَإِنَّمـا لِـكلِّ امـرئٍ مَـا نـوَىٰ فَمـنْ كَانـتْ هِجرتُـهُ إِلَـىٰ اللهِ ورَسُـولِهِ فَهجرتُـهُ إِلَـىٰ اللهِ وَرَسُـولِهِ، وَمَـنْ كَانـتْ هِجرتُـهُ إِلـىٰ دُنْـيَا يُصِيبُهـا أَوِ امـرَأَةٍ ينْكحُهَـا فَهِجْرتُـهُ إِلَـىٰ مَـا هَاجَـرَ إِلَيْـهِ»[63].

فكُلُّ عمـلٍ لَا بُـدَّ أنْ تتوَفَّـرَ فِيـهِ حَركـةٌ، وَيَكـونَ لَهـا هَـدفٌ وَقَصْـدٌ، فـإِذَا انفَصَـلَ الإيمـانُ عَـنِ قانُـونِ السَّـببيةِ؛ وُجِـدَتْ مَظاهِـرُ خَـلٍ كَثيـرَةٌ فِـي مَسـيرَةِ العَمـلِ الإِسْـلامِيِّ، حَيـثُ تَظهـرُ دَاخِـلَ الصـفِّ أَمـراضُ الَّتـوَاكَل، وَالرُّكُـونِ إِلـىٰ الدَعـةِ فِـي الأَدَاءِ، واليـأسِ وَالإِحبَـاطِ، وَهَـذَا مِـنْ جَوانِـبِ الضَّـعفِ فِـي العَمـلِ الإِسْـلامِيِّ المُعاصِـرِ، لأنَّ نَتيجَـةَ هَـذَا الخَلَـلِ هِـيَ الضَّيَـاعُ، حَيـثُ يَكـونُ هُنالِـكَ عَمـلٌ رُوتِينـيٌّ، لَكنَّـه جُهـدٌ يُنفَـقُ، وطَـاقَـةٌ تُهْـدَرُ، وَوَقْـتٌ يُـبدَّدُ بِـلا جَـدْوَىٰ!

وَقَديمًـا قِيـلَ: إِذَا تَأَخَّـرَتِ العَواقِـبِ عَـنْ قَـدرِهَا الّـذِي قَـدَّرَهُ اللهُ لَهَـا رُوجِعَـتِ الأسبَابُ ورُوجِعَـتِ المَفاهِيـمُ؛ لأنَّ كُلَّ عمـلٍ لَـه عَاقِبَـةٌ، ولَـه وَقْـتٌ تَتحقَّـقُ فِيـهِ النتِيجَـة، وإِذَا تأخـرتِ العواقِـبُ عَـنْ قَدرِهَـا الّـذِي قـدَّرَهَ اللهُ لَهـا لَا بُـدَّ مِـن وَقفـةٍ وَمُراجعَـةٍ، لِلأسبابِ أَوْ الأفْـكارِ والمَبـادئِ الّتِـي لَـمْ تُهيِّـئ لحُـدوثِ العَواقـبِ، وذلـكَ مَـا يُسـمِّيهِ الدكتـورُ يُوسـفُ القَرضـاوِيّ «**فِقْـهَ العَاقِبَـةِ**» فِـي كِتابِـهِ (أَولويَّـاتُ الحركـةِ الإسـلاميةِ).

ويقـولُ رسـولُ اللهِ ﷺ فِـي حديـثٍ مَشـهورٍ يرويـهِ عَديُّ بـنِ حَاتـمٍ، فيقولُ: «بَيْنَـا أَنَـا عِنْـدَ النَّبـيِّ ﷺ، إِذْ أَتَـاهُ رَجُـلٌ فَشَـكَا إِلَيْـهِ الفَاقَـةَ، ثُـمَّ أَتَـاهُ آخَـرُ فَشَـكَا إِلَيْـهِ قَطْـعَ السَّـبِيلِ، فَقَـالَ: يـا عَـدِيُّ، هـلْ رَأَيْـتَ الحِيـرَةَ؟ قُلـتُ: لَـمْ أَرَهَـا، وقـدْ أُنْبِئْـتُ عَنْهَـا، قَـالَ: فَـإِنْ طَالَـتْ بِـكَ حَيَـاةٌ، لَتَرَيَـنَّ الظَّعِينَـةَ تَـرْتَحِلُ مِـنَ

(63) أخرجه البخاري (1)، وأبو داود (2201) كلاهما بلفظه، ومسلم (1907) بلفظ مقارب.

الحِيرَةِ حَتَّىٰ تَطُوفَ بالكَعْبَةِ، لَا تَخَافُ أَحَدًا إِلَّا اللهَ -قُلتُ فِيمَا بَيْنِي وبيْنَ نَفْسِي: فأيْنَ دُعَّارُ طَيِّءٍ الَّذِينَ قدْ سَعَّرُوا البِلَادَ؟!- ولَئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتُفْتَحَنَّ كُنُوزُ كِسْرَىٰ، قُلتُ: كِسْرَىٰ بنِ هُرْمُزَ؟ قَالَ: كِسْرَىٰ بنِ هُرْمُزَ، ولَئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ، لَتَرَيَنَّ الرَّجُلَ يُخْرِجُ مِلْءَ كَفِّهِ مِن ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ، يَطْلُبُ مَن يَقْبَلُهُ منهُ، فلا يَجِدُ أَحَدًا يَقْبَلُهُ منه، ولَيَلْقَيَنَّ اللهَ أَحَدُكُمْ يَومَ يَلْقَاهُ، وَلَيسَ بيْنَهُ وبيْنَهُ تَرْجُمَانٌ يُتَرْجِمُ له، فَلَيَقُولَنَّ له: أَلَمْ أَبْعَثْ إِلَيْكَ رَسولًا فيُبَلِّغَكَ؟ فيَقولُ: بَلَىٰ، فيَقولُ: أَلَمْ أُعْطِكَ مَالًا وأُفْضِلْ عَلَيْكَ؟ فيَقولُ: بَلَىٰ، فَيَنْظُرُ عن يَمِينِهِ فلا يَرَىٰ إِلَّا جَهَنَّمَ، ويَنْظُرُ عن يَسَارِهِ فلا يَرَىٰ إِلَّا جَهَنَّمَ». وَهُوَ يذكُر لَه أَحْدَاثًا سوفَ تَحدُثُ وَتَظهرُ نَتائجُها فِي مدةٍ مُحدَّدةٍ، وبعدَ مُرورِ الزمَنِ: «قَالَ عَدِيٌّ: فَرَأَيْتُ الظَّعِينَةَ تَرْتَحِلُ مِنَ الحِيرَةِ حَتَّىٰ تَطُوفَ بالكَعْبَةِ، لَا تَخَافُ إِلَّا اللهَ، وكُنْتُ فِيمَنِ افْتَتَحَ كُنُوزَ كِسْرَىٰ بنِ هُرْمُزَ، ولَئِنْ طَالَتْ بِكُمْ حَيَاةٌ، لَتَرَوُنَّ مَا قَالَ النَّبِيُّ أَبُو القَاسِمِ ﷺ: يُخْرِجُ مِلْءَ كَفِّهِ...»[64].

نتائجُ مُرتبطةٌ بمقدِّماتٍ تَمّتْ فِي أَوقَاتٍ مُحدَّدةٍ الّتِي هِيَ العواقبُ، فعِندَمَا تتأَخَّر فَلا بدَّ أنَّ خَللًا مَا حدثَ أَدّىٰ إِلَىٰ هَذَا التأخير، وَهَذَا يَرجِعُ بِنَا إِلَىٰ ضرورَةِ المُراجعَةِ وَالمُحاسبَةِ وتَصحيحِ الخطأِ لِيَستفِيدَ مِنَ الصوَابِ.

نُضْجُ الإِرَادَةِ وَعَجْزُ القُدْرَةِ

هَذَا وَهمٌ آخَرُ مِنَ الأوهَامِ أَو الأَخطَاءِ التِي لَحِقَتْ رُكنَ (العَمَل)، حَيثُ تَكونُ الإِرَادَةُ ناضجَةً، ولَكنَّ الأداءَ الحَقيقيَّ نَاقِصٌ أَوْ عَاجِزٌ عَنْ إتمَامِ العَمل، وَالبلُوغِ بِهِ دَرجةَ الكَمالِ؛ مِمَّا يُورِثُ نَوْعًا مِنَ الإحبَاطِ، ونَوعًا مِنَ اليأْسِ وَالقُنوطِ والتخبُّطِ. وأَحْسَبُ أَنَّ الإِمامَ البنَّا رَحِمَهُ اللهُ قدَّمَ

(64) أخرجَه البخاري (3595)، ومُسلمٌ (1016).

حَـلًّا لِهَـذِهِ المُشكِلَةِ، عِندَمـا تَحَـدَّثَ عَـنِ الأولويّـاتِ أَو التَّـدرجِ في المراحل، فـأيُّ تكْلِيـفٍ مُرتبِـطٌ دائِمًـا بالقُـدرَةِ وَمُرتبِـطٌ بالاسـتِطَاعةِ، وَمُرتبِـطٌ بالطَّاقـةِ.

ولِذلِـكَ جعـلَ الإمَـامُ البنَّـا رَحِمَهُ اللَّهُ خُطـوَاتِ العَمـلِ أَوْ مَراتبَـه متدرجَـةً؛ لكنَّنَـا نَسْتَشْـرِفُ لِلنَّهايَـاتِ دَائِمًـا، وَهَـذَا أَمْـرٌ مَحفُـورٌ فِـي أَذهَانِنَـا وتَصَوّرَاتِنَـا للأسـفِ؛ فنَحْـنُ دَائِمًـا نَنظُـرُ إِلَـىٰ النهَايَـاتِ قَبـلَ اكتِمَـالِ المرَاحِـلَ الّتِـي يَجـبُ عَلينَا أَنْ نَقطَعَها لنصِلَ إِلَـىٰ النهايـاتِ وَإِلَـىٰ النتائـجِ، فَنحـزَنُ لأننَـا لَـم نَصِـلْ إِلَـىٰ أُسـتَاذِيةِ العَالَـمِ بَعـدَ أكثـر مـن تسـعين عَامًـا مِـنَ الدعـوةِ وَالجِهَـادِ، فِـي الوَقْـتِ الّـذِي أمامَنـا فِيـهِ مراحـلُ كثيـرةٌ أَو وَاجِبَـاتٌ كَثيـرةٌ أَوْ أَولِويَّـاتٌ كَثيـرَةٌ، وَقَـد يُغـذِّي خصُـومُ الدَّعـوةِ هَـذَا التصَـوُّرَ، حِيـنَ يَعيبـونَ عَلَـىٰ دَعـوَةِ (الإِخـوَانِ) أَنَّهَـا لَـم تُحقِّـقْ غَايتَهـا الكُـبرَىٰ بَعـدَ هَـذِهِ السِّـنينَ المُتطاولَـةِ مِـنْ نَشـأتِهَا وَتَأْسِيسِـهَا، وَجِهَادِهَـا ومَعارِكِهَـا فِـي الإِصْـلَاحِ!

وَينبَغِـي أَلَّا يَنسَـىٰ أَبنَـاءُ الدعـوةِ أَنَّ مَراتِـبَ عَملِهِـم مُتدرِّجَـةٌ، يُسـلِمُ بعضُهَـا إِلَـىٰ بعـضٍ، كَمَـا رَتَّبَهَـا البنَّـا رَحِمَهُ اللَّهُ، وهـوَ تَرتِيـبٌ مَنطِقـيٌّ تَـقْتَضِيهِ طَبائـعُ الأُمُـورِ: التـدَرجُ فِـي إنجَـازِ الأعمَـالِ، ابتِـدَاءً مِـنْ إِصْـلاحِ نَـفْسِكَ، وتَكويـنِ البَيـتِ المُسْـلِم، وَإِرْشَـادِ المُجتمَـعِ، وتَحريـرِ الوَطَـنِ، وإِصْـلاحِ الحُكومَـةِ، وَإِعَـادَةِ الخِلافَـةِ، ثُـمَّ أُسـتَاذِيّـة العَالَـمِ. فَهَـذَا وَلا شَـكَّ نَـوعٌ مِـنَ التَـدَرُّجِ الّـذِي نَنسـاهُ تَمَامًـا وَنَحـنُ نَقـومُ بِـأَيِّ عَمـلٍ، وَنَنسَـىٰ أَنَّ لَـه مَراحِـلَ وَأَنَّ لَـه أَولَوِيَّـاتٍ، وأنّـهُ يَنبغِـي عِنـدَ إِتمَـامِ كُلِّ مَرحلَـةٍ أن تُسـلِمُ إِلَـىٰ المَرحلَـةِ الّتِـي تَليهَـا.

أَمَّـا حَـلَّ هـذَا الإشـكالِ (نُضْـجُ الإِرَادَةِ وَعَجـزُ القُـدْرَةِ)، فَـهُوَ المُعادَلَـةُ بينَ الإرادةِ وَالقـدرَةِ: «امْـلَأْ يومَـكَ بِمَـا فِـي وُسْـعِكَ يَمنَحْـكَ الغَـدُ وُسْـعًا جَدِيـدًا»، كَمـا يقـولُ جُـودَة سَـعيد فِـي كِتَابـهِ [العَمـلُ قُـدرةٌ وإِرادَةٌ]: «وَمَـا هُـوَ مُسـتَحِيلٌ اليـومَ قَـد يَكـونُ فِـي الغَـدِ مُستطاعًا، بَـل قَـد تَتجـاوَزُهُ الاسـتِطَاعةُ، المُهِـمُّ هُـوَ

البَـدْءُ فِـي العَمـلِ مَـعَ مُراعـاةِ التـدرُّجِ وَالأَوْلَويَّـاتِ وَالمراحـل..»، وَهُـوَ أمـرٌ ليـسَ بِخَـارِجٍ عَـنِ الدِّيـنِ؛ إنمَـا هُـوَ مُرتبِـطٌ بالتكليـفِ؛ لأنَّ حَقيقـةَ التكليـفِ وَمَناطَـهُ مُرتبِـطٌ بالقُـدرَةِ وَالاسـتِطاعَةِ: ﴿فَاتَّقُـوا اللهَ مَـا اسْـتَطَعْتُمْ﴾، وَ﴿لَا يُكَلِّـفُ اللهُ نَفْسًـا إِلَّا وُسْـعَهَا﴾.

وَلَا رَيْـبَ أَنَّ العَامِليـنَ للديـنِ بحَاجَـةٍ إِلَـىٰ نَـوعٍ مِـنَ الفِقْـهِ يُبصِرُهُـم بِالمُوازنَـةِ بَيـنَ المَوَاقـفِ فيَعرِفُـونَ مَتَـىٰ يُقدِمُـونَ ومَتَـىٰ يَتأَخَّـرُونَ، كمـا أنهـم بحاجـة إلـىٰ فهـم مقاصـد الشـرع، لِتكُـونَ مِعيَـارًا حَاكِمًـا ضَابطًـا لحَركَتِهِـم ومَواقِفِهِـم، وَقَرارَاتِهِـمْ، فيعرِفُـونَ متـىٰ يتجـاوزُونَ العزيمَـةَ إِلَـىٰ الرخْصَـةِ، وَهُـذَا أيضًـا جُـزءٌ مِـنَ التكليـفِ إِذَا كَانَ فِـي الالتزَامِ بِالعزِيمَـةِ تفويـتٌ لِمَقْصـدٍ مِـن مقَاصِـدِ الدِّيـنِ. ومِـنَ المَعْـرُوفِ أن مِـنْ مَقاصـدِ الدِّيـنِ هُـوَ رفـعُ الحـرجِ عَـنِ المُكلَّفِيـنَ، وأن المَشـقَّةَ تَجلِـبُ التَّيسيـرِ، وأنـه كُلَّمـا ضَـاقَ الأمـرُ اتَّسـعَ.. وَغَيرِهَـا مِـنْ قَواعـدِ الفِقْـهِ التِـي يُمكِـنُ أَنْ تُسـعِفَ العَمـلَ الحركـيَّ وَتُسـدِّدَ خُطـاهُ، وَلِهـذَا نَقـولُ:

بِاتِّسَاعِ العِلْـمِ يَتسِعُ العَملُ

قَـد يَضِيـقُ بعـضُ الإخـوةِ بِالبيئَـةِ التِـي يَحيَـوْنَ فِيهَـا، وَيَـرَوْنَها خَانقَـةً لَهـم، وَمِـن ثَـمَّ يَتسـرَّعُونَ، فيقولُـونَ: إنّـه لَا يصـحُّ العيـشُ فِيهَـا ولا التعَامُـلُ مَعهَـا، دُونَ دِراسَـةٍ كَافيـةٍ لِبيئَتِهِـم التِـي يَعيشُـونَ فيهَـا، وقَـد يُحَاولُـونَ الهجـرةَ مِنْهـا إِلَـىٰ بيئـاتٍ جَديـدةٍ لَا يَشـعرُونَ فِيهَـا بِأنّهـا خَانقَـةٌ لِلعَيـشِ مَانِعَـةٌ لِلحَيَـاةِ. وَمِثْـلُ هـذَا التفكيـرِ دَليـلٌ عَلَـىٰ ضِيـقِ العِلْـمِ؛ لأنَّ الأمـرَ كَمـا يَقولُـونَ: إِذَا اتسَـعَ العِلْـمُ اتسَـعَ العَمَـلُ، وإِذَا انحسَـرَ العِلـمُ انحسَـرَ العَمـلُ.

ونحـنُ نقـولُ كذلـكَ: إِذَا انْحسَـرَ الفِقْـهُ انَحسَـرَ الوَاقِـعُ، أَمَّـا مَـنِ اتسَـعَتْ رؤيتُـه؛ فـإنَّ صُـورَ العَمـلِ وَأَلْوانَـهُ وَمَراتِبَـهُ وَوَسَائلَـهُ سـوفَ تتسـعُ أَمَامَـهُ،

حَيْثُ يَستطيعُ أَنْ يتحرَّكَ بالعمل الإسْلامِيِّ ليُحقِّقَ الثمرَةَ المَطلُوبةَ منهُ وَهِيَ واقعُ الإنجَازِ، وَلَيسَ مِن وَرَاءِ هَذَا الإنجَازِ شَيءٌ يَتحصّلُ به المُسلِمُ لِنفْسِهِ.

إنَّما هِيَ فِي الحقيقَةِ مَشيئةُ اللهِ كَما يقرِّرُ الأستاذُ سَيِّدُ قُطب رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ [معَالِمُ فِي الطريقِ]: «إنَّ مَشيئةَ الله اقْتَضَتْ أن تكونَ لِهَذَا المَنْهَجِ واقعيةٌ في الحياةِ، تُقرِّرُهُ فِي صُورَةٍ عَمليّةٍ مُحدَّدةٍ تَراهَا الأَجيَالُ... وهَذهِ اللفتةُ جَديرَةً بأنْ يَتدبَّرَهَا الدُّعاةُ إِلَىٰ اللهِ فِي كُلِّ أرضٍ وَفِي كُلِّ جِيلٍ، فهِيَ كَفيلَةٌ بِأَنْ تُريَهُم مَعالِمَ الطَّريقِ وَاضِحَةً بلَا غَبشٍ، وَأَنْ تُثبّتَ خُطَىٰ الذينَ يُريدُونَ أَنْ يَقطعُوا الطَّريقَ إِلَىٰ نِهايتِه، كيفَمَا كانتْ هَذهِ النهَايةُ، ثُمَّ يَكونُ قَدَرُ اللهِ بِدَعوتِهِ وَبِهِمْ مَا يَكُونُ ... وَالأَرْضُ لَيسَتْ دَارَ جَزاءٍ، وَإِنَّما تَحقِيقًا لقَدرِ اللهِ فِي أَمْرِ دَعوَتِهِ وَمَنْهَجِهِ عَلَىٰ أَيْدِي أُنَاسٍ مِن عِبَادِهِ يَختارُهُم اللهُ لِيُمضِيَ بِهِم مِنَ الأمْرِ مَا يَشاءُ. وحَسْبُهم هذَا الاختيارُ الكريمُ الذِي تَهونُ إِلَىٰ جَانبِه وَتَصغرُ هَذهِ الحَياةُ، وكلُّ مَا يقَعُ فِي رِحلَةِ الأرْضِ مِنْ سَرَّاءَ أَو ضَرَّاءَ»[65].

ثَمرَةُ الدِّينِ وَالتدَيُّنِ

كَمَا يَنبغِي أنْ نُؤكِّدَ حَقيقةً مهمةً رُبَّمَا غَفلَ عَنها الكثيرونَ، وهِيَ ضَرورَةُ أَنْ تُرَىٰ ثَمرَةُ التَّدينِ فِي سُلُوكِ المُسلِمِ وَمواقِفِهِ وتَفكِيرِهِ، وَلَن تَتضِحَ ثَمرةُ التديُّنِ إِلَّا فِي وَاقعِ الحيَاةِ، وَلَن يَتجَلَّىٰ أَثَرُهَا الصَّالِحُ إلا فِي جَمٍّ غَفيرٍ، وَهَذَا نَوعٌ مِنَ التقْرِيعِ وَالتَّوبِيخِ لِكلِّ مُسْلِمٍ عَلِمَ طَبيعَةَ التكاليفِ أَوِ الوَاجِبَاتِ المَنُوطَةِ بِهِ، وَأَدرَكَ مَا كَانَ مِنهَا فَرديًّا، وما كانَ اجْتِمَاعيًّا، ثُمَّ قَصَّرَ فِي ذَلِكَ أو تَخلَّفَ؛ فَإِنّه يَأثَمُ بِذلِكَ.

(65) سيد قطب: *معالم في الطريق*، ط 6، دار الشروق، 1399هـ - 1979م، ص 184.

ولهـذَا قـالَ الإمَـامُ البنَّـا فِـي رُكـنِ التضْحِيَـةِ: «وَمَـن قَعـدَ عَـنِ التضْحِيَـةِ مَعنَـا فَهُـوَ آثِـمٌ»[66]؛ لَأنَّ مَـا يتَغيَّـاهُ الإِخْـوَانُ هُـوَ وَاجِـبُ كُلِّ مُسـلِمٍ، وَلَيـسَ دِينًـا اختَرعُـوهُ.

وهـذَا الفِقـهُ هُـوَ مَـا أدرَكَـهُ الشيـخُ مُحمـدُ الغزالـيّ فِي كتابـهِ [نَحـوَ تَـفسيرٍ مَوضوعِـيٍّ لِسُـورِ القُـرآنِ الكَريـمِ]؛ وهـوَ يَتَنـاوَلُ قـول اللهِ تعالـىٰ: ﴿وَالَّذِيـنَ آمَنُـوا وَلَـمْ يُهَاجِـرُوا مَـا لَكُـمْ مِـنْ وَلَايَتِهِـمْ مِـنْ شَـيْءٍ حَتَّـىٰ يُهَاجِـرُوا﴾؛ وَمِـنْ ثَـم قَـالَ عَقِـبَ هَـذهِ الآيَـةِ: «لقـدْ تَخلَّفُـوا عَـنْ قَضيَّـةٍ مَصيرِيَّـةٍ فَـلا حَقَّ لَهُـمْ فِي نُصْـرَةٍ»[67].

إِنَّ هَـذَا التخلُّـفَ عَـن القَضيـةِ المَصيرِيّـةِ بِـلا شَـكٍّ يُحـدِثُ شَـرْخًا كَبيـرًا فِي التَّجمُّـعِ الإِسْـلَامِيِّ فَـلا يُوفِّـرُ لَـه مَـا يحتاجُـه مِـنَ (الهَيْبَـةِ)، حَتَّـىٰ يتِـمَّ بذَلِـكَ إنجـازُ المَطلُـوبِ وَهُـوَ ثمـرةُ الدِّيـنِ وَالتدَيُّـنِ، فَـلَا يجُـوزُ التَّخَلِّـي عَـنْ واجـبٍ أوْ قَضيـةٍ مَصيريّـةٍ، أَوِ التَّعلُّـلُ بِـأنَّ الأخَ منشـغلٌ بإصـلاحِ نَفسِـهِ، لأنَّ هَـذَا التخَلِّـي يُؤخِّـر الإنجـازَ المَطلـوبَ.

وَأنَـا أذكـرُ أنّ أحـدَ إخوانِنَـا فِـي السّـتينيّاتِ كَانَ شَـابًّا طَموحًـا جـدًّا، ذكيًّـا جـدًّا، وعلَـىٰ قَـدرٍ كَبيـرٍ مِـن الطاقـةِ وَالهِمّـةِ وَالعزيمَـة، وقَـد تَعرفْنـا عَلَيـهِ فِـي أوائـلِ السـتينيَّاتِ، أنَـا وَالأخُ مَـروان حَدِيـد[68]، وكَانَـتْ صُـورةُ التعـارُفِ عَلَيـهِ مُثيـرةً للدهشَـةِ؛ إذْ تعرَّفْنَـا عَلَـىٰ والـدِهِ، وَكانَ رجـلًا مِـنَ الصَّالحيـنَ فِـي أحـدِ المسـاجدِ وَاسـتضَافَنا الرجـلُ الصالـحُ هَـذَا فِـي بَيتِـه، حيـثُ كانَ يَسـكنُ فِـي

(66) مجموعة الرسائل. *رسالة التعاليم*. ص274.

(67) الشيخ محمد الغزالي: *نحو تفسيره موضوعي لسور القرآن الكريم*، ط 1، دار الشروق، القاهرة، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م، ص 139.

(68) مَـرْوَانُ حَدِيـد (1934–1976م): دَاعِيَـةٌ وَنَاشِـطٌ إِسْـلَامِيٌّ سُـورِيٌّ، مِـنْ أَبْـرَزِ شَـخْصِيَّاتِ الحَرَكَـةِ الإِسْـلَامِيَّةِ فِـي سُـورِيَا، وُلِـدَ فِـي حَمَـاةَ، وَدَرَسَ الهَنْدَسَـةَ الزِّرَاعِيَّـةَ فِـي مِصْـرَ، وَعُـرِفَ بِمَوَاقِفِـهِ المُعَارِضَـةِ لِلنِّظَـامِ السُّـورِيِّ، وَبِدَعْوَتِـهِ إِلَـىٰ مُقَاوَمَتِـهِ. اعْتُقِـلَ سَـنَةَ 1975م، وَتُوُفِّـيَ فِـي السِّـجْنِ سَـنَةَ 1976م.

أحـدِ أحيـاءِ القاهـرةِ الفقيـرَةِ، وَبيتُـه غُرفـةٌ بَسيطَـةٌ، وجلسْـنَا فِـي بيـتِ ذَلِـكَ الرجُـلِ الصالـحِ نَحـنُ وَالأخُ مَـروَان وبعـضُ إخوَانِنَـا الذيـنَ كَانُـوا معنَـا فِـي ذَلِـكَ الَوقـتِ، وبينَمَـا نَتكلَّـم مَعـه فِـي هُمُومِنَـا وشُـؤُونِنَا، دخـلَ هَـذَا الأخُ وَلَـم نَكُـنْ قَـد تَعَرَّفْنـا عَلَيـهِ قبـلَ ذَلِـكَ، فَألقَـىٰ السَّـلامَ وَجلَـسَ إِلَـىٰ مَكتبِـه وَوجْهُـه إِلَـىٰ الحَائـطِ، لأَنَّ المَكتَـبَ كَانَ مُواجهًـا للحَائـطِ، وأعطَانَـا ظَهـرَهُ وجَلـسَ يُذاكِـرُ، وبَعـدَ فَـترةٍ مِـنَ القِـراءَةِ ونحـنُ نَتكلَّـمُ مَـعَ والـدِه في بيتِه الصَّغيـرِ جِـدًّا، وَكانَـتْ عَلامـاتُ الاشْـمئزَازِ وَالاستِيَاءِ وَالازدِرَاءِ لَنـا وَلِجِلْسَـتِنَا ظاهـرةً علَـىٰ هـذَا الأخِ - وقَـد حَكَـىٰ لِـي بِنفْسِـهِ هَـذِهِ القصـةَ بعـدَ ذَلِـكَ - لكنّـه بعـدَ فـترةٍ مِـنَ الحَديـثِ بَـدأَ يَسـتَمِعُ إِلَـىٰ حديثِنَـا، وَكَثيـرًا مَـا كان يَسـمَعُ مِـنَ المشـايخِ وَالدرَاويـشِ الذِيـنَ يَعرفُهـم أَوْ يَعرِفُهـم وَالـدُهُ، وكانَ وَالدُه رَجُـلًا طَيبًا، لدرجةِ أنَّ أي رَجُـلٍ يلقـاهُ فِـي المَسـجِدِ، ويتوسـمُ فيـهِ عَلامـاتِ التقْـوَىٰ، يدعـوهُ إِلـىٰ بَيتِـهِ، ويُطعِمُـه ويَسـقِيهِ وَهُـوَ لَا يَعرفُـه، وكانَ هَـذَا سَـببًا للصـراعِ الطويـلِ جِـدًّا بيـنَ أَخينَـا هَـذَا وبيـنَ وَالـدِهِ قَبـلَ أَنْ نَعرفَـه، فيقـولُ: كُنـتُ أَظُنكُـم مِـنْ هَـؤلاءِ النـاسِ الذيـنَ يُقابِلُهـم وَالـدِي فِـي المَسـجِدِ عَابـرِي السَّـبيلِ، وَالذيـنَ يَأتِـي بِهِـم إِلَـىٰ البيـتُ، وَيَسـتَضِيفُهُم رُغـمَ رِقـةِ حَالِـه، لِيَبِيتُـوا فِـي بيتِـه.

كَانَ هَـذَا الشـابُّ قَـد حَصـلَ عَلَـىٰ الثانويـةِ العَامـةِ، وكانَ يَعمـلُ فِـي إحـدىٰ المصالـحِ الحُكوميـةِ بالنهَـارِ، وَفِي الليـلِ كَانَ طَالِبًـا فِـي معهـدِ الخدمَـةِ الاجتماعيـةِ اللَّيلِـيّ فِـي السِّـتينيَّاتِ، وكَانَ متفوقًـا وَيحقِّـقُ المركـزَ الأوّلَ، كَمَـا انتَسـبَ إِلَـىٰ قِسْـمِ الاجْتِمَـاعِ فِـي كُليّـةِ الآدابِ، كذلـك سَـجَّلَ فِـي الجامعَـةِ الأَمريكيـةِ فِـي قِسْـمِ اللغَـةِ الإنجليزيـةِ لِكَـيْ يُطـوِّرَ نفسَـهُ فِيهَـا، والتحـق أيضـا بالمَعهـدِ الإسـلامِيِّ الخَـاصِّ بالشـيخِ البَاقُـورِيِّ فِـي حَـيِّ الزمَالِـكِ. وَلَعلـكَ تلحـظ أنـه قَـد شَـغلَ نَفسَـهُ بِأُمـورٍ كَثيـرةٍ فِـي وَقـتٍ واحـدٍ، وانعـزَلَ مُنكفِئًـا عَلَـىٰ العِلْـمِ وتَحصِيلِـهِ، وقـد تفـوَّقَ جـدًّا في دراسـتِهِ ونَجـحَ بتقديـرِ امتيَـازٍ،

حَتَّىٰ إنـه عُيِّـنَ مُعيـدًا فِـي المعهـد وسَـافرَ بعـدَ ذَلِـكَ إِلَـىٰ أمريـكَا، وحصَـلَ عَلَـىٰ الدكتـوراه، بعدَمَـا أمْضَـىٰ هُنـاكَ عَشرسَـنواتٍ تَقريبًـا.

وَالشـاهِدُ مِـن هـذهِ القِصّـةِ أننّا بعـدَ أَن تعرفْنَـا عَلَيـهِ، وَالتفَـتَ إِلَـىٰ الـكلامِ الّـذِي نقُولُـه وَالمعَانِـي الطيبَـةِ فيـهِ، بـدأَ يَتعامـلُ مَعنَـا وَيُرافقُنـا، وظَلِلْنَـا فِـي صُحبتِـه مُـدةَ ثـلاثِ أَو أَربـعِ سَـنواتٍ، حَتَّىٰ تَعَرَّفْنـا عَلَـىٰ الشـهيدِ عَبـدِ الفتـاحِ إسـمَاعِيل فِـي تِلـكَ الفـترة، ودعَانَـا الشـهيدُ عَبـدُ الفتـاح إِلَـىٰ العمـلِ فِـي ذَلِـكَ الوقـتِ عَـامَ (1965) فَوافقْنَـا، ثُـمَّ دَعَـا هَـذَا الأخَ كَذلِـكَ كَـيْ يَعمَـلَ معنـا فأبَىٰ، وَتَعلَّـلَ بأنّـه مُنشـغِلٌ جِـدًّا بعمَلِـهِ وتَحْصيلِـهِ العِلْـمَ، ويَـرَىٰ أنّـه يُقَـدِّم أعظَـمَ خِدمَـةٍ لِلإسْـلام؛ أمَّـا الدخـولُ فِـي مِثْـلِ هَـذِهِ التنظيمَـاتِ ، وَالعَمـلُ الخَـاصَّ، ومَـا إِلَـىٰ هَـذَا القَبيـل، فَهَـذَا أمـرٌ يَـضُرُّ أَكثَـرَ مِمَّـا يَنفـعُ، وَهَـذَا رأيُه، فَـرَدَّ عَلَيـهِ الشـهيدُ عَبـدُ الفتـاح إسـماعِيلَ وقَـالَ لَـه: فِـي الحَقيقَـةِ إِنَّ انشـغَالكَ بجُهْـدِكَ المُفْـرَدِ المُنعزِلِ قَـدْ يُحقِّـقُ لَـكَ نَجَاحًـا شَـخْصِيًّا أو دُنْـيويًّا، والإيمَـانُ وحـدهُ لَـنْ يُمـدَّكَ بِالعَافيَـةِ المطلوبـةِ إِلّا بِالاجْتِمَـاع، فأنـتَ فِـي تَـقْصيرٍ وَفِـي تَخلفٍ عَـنْ واجـبٍ دينيٍّ بِهـذهِ الصُّـورَةِ، وَمَـا تَحْصُـلُ عَلَيـهِ مِـن العِلْـمِ لَـنْ تَستطِيعَ أَنْ تَعيـشَ بـهِ آمنًـا فِـي بَلـدِكَ، أَوْ تَعيـشَ كَمـا أَرادَ لَـكَ رَبُّـكَ أَنْ تَعيـشَ.

الـجمَاعَـةُ ضَـرورَةٌ وَاقِعيّـةٌ

وَمعنَـىٰ هـذَا أن العمـلَ الجَماعـيَّ لَيـسَ تَـرَفًا أو اختِيـارًا، بـل هـوَ وَاجِـبٌ وضَـرورَةٌ يَـفرِضُهُما واقـعُ الأمـةِ الإِسْـلاميَّةِ، وَمَـا لَـم يَتكـوَّنِ التَّجمُّـعُ الـذِي يُحقِّـقُ لِأُمتِنَـا الهَيْبَـةَ وَالكرامـةَ، فَلَـنْ نَسـتَطِيعَ أَنْ نُحقِّـقَ نَمـوذَجَ الحَيـاةِ الإِسْـلاميّةِ المنشـودةِ، ولَا المُثلَ العُليَـا وَالقِيـمَ الّتِي أرادَ رَبُّنـا سُبحانَه وتعَالَىٰ أن نعيـشَ عَليهَـا، كمَـا أنَّ هـذَا التَّجمُّـعَ يُسـهِمُ مِـنْ نَاحيـةٍ أخـرَىٰ، فِـي تَوفيـرِ السُّـلطانِ الّـذِي يَحـقُّ لَـه بعـدَ ذَلِـكَ أنْ يَفعـلَ كَـذا وكـذَا. وَكَمَـا يقـولُ الشـيخُ القَرضـاوِيُّ: «إِنَّ وُجـودَ الحاكـمِ المُسـلِمِ أوِ الحُكومَـةِ المُسـلِمَةِ يَحتـاجُ إِلَـىٰ

أمـورٍ ثلاثـةٍ (هَكـذَا يقـولُ بعَقلِـه الأُصولِـيِّ): أَرْضٍ مُحـرَّرَةٍ، وقُـوةٍ تُـؤازِرُهُ، وتَـيّارٍ عَـارِمٍ يُبشِّـرُ بِـهِ وَيُنـادِيٰ بضَـرورَةِ وُجُـودِهِ»[69].

فَـلا الأرضُ المُحـرَّرةُ تَستطيعُ تحريرَهَـا بغيـرِ هَـذَا الاجتمـاعِ، وَلا القـوةُ الّتِي تـؤازِرُهُ تَستطِيعُ أَنْ تُحقِّقَهـا إذَا تَفلَّـتَ كُلُّ إنسـانٍ وانشـغَلَ بِخَاصَّـةِ نَفسِـهِ وَتَحصيلِ طُموحَاتِه وتَحقيقِ آمَالِه، بَعِيدًا عن هَـذَا الاجتمَـاعِ، ولا يوجَدُ هَذَا التيـارُ العَـارِمُ الّـذِي مِـنَ المُمكـنِ أَنْ يَفـرِضَ نفسَـهُ فِعْـلًا عَلَـىٰ الأمّـةِ، وَيُحقِّـقَ تِلـكَ المُـؤازرةَ، وَيُبشِّـرَ بِـهِ وَيُنـادِيَ بضَرورتِـه، وسَـتَبقىٰ أَقليَّـاتٌ مُبعثـرَةٌ ولَا يُقصَـدُ بِهَـا بِالضـرورةِ تلـكَ الّتِي تعيـش فِـي ديـارِ الغُربـةِ أَوِ المَهجَـرِ؛ وإِنَّمـا الأعمَـال الفَرديَّـة كَذلِـكَ، الّتِي يبذلُهـا النَّـاسُ، فِـي حاجـةٍ إِلَـىٰ مَـنْ يَجمَـعُ شـتَاتَهَا، وَمَـا بَعثرَتْـهُ الأهـواءُ وَالأفكارُ وَالمذَاهِـبُ والآراءُ مِنْهَـا، وَمَـا شُـتِّتَ مِـنْ جُهـودٍ وَأُهْـدِرَ مِـنْ طَاقـاتٍ؛ فَـلا شَـكَّ أَنّنـا بِحاجـةٍ إِلَـىٰ مِثْـلِ هَـذَا التَّجمُّـعِ لِتنظِيـمِ تِلـكَ الأقليـاتِ أو الجُهـودِ المُبعثـرَةِ.

وَقَـد تَعجَـبُ حيـنَ تعلـمُ أَنَّ أَخَانَـا هَـذَا الـذِي رَفـضَ العمَـلَ مَعنَـا وَأَصَـرَّ عَلَـىٰ رَأْيِـهِ ومَوقفِـهِ؛ لَـمْ يَنْجُ مِـنَ الفِتنَـةِ وَالابتِـلاءِ؛ فَقَـدْ مَـرَّتِ الأيـامُ وجَـرَتِ الأحـدَاثُ العَصِيبَـةُ فِـي سَـنةِ (1965)، وَالتقَيْنَـا جَمِيعًـا فِـي السِّـجْنِ الحَربـيِّ، فوجدنـاه قـد سـجنَ معنـا، وفوجئنـا حينمـا رأيناه! وَهُـوَ نفسـه يحكـي لـي تِلكَ القصـة يقـول: لمـا رآني وقلـتُ لَـه: مَـا أَتَـىٰ بِـكَ؟ أَلَـمْ تَكـن تقـولُ: كـذَا وكـذَا؟ فحَكَـىٰ لِـي القِصَّـةَ الّتِي حكاهَـا لنَـا، وقَـالَ: إِنّهـم أَتَـوْا بأَحـدِ إِخوَانِنَـا الذيـنَ كَانُـوا يعرفُونَنـا ويعرفُـوهُ، وبعدَمَـا عَذَّبـوه دَلَّ علَينَـا وَعَلَـىٰ النـاسِ الذيـنَ التَقَـوْا بِنَـا وَرَضُـوا أَن يَدخُلـوا هَـذَا التنظِيـمَ، ثُـمَّ بَعـدَ فَـترةٍ مِـنَ الهُـدوءِ والتحقيقَـاتِ اسْتدعوهُ مَـرةً أخـرَىٰ وعَذبُـوهُ وَقَالُـوا لَـه: أنـتَ ذَكـرتَ لَنَـا الذيـنَ قَالُـوا: نَعَـمْ، وَنُريـدُ أَنْ تَذكُـرَ لنَـا الذِيـنَ قَالُـوا: لَا، الذيـنَ عَرضْتُـم عَلَيهِـم دُخـولَ هَـذَا

(69) جودت سعيد: *العمل قدرة وإرادة*، نقلًا عن إحدىٰ مقالات الدكتور يوسف القرضاوي.

التنْظِيـم ورَفضُـوا؛ لأنَّ هَـؤلاءِ وَإِنْ قالُـوا: لَا إِنَّمـا يشـكلُونَ نَذِيـرَ خَطـرٍ، هُـمْ قَنابـلُ مَوقوتَـةٌ؛ لأنّهُـم عَرفُـوا بِهـذا الأمرِ العَظيـمِ الجَلـلِ الّـذِي يحـدُث وَلَـمْ يُبلِّغُـوا عَنـهُ، وَفِعـلًا دَلَّ عَلَيـهِ وعَلَـىٰ غيـرِهِ مِـن شِـدَّةِ التعذِيـبِ؛ فجَـاءَ وحضَـرَ مَعنَـا المِحنـةَ الضَّـرُوسَ، وَهُـوَ الّـذِي كانَ يَرفـضُ أنْ يَقـتربَ مِنَّـا أَو يَكـونَ مَعنَـا. وَهُـوَ مَـنْ حَكَـىٰ لِـي تِلـكَ القصـةَ بتفَاصِيلِهَـا، وأَنـا فِـي جَامِعَـةِ الإمـامِ بعـدَ أَنْ صـارَ أستـاذًا ثُـم رَئيـسَ قِسْـمِ الخدمَـةِ الاجتماعيـةِ بِهَـا، ثـم رئيـسُ قسـمِ الاجتمـاعِ فِـي الجامعَـةِ الإسـلامية بِكُوالالَمبُـورَ بمَاليزيَـا.

والخُلاصَـةُ: أنَّ الجُهْـدَ الفَـردِيَّ ضَائـعٌ مُشـتَّتٌ قليـلُ الجـدوىٰ، مَهمَـا بلـغَ صَاحِبُـهُ مِـنَ الدِّقـةِ والإتقَـانِ، وَالـدَّأَبِ وَالإخـلاصِ، وَإِلَّا كَانَ رسـولُ اللهِ ﷺ أَغْنَـىٰ النَّـاسِ عَـنِ الأَصْحَـابِ والنصَـراءِ، وَكَانَ أَقدرَهُـم عَلَـىٰ أنْ يَنهـضَ بِتكَاليـفِ الدِّيـنِ مُنفـرِدًا!

وَاجِبُ الفَـرْدِ فِي الْـجمَاعةِ

وَمَـا زلنَـا نُؤكِّـد أنَّ هَـذَا بَـابٌ مِـنَ العِلْـمِ يكتَنِفـهُ كثيـرٌ مـن الغُمـوضِ، حيـثُ يَلتبِـسُ الأَمـرُ عَلَـىٰ كَثيـرٍ مِـنَ النَّـاسِ، فَـلَا يُحسِـنُونَ فَهْـمَ التكالِيـفِ الإلهيَّـة، أو التفرقـةَ بيـنَ مَـا يجـبُ فِي حـقِّ الفـردِ، وَمَـا يَجبُ فِي حـقِّ الجماعـةِ أَوِ الأُمَّـةِ، أَوْ مَـا الشـيءُ الّـذِي يَجـبُ أنْ يقُـومَ بـهِ الفـردُ، وَمَـا الشـيْءُ الّـذِي يجـبُ أن تنهـضَ بـهِ الأمَّـةُ مُجتَمِعَـةً؛ حَتَّـىٰ تُـقِيمَ دِيـنَ اللهِ تعالـىٰ، وتَجعلَـه مِنهـاجَ حَياتِهَـا وَاقِعًـا وسُـلُوكًا، تحقيقًـا لِقـولِ اللهِ تعالـىٰ الـذِي يُلَخِّـصُ مُهمَّـةَ هَـذهِ الأُمـةِ فِـي (إقَامـةِ الدِّيـنِ)، قَـالَ تَعالَـىٰ: ﴿**شَـرَعَ لَكُـم مِّـنَ الدِّيـنِ مَـا وَصَّـىٰ بِـهِ نُوحًـا وَالَّـذِي أَوْحَيْنَـا إِلَيْـكَ وَمَـا وَصَّيْنَـا بِـهِ إِبْرَاهِيـمَ وَمُوسَـىٰ وَعِيسَـىٰ ۖ أَنْ أَقِيمُـوا الدِّيـنَ وَلَا تَتَفَرَّقُـوا فِيـهِ ۚ كَبُـرَ عَلَـى الْمُشْـرِكِينَ مَـا تَدْعُوهُـمْ إِلَيْـهِ ۚ اللَّهُ يَجْتَبِـي إِلَيْـهِ مَـن يَشَـاءُ وَيَهْـدِي إِلَيْـهِ مَـن يُنِيـبُ**﴾ [الشـورىٰ: 13].

أَمَّـا الإمـامُ البنّـا رَحِمَهُ اللَّهُ فقـدْ مَيـزَ بَيـنَ الوَاجبيـنِ [الفَـردِيِّ وَالجمَاعِـيِّ]، ليَكُـونَ كُلّ أخٍ عَلَـىٰ بَينَـةٍ مِـنْ أَمـرِهِ، بَـلْ أَشَـارَ إِلَـىٰ واجبـاتٍ لا تتحَقَّـقُ إلا باجتمَـاع الجُهدَيـنِ الفَـردِيِّ والجَمَاعِـيِّ، وَمِـنْ ثَـمَّ تَـراهُ فِـي الثلاث مرتـب الأولـىٰ يقُـولُ: «وَذَلِـكَ وَاجِبُ كُلِّ أَخٍ عَلَـىٰ حِدَتِـهِ»، أما المراتـب الأخـرىٰ فيَجمَـعُ بَيـنَ الوَاجبيـنِ، فَيقُـولُ: «وذَلِـكَ وَاجبُ كُلِّ أَخٍ علَـىٰ حِدتِـهِ، وَوَاجِبُ الجَمَاعـةِ كَهيئَـةٍ عَامِلَـةٍ»، غَيـرَ أَنّـه قَـدَّمَ واجِبَ الجَماعَـةِ عَلَـىٰ وَاجبِ الفرْدِ، فَقَـالَ: «وَهـذِهِ المَراتِـبُ الأربعَـةُ الأخِيـرَةُ تَجِـبُ عَلَـىٰ الجَماعـةِ مُتحـدَةً، وعَلَـىٰ كُلِّ أَخٍ بِاعتِبَـارِهِ عُضـوًا فِـي الجَماعَـةِ»[70].

وَثَمَّـةَ عَامـلٌ آخَـرُ مِـنْ أَهَـمِّ عَوامل النجَـاح فِي العَمـل الجَماعِيِّ، بعدَ تَوفُّـرِ الهَيْبَـةِ، وَهُـوَ مَـا يُمكِـنُ أَنْ نُسـمِيَّه (**تَـنظِيم الوُسْـع**)، وَيَعنِـي إزالَـة كُلِّ أسبَـابِ العَوائـقِ النفْسِـيّةِ وَالمَاديَّـةِ مِـن أَجْـلِ تَحقيـقِ ذَلِـكَ الإنجَـازِ، والتعَـوَّذ منهـا كمَـا فِـي حديـثِ الرسـولِ ﷺ عَـنْ أَبِـي سَـعِيدٍ الْخُـدْرِيِّ قَـالَ: دَخَـلَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَـوْمِ الْمَسْـجِدَ فَـإِذَا هُـوَ بِرَجُـلٍ مِـنْ الْأَنْصَـارِ يُقَـالُ لَـهُ أَبُـو أُمَامَـةَ فَقَـالَ: يَـا أَبَـا أُمَامَـةَ مَـا لِـي أَرَاكَ جَالِسًـا فِـي الْمَسْـجِدِ فِـي غَيْـرِ وَقْـتِ الصَّـلَاةِ ؟ قَـالَ: هُمُـومٌ لَزِمَتْنِي، وَدُيُـونٌ يَـا رَسُـولَ اللهِ، قَـالَ: أَفَـلَا أُعَلِّمُـكَ كَلَامًـا إِذَا أَنْـتَ قُلْتَـهُ أَذْهَـبَ اللهُ عَـزَّ وَجَـلَّ هَمَّـكَ، وَقَضَـىٰ عَنْـكَ دَيْنَـكَ؟ قَـالَ: قُلْـتُ: بَلَـىٰ يَـا رَسُـولَ اللهِ، قَـالَ: قُـلْ إِذَا أَصْبَحْـتَ، وَإِذَا أَمْسَـيْتَ: اللَّهُـمَّ إِنِّـي أَعُـوذُ بِـكَ مِـنْ الْهَـمِّ وَالْحَـزَنِ، وَأَعُـوذُ بِـكَ مِـنْ الْعَجْـزِ وَالْكَسَـلِ، وَأَعُـوذُ بِـكَ مِـنْ الْجُبْـنِ وَالْبُخْـلِ، وَأَعُـوذُ بِـكَ مِـنْ غَلَبَـةِ الدَّيْـنِ، وَقَهْـرِ الرِّجَـالِ، قَـالَ: فَفَعَلْـتُ ذَلِـكَ فَأَذْهَـبَ اللهُ عَـزَّ وَجَـلَّ هَمِّـي، وَقَضَـىٰ عَنِّـي دَيْنِـي»[71].

هَـذِهِ مَعانِـي القُـوةِ الّتِـي تُنظِّـمُ الوُسْـعَ، وفِـي نَفـسِ الوَقْـتِ تُتِـمُّ عَمليـةَ

(70) حسن البنا: مجموعة *رسائل الإمام البنا*، [رسالة التعاليم]، ص 274.
(71) أخرجه أبو داود (1555).

الإنجَازِ، ولا شَكَّ أَنَّ حَديثَ الإمامِ البنَّا وَهُوَ يُمهِّدُ للدخُولِ فِي وَاجبٍ أَو رُكنٍ مِنَ الأركانِ المُهمَّةِ فِي بيعتنا، وَهِيَ الّتِي لَا تتم إلا بتوافرِ هَذِهِ الشروط مِنْ: **تَوفُّرِ الهَيْبَةِ، وَوُجودِ الأُمَّةِ، أَوْ وُجُودِ المُجتمَعِ الإسْلاميِّ النَّاشِئِ، وَتَنظيمِ الوُسْعِ**؛ ممَّا يدلُّ عَلَىٰ فقهِ الإمَامِ البنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ وَوُصُولِهِ فِي هَذَا العِلْمِ إِلَىٰ دَرجةٍ كَبيرَةٍ.

مَراتِبُ العَملِ

مِنْ فِقهِ الإمَامِ البنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ فِي صِياغَةِ رِسَالةِ البيعَةِ، أَنَّه أَوْجَزَ حَيثُ يَحْسُنُ الإيجَازُ، وفَصَّلَ حيثُ يَحْسُنُ التفْصِيلُ؛ ومِنْ ثَم تَراه فِي رُكِّن الفَهْمِ قَدَّ فصَّلَ، فوضعَ لَه عِشْرينَ أَصْلًا (وَإِنْ كانَتِ الأصولُ ذَاتُها موجزةً كلَّ الإيجازِ)؛ لأنّه أرادَ بتِلْكَ الأصُولِ أنْ يَحُلَّ مَشاكِلَ سُوءِ الفَهمِ التِي فرّقَتِ المُسلِمينَ شِيعًا وأَحْزَابًا، ولتكونَ تِلْكَ الأصولُ العِشرينَ دستورَ وَحدةٍ بَينَ المُسلِمينَ مَتَىٰ اقتَنعُوا بِهَا، ثُم تَراهُ كَذلكَ يُفصِّلُ مَراتِبَ العَمَلِ المَطلُوبَةِ مِنَ الأخِ الصَّادِقِ، وهِيَ سَبعةُ مَراتِب تبدَأُ بإِصلاحِ النفس وَتَنتهِي بِأُستَاذيّةِ العَالَمِ، ونَشرِ دَعوة الإسلام فِي ربُوعِهِ، قَالَ تعالَىٰ: ﴿..**حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ**﴾ [الأنفال: 39] ، مُرورًا بالبيتِ المُسلمِ، والشعْبِ المُسلمِ، وَالمُجتمَعِ المُسلمِ، والوطنِ المحرر، وَالحُكُومةِ، وَإِعَادَةِ الخِلافةِ؛ فَتلْكَ مُقوماتُ الشخْصيةِ الإسلاميةِ، القادرَةِ عَلَىٰ السَّيرِ وَالعملِ بِأَركانِ البيعَةِ ابتِدَاءً بالفَهْمِ وانتِهَاءً بالتجرُّدِ والثقَةِ مُرورًا بالإخلاصِ والعملِ والتضحيةِ والجِهَادِ والطاعةِ والثباتِ.

هَذِهِ مُقومَاتُ الشَّخْصيّةِ الإسلاميةِ الّتِي تميزُهَا عن غيرِهَا، حَيثُ لَا يمكنُ أن يكونَ هُناكَ سَيرٌ مُشتركٌ مِنْ أجلِ تَحويلِ الفكرِ والأملِ إِلَىٰ فهمٍ وعملٍ دُون هَذِهِ المقوماتِ.

ثُـم هُنـاكَ واجبـاتٌ تَخـدمُ هَـذِهِ المقَومَـاتِ، وكيـفَ تُنشِـئُ هَـذِهِ المقومـاتُ فِي النفسِ الواجباتِ الأَربعيـنَ حَتَّىٰ تكـونَ لَبنَةً قَويَّـةً فِي هَـذَا البنـاءِ؛ عَليـكَ أن تقـوم بـهـذهِ الواجبـاتِ، مِـن كلمـاتِ الإمـام البنّـا رَحِمَهُ اللَّهُ، وفِـي نِهايتِهَـا: «فَخُذْ نَـفْسَكَ بِشِـدَّةٍ بِهـذهِ التَّعاليـمِ، وإلّا فَفِـي صُفـوفِ القَاعدِيـنَ مُتَّسـعٌ لِلكُسَـالَىٰ والعَابِثِيـنَ»[72].

لَقَـدِ اهْتَـدَىٰ الإِمَـامُ البَنَّـا إِلَـىٰ آفَـةِ الدَّعَـوَاتِ وَالرِّسَـالَاتِ؛ حَيْـثُ تَتَعَثَّـرُ فِـي ذَلِـكَ المُنْعَطَـفِ الحَـرِجِ المُتَمَثِّـلِ فِـي العَجْـزِ عَـنْ تَحْوِيـلِ الفِكْـرِ إِلَـىٰ فَهْـمٍ، وَالأَمَـلِ إِلَـىٰ عَمَـلٍ. فَـأَدْرَكَ أَنَّ الرِّسَـالَةَ، مَـعَ كَوْنِهَـا تَكْلِيفًـا رَبَّانِيًّـا، إِنَّمَـا تَتَحَقَّـقُ مِـنْ خِـلَالِ قُـدْرَاتِ البَشَـرِ وَإِرَادَتِهِـمْ، وَمِـنْ خِـلَالِ التَّعَـرُّفِ عَلَـىٰ سُـنَنِ اللهِ فِـي الكَـوْنِ، وَالقُـدْرَةِ فِـي الوَقْـتِ نَفْسِـهِ عَلَـىٰ اسْـتِخْرَاجِ الطَّاقَـاتِ المَذْخُـورَةِ فِـي النَّفْـسِ الإِنْسَـانِيَّةِ، وَإِطْلَاقِهَـا إِلَـىٰ مَيَادِيـنِ العَمَـلِ وَالبِنَـاءِ.

إِحْيَاءُ الإِسْلامِ فِي النفُوسِ

وَصَـفَ الشـيخُ الغزَالِـيُّ الإِمَـامَ البنَّـا ومَدرسَـتَهُ فقَـالَ: «لَقَـدْ بَـدأَ حَسـنُ البنَّـا عَملَـه مِـنَ الصِّفْـرِ، وشَـرعَ دُونَ ضَجيـجٍ يُحيِـي الإِسْـلامَ المُسـتكِنَّ في القُلـوبِ، وَيُوجِّهُـهُ لِلعَمـلِ. وَيكفِـي الإِمَـامَ الشَّـهيدَ شَـرفًا أنـه صَانـعُ الشَّـبابِ الذيـنَ نَسَـفُوا مُعسكرَاتِ الإنجليـزِ عَلَـىٰ ضِفـافِ القَنـاة وَمَـا زَالُـوا بِهِـم حَتَّـىٰ أَغرَوْهُـم بِالرحِيـلِ! وَيَكفيـهِ شَـرفًا أنـه صَانـعُ الشـبابِ الذيـنَ مَـا اشْـتبَكُوا مَـعَ اليَهُـودِ فِي حَـربٍ إِلَّا أَلحَقُـوا بِهِـم الهزيمَـةَ وَأَجْبرُوهُـم عَلَـىٰ الهـرَبِ... إِنَّ ذَلِكَ مَـا جعـلَ الاسـتعمَارَ مُصِـرًّا عَلَـىٰ مُعـاداةِ هَـذِهِ المَدرسَـةِ، وَإِلحَـاقِ الأَذَىٰ بِهَـا حيثُمَـا ظَهـرَتْ»[73].

وَلِذَلِـكَ جَـاءَتْ مَدرسُـتُه فِـي التَّربيَـةِ وَالإعـدَادِ هِـيَ أنجـحَ مَدرسَـةٍ مُنـذُ

(72) حسن البنا: مجموعة *رسائل الإمام البنا، [رسالة التعاليم]*، ص 283.

(73) محمد الغزالي: *دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين*، دار الشروق، القاهرة، 1401هـ، ص 8.

أَربعَـةِ قُـرونٍ خلَـتْ كَمَـا يقُـولُ الأستاذُ سَـيدُ قُطْـب رَحِمَهُ اللَّهُ فِـي آخِـرِ مَـا كَتـبَ قَبـلَ أَنْ يَلقَـىٰ اللهَ[74]، لأنَّ الإنسَـانَ مِـن طَبيعَـةِ خَلقِـه أنَّ لَديـهِ مِـنَ القُـدراتِ العَقليّـةِ مَـا لَا حُـدودَ لَـه كَمـا يقُـولُ المُفسِّـرونَ فِـي قولـهِ تَعَالـىٰ: ﴿وَعَلَّـمَ آدَمَ الْأَسْـمَاءَ كُلَّهَـا..﴾ [البقـرة: 31]؛ يقولـونَ: إنّهـا قُـدراتٌ عَقليـةٌ لَا حُـدُودَ لَهـا، وَفَضائِـلُ خُلقيّـةٌ كَذَلـكَ لَا يَعلَـمُ وَفْرتَهـا إلَّا اللهُ فِـي المُجادلَـةِ بَينَـه وَبيـنَ المَلائِكَـةِ: ﴿قَالُـوا أَتَجْعَـلُ فِيهَـا مَـنْ يُفْسِـدُ فِيهَـا وَيَسْـفِكُ الدِّمَـاءَ وَنَحْـنُ نُسَـبِّحُ بِحَمْـدِكَ وَنُقَـدِّسُ لَـكَ ۖ قَـالَ إِنِّـي أَعْلَـمُ مَـا لَا تَعْلَمُـونَ﴾ [البقـرة: 30]؛ وَرَدَ فِـي بعـضِ التفَاسِـيرِ «فضَائـلُ خلقيـة لَا يَعلَـمُ وَفْرتَهـا إلا اللهُ»، لَكِـنْ مَـنْ القـادِرُ أَن يُطلِـقَ تِلـكَ القُـدراتِ العَقليـةَ الّتِـي لَا حـدودَ لَهـا ويُظهِـر تِلـكَ الفضائـلَ الخُلقيـةَ، ويُطلقُهـا مِـن أجْـلِ العمَـلِ وَالبنـاءِ مِـن أجْـلِ خِدمَـةِ هَـذَا الدِّيـنِ.

أخفَقَـتْ مَـدارسُ التربيَـةِ قَديمًـا وحديثًـا فِـي تِلـكَ المُهمَّـةِ كَذلِـكَ، وأخرجَـتْ نفُوسًـا لَا تُجيـدُ سِـوَىٰ أَمريـنِ: إمَّـا تُؤثِـرُ الإرجَـاءَ والانسـحَابَ والانعـزالَ، وَإمَّـا تمـارسُ عُنفًـا جَانحًـا لَا غَنَـاءَ فِيـهِ. وَهَـذَا مَـا أدركَـه الأستاذُ البنَّـا رَحِمَهُ اللَّهُ فأخـرجَ تِلـكَ الشـخصيَّةَ المُعافَـاةَ، الإنسَـانَ العَـدَلَ، ذَا النَّسَـقِ المُنْسَـجِمِ، وَلَيسَ الكَـلَّ[75] الـذِي أَيْنَمـا تُوجِّهْهُ لَا يَـأْتِ بِخَيْرٍ. قـالَ اللهُ تَعالَىٰ: ﴿وَضَـرَبَ اللَّهُ مَثَـلًا رَّجُلَيْـنِ أَحَدُهُمَـا أَبْكَـمُ لَا يَقْـدِرُ عَلَـىٰ شَـيْءٍ وَهُـوَ كَلٌّ عَلَـىٰ مَـوْلَاهُ أَيْنَمَـا يُوَجِّهـهُّ لَا يَـأْتِ بِخَيْـرٍ ۖ هَـلْ يَسْـتَوِي هُـوَ وَمَـن يَأْمُـرُ بِالْعَـدْلِ ۙ وَهُـوَ عَلَـىٰ صِـرَاطٍ مُّسْـتَقِيمٍ﴾ [النحـل: 76].

استَطاعَ الأستاذُ البنَّا أَنْ يَضعَ لِجيلِ المَلاهِي والخُمورِ مِنَ القَواعدِ مَا

(74) انظر: كتاب: *لِمَاذَا أُعْدِمُونِي؟*: وهـو كِتَـابٌ يُنْسَـبُ إِلَـىٰ الْأُسْـتَاذِ سَـيِّدِ قُطْـب، يَضُـمُّ نَـصَّ مُذَكِّـرَةٍ كَتَبَهَـا فِـي السِّـجْنِ أَثْنَـاءَ التَّحْقِيـقِ مَعَـهُ فِـي قَضِيَّـةِ سَـنَةِ 1965م، عَـرَضَ فِيهَـا تَصَـوُّرَهُ لِمَنْهَـجِ الحَرَكَـةِ الإِسْـلَامِيَّةِ، وَطَبِيعَـةِ التَّنْظِيـمِ، وَمَوْقِفَـهُ مِـنَ العُنْـفِ وَاسْـتِخْدَامِ القُـوَّةِ، وَمُلَابَسَـاتِ القَضِيَّـةِ الَّتِـي حُوكِـمَ بِسَـبَبِهَا، وَصَـدَرَ بَعْـدَ وَفَاتِـهِ.

(75) الضعيف العَالَة علىٰ غيرِهِ.

يُساعِدُهُ فِي أَنْ يُخرِجَ مِنْ تِلكَ الشخصيةِ قُدراتٍ عَقليةً وفَضائِلَ خُلقيةً، وَلَا يُمكِنُ أَنْ يَتِمَّ هَذَا إِلَّا فِي وُجودِ كِيانٍ يقُومُ عَلَىٰ هَذِهِ الأصولِ الراسِخَةِ وَالثوابتِ الّتِي تَحدَّثْنَا عَنْهَا: (تَنظِيمٌ قَوِيٌّ مُحكَمٌ يَحوِي أُصُولًا وَفَهمًا، وَمَراتِبُ عَملٍ، وَمُقوماتٌ لِلشَّخْصِيّةِ، وَواجباتٌ لِلإِخوَةِ العَاملينَ يَلتزِمُونَ بِهَا). وَبِذلِكَ تَخرجُ تِلكَ الشخصيّةُ المُعافاةُ ذاتُ النسَقِ المُنسجِمِ؛ فَتتفَجَّرُ فِيهِم تِلكَ القدراتُ العقليةُ الّتِي لَا حدودَ لَها، وتلكَ الفضائلُ الخُلقيةُ الّتِي لَا يَعلَم وَفْرتَها إِلَّا اللهُ، وأعتقِدُ أَنَّنا رأينَا فِي دعوةِ الإخوانِ جَميعًا مِثلَ هَذِهِ النماذجِ، أو هَذِهِ الرموزِ، ومِثلَ هَذِهِ الشَّخصِيّاتِ.

بِنَاءُ الكَفاءَاتِ وَاكتِشَافُ القُدرَاتِ

أذكرُ أحدَ أَقارِبِي وَهُوَ عالِمٌ جَليلٌ مِن علماء الدينِ شَاركَ فِي تأسيسِ الكثيرِ مِنَ الجَمَاعَاتِ الإسلاميّةِ المُعاصِرَةِ فِي اليمن وفي ليبيَا وفِي أفغانستَانَ وغيرها، وكَانَ يَصفُه مَنْ يَعملُ مَعهُ خاصَّةً أنه مِنْ أَعلَمِ أَهلِ الأَرْضِ، رُغمَ أَنه مِنْ أَبخَلِ الناسِ ثَناءً عَلَىٰ أحدٍ.تَكلمْتُ مَعه مَرةً، وقَدْ كَانَ فِي الإخوانِ قَديمًا فِي الأربعينِيَّاتِ وَسألتُه وقُلْتُ لَه: حَضرتك لِمَاذَا تَركتَ الجماعةَ؟ فقال لي: أنا فِي الحقيقَةِ كُنتُ عَاتبًا وقتَها عَلَىٰ الشيخِ حَسنِ البنَّا: أنّه كانَ يُقَدِّمُ بعضَ الشبابِ فِي الفتاوَىٰ مثل الشيخِ سَيِّد سَابق وَكَان في آخرِ سنةٍ لَهُ بكليةِ الشريعةِ فِي الأَزْهَرِ، فكيفَ يُترَكُ المجالُ لطالب فِي العالميةِ فِي الأزهرِ لِيُجيبَ عَن الأسئلَةِ الّتِي كانَتْ تَأتِي لِلإخوَانِ، وَتُنشَرُ فِي مَجلَّتِي: الشِّهابِ وَالنذِيرِ وَنَحوهِمَا؟ فكنتُ أقولُ لَه: كيفَ يا شَيخَنا تجعله يُجيبُ عَلَىٰ بابِ الفتاوَىٰ، قالَ: يُجيبُ وَأَنَا مِن وَرائِه وَمَعه، ونَحنُ نُريدُ أَنْ نُمَرِّنَه ونُدَرِّبَهُ لِكَي يَتعوَّدَ ويقْرأَ ويفْهمَ وَيستَوعِبَ ويتَحمَّلَ مَسؤُوليةَ الفَتْوَىٰ، وإِنْ كَانَ هُناكَ خَطأٌ نُسدِّدُهُ، ولكنْ لَا بُدَّ أنْ نُقدِّمَه ثُم هُوَ يتَحمَّلُ مَسؤولِيةَ ذَلِكَ، وَهَذِهِ مِنَ الأشياءِ

الّتِي جَعلتْ قَريبي هَـذا يَبتعِـدُ، ولَـم يَستَرِحْ لِهـذَا المَعْنَـىٰ.

النتِيجَـةُ: تَقَـدَّمَ سيدُ سَـابق حَتَّـىٰ أصـدرَ كِتابَه الشـهيرَ (**فِقْـهُ السُّـنّةِ**)، وقـدَّم لَـه الأسـتاذُ البنَّـا فِـي أولِ طَبعـةٍ مِـن طَبعاتِـه، وأَحـدُ الإِخـوَةِ الأفاضـل الّـذِي أَعرفُـه جَيّـدًا وتعرفونَـه كانَ فِـي الصِّـينِ فِـي رِحلَـةٍ تَابعَـةٍ لِعمَلـهِ، وهُنـاكَ رأىٰ كِتـابَ (**فِقْـهُ السُّـنّةِ**) مُترجَمًـا إِلَـىٰ اللغـةِ الصِّينيـةِ. وتَدلُّنـا هَـذهِ القِصّـةُ عَلَـىٰ أَنَّ أُمتَنَـا تَمتَلِـكُ قُـدراتٍ عَقليـةً لَا حُـدودَ لَهـا، ولكنَّهـا تَنتَظِـرُ مَـنْ يُطْلِقُهـا، ويُوجِّهُهـا ويُعطِيهَـا الثقـةَ لِتَعمَـلَ وَتُنتِجَ، وَلَـمْ يَكُـنْ الإمـامُ البنَّـا يقـولُ أمـامَ أحـدٍ مِـنْ إِخْوَانِـهِ: إِنَّنِـي أُسـتَاذُكَ وشَـيخُكَ، وَهَـذَا لَا يُمكِـنُ أنْ يتِـمَّ إلا فِـي كيـانٍ ذِي تَنظيـمٍ قَـويٍّ، وَهَـذَا مِمَّـا أَعانَـهُ علَـىٰ اكتِشَـافِ تِلـكَ الطاقـاتِ المُسـتكِنَّةِ، فربَّاهَـا وَتَعهَّدَهَـا وَوَجَّهَهـا، ثُـمَّ أطلَقَهـا لِلعَمَـلِ وَالبنَـاءِ، فوصَـلَ إِلَـىٰ تِلـكَ العَالميَّـةِ.

قِصَّـةٌ أُخْـرَىٰ

حكَـىٰ لِـي أحـدُ الإِخـوةِ – وهـوَ أسـتَاذٌ فِـي الكهربَـاءِ فِـي الجامعَـةِ مِـن إِخوانِنَـا – قصـةً أخـرَىٰ؛ فَهُـوَ يُحَضِّـر الدكتـورَاةَ الخاصـةَ بـهِ فِـي الكهربـاءِ فِـي إنجلـترَا، وكَانَ يَعمـلُ فِـي المُختبَـرِ الّـذِي يُحَضِّـر فِيـهِ فَـنِّيٌّ مـن بنجَلاديـشَ، وكان فِيـهِ ذكاءٌ وألمعيـةٌ؛ إِذْ يَسـتطيعُ أَنْ يُصْلِـحَ لهُـم أجهِزَتَهُـم، بـل يسـارعُ لإِصـلاحِ أيِّ عُطـلٍ، يقـولُ: حَتَّـىٰ رَئِيـسُ القِسْـمِ أُعْجِـبَ جِـدًّا بـهِ فَسـأَلَه: مَـا مُسـتَوَىٰ تَعليمِـكَ؟ قَـالَ لَـه: لَـمْ ألتَحِـقْ بـأيِّ مَرحلـةٍ تَعليمِيّـةٍ، وَلَـم يَكُـنْ مُتعلِّمًـا وَلَـم يَدخُـلْ مَـدارِسَ نِهَائيًّـا، ولكنَّـه تعلَّـمَ لِبقَائِـهِ فَـترةً فِـي إِنجِلـترَا، وَكَانَ لَديـهِ جَاهِزِيَّـةٌ جَيـدةٌ، وسـاعدَهُ عَملُـه فِـي هَـذَا المجـالِ علَـىٰ اكتسـابِ خِـبراتٍ كَبيـرةٍ أَهَّلَتْـهُ لهَـا قُدراتُـهُ العَقليـةُ. ثُـم يُكمِـلُ الأخُ القصـةَ فيقـولُ: مَـاذا فَعـلَ مَعـهُ رَئِيـسُ القِسْـمِ؟ أَجـرَىٰ لَـه مُقابلَـةً شَـخصيةً، وَقَـوَّمَ مُسـتوَاهُ، ثُـم أَلحقَـهُ بدَرجـةِ المَاجِسـتيرِ فَـوْرًا، وَإِذَا بـهِ بَعـدَ فَـترةٍ وَجيـزةٍ يُنهِـي المُقـرَّرَ،

ويُصبِحَ مُحاضِـرًا مَعنَـا فِـي الجَامِعَـةِ. عقـولٌ مَذخـورَةٌ تحتـاجُ إِلَـىٰ مَـنْ يَكتَشِـفُهَا، ويَمنَحُهـا الثقَـةَ بقدراتِهَـا، ثُـمَّ يُربِّيهـا وَيُطلِقُهـا إِلَـىٰ العَمَـلِ والبنـاءِ، لأنَّ الإنسـانَ بِطبيعَـةِ خِلقَتِـهِ مُـزوَّدٌ بِقُـدراتٍ عَقليَّـةٍ لَا حُـدودَ لَهَـا.

كَمَـا حكَـىٰ أستـاذٌ كانَ مَعِـي فِـي الجامعَـةِ، أنّـهُ كَانَـتْ لديـهِ ابنـةٌ عُمرُهَـا عَشـرُ سِـنينَ أو تِسْـعُ سِـنينَ تـدرسُ مُقـرَرَاتِ بَكالوريُـوسَ، ونَحـنُ أَحيَانًـا نَسـمعُ هَـذَا الـكلامَ وَنَقْـرَؤُه فِي بعضِ الجرائدِ؛ وَلَـدٌ عُمرُه أَربعـةَ عَشَـرَ عَامًا ومعَـهُ بَكالوريـوسٌ فِي كـذا، لأنَّ فِيهِـم مـن الطاقـاتِ المَذخُـورَةِ الفَائِقَـةِ، التـي وَجـدَتْ مَـنْ يكتَشِـفُها وَيُطلِقُهـا للعمـلِ وَالبنَـاءِ وَيُوجِّهُهَـا.

وَيُقَـرِّرُ عُلَمَـاءُ النَّفْـسِ أَنَّ فِـي الإِنْسَـانِ طَاقَـاتٍ كَامِنَـةً لَا يَسْـتَثْمِرُ مِنْهَـا إِلَّا قَـدْرًا يَسِـيرًا، وَأَنَّ التَّرْبِيَـةَ الوَاعِيَـةَ وَالتَّدْرِيـبَ المُنَظَّـمَ كَفِيـلَانِ بِإِطْـلَاقِ هَـذِهِ الطَّاقَـاتِ وَتَوْجِيهِهَـا، حَتَّـىٰ يَبْلُـغَ الإِنْسَـانُ مِـنَ الإِنْجَـازِ وَالتَّعَلُّـمِ مَـا كَانَ يَعُـدُّهُ بَعِيـدَ المَنَـالِ.

ونَسـتَطيعُ أنْ نضيـفَ إلـىٰ القُـدراتِ العَقليـةِ التِـي اكتشَـفَها الأسـتاذُ البنَّـا رَحِمَهُ اللَّهُ، وَوَقَـفَهَا مِـن أَجْـلِ خِدمَـةِ هَـذَا الديـنِ؛ الأستاذَ **عَبـدَ القَـادرِ عُـودَة**؛ حيثُ كَانَ يعمـلُ مُوظفًـا فِـي المَحَاكِـمِ الوطَنيـةِ فَـإِذَا بـهِ يُصبِـحُ وَاضِعًـا لأَحـدَثِ الكُتـبِ وَالمراجِـعِ، وإِلَـىٰ الآن كُلّ مَـنْ جَـاءَ ليتكَلَّـمَ فِـي التشـريعِ الجِنَائِـيِّ المُقـارنِ يَرجِـعُ إِلَيْهَـا، اكتشَـفَهُ الإِمَـامُ البنَّـا حينَمَـا رَأَىٰ نَباهتَـهُ وَذكَاءَهُ وقُدراتِـهِ العَقليَّـةَ؛ فدعَـاهُ أَنْ يَكتُـبَ فِـي هَـذَا المجَـالِ، فأوقـفَ الرجُـلُ نفسَـه وقُدراتِـه ونَشَـاطَه فِـي أَنْ يَكتُـبَ كمَـا كَلَّفَـه الإمـامُ، فظهـرتْ قدراتُـه العقليـة الّتِـي لَا حُـدودَ لَهَـا.

وَقُـلْ مِثلَ ذلـكَ فِـي الشَّـيخِ مُحمَّـدِ الغزالِـيّ رَحِمَهُ اللَّهُ؛ إِذِ اكتشـفَه الإمـامُ البَنـا فِـي شَـبابِهِ الباكـرِ؛ وقَـدِ اعـترفَ الشيخُ الغَزالِـي نَـفسُهُ بِذَلِـكَ، وأرجـعَ الفَضْـلَ

إِلَىٰ ذَلِكَ الإمام العملاقِ؛ حَيثُ يقولُ: «لَقدْ بَدأْتُ العملَ مَعَ حَسَنِ البنَّا وأنا طالِبٌ في الأَزهرِ»[76]، ثُم يقولُ تَحتَ عُنوانِ (أَنا تِلميذُ حَسنِ البنَّا): «كنتُ ومَا زلْتُ تِلميذًا لحسَنِ البنَّا، أذكرُ دُروسَه وأترسَّمُ خُطاهُ، وأُفيدُ مِن تَجاربِهِ، وأنَا مُستبْشِرٌ بدعَائِهِ لِي وَرضَائِه عَنِّي، ونظْرتِي إِلَىٰ ذَلِكَ الإمَامِ الشَّهيدِ أَنَّه مِن قِمَمِ الفِقْهِ الإسلاميِّ، وَمِنْ بُناةِ أُمتِنَا الفقِيرَةِ إلىٰ الرجَالِ، بَل هُوَ بِلا رَيبٍ مُجدِّدُ القَرنِ الرابعَ عَشَرَ الهِجْرِيِّ، وأشهَدُ بأنَّ لَه بعدَ الله الفضلُ الأوَّلُ في تَوجِيهي وتَثقِيفِي»[77]. بَلْ يَرىٰ الشيخُ الغزالِيُّ أنَّ تَلمذَتَهُ لِحَسنِ البنَّا مَصدَرُ فَخرٍ وَاعتزَازٍ، فيقولُ: «أشعرُ بالرضَا وأَنا أَعتَرِفُ بِأَنِّي مِنْ تَلامِذَةِ حَسنِ البنَّا ومُحبِّيه، وحَاملِي أعبَاءِ الدعوَةِ الإسلامِيّةِ مَعَه، أَعرِفُ أنَّ ذَلِكَ يُبغِّضُنِي عِندَ كَثيرٍ مِنَ النَاسِ! لِيَكُنْ، فَقد تَعلمْتُ مِنَ الرجُلِ الكَبيرِ: أنَّ المُؤمِنَ يَستَرضِي اللهَ وَحدَهُ، ويَطلُبُ وَجْهَهُ الأَعْلَىٰ، ولا يبعثِرُ مَحَابَّهُ هُنَا وهُناكَ فَلا يَظفُرُ بِشَيءٍ)»[78].

(76) محمد الغزالي: *دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين*، ص 8.

(77) مجلة لواء الإسلام: رمضان 1410هـ – مارس 1990م، 1–45 .

(78) نقلًا عن كتاب: *الإخوان المسلمون في ميزان الحق تقديم*، للدكتور فريد عبد الخالق، تقْديم الشيخ مُحمَّد الغزالي، ط 1، دار الصحوة للنشر، القاهرة، 1987م، ص 5.

رُكْنُ الْـجِهـَادِ

مَرتبةُ الْـجِهَادِ بَـينَ أَركانِ البَيعةِ

ذكَـرَ الإمـامُ البنَّـا رَحِمَهُ اللَّهُ الْجِهـادَ بَعـدَ رُكْـنِ (العَمـل)؛ لأنَّ دائرةَ العَمل أَوسَـعُ مِـنْ دائـرةِ الجِهَـادِ؛ فَكُلُّ جِهَـادٍ عمـلٌ وَلَيسَ كُلُّ عَمـلٍ جِهَـادًا، بَـل إنَّ بَعـضَ الجِهـادِ قَـد يَكـونُ خَاطئًـا، يقُـولُ الإمـامُ البنَّـا في رسـالَة المؤتمـر الخامـس: «إنَّ مَيـدانَ القَـولِ غَيـرُ مَيـدانِ الخَيـالِ، وَمَيـدَانَ العَمـلِ غَيـرُ مَيـدَانِ القَـوْلِ، وَمَيـدانَ الجِهَـادِ غَيـرُ مَيـدانِ العَمـلِ، وَمَيـدَانَ الجِهَـادِ الحَـقِّ غَيـرُ مَيـدانِ الجِهـادِ الخَاطـئِ»[79].

عَلَـىٰ أنّ مَـا يَلفِـتُ الانتِبَـاهَ حَقًّـا، أنَّ الإمـامَ البَنَّـا رَحِمَهُ اللَّهُ لَـمْ يَبـدَأْ أَركَانَ البَيعَـةِ بالجِهَـادِ، وَلَيـسَ يَخْفَـىٰ أَنَّ دَعْـوَةَ (الإِخْـوَانِ المُسْـلِمينَ) التِـي أَسَّسَـهَا تَـتبَنَّىٰ مَشْـرُوعًا سَيضْطَـرُّهَا إِلَـىٰ جِهَـادٍ لَا هَـوادَةَ فِيهِ، وَإِلَـىٰ تَضحِيَّـاتٍ مِـنَ النفُـوسِ وَالدِّمَـاءِ، وَلكنَّـه لَـمْ يَبدَأْهَـا بِالتضحِيَـةِ كَذلِـكَ، أَوِ بِالإِخْـلَاصِ، وَإِنّمَـا بَـدَأَهَا (بِالفَهْـمِ)!

وَقَـدْ ذَكَـرْتُ أنَّ كلَّ شَـيءٍ يَبـدَأُ بِغَيـرِ (اقْـرَأْ) بِمَعْنَـىٰ القِـراءَةِ الصَّحيحـةِ الوَاعيَـةِ النَّاضِجَـةِ لِطبيعَـةِ الأَحْـدَاثِ، وَمَـا يَكتَنِفُهَـا وَمَـا يَلْحَـقُ بِهَـا، وَالأسبَـابِ المُؤديَـةِ إِلَيْهَـا وَالنتَائـجِ الّتِي تَتمخَّـضُ عَنْهَا، ستكون نهايتُه الفَشَـلَ وَالإِخْفَاقَ. وَمِـنَ الغَريـبِ كَذَلِـكَ أَنَّ الإِمَـامَ البَنَّـا يُـقدِّمُ (العَمـلَ) عَلَـىٰ (الْجِهَـادِ) كَمـا ذَكرنَـا؛ لأنَّ دائـرةَ العَمـلِ أوسَـعُ مِـن دَائـرةِ الجِهَـادِ، وَالجِهَـادُ يُعَـدُّ جُـزْءًا مِـن هَـذَا التكليـفِ (العَمَـلِ) وَمُتمِّمًـا لَـهُ مَعًـا وَمُكمِّـلًا لَـهُ.

تَعلّـمَ الإِمَـامُ البنَّـا رَحِمَهُ اللَّهُ مـن سِيرَةِ المُصطفَـىٰ كَذلِـكَ، أَنَّ هَذهِ الدَّعْـوةَ عَمَلٌ

(79) حسن البنا: مجموعة *رسائل الإمام البنا*، ص 339.

شَـاقٌّ، وَجِهَـادٌ دَائِـمٌ، وَأَنَّ الدعـوَاتِ لَا تَنجَـحُ دُونَ جِهَـادٍ وبَـذلٍ، ولِهـذَا جَعـلَ (الجِهَـادَ) رُكنًـا مُسْـتَقِلًا مِـنْ أَرْكَانِ بَيعتِهِ؛ لأَنَّـه أدْرك أَنَّ العَمـلَ غيرُ الجِهَـادِ؛ فَثَمَّـةَ مَـن يَكتَفِـي بـأنْ يَكتُـبَ مَقَالَـةً فِـي صَحِيفَـةٍ، أَوْ يَظْهَـرَ فِـي قَنـاةٍ فَضَائيـةٍ يُحـدِّثُ النـاسَ عَـنِ الإِسْـلامِ ويَعِظُهُـم، أَوْ يُـلْقِي دُروسًـا فِـي المَسَاجِـدِ، أَوْ مَـنْ يُصلـحُ بيـنَ مُتخَاصِمَيـنِ، أو مَـن يَبنِـي المسَـاجدَ أو يُكْثِـرُ مِـن رَحَـلاتِ الحـجِّ والعُمـرةِ، وَكُلُّهـا أَعْمَـالٌ صَالِحَـاتٌ لَا مِراءَ فِـي ذلِـكَ. لكنَّها «لَا تُـؤَدِّي وَاجِبًـا، وَلا تُـزِيلُ عَائقًـا»، يَقتضِيهُمـا التمْكِيـنُ لِديـنِ الله عـزَّ وجـلَّ، وإقامـةُ شَـرعِهِ وتَحكيـمُ كِتابِـهِ، ومِنْهَاجِـه.

أَمَّـا التمكيـنُ لديـنِ الله، وإقامـةُ شَـرعِهِ، وَاسـتئنافُ خلافـةٍ علـىٰ منهـاجِ النبُـوةِ؛ فتلـك غايـاتٌ لا تتحقّـقُ إلا بِعمـلٍ ضَخـمٍ، وَبـذلٍ وتَضحيـةٍ دائميـنِ، واهتمـام وتركيـزٍ دَائميـنِ مُتواصِلَيـنِ، ودراسـاتٍ كثيـرةٍ مُتنوعـةٍ، وَلا بُـدَّ لتحقيقهـا مـن جهـادٍ شـاقٍّ، لِمَـا تقتضيـه تلـك الغايـات مِـنْ مواقـفَ الخصومـةِ وَمَـا يتلوهَـا مـن نتائـجَ مَريـرةٍ.

فَلـمْ تَكُـنْ غَايـةُ الإِمَـامِ البَنَّـا تَكويـنَ جمَاعـةٍ عَابـدةٍ زاهـدةٍ مُخلِصَـةٍ وَقُضِـيَ الأمـرُ، وَإِنَّمـا أَرَادَ لدعْـوةِ (الإِخْـوَانِ المُسـلمينَ) أَنْ تُحْيِـيَ أُمَّـةً، وتُقِيـمَ دَولَـةً، وهـوَ يَعلـم تمـامَ العِلْـمِ أَنَّ أيَّ فئـةٍ تَسـعَىٰ إلـىٰ تحقيـقِ هَـذِهِ الغَايـاتِ لَا بُـدَّ أن تُجَـرَّ إِلَـىٰ مَواطـنِ الخصُومـةِ وَالشـدَّةِ والصـراع، وصَحِيـحٌ أَنَّ الإِخـوَانَ لَا يَسـعَوْنَ إِلَـىٰ تِلـكَ الخصُومـةِ، ولَا يُريدُونَهـا، لكـنَّ حُمْـقَ غَيرِهِـم وَالكَارِهيـنَ لِدعوتِهِـم، سَـيُلجِئُهم حَتمًـا إِلَـىٰ الخصومـةِ والمواجهـةِ بيـنَ الدعْـوةِ والكارهيـن لَهَـا [نُظُمًـا وأفـرادًا]؛ فتلـكَ سـنةُ الدَّعـوَاتِ، ونَهْـجُ أصحـابُ الرسَـالَاتِ.

وَينبغِـي أنْ يفهـمَ كُلُّ أخٍ فِـي دَعوتِنَـا أنَّ مُقتضيَـاتِ هـذِهِ الدَّعْـوةِ وحُمْـقَ

الخُصـوم، سَيجُـرُّ الإخـوَانَ (شَـاءُوا أَم أَبَـوْا) إلـىٰ خصُومـةٍ، يَجِـدُونَ أَنفسَـهُم أَمَامَهـا فِـي مَـأزِقٍ حَـرِجٍ يُحتِّـمُ عليهِـم أنْ يختـارُوا وَاحِـدًا مِـنْ سَـبِيلينِ: إِمَّـا أن يخُونُـوا دَعوتَهـم، ويَرضَـوْا الدَّنيـةَ فِـي دِينِهـم، مقابـلَ عَـرَضٍ مِـنْ دُنيـا، كالـوزارَةِ وَالرئَاسِـةِ أو غيرِهِمَـا، وإمَّـا أنْ يَتمَسَّـكُوا بِمبـادِئِ دَعوتِهِـم، ويتَحمَّلُـوا مُحتَسِبِينَ الأجرَ والمَثوبةَ، مَـا يقتَضِيـهِ ذَلكَ التمَسُّـكُ مِن خصُومةٍ ومُواجهـةٍ، تُكلِّفُهُـم جِهَـادًا مُضْنيًـا وتَضحيَّـاتٍ جِسَـامًا.

وَلَا بُـدَّ لِهـذِهِ الدَّعـوَةِ مِـنْ مُواجهـةٍ وَصِـدَام؛ لأنّهـا تُواجِـهُ قُـوًىٰ نَافـذَةً مُهيمِنَـةً. وَصَحِيـحٌ أَنَّ دَعـوَةَ (الإِخْـوَانِ المُسـلِمِينَ) تُؤثِـرُ العمَـلَ السِّـلْمِيَّ المُعتَـدِلَ، **لكـنَّ أعـدَاءَ الإِسْـلام فِـي الدَّاخـلِ وَالخَـارِج يَعلمُـونَ أَنَّ أيَّ دَعـوةٍ تُوقِـظُ المُسـلِمِينَ مِـنْ سُـباتِهِمْ بِحَـقٍّ، وَتُعيدُهِـمْ إلـىٰ إِسْـلامِهِم إِعَـادَةً حقيقيـةً لَا ظَاهرِيّـةً؛ فَـإِنَّ ذَلِـكَ يُهـدِّدُ عُروشَـهم وَمصَالِحَهُـم**، وَمِـنْ ثَـمَّ لَا بُـدَّ أَنْ يُعـدَّ أبنَـاءُ هَـذِهِ الدَّعـوَةِ لِمُواجَهَـةٍ أَكِيـدَةٍ، وَجِهَـادٍ طَويـلٍ مُنضبِطٍ لَا يَستَخِفُّهُ طَيـشٌ أَوْ نَـزَقٌ، وَلَا يَستَخدِمُ القُـوَّةَ إِلَّا حَيثُمَـا لَا يُجدِي غَيرُهَـا، وَإِلَّا خَـاضَ مَعركـةً فِي غَيـرِ مَيْـدَانٍ، وَدَخَـلَ فِـي دَائِـرَةِ الجِهَـادِ العَبَثِـيِّ الّـذِي لَا يَحُـلُّ قَضيّـةً، وَلَا يَخـدُمُ أَحَـدًا.

وَلِهـذَا حِينَمَـا طَلَـبَ بَعـضُ الإِخْـوَةِ العَائِدِيـنَ مِـنْ حـرب فَلسْـطينَ مِـنَ الإِمـام البنَّـا رَحِمَهُ اللَّهُ - عِندَمَـا حُلَّـتْ الجَماعَـةِ - أَنْ يَصطدِمُـوا بِأنظِمَـةِ الحُكْـمِ القَائِمَـةِ، وَكَانَـتْ كَتائِـبُ الإِخـوَانِ عَائـدَةً لِتوِّهَـا مِـنْ فَلسـطِينَ بِسِـلاحِهَا، فَقالُـوا لَـه: «(نَتغَـدَّىٰ) بِهِـمْ قَبـلَ أَنْ (يَـتعَشَّوْا) بِـنَا»، فَرفـضَ الرجُـلُ، وَقَـالَ: «لَـنْ نُضيِّـعَ الأُمَّـةَ مِـنْ أَجْـلِ الحُكومَـةِ، وَلَـنْ نُضيِّـعَ الوَطـنَ مِـن أَجْـلِ الدَّولَـةِ؛ الحُكُومَـة تَقـومُ وَقْـتَ مَـا تَقـومُ، أَمَّـا الأمّـةُ فَـلا تُذبَـحُ وَلَا تَضِيـعُ، وَالعِبـرَةُ بِأخـلاقِ الأُمُـم لَا بِشَـكْلِ الحُكومَـاتِ، وَكُلُّ أُمّـةٍ تَستَحِقُّ الحُكْـمَ الّـذِي تَصبِـرُ عَليـهِ، وَأَمَّـا السُّلطَـةُ فَهِـيَ تَعبِيـرٌ عَـن مَفاهِيـمِ الدِّيـنِ وَالأخـلاقِ، وَلذَلِـكَ لَـن

نُضيِّعَ الوطـنَ مِـنْ أَجْـلِ الدَّولَـةِ، أَيْ مِـنْ أَجْـلِ السُّلْطَـةِ».

رَفـضَ الرجـلُ هـذهِ الاندفَاعـةَ لأنَّـه أَعْمَـقُ نظَـرًا وأبعـدُ رُؤيـةً، يَعلَـمُ أنَّ الطَّريـقَ طَويلـةٌ جِـدًا، وَمِـنَ الخَطـأِ أَنْ يَستعجِلَ الصِّـدامَ مـعَ أوّلِ تَضييـقٍ، وَمِمَّـا يَدلُّـكَ علَـىٰ بَصـرِ الإمَـامِ البنَّـا بِطَبيعـةِ الطَّريـقِ، وشَـدائدِهِ أنّـه أَوْقَـفَ الإِخْـوَانَ عَلَـىٰ صُـورٍ مِـنَ التَّنكيـلِ التِـي سَـتقَعُ بهـم قَبـلَ أَنْ تَحـدُثَ، يقـولُ الإمـامُ البنَّـا في رسـالةِ بيـنَ الأمـسِ واليَـوم: «أُحِـبُّ أَنْ أُصارِحَكُـمْ أَن دَعوتَكُـمْ لَا زَالَـتْ مَجهولـةً عِنـدَ كَثيـرٍ مِـنَ النّـاسِ، وَيَـومَ يَعرفُونَهـا ويُدرِكُـونَ مَراميَهَـا سَـتَلقَىٰ مِنهُـم خصومَـةً شَـديدةً وَعـداوةً قاسـيةً، وَسـتجِدُونَ أَمامَكُـم كَثِيـرًا مِـنَ المَشـقَّاتِ، وسَـيعتَرِضُكُمْ كَثِيـرٌ مِـنَ العقبـاتِ ... وَسَـتدخُلُونَ بِذلِـكَ – وَلا شَـكَّ – فِـي دَوْرِ التجرِبَـةِ وَالامتحَـانِ، فَتُسْـجَنُونَ وتُعتَقلُـونَ، وتُنقَلُـونَ وتُشـرَّدُونَ، وتُصـادَرُ مَصالحُكُـم، وتُعطَّـلُ أعمَالُكُـم، وتُـفتَّشُ بُيوتُكُـمْ، وقَـد يَطُـولُ بِكُـم مَـدَىٰ هـذَا الامتحَـانِ: ﴿أَحَسِبَ النَّـاسُ أَنْ يُتْرَكُـوا أَنْ يَقُولُـوا آمَنَّـا وَهُـمْ لا يُفْتَنُـونَ﴾ [العنكبـوت:٢]»[80].

وَشَـبيهٌ بِمَوْقِـفِ الأُسْـتَاذِ البَنَّـا مَـا عُـرِفَ عَـنِ الأُسْـتَاذِ حَسَـنِ الهُضَيْبِـيِّ مِـنَ التَّـرَوِّي فِـي تَقْدِيـرِ المَوَاقِـفِ، وَرَفْـضِ الِانْدِفَـاعِ إِلَـىٰ المُوَاجَهَـةِ قَبْـلَ أَوَانِهَـا؛ فَفِـي سِـيَاقِ الحَدِيـثِ عَـنْ وَاجِـبِ الإِخْـوَانِ فِـي الكِفَـاحِ، قَـالَ: «وَلَا يَـزَالُ بَيْـنَ مَـا فَرَضَـهُ اللهُ عَلَيْهِـمْ مِـنَ الكِفَـاحِ وَبَيْـنَ الوَاقِـعِ أَمَـدٌ بَعِيـدٌ، وَالأُمُـورُ إِلَـىٰ أَوْقَاتِهَـا، ﴿وَلَا يَسْـتَخِفَّنَّكَ الَّذِيـنَ لَا يُوقِنُـونَ﴾ [الـرُّوم: 60] »[81].

إِنَّ مَواقِـفَ هَـؤلاءِ الرجَـالِ العُقـلاءِ وَالقَـادَةِ الحكمَـاءِ هِـيَ التِـي نَـأَتْ بِأبنـاءِ

(80) حسن البنا: مجموعة رسائل الإمام البنا، *رسالة بين الأمس واليوم*، ص 515، وما بعدها.
(81) مَحْمُـودُ عَبْـدُ الحَلِيـمِ، *الإِخْـوَانُ المُسْـلِمُونَ: أَحْـدَاثٌ صَنَعَـتِ التَّارِيـخَ – رُؤْيَـةٌ مِـنَ الدَّاخِـلِ*، الجُـزْءُ الثَّانِـي، البَـابُ السَّـادِسُ؛ وَأَصْـلُ التَّصْرِيـحِ مَنْشُـورٌ فِـي جَرِيـدَةِ المِصْـرِي، 3 يَنَايِـر 1952م.

الدَّعـوةِ أَنْ تُنفَـقَ أَعمارُهَـا فِي غيـرِ طَائـل، أَوْ تُسفَكَ دِمَاؤُهَـا فِي غَيـرِ مُوجِب، مِمَّـا يُسـمَّىٰ (الجهَـادُ العَبَثِيّ) الّـذِي يقَـعُ فِيـهِ كثيـرٌ مِـنَ النَّـاسِ؛ وهـو جهـادٌ لَا يَحـلُّ قَضيـةً، وَلا يَخـدُمُ أَحـدًا، وَلذلِـكَ جَعـلَ الإِمَـامُ البنَّـا رَحِمَهُ اللَّهُ (الجِهَـادَ) مِـنْ أَركانِ البيعَـةِ حَتَّىٰ لَا يتـوَرَّطَ فَصِيلُـهُ فِي مَـآزِقَ قَـدْ تُـلجِئُه إِلَـىٰ المُواجهـةِ فِي مِثْـلِ هَـذَا الجِهَـادِ العَبَثِيِّ.

وَلَـمْ يذكُـرِ الأسـتاذُ البنَّـا رَحِمَهُ اللَّهُ (الجِهـادَ)، قَبـلَ أركانٍ مُهمـةٍ يَجـبُ أَنْ تُؤسَّـسَ أَوَّلًا، فَـلا يَصِـحُّ الحَديـثُ عَـنْ (جِهـادٍ) قَبـلَ بِنَـاءِ أركَانِ: (الفَهـم)، وَ(الإِخْـلاص)، ثُـمَّ (العَمَـل)؛ بمَراتِبِـهِ المُختَلِفَـةِ، وَمِنهَـا: تَحريـرُ الوطَـنِ، ثُـم إِقَامـةُ الحكُومَـةِ المُسـلِمَةِ، وَكمـا ذكرنـا سـابقا قـول الشـيخُ القَرضَـاوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: إِنَّ وُجـودَ الحكومَـةِ المُسـلِمَةِ يَستَدعِي وجـودَ أَرضٍ محـرَّرة، وَقُـوةٍ يُؤازِرُهَـا تَيـارٌ عَـارِمٌ يُنـادِي بِهَـا، وَيُبشِّـرُ بِهَـا، وَهَـذِهِ الأمـورُ إِذَا تَحقَّقَـتْ فِـي المُجتَمـعِ النَّاشِـئِ، مَنحَتْـهُ حَـقَّ الانطِـلاقِ مِـنْ أَجْـلِ تَسـلُّمِ السُّـلطَانِ وَتقريـرِ النظَـام.

وَمِـنْ فِقْـهِ الإِمَـام البنَّـا أَنْ جَعـلَ العَمـلَ مَراتِـبَ وَخُطـواتٍ، وَقَـدْ بَـدأَ بإِصـلاحِ الفَـردِ المُسـلم، ثُـم البَيـتِ المُسْـلِم، ثُـمَّ المُجتَمَـعِ المُسـلِم، ثـم الوطـن المحـرَّر، ثُـمَّ الحُكُومـةِ المُسْـلَمةِ، ثُـمَّ الدولَـةِ المُسْـلِمَةِ؛ فَـإِذَا تَكوَّنَـتْ للمسـلمينَ دَولـةٌ إِسْـلاميةٌ قَويـةٌ، تُـؤمِنُ بِمبَـادِئِ الإِسـلَام، وَتَتخِـذُهُ منهـاجَ حَيـاةٍ، فَهِـيَ الّتِي تَـقُومُ بَعـدَ ذَلِـكَ بِرفْـعِ لِـواءِ الدَّعـوَةِ وَالجِهَـادِ، وَنَسـتَطِيعُ أَنْ نُطالِبَهـا بـأَنْ تُبلِّـغَ دَعوتَنـا لِلعَالَـم، وَأَنْ تُخضِـعَ لَهَـا كُلَّ جَبـارٍ، وَأَنْ تَعُـمَّ بِهَـا آفَـاقَ الأَرْضِ.

تَـصوُّراتٌ خَاطِئَةٌ لِـمَعْنَىٰ الْـجِهَادِ

يَنبغِي قَبـلَ أَنْ نَعـرِضَ لِبعـضِ صُورِ التشْـوِيهِ التِي لَحِقَتْ مَعنَىٰ (الجِهَادِ)؛ أَنْ نُؤكِّـدَ أَنَّ فِقْـهَ (الجِهَـادِ) مَعنَـاهُ: أَنْ يَضبِـطَ المُسْـلِمُ عَلاقتَـهُ بِنفْسِـهِ وَبِغيـرِهِ،

فَأَمَّـا جِهَـادُهُ لِنفْسِـهِ فَهُـوَ - بِإيجَـازٍ - أنْ يَحمِلَهَـا عَلَـىٰ مَـا يُرضِـي اللهَ تَعالَـىٰ، وَأَنْ يَنـأَىٰ بِهَـا عَمّـا يُغضِـبُ اللهَ تعالـىٰ، وأمَّـا الغَيـرُ فَقـدْ يَكُـونُ مَسْـلِمًا وَقَـعَ فِـي ظُلْـمٍ أَوْ ابتـدَعَ أَوْ أَتـىٰ مُنكَـرًا، والمُسـلِمُ مَأمـورٌ بِـأَنْ يَنصَـحَ أَخَـاهُ وَيَنهَـاهُ عَـنْ ظُلْمِـهِ وَأَنْ يُغيِّـرَ المُنكَـرَ حَسْـبَ طَاقَتِـهِ، وَمَـا يُـتِيحُهُ فِقْـهُ الأَمْـرِ بِالمعرُوفِ وَالنهْـيِ عَـنِ المُنكَـرِ (بِاليَـدِ أَوِ اللسَـانِ أَوِ القَلْـبِ)؛ حَتَّـىٰ يَبقَـىٰ المُجتمَـعُ المُسْـلِمُ فِـي حَالـةِ إِصْـلاحٍ دَائـمٍ يُقـوِّمُ بَعضُـهُ بَعضًـا، وَلَا يَظهَـرُ فِيـهِ مُنكَـرٌ أَيًّـا كانَ نَوعُـه أَو دَرجتُـه حَتّـىٰ يَجِـدَ مَـن يُقاوِمُـه، وَيَسـعَىٰ لِتغْيِيـرِهِ.

وَقَـد يكـونُ هَـذا الغَيـرُ شَـيْطَانًا يُجاهِـدُهُ المُسْـلِمُ، وَيُـقاوِمُ وَسَاوِسَـهُ وَهَمزَاتِـهِ، وَقَـد يَكـونُ الغَيْـرِ إِنْسَـانًا غَيـرَ مُسـلِم (يَهـودِيٍّ - نَصرَانِـيٍّ - مُلحِدٍ)، وَهُنَـا كلامٌ يَطُـولُ فِـي فِقْـهِ (الجِهَـادِ) وَلَا يَتَّسِـعُ لَـهُ المقـامُ، فَثمَّـةَ فَـرقٌ بيـنَ أنْ يَكـونَ غَيـرُ المُسْـلِمِ مُسَـالِمًا، وأنَ يكـونَ مُحارِبًـا أو مُعتَدِيًـا، وثَمَّـةَ فَـرقٌ بيـنَ أَنْ يَكـونَ غَيـرُ المُسْـلِمِ فَـرْدًا، وَأَنْ يَكُـونَ مُجتَمِعًـا أَوْ دَوْلَـةً، وَثَمـةَ فَـرْقٌ بَيـنَ مُسـلِمٍ يَعيـشُ فِـي دَولـةٍ أُوربيَّـةٍ، وَآخَـرَ يَعِيـشُ فِـي دَولَـةٍ إِسْـلاميَّةٍ، فَـإِنَّ هَامِـشَ الحُريـةِ المُتـاحُ لِلمُسْـلِمِ فِـي الأَمْـرِ بِالمَعـرُوفِ وَالنهْـيِ عَـنِ المُنكَـرِ يَختَلِـفُ مِـنْ دَولـةٍ لأُخْـرَىٰ وَمِـنْ مُجتمَـعٍ لآخَـرَ، وَلَا يَعنِـي هَـذَا بِالضـرورَةِ أَنَّ هَامِـشَ الحُريَّـةِ فِي الـدوَلِ الإِسْـلَامِيّةِ أَكَـبرَ، فَكُلُّنَـا يَشْـهَدُ أَنَّ دَعْوَتَنَـا لَا تَـزَالُ تَلْقَـىٰ فِـي كَثِيـرٍ مِـنَ الـدُّوَلِ العَرَبِيَّـةِ أَنْوَاعًـا مِـنَ التَّضْيِيـقِ وَالمُعَوِّقَـاتِ الَّتِـي تَحُـولُ دُونَ انْطِلَاقِهَـا عَلَـىٰ الوَجْـهِ المَأْمُـولِ.

وَيُـفْهَمُ مِمَّـا سَـبقَ أَنَّ فِقـهَ (الجِهَـادِ) يَحتَـاجُ إِلَـىٰ تَـفْصِيلٍ يَطُـولُ، غَيـرَ أَنّنـا نُشِيرُ إِلـىٰ سِـتِّ آيَـاتٍ تَضْبِطُ صِلَـةَ المُجتَمعِ المُسْـلِمِ بِغَيرِهِ مِـنَ المُجتمعَاتِ؛ لأَنّهَـا تَضَمَّنَـتْ سِتَّـةَ مَبـادِئَ، يَقُولُهـا القُـرآنِ الكَرِيـمِ صَراحَـةً، وَهِـيَ:

1 - حُريةُ الاعتِقَادِ: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: 256].

2 - التعـاونُ وَالتعـارُفُ: ﴿يَـا أَيُّهَـا النَّـاسُ إِنَّـا خَلَقْنَاكُـمْ مِـنْ ذَكَـرٍ وَأُنْثَـىٰ وَجَعَلْنَاكُـمْ شُـعُوبًا وَقَبَائِـلَ لِتَعَارَفُـوا﴾ [الحجـرات: 13].

3 - التَّحذِيرُ مِنَ الاعتِدَاءِ: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: 190].

4 - الوَفـاءُ بِالعُهـودِ وَأَدَاءُ الأَمَانَـاتِ: ﴿يَـا أَيُّهَـا الَّذِيـنَ آَمَنُـوا أَوْفُـوا بِالْعُقُـودِ﴾ [المائـدة: 1]

5 - المُعامَلَـةُ بِالمِثْلِ: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُـمْ فَعَاقِبُـوا بِمِثْلِ مَـا عُوقِبْتُـمْ بِـهِ﴾ [الحـج: 126].

6 - إِعْـدَادُ القُـوَّةِ لِصَـدِّ العُـدوَانِ وَتأميـنِ الدَّعْـوَةِ: ﴿وَأَعِـدُّوا لَهُـمْ مَـا اسْـتَطَعْتُمْ مِـنْ قُـوَّةٍ وَمِـنْ رِبَـاطِ الْخَيْلِ﴾[الأنفـال: 60].

فَهَـذِهِ الآيـاتُ ضَوابـطُ شَـرعِيَّة حَاكِمَـةٌ لجِهَـادِ المُسـلِمِينَ غَيرَهُـم، وَلَيـسَ لأَحـدٍ أَنْ يُجادلَ فِيهَـا؛ فَإِنَّهَـا مَأخـوذَةٌ مِـنْ آيَـاتٍ مُحْكَمَـةِ الدِّلَالَـةِ.

ولَا شَـكَّ أَنَّ مَفهُـومَ (الجِهَـادِ) وَاحِـدٌ مِـنَ المَفَاهِيـمِ التـي اضطـرَبَ كثيـرٌ مِـنَ النَّـاسِ فِـي فَهمِهَـا، مَـا بيـن إِفْـراطٍ وَتَفْـرِيطٍ، فَـأُولُوا الحَمَاسَـةِ أَفْـرطُوا فِـي فَهـمِ مَعْنَـىٰ (الجِهَـادِ) وَحَصـرُوهُ فِـي صُـورةٍ وَاحـدَةٍ لَا يَتحقَّـقُ إِلَّا بِهَـا وَهـوُ الصِّـدَامُ العَنيـفُ، وَالتغْييـرُ بِالقُـوَّةِ دُونَ مُراعَـاةٍ لِضوَابـطِ الجِهَـادِ، وَقَـد أَشَـرْنَا إِلَـىٰ مَوقِفَيـنِ مِـنْ قِبـلُ أولئِـكَ الحَمَاسِـيّينَ المُتهوِّريـنَ، وَرأَينَـا كَيـفَ رَدَّ عَليهِمَـا المُرشِـدَانِ الجليـلانِ حَسـنُ البنَّـا، وَحَسَـنُ الهُضيبـيّ. وَالحَـقّ أَنَّ نَـبرةَ الحَماسَـةِ المُتهـوِّرَةِ هَـذِهِ تَتجـدَّدُ مَـعَ كُلِّ أَزمَـةٍ تَدخُـلُ فِيهَـا الجَماعـةُ مَـعَ السُّـلطَةِ الحَاكِمَـةِ!

وَيَحسُـنُ فِـي هَـذَا السِّـيَاقِ أَنْ نُشِـيرَ إِلَـىٰ حَديـثِ الإِمـام ابـنِ القَيِّـم عَـنْ الجِهَـادِ وَمَراتبه؛ لأَنَّ كَثِيـرًا مِـنَ المُسـلِمِينَ يَجعَلُـونَ كَلمَـةَ (الجِهَـادِ) مُرادِفَـةً لِكلِمَـةِ (القِتَـالِ)، وَلَا يُـدرِكُونَ أَنَّ مَعنَـىٰ (الجِهَـادَ) أَوْسَـعُ وأَعَـمُّ مِـنْ مَعنَـىٰ

القِتَـالِ؛ فَلَيـسَ القِتَـالُ أَوِ التَّغييـرُ بِالقُـوَّةِ إِلَّا دَرجـةً مِـنْ دَرجَـاتِ الجِهَـادِ، وَلَا يَجـوزُ لِلمُسـلِمِينَ أَنْ يَلْجَئُـوا إِلَـىٰ القُـوَّةِ إِذَا أَجْـدَىٰ غَيرُهَـا، فقَـدْ كَانَ رَسُـولُ اللهِ حَريصًـا يَـومَ الحُديبيَـةِ عَلَـىٰ تَجنُّـبِ الصِّـدَامِ أَوِ القِتَـالِ مَـعَ قُريـشٍ مَـا استَطَاعَ إِلَـىٰ ذَلِـكَ سَـبِيلًا، وَتَدبَّـرْ مَلِـيًّا قَولَـهُ ﷺ: «وَالـذِي نَفْسِـي بِيَـدِهِ، لَا يَسْـأَلُونَنِي خُطَّـةً يُعَظِّمُـونَ فِيهَـا حُرُمَـاتِ اللهِ[82] إِلَّا أَعْطَيْتُهُـمْ إِيَّاهَـا»[83]، وَفِـي رِوَايَـةٍ أُخْـرَىٰ قَـالَ ﷺ: «وَاللهِ لَا تَدْعُونِـي قُرَيْـشٌ الْيَـوْمَ إِلَـىٰ خُطَّـةٍ يَسْـأَلُونِي فِيهَـا صِلَـةَ الرَّحِـمِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُـمْ إِيَّاهَـا»[84].

وَمَعنَـىٰ هـذَا أَنَّ القِتَـالَ أَوِ (القُـوةَ) لَا يَكـونُ حَـلًّا فِـي كُلِّ الأَوْقَـاتِ وَالأَحْـوَالِ، وَلَيـسَ مَعنَـىٰ الجِهَـادِ وَقْـفًا القِتَـالِ أَوِ العُنـفِ، فَالإِمـامُ ابـنُ القيِّـمِ جَعـلَ الجِهـادَ أَرْبـعَ مَراتِـبَ، فَقـالَ: «فَالْجِهَـادُ أَرْبَـعُ مَرَاتِـبَ: جِهَـادُ النَّفْـسِ، وَجِهَـادُ الشَّـيْطَانِ، وَجِهَـادُ الْكُفَّـارِ، وَجِهَـادُ الْمُنَافِقِيـنَ»[85]، ثُـمَّ جَعـلَ كُلَّ وَاحـدَةٍ مِنْهَـا مَراتِـبَ كَذلِـكَ؛ وَدَعْـكَ مِـنْ حَديثِـه عَـنْ مَراتِـبِ جِهَـادِ النفْـسِ أَوِ الشَّـيطَانِ؛ فَـإِنَّ مَـا يَعنِينَـا هُنَـا حَديثُـه عَـنْ جِهـادِ الكُفَّـارِ وَالمُنافِقِيـنَ؛ فَهُمَـا أَلَـدُّ أَعـدَاءِ الإِسْـلَامِ؛ يَـقُولُ ابـنُ القَيِّـمِ: «وَأَمَّـا جِهَـادُ الْكُفَّـارِ وَالْمُنَافِقِيـنَ فَأَرْبَعُ مَرَاتِـبَ: بِالْقَلْـبِ، وَاللِّسَـانِ، وَالْمَـالِ، وَالنَّفْـسِ، وَجِهَـادُ الْكُفَّـارِ أَخَـصُّ بِالْيَـدِ، وَجِهَـادُ الْمُنَافِقِيـنَ أَخَـصُّ بِاللِّسَـانِ»[86].

وَلَيـسَ يَخفَـىٰ أَنَّ دَعْـوَةَ (الإِخْـوَانِ المُسـلِمِينَ) فِـي هَـذِهِ المَرحَلَـةِ لَا

(82) أَيْ: مِـنْ تَـرْكِ القِتَـالِ فِـي الحَـرمِ، وَحَتَّـىٰ الروايـةُ الأخـرىٰ: «يَسـأَلُونِي فِيهَـا صِلَـةَ الرَّحِـمِ»، فـإِنَّ صِلَـةَ الرحِـمِ مِـنْ جُملَـةِ حرُمـاتِ اللهِ.

(83) رواه البخاري (2731).

(84) أخرجَه الإمام أحمدُ فِي مُسندِه، رقم الحديث (18910)، وإسنَادُهُ حَسنٌ.

(85) ابـن قيـم الجوزيـة: *زاد المعـاد فـي هَـدي خيـر العبـاد*، تحقيـق شعيب الأرنـاؤوط، وعبد القـادر الأرناؤوط، ط 1، مؤسسـة الرسـالة، بيروت – لبنان، 1417هـ –1996م ، 3/ 9.

(86) ابن قيم الجوزية: *زاد المعاد في هَدي خير العباد*، 3/ 10.

تُجاهِـدُ كُفَّـارًا فِـي الغَالِـبِ[87]؛ وَإِنَّمـا تُجاهِـدُ مُجتمعًـا مُسْـلِمًا انحـرَفَ كَثِيـرٌ مِـنْ أَبنائِـهِ عَـنْ مَبـادِئِ الإِسْـلامِ وَواجبَاتِـهِ وَأَخْلاقِـهِ؛ فَوقَعُـوا فِـي مُنكـرَاتٍ أَوْ مَظالِـمَ أَوْ بِـدَعٍ؛ وَغَايَـةُ الإِخـوَانِ فِـي هَـذِهِ المَرحَلَةِ مـن الدَّعْـوَةِ أَنْ تُكـوِّنَ المُجتمَـعَ المُسْـلِمَ، وَأَنْ تُعِيـدَ المُجْتَمَعَـاتِ إِلَـىٰ الإِسـلامِ بِمعنَـاهُ الشَّـامِلِ الذِي جَـاءَ بِـهِ مُحمَّـدٌ ﷺ؛ وَمِـنْ ثَـمَّ رُبَّمـا يكـونُ حَديـثُ الإِمَـامِ ابـنِ القَيِّـمِ رَحِمَهُ اللَّهُ عَـنْ جِهَـادُ أَرْبَـابِ الظُّلْـمِ وَالْبِـدَعِ وَالْمُنْكَـرَاتِ، أَقـرَبَ مَراتِـبِ الجِهَـادِ إِلَـىٰ دَعْـوَةِ الإِخْـوَانِ المُسـلِمِينَ فِي مَرحلَتِهَـا الرّاهِنَـةِ، وَأَوْلَاهَـا بِالعِنَايَـةِ. يَقـولُ الإِمَـامُ ابـنُ القَيِّـمِ: «وَأَمَّـا جِهَـادُ أَرْبَـابِ الظُّلْـمِ وَالْبِـدَعِ وَالْمُنْكَـرَاتِ فَثَـلَاثُ مَرَاتِـبَ، الْأُولَـىٰ: بِالْيَـدِ إِذَا قَـدَرَ، فَـإِنْ عَجَـزَ انْتَقَـلَ إِلَـىٰ اللِّسَـانِ، فَـإِنْ عَجَـزَ جَاهَـدَ بِقَلْبِهِ، فَهَـذِهِ ثَلَاثَـةَ عَشَـرَ مَرْتَبَـةً مِـنَ الْجِهَـادِ، وَ«مَـنْ مَـاتَ وَلَـمْ يَغْـزُ وَلَـمْ يُحَدِّثْ نَفْسَـهُ بِالْغَـزْوِ مَـاتَ عَلَـىٰ شُـعْبَةٍ مِـنَ النِّفَـاقِ»»[88].

وَلَا يَبعُـدُ كَلامُ الإِمَـامِ البنَّـا رَحِمَهُ اللَّهُ عَـنْ كَلامِ الإِمَـامِ ابـنِ القَيِّـمِ؛ ذَلِـكَ أَنَّ الحَدِيثَ الـوَارِدَ فِي كَلامِ ابـنِ القَيِّـمِ السَّـالفِ، هُـوَ ذَاتُـه الحَديـثُ الـوَارِدُ فِي تَعريـفِ الإِمَـامِ البنَّـا رُكْـنَ (الجِهَـادِ)، وَإِنِ اختَلفَـتْ رِوَايـةُ الحديـثِ بَينَهُمَـا، كَمَـا أَشـارَ الإِمَـامُ البَنَّـا إِلَـىٰ ثَلاثَـةِ المَراتـبِ السَّـابقَةِ فِي كَلامِ ابـنِ القَيِّـمِ؛ مِمَّـا يَعنِـي أَنَّ الإِمَـامَ البنَّـا مَعنِـيٌّ فِـي رُكـنِ (الجِهَـادِ) بِإِصْـلاحِ المُجتَمَـعِ المُسْـلِمِ والأُمَّـةِ أَكْثَـرَ مِـنْ عِنَايتِـهِ بِمَراتِـبِ الجِهَـادِ الأُخْـرَىٰ؛ لأَنَّـهُ تَناوَلَهـا فِـي الرُّكْـنِ السَّـابِقِ (العَمَـلِ)، يَقـولُ الإِمَـامُ البنَّـا فِـي تَعريـفِ رُكْـنِ (الجِهَـادِ): «وَأُرِيـدُ

(87) وَلَا يَمنعُ هَـذَا مِـنْ أَنَّ (الإِخـوَانَ المُسـلِمِينَ)، بَـلِ الأُمـةَ الإِسـلَامِيّةَ كُلَّهـا، قَـدْ تُضْطَـرُّ فِي وَقْـتٍ مَـا أَوْ مَكَانٍ مَـا إِلَـىٰ حَـربٍ مَـعَ الكُفَّـارِ أَوِ اليَهُـودِ أَوِ النَّصـارَىٰ، وَمَـا حَـربُ إِخوَانِكُـم فِي غَـزةَ مَعَ اليَهُـودِ المَلاعِينِ بِبعِيـدَةٍ عَنَّـا، لَكـنَّ تَـقسِيمَ الإِمَامِ ابنِ القَيِّـمِ (الجِهَـادَ) إِلَـىٰ مَراتِـبَ وَفِئَـاتٍ؛ يَعنِي أَنَّ لِكُلِّ مَرتبَةٍ أَوْ فِئَـةٍ فِقْـهًا، وَلَا يَنبغِي أَنْ يَغِيبَ هَـذَا الفِقهُ عَـنِ الأَخِ المُسْـلِمِ وَهـوَ يَسعَىٰ إِلَـىٰ إِصْـلَاحِ المُجتمَـعِ وَتَعبِيـدِهِ للهِ تعالَـىٰ، حَتَّـىٰ لَا يُقـدِّمَ مَرتبـةً عَلَـىٰ أُخْـرَىٰ، أَوْ يَضَـعَ مَرتبـةً فِـي غَيـرِ مَوضِعِهَـا، أَوْ يَستَخدِمَ وَسِيلَـةً فِـي غَيـرِ أَوانِهَـا، وَقَدِيمًـا قَـالَ المُتنبِّـي:

وَوَضْعُ النَّدَىٰ فِي مَوْضِعِ السَّيْفِ بِالْعُلَا ... مُضِرٌّ كَوَضعِ السَيْفِ فِي مَوضِعِ النَّدَىٰ

(88) ابن قيم الجوزية: *زاد المعاد في هَدي خير العباد*، 3/ 10.

بالجِهَادِ: الفَريضَةَ المَاضِيَةَ إِلَىٰ يَومِ القِيَامَةِ، وَالمَقْصُودَةَ بِقَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ: (مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغزُ وَلَمْ يَنوِ الغَزْوَ مَاتَ مِيتةً جَاهِلِيَّةٍ[89])، وَأَوَّلُ مَراتِبِه إِنكَارُ القَلْبِ، وَأَعلاهَا القِتَالُ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَبَينَ ذَلِكَ جِهَادُ اللسَانِ وَالقَلَمِ، وَاليَدِ وَكَلِمَةُ الحَقِّ عِندَ السُّلْطَانِ الجَائِرِ، وَلَا تَحْيَا دَعوةٌ إِلّا بِالجِهَادِ، وَبِقَدْرِ سُموِّ الدَّعوَةِ وَسَعةِ أُفقِهَا، تَكونُ عَظمَةُ الجِهَادِ فِي سَبِيلِهَا، وَضَخامَةُ الثَّمنِ الذِي يُطلَبُ لِتأْيِيدِهَا، وَجَزالَةُ الثَّوابِ لِلعَامِلِينَ: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾[الحج:78]. وَبِذَلِكَ تَعرِفُ مَعنَىٰ هُتافِكَ الدَّائِمِ: (الجِهَادُ سَبِيلُنَا)»[90].

عَلَىٰ أَنَّ الأُستاذَ البنَّا رَحِمَهُ اللهُ تكلَّمَ فِي مَوضِعٍ آخر من رَسَائِلِهِ عَن (الْجِهَادِ)، فَفصَّلَ الأَمْرَ تَفصِيلًا حَسَنًا لَا مَغْنَىٰ عَن قَرَاءَتِهِ كَامِلًا؛ لأنهُ أَشارَ إِلَىٰ عَلاقَةِ أُمتِنَا بِغَيرِهَا مِنَ الأُمَمِ، وَخُلاصَةُ مَا قَالَهُ الإِمَامُ البَنَّا رَحِمَهُ اللهُ: أَنَّ اللهَ سُبحانَه وتَعالَىٰ فِي الوَقْتِ الذِي اختَارَ فِيهِ (الجِهَادَ) تَأْمِينًا لِلدَّعوَةِ وَصَدًّا لِلعُدوَانِ، دَعَا إِلَىٰ إِنْهَاءِ الخصُومَةِ وَالدعوة إِلىٰ السَّلْمِ، فقَالَ: «وَمعَ هذَا فقَد رَحَّبَ الإِسْلامُ بالوسَائلِ السِّلميَّةِ وَإِنْهَاءِ الخُصومَةِ مُتىٰ أَدَّتْ هَذِهِ الوسَائل إِلَىٰ الاعتِرَافِ بِالحَقِّ الكَامِل لأَصحَابِهِ،﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ اللهِ﴾ [الأنفال: 61]. وَمَا خُيِّرَ النبيُّ ﷺ بَينَ أَمرَينِ إِلَّا اختَارَ أَيسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ مُحرَّمًا»[91]، ثُمَّ عَدَّدَ الإمامُ البنَّا صُورَ السِّلْمِ فَقَالَ: «وَمِنَ السِّلمِ المُفاوضَةُ إِذَا أَوْصَلَتْ إِلَىٰ الحَقِّ

(89) رواه مسلم في صحيحه، رقم (1910)، بهذا اللفظ: «مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ، وَلَمْ يُحَدِّثْ بِهِ نَفْسَهُ، ن مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ، وَلَمْ يُحَدِّثْ بِهِ نَفْسَهُ، مَاتَ عَلَىٰ شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ»، وَهِيَ الروايةُ ذاتُها التِي وردَتْ فِي كَلام الإِمَام ابنِ القَيِّم، وَالحَقُّ أَنَّ رِوايَاتِ الحدَيثِ كُلَهَا تَنتهِي بِـ(مَاتَ عَلَىٰ شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ) بَدَلًا مِنْ (مَاتَ مِيتةً جَاهِلِيَّةٍ) التِي وَرَدَتْ فِي كَلامِ الإمام البنَّا، ولعلَّهُ خَلطَ بينَ هَذا الحَديثِ وَحَديثِ البَيعَةِ الذي رَوَاهُ مُسْلِمٌ كذلك: «مَنْ خَلَعَ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ لَقِيَ اللهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا حُجَّةَ لَهُ، وَمَنْ مَاتَ وَلَيْسَ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً»، صحيح مسلم، رقم (1851).

(90) حسن البنا: مجموعة *رسائل الإمام البنا*، رسالة التعاليم، ص 274.

(91) حسن البنا: مجموعة *رسائل الإمام البنا*، مشكلاتنا الاقتصادية في ضوء النظام الإسلامي، ص 635.

الكَامِل، وَقَـدْ فَـاوَضَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ فِي الحُديبيـةِ، وَمِـنَ السِّـلْمِ التحَاكُـمُ إِذَا أَدَّىٰ إِلَـىٰ هَـذَا الحَـقِّ أَيْضًـا. وَإِنْ كُنَّـا لَا نَعلَـمُ أَنَّ رَسُـولُ اللهِ ﷺ - أَوْ أَحـدًا مِـنَ الخُلفـاءِ الرَّاشِـدينَ المَهدِيينَ - رَضِـيَ بِتَحكيـمِ كَافـرٍ. وَلَكنَّـهُ مُقتضَـىٰ عُمـومِ الآيَـةِ، وَلَازِمُ الاتِّـفَاقِ عَلَـىٰ الخَيـرِ، الـذِي لَا يَمنعُـه الإِسْـلامُ بَيـنَ المُسـلِمِينَ وَغَيرِهِـمْ مَتَـىٰ كَانَ فِيـهِ مَصلَحَـةٌ لَهُـمْ وَلَيْسَ فِيـهِ ضَـررٌ عَلَيهِـمْ»[92].

هَـذَا كَلامُ الإِمَـامِ البَنَّـا فِي رِسَالَـةِ (مُشكِلَاتُنا فِي ضَـوْءِ النظَامِ الإِسْـلامِيِّ)، وَمِـنَ الخَيْـرِ قِراءتُـهُ كامـلًا لِمَـا فيـهِ مِـنْ فِقْـهٍ، بَـلْ مِـنَ الخَيْـرِ أَنْ نقْـرَأَ رَسَالَـةَ (الجِهَـادِ) التي كتبهـا الإمـام البَنَّـا عَـنْ هَـذَ الرُّكْـنِ لِمَـا يَكتَنِفُـهُ مِـنْ إِشْـكَالاتٍ.

وَلَا رَيْـبَ أَنَّ كَلامَ الإِمَـامِ البَنَّـا السَّـالِفَ يُعلِّمُنَـا أَنَّـهُ لَا بَـأسَ مِـنَ الاتِّـفَاقِ عَلَـىٰ الخَيـرِ الَّـذِي لَا يَمنَعُـهُ الإِسْـلامُ إِذَا كَانَ فِـي مَصلَحَـةِ المُسـلِمينَ، وَلَيـسَ فِيـهِ ضَـرَرٌ عَلَيهِـم؛ كَمَـا يُعلِّمُنَـا كَيـفَ نَتعـاوَنُ مَـعَ الغَيـرِ عَلَـىٰ الخَيـرِ إِذَا أُتِيـحَ لَنَـا، وَلَا نَعجِـزُ عَنـهُ أَوْ نَتجَمَّـدُ أَوْ نَرتَبِـكُ فَـلا نُحسِـنُ التعَامُـلَ مَعـهُ، لأَنَّ هَـذِهِ سُـنَّةٌ مَوجُـودَةٌ وَقَائِمَـةٌ، وَمَـنْ يَـقرَأْ تَفاصِيلَ صُلحِ الحُديبيـةِ فِـي كُتُـبِ السَّـيرةِ؛ فَسـيرَىٰ أَنَّ رَسُـولَ اللهِ ﷺ كَانَ حَرِيصًـا عَلَـىٰ تَجنُّـبِ القِتَـالِ مَـعَ المُشـرِكِينَ بِكُلِّ سَـبِيلٍ، وَقَـد سَـلفَتِ الإِشَـارَةُ إِلَـىٰ قَـولِ الرسُـولِ ﷺ: «وَاللهِ لَا تَدْعُونِـي قُرَيْـشٌ الْيَـوْمَ إِلَـىٰ خُطَّـةٍ يَسْـأَلُونِي فِيهَـا صِلَـةَ الرَّحِـمِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُـمْ إِيَّاهَـا»[93]، وَلَا يَقتَصِـرُ الأَمـرُ عَلَـىٰ هَـذِهِ المَقُولَـةِ؛ فَـإِنَّ عُلمـاءَ السِّـيرَةِ قَـدْ رَوَوْا مَواقِـفَ عَمليّـةً غَيـرَ هَـذِهِ المقُولَـة تُؤكِّـدُ حِـرْصَ النَّبـيِّ ﷺ عَلَـىٰ الصُّلْـحِ وَتَجنُّـبِ القِتَـالِ مَـا استَطَاعَ.

فَمِـنَ المَعلُـومِ أَنَّ رَسـولَ الله ﷺ قَـد خَـرجَ يَـومَ الحُدَيبيـةِ يُرِيـدُ الْعُمْـرَةَ، بَعْـدَ أَنْ رَأَىٰ فِـي مَنَامِـهِ ﷺ أَنَّـهُ دَخَـلَ الْبَيْـتَ هُـوَ وَأَصْحَابُـهُ آمِنِيـنَ مُحَلِّقِيـنَ

(92) حسن البنا: مجموعة *رسائل الإمام البنا*، مشكلاتنا الاقتصادية في ضوء النظام الإسلامي، ص 635.
(93) أخرجَه الإمام أحمدُ فِي مُسندِهِ، رقم الحديث (18910)، وإسنَادُهُ حَسنٌ.

رُؤُوسَهُمْ وَمُقَصِّرِينَ؛ أَيْ أَنَّهُ ﷺ لَمْ يَخرُجْ لِقِتَالٍ أَوْ حَرْبٍ؛ لَكنَّه ﷺ مَا كَادَ يَبلغُ وَادِيًا قَرِيبًا مِنْ عُسْفَانَ، حَتَّىٰ أَتَاهُ عَيْنُهُ فَقَالَ: إِنَّ قُرَيْشًا جَمَعُوا لَكَ جُمُوعًا، وَقَدْ جَمَعُوا لَكَ الْأَحَابِيشَ، وَهُمْ مُقَاتِلُوكَ وَصَادُّوكَ عَنِ الْبَيْتِ وَمَانِعُوكَ، وَكَانَ أَوَّلُ تَدبيرٍ يَتخِذُهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، هوَ استِشَارَةُ أصحابِهِ فِي الأَمرِ، وَهَذَا يُعلِّمُنَا ضَرُورَةَ الشُورَىٰ فِي المواقفِ الحَرِجَةِ، فَلا يَنفرِدُ القَائِدُ فِيهَا بِالرأْيِ، فَقَالَ ﷺ: «أَشِيرُوا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَيَّ، أَتَرَوْنَ أَنْ أَمِيلَ إِلَىٰ عِيَالِهِمْ وَذَرَارِي هَؤُلَاءِ الذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَصُدُّونَا عَنِ الْبَيْتِ، فَإِنْ يَأْتُونَا كَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ قَطَعَ عَيْنًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَإِلَّا تَرَكْنَاهُمْ مَحْرُوبِينَ»؛ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه: يَا رَسُولَ اللهِ خَرَجْتَ عَامِدًا لِهَذَا الْبَيْتِ لَا تُرِيدُ قتلَ أَحَدٍ وَلَا حَرْبَ أَحَدٍ، فتَوَجَّهْ لَهُ فَمَنْ صَدَّنَا عَنْهُ قَاتَلْنَاهُ.

وَقَدْ حَاولَ خَالِدُ بنُ الوليدِ الإِغَارَةَ عَلَىٰ المُسلِمِينَ - وَكَانَ عَلَىٰ الشِّرْكِ يَومَئِذٍ - فِي مِائَتَيْ فَارِسٍ، وَصَفَّ خَيْلَهُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَبَيْنَ الْقِبْلَةِ، فَهُنَا نَزَلَ الْوَحْيُ بِصَلَاةِ الْخَوْفِ، وَهَذِهِ أَوَّلُ صَلَاةِ خَوْفٍ صَلَّاهَا الْمُسْلِمُونَ، ثُمَّ لَجأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَىٰ وَسِيلَةٍ أُخْرَىٰ لِتجَنُّبِ القِتَالِ، إِذِ انحَرَفَ عَن طَرِيقِ المُشرِكِينَ وَنَزَلَ بِالحُدَيْبِيَةِ لِيتَفَادَىٰ الِاصْطِدَامَ وَالِاشْتِبَاكَ مَعَ خَيْلِ المُشْرِكِينَ، فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ: «مَنْ يَخْرُجُ بِنَا عَلَىٰ طَرِيقٍ غَيْرِ طَرِيقِهِمْ التِي هُمْ بِهَا؟». فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ أَسْلَمَ: أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ، فَسَلَكَ بِهِمْ طَرِيقًا وَعِرًا أَجْرَلَ، وَفِي قِصَّةِ هَذَا الصُّلْحِ تَفاصِيلُ كَثِيرَةٌ تَدُلُّ عَلَىٰ سَعَةِ أُفُقِ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَنَّ الحَرْبَ لَم تَكُنْ لَدَيهِ غَايةً فِي ذَاتِهَا، فَقَدْ جَادَلَ رُسُلَ قُرَيشٍ بِالحُسْنَىٰ، وَرُغْمَ أَنَّ قُرَيشًا مَنعتْهُ العُمرَةَ هَذَا العَامَ؛ فإِنَّه قَد قَبِلَ حَتَّىٰ يُجنِّبَ المُسلِمِينَ مَقتلَةً عَظِيمَةً، حَتَّىٰ تَعنُّتُ المُشرِكِينَ فِي كِتَابَةِ بُنودِ الصُّلْحِ، تَغَاضَىٰ عَنهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ.

وَفِـي مُقابـل المُتحَمِّسـينَ المُتهوِّريـنَ، **ثَمَّـةَ مَـنْ يُفَـرِّطُ فِـي مَعنَـىٰ (الجِهَـادِ) أَوْ يُميِّـعُهُ** إِنْ أَردْنَـا الدِّقـةَ، وَيَرَوْنَـهُ تُهمَـةً تَعِيـبُ دِينَنـا الإِسْـلامِيَّ، وَمِـنْ ثَـمَّ يَسعَونَ لِتقديـمِ المُسـوِّغَاتِ وَالأعـذَارِ لِحرَكَـةِ الفُتوحَـاتِ الإِسْـلَاميَّةِ التـي نَشَـرَتِ الإِسـلامَ فِـي رُبـوعِ الأَرْضِ، وَإِلَـىٰ هَـؤُلاءِ أَشـارَ الأُسـتاذُ سَـيّد قُطْـب رَحِمَهُ اللَّهُ، خِـلَالَ حَديثِـه عَـنْ فِقـهِ الجِهَـادِ فِـي الإِسْـلام، وَعَلَّـلَ مَوقِفَهُـم المَائِـعَ هَـذَا بِأَمْريْـنِ: **أَوَّلُهُمَـا**- انْهِزامُهُـم الرُّوحِـيُّ وَالعَقلِـيُّ أَمَـامَ شُـبهاتِ المُستَشـرِقِينَ الذِيـنَ اتّهمُـوا الإِسْـلامَ بِأَنَّـهُ دِيـنٌ انتشَـرَ أَوْ فُـرِضَ علَـىٰ الأُمـمِ التِـي اعتَنَقَتْـهُ بِحَـدِّ السَّـيفِ!

ثَانِيهِمَـا- خَلطُهُـم بيـنَ نُصـوصٍ وَمواقِـفَ لَا يَصِـحُّ الخَلـطُ بَينَهُمَـا، وَلِهَـذَا جعَلُـوا أنفسَـهُمْ فِـي مَوقـفِ المُدافِـعِ عَـن تُهمَـةٍ غَيـرِ حَقيقيّـةٍ. يَقـولُ الأسـتاذُ سَـيّدُ قُطـب رَحِمَهُ اللَّهُ: «والمَهزُومـونَ رُوحِيًّـا وَعَقْليًّـا مِمَّـنْ يَكتبُـونَ عَـنِ (الجِهَـادِ فِـي الإِسْـلام)، لِيدْفَعُـوا عَـنِ الإِسْـلام هَـذَا الاتّهَـامَ، يَخلِطُـونَ بَيـنَ مَنهـجِ هَـذَا الدِّيـنِ فِـي النـصِّ عَلَـىٰ استِنْكَارِ الإِكْـرَاهِ عَلَـىٰ العقيـدَةِ، وَبيـنَ مَنهجِـه فِـي تَحطِيـمِ القُـوىٰ السياسـيّةِ المَادِّيـةِ التِـي تَحـولُ بيـنَ النَّـاسِ وَبينَـه، وَالتِـي تُعبِّـدُ النّـاسَ لِلنّـاسِ، وَتَمنعُهُـم مِـنَ العُبـودِيّـةِ للهِ.. وَهُمَـا أَمْـرَانِ لَا عَلاقـةَ بَيْنَهُمَـا وَلا مَجـالَ لِلالتبَـاسِ فِيهِمَـا.. وَمِـنْ أَجـلِ هَـذا التَّخليـطِ، وَقبـلَ ذَلِـكَ مِـنْ أَجـلِ تِلـكَ الهَزيمَـةِ! يُحاولُـونَ أَنْ يَحصُـروا الجِهـادَ فِـي الإِسـلام فِيمَـا يُسـمُّونَهُ اليـوْمَ (الحَـرْبَ الدِّفاعيّـةَ).. وَالجِهـادُ أَمْـرٌ آخَـرُ لَا عَلاقـةَ لَـهُ بِحُـروبِ النـاسِ اليـوْمَ، وَلَا بَواعِثِهَـا، وَلَا تَكييفِهَـا كَذلِـكَ.. إِنَّ بَواعِـثَ الجِهـادِ فِـي الإِسْـلام يَنبغِـي تَـلَمُّسُهَا فِـي طَبيعَـةِ (الإِسْـلام) ذَاتِـهِ وَدَورِهِ فِي هَـذهِ الأَرْضِ، وَأَهدَافِـهِ العُلْيَـا التِـي قَـرَّرَهَا اللهُ وَذَكَـرَ أَنّـه أَرْسَـلَ مِـنْ أَجْلِهَـا الرَّسُـولَ بِهـذِهِ الرسَـالَةِ، وَجَعلَـه خَاتَـمَ النَّبيّيـنَ، وجَعلَهـا خَاتِمَـةَ الرِّسَـالاتِ. إِنَّ هـذَا الدِّيـنَ إِعـلانٌ عَـامٌّ لِتحريـرِ (الإِنسَـانِ) فِـي (الأَرْضِ) مِـنَ العُبودِيّـةِ لِلعِبَـادِ، وَمِـنَ العُبودِيّـةِ

لِهَـواهُ أَيضًـا - وَهِـيَ مِـنَ العُبودِيَّـةِ لِلعِبَـادِ - وَذَلِـكَ بِإعـلانِ أُلوهِيّـةِ اللهِ وَحْـدَهُ سُبحَانَـهُ، وَرُبُـوبِيتِهِ لِلْعالَمينَ»[94].

فَهْمٌ غَالِطٌ لمرَادِ سَيِّدِ قُطْب مِنِ الْجِهَادِ بِالقُوّةِ

هَـذِهِ كَلِمَـاتُ الأستاذِ سَيّد قُطْب بِالنَّصِّ. وَمِـنَ الغَريـبِ أَنْ تَكـونَ هَـذِهِ هِيَ كَلِمَاتُه، ثُـمَّ يَحدُثُ هَـذَا الخَلْطُ، وَيَحدَثُ هَـذَا الاضطرَابُ فِي معَانِي الجِهَـادِ وَصُـورِ أَدَائِـه، وَأَنْ تُـلْصَقَ هَـذِهِ التُّهمَـةُ بِالأستَاذِ سَيّد حِينَمَـا كَتَـبَ عَـنِ (الجِهـادِ فِـي سَـبيلِ اللهِ) .

مَـا كَتَبَـه فِـي كَتِابِيْـهِ (مَعالِـمُ فِـي الطريـقِ) وَ(فِـي ظِـلالِ القُـرآن)، يَتكلَّـم عَـن هَـذَا المَعْنَـىٰ، وَيُوضِّـحُ مَتَـىٰ يَكـونُ الجِهَـادُ بِالقُـوَّةِ التِـي حَصـرَ كَثِيـرٌ مِـنَ النَّـاسِ (الجِهَـادَ) فِيهَـا فَحَسْـبُ، أمـا الأستاذُ سيدُ قُطْـب فَقَـدْ قَـالَ بأنّـه عِندمَـا يُوجَـدُ المُجتمَـعُ المُسْـلِمُ يَمنَحُـه اللهُ حَـقَّ الانطِـلاقِ لِتسَـلُّمِ السُّـلطَانِ وَتقريـرِ النظَـام، وَهَـذَا أيضًـا شَـرْطٌ مُهـمٌّ يَـغفَلُ عَنـهُ كَثِيـرٌ مِـنَ النَّـاسِ، وَمعَنـاهُ: أَنَّ ثَمـةَ وَاجبـاتٍ تُكَلَّـفُ بِهَـا الأُمَّـةُ، وَوَاجِبَـاتٍ أُخْـرَىٰ يُكَلَّـفُ بِهَـا الأَفْـرَادُ، أَوْ يُكلَّـفُ بِهـا المُجتَمَـعُ الإِسْـلَامِيُّ النَّاشِـئُ، وَالخَلْـطُ بَيـنَ هـذِهِ الواجبَـاتِ، أَوْ مَـا يَنبغِـي أَنْ يَقـومَ بِـهِ الأَفْـرَادُ، وَمَـا يَنبغِـي أَنْ يَـقُومَ بِـهِ المُجتمَـعُ أَوِ الأُمّـةُ، هُـوَ مَـا يُـؤَدِّي إِلَـىٰ تَشـويهِ مَعنَـىٰ (الجِهَـادِ)، وَإِلَـىٰ أفعَـالٍ خَاطِئَـةٍ تَضـرُّ العَمـلَ الإِسْـلامِيَّ وَلَا تَنفَعُـه، وَلِهـذَا حَـذَّرَ الأستَاذُ سَيدُ قُطبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ مِـنَ الخَلـطِ بيـنَ (طَبيعـةِ الدِّيـنِ) وَمَنهجِـهِ العَـامِّ، وَ(مُقتضَياتِـهِ الوَقتيَّـةِ) فَقـالَ: «وَيَجـبُ وَنحـنُ نَستعرِضُ الوَاقِـعَ التاريخِـيَّ أَلَا نَغفَـلَ عَـنْ الاعتِبَـاراتِ الذّاتيـةِ فِـي طَبيعـةِ هَذَا الدِّيـنِ، وَإِعلانِـهِ العَـامِّ وَمَنهجِـهِ الوَاقِعِـيِّ، وَأَلَّا نَخلِـطَ بَينَهـا وَبيـنَ المُقتَضيَـاتِ الدِّفَاعِيّـةِ الوَقتِيَّـةِ»[95].

(94) سيد قطب: *معالم في الطريق*، الطبعة الشرعية السادسة، دار الشروق، القاهرة، 1399هـ - 1979م، ص 59.
(95) سيد قطب: *معالم في الطريق*، ص 77.

وَهَـذَا شَـرطٌ مُهِـمٌّ وَتَحذِيـرٌ مُهِـمٌّ فِـي الوَقـتِ ذَاتِـه، وَإِنَّمـا أَشَـارَ إِليـهِ الأستَاذُ سَيدُ قُطْب؛ لأنّه وَجَدَ أُولَئِكَ المُنهزِمِينَ أَمامَ دَعـاوَىٰ المُستشْرِقينَ وَهُجومِهِم عَلَىٰ مَبدأِ (الجِهَـادِ)؛ يَستَدلُّونَ بِالعَهـدِ المَكـيِّ، الـذِي أُمِـرَ فِيـهِ المُسـلِمُونَ بِالكـفِّ عَـنِ القِتـالِ؛ حَيـثُ قِيـلَ لَهُـم: ﴿كُفُّـوا أَيْدِيَكُـمْ وَأَقِيمُـوا الصَّـلَاةَ وَآتُـوا الـزَّكَاةَ﴾ [النسـاء: 77]؛ وَيقُولُـونَ بـأنَّ الحَـربَ فِـي الإِسْـلامِ كَانـتْ حَربًا دِفاعيّةً فَحسبُ، وهـذَا تَصـوُّرٌ سَـاذجٌ، وَاستِدْلَالٌ غَيرُ قَويـمٍ فِـي الاجتزَاءِ بِبعْضِ النصُـوصِ، وَتَـركِ بعضِهَـا الآخَـرِ، فَـإِنَّ الآيـاتِ وَالأَحَادِيـثَ التِـي وَردَتْ فِـي شَـأنِ الجِهَـادِ كَثيـرَةٌ جِـدًّا، وَيَجِـبُ عَلَـىٰ مَـنْ يَتحـدَّثُ عَـنِ الجِهَـادِ فِـي الإِسْـلَامِ أَنْ يَكُـونَ مُلمًّا بِهَا كُلِّهَـا، وَأَن يَفْقَـهَ مُلابسَـاتِهَا التَّاريخيَّةَ، وَدِلالَاتِهَـا الشَّـرعيّةَ؛ فَقَـدْ نَسِـيَ أُولَئِكَ المُنهزِمُونَ أمـامَ حَملاتِ المُستَشـرِقِينَ أَنَّ الكَـفَّ عَـنِ الجِهَـادِ كَانَ مَرْحَليًّا، أَيْ أَنّـهُ مَسألَـةُ خُطَّةٍ لَا مَسألَـةُ مَبـدَأٍ[96].

فَهـذَا شَـرطٌ مُهِـمٌّ فِـي فِقـهِ (الجِهَـادِ)، يُحتِّـمُ عَلينَـا أنْ نَسـتَقْصِيَ نُصُوصَـهَ الكَثيـرَةَ، وَألَّا نَجتـزِئَ بِبعضِهَـا دُونَ بَعـضٍ، مَـعَ مُراعَـاةِ السِّـياقِ التَّاريخِـيِّ لِكُلِّ نَـصٍّ مِنْهَـا؛ ذَلِـكَ أَنَّ (وَاقعِيَّـةَ المَنهَـجِ وَالحركَـةِ) مِـنْ أَهَـمِّ سِـماتِ هَـذَا الدِّيـنِ فِـي إِصْـلَاحِ المُجتمعَـاتِ وَتَغييرِهَـا، بِمَعنَـىٰ أنَّ هَـذَا الديـنَ يواجِـهُ المُجتمَـعَ الـذِي يُصلِحُـهُ بِمَـا يُكافِئُـه مِـنْ وَسـائِلَ، كَما أَنّـه يُغيِّـرُ المُجتمَـعَ وَيُصلِحُه عَلَىٰ خُطـواتٍ وَمراحِـلَ، ولـكلِّ مَرحلَـةٍ وَسَـائلُ مُكافئَـةٌ لِمُقتضَايَاتِهَـا وحَاجَاتِهَـا الوَاقعِيَّـةِ، وَكُلُّ مَرحلـةٍ تُسْـلِمُ إِلَـىٰ التِـي تَلِيهَـا.. فَهـذَا الدِّيـنُ لَا يُقابِـلُ الوَاقِـعَ بِنظرِيّـاتٍ مُجـردَةٍ، كَمَـا أَنّـهُ لَا يُـقابِلُ هـذَا الوَاقِـعَ بِوَسَـائِلَ مُتجَمِّـدَةٍ[97]؛ وَلَا رَيـبَ أَنَّ وَاقِعيَّـة هَـذَا الدِّيـنِ تُوحِـي كَذلِـكَ بِأنّـهُ مُرتبِـطٌ فِعْـلًا بالطاقَـةِ وَوُسْـعِ المُكَلَّـف، وَالتغَلُّـبِ عَلَـىٰ الضغُـوطِ وَالتصَـدِّي لَهَـا، وبخاصـةٍ فِيمَـا يَتصِـلُ بِمرحلَـةِ نَشـأةِ المُجتمَـعِ المُسـلِمِ؛ حَيـثُ وَجدْنَـاهُ يَأمُـرُ المُسـلِمينَ فِـي مَكـةَ

(96) انظر سيد قطب: *معالم في الطريق*، ص 82.

(97) انظر سيد قطب: *معالم في الطريق*، ص 57.

بِالصَّبرِ وَالكَفِّ عَنِ الأَذَىٰ، لأنَّ هُناكَ مُقتضَياتٍ تَستَدْعِي ذَلِكَ.

وَقَد فَصَّلَ الأستاذُ سَيدُ قُطْبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ مُقتضَياتِ الصَّبرِ فِي المُرحلَةِ المَكيَّةِ، فأشَارَ إِلَىٰ أَنَّ أَوَّلَ مُقتَضيَاتِ الصَّبرِ حِينَئِذٍ: أنَّ المَرحلةَ المَكيّةَ رُبَّما كَانَتْ مَرحَلَةَ تَربيَةٍ وَإعدَادٍ للرجُلِ العَربيِّ عَلَىٰ غَيرِ مُألوفَاتِه وَعَادَاتِه، فَيُعوَّدُ الصَّبرَ عَلَىٰ مَا لَا يَصبِرُ عَليهِ عَادةً مِنَ الضَّيمِ وَالأذَىٰ، فَلا يَندفِعُ لأوَّلِ مُؤثِّرٍ، وَلَا يَهتَاجُ لأوَّلِ مُهيِّجٍ، عَلَىٰ نَحوِ مَا أَلِفَ وَاعتَادَ فِي جَاهِليَّتِهِ. والأَمرُ الثَّانِي أنَّ الدعوةَ السِّلميَّةَ رُبمَّا كَانَتْ أَقْوَىٰ أَثَرًا وأَنْفذَ فِي بِيئَةٍ مِثْلِ بِيئَةِ قُريشٍ ذَاتِ العُنْجُهِيّةِ وَالشَّرفِ، وَالتِي قَد يَزِيدُهَا الصدامُ عِنَادًا وَشَراسَةً؛ نَاهِيكَ بِمَا يُؤدِّي إِلَيهِ القِتَالُ مِنْ ثَارَاتٍ دَمويةٍ جَديدةٍ كَالتِي كَانَتْ بَينَ عَبسٍ وَذُبيانَ، وَهُمَا أبنَاءُ قَبيلةٍ وَاحِدَةٍ. وَالأمرُ الثَّالِثُ: تَفَادِي قِيامَ مَقتلَةٍ فِي كُلِّ بَيتٍ وَأُسرَةٍ. وَالأَمْرُ الرَّابِعُ: قِلَّةُ عَددِ المُسلِمينَ، وَانحِصَارُهُم فِي مَكَّة، فَالدعْوَةُ لَم تَخرُجْ إِلَىٰ بِيئاتٍ أُخْرَىٰ بَعدُ، مِمّا يَعنِي أنَّ الصِّدَامَ مَعَ المُشرِكِينَ، قَدْ يُؤَدِّي إِلَىٰ مَحوِ الجمَاعَةِ المُسلِمَةِ. وَالأَمْرُ الخَامِسُ: رُبمَّا لِمَا كَانَ يَعلَمُهُ اللهُ تعَالَىٰ مِنْ أَنَّ كَثيرينَ مِنَ القَائِمِينَ عَلَىٰ تَعذيبِ المُسلِمينَ وَإِيذَائِهِم، سَيكُونُونَ مِنْ جُندِ الإِسلامِ المُخلِصِينَ، بَلْ مِنْ قَادَتِهِ، أَلَمْ يَكُنْ عُمرُ بنُ الخَطّابِ وَاحِدًا مِنْهُمْ؟![98]

وثَمّةَ شَرطٌ آخَرُ مُهِمٌّ تحدَّثَ عنهُ الأستاذُ سُيدُ قُطب كَذلِكَ، وَيتصِلُ هذا الشرْطُ **بِالجهادِ بِالقُوّةِ وَمَتىٰ يَكونُ؟**

وَالحقيقَةُ أَنَّ مَنْ يَتدبَّرْ كَلامَ الأستاذِ سَيِّد رَحِمَهُ اللَّهُ يُدرِكْ أنَّ الرجُلَ لَم يَترُكْ أَمرَ الجِهَادِ بِالقُوَّةِ لِلهَوَىٰ أو النَّزَوَاتِ العَاطِفيَّةِ، وَإِنَّما شَرطَهُ بِوجُودِ المُجتمَعِ المُسْلِمِ الذِي تَتوفَّرْ فيهِ عَناصِرُ القُوّةِ الثّلاثُ: [قُوّةُ التصَوُّرِ

(98) انظر سيد قطب: *معالم في الطريق*، ص 69، وما بَعدهَا.

وَالعَقيـدَةِ - قُـوّةُ السـلُوكِ وَالخُلُـقِ - قُـوَّةُ البِنَـاءِ وَالتَّنظِيـمِ]؛ فَـإِذَا اسْـتَطَعْنَا أَنْ نُوجِـدَ مُجتمَعًـا تَتوفَّـرُ فيـهِ عنَاصِـرُ القُـوةِ هَـذِهِ؛ فَمِـنْ حَـق هَـذَا المُجتمـعِ أَنْ يَنطلِـقَ مِـنْ أَجْـلِ تَسـلُّمِ السُّـلْطَانِ وَتَـقريرِ النظَـامِ. يَقـولُ الأسـتاذُ سَيّـدُ قُطْـب: «وَحَيثُمَـا وُجِـدَ التَّجمُّـعُ الإِسْـلامِيُّ، الـذِي يَتمثَّـلُ فِيـهِ المَنهَـجُ الإِلَهِـيُّ، فَـإِنَّ اللهَ يَمنحُـهُ حَـقَّ الحَرَكَـةِ وَالانطِـلاقِ لِتسَـلُّمِ السُّـلْطَانِ وَتَقريـرِ النظَـامِ، مَـعَ تَـركِ مَسـأَلَةِ العَقيـدَةِ الوِجْدَانيّـةِ لحُريّـةِ الوِجـدَانِ. فـإِذَا كـفَّ اللهُ أَيْـدِيَ الجَمَاعَـةِ المُسـلِمَةِ فَـترةً عَـنِ الجِهَـادِ، فَهـذِهِ مَسأَلَـةُ خُطَّـةٍ لَا مَسأَلَـةُ مَبـدَأٍ، مَسأَلَـةُ مُقتضَيَـاتِ حَرَكَـةٍ لَا مَسْأَلَـةُ عَقيـدَةٍ.. وَعَلـىٰ هـذَا الأسـاسِ الوَاضـحِ يُمكِـنُ أَنْ نَفهَـمَ النصُـوصَ القُرآنيـةَ المُتعـدِّدَةَ، فِـي المَراحـلِ التّاريخِيّـةِ المُتَجَـدِّدَةِ، وَلَا نَخلِـطَ بَيـن دِلَالَتِهَـا المَرحليّـةِ، وَالدِّلالَـةِ العَامّـةِ لِخَـطِّ الحَرَكَـةِ الإِسْـلاميّةِ الثابـتِ الطَّويـلِ»[99].

هَـذِه أَيضًـا كَلمَـاتُ الأُسـتاذِ سَـيدِ قُطْـب رَحِمَهُ اللَّهُ بِنصِّهَـا، وقَـد نَقلنَاهَـا كَاملَـةً لِكَـيْ نُؤكِّـدَ أولًا فِقـهَ الرجُـلِ لِمَعنَـىٰ (الجِهَـادِ) فِـي الإِسْـلام، وَلكَـيْ نُؤكِّـدَ ثَـانيًا أَنّ بَعـضَ الفصائـلِ الإِسْـلاميةِ التِي مَارسَـتِ العُنفَ، وَحَملَـتِ السِّـلَاحَ عَلَـىٰ غَيـرِ بَصيـرَةٍ أَوْ هُـدًىٰ، قَـد غَفَلَـتْ عَـنْ مِثْـلِ هَـذِهِ الشُّـروطِ التِي بَينَهَـا الأستاذُ سَيدُ قُطْـب رَحِمَهُ اللَّهُ، وَهُـوَ المُتّهَـمُ «زُورًا» بِأَنَّـهُ مُؤسِّـسُ تَيـارِ العُنـفِ فِي العَمْـلِ الإِسْـلامِيِّ.

ثُـمّ لِنؤكِّـدَ ثَـالثًا بِـأَنَّ مَـا قالَـهُ الأُسـتَاذُ سَـيّد قُطْـبٍ، **وَمَـا قالَـه الأسـتَاذُ البنَّـا حَـوْلَ الجِهَـادِ بالقُـوةِ إِنَّمَـا يَخْـرُجُ مِـنْ مِشـكاةٍ وَاحـدَةٍ**، وَمَـا اختَلفَـا إِلَّا فِـي طَرِيقَـةِ الصِّياغَـةِ أَوِ التَّعبيـرِ عَـنِ المَعْنَـىٰ، وَانظُـرْ إِلَـىٰ مَـا قَالَـهُ الأستاذُ البنَّـا عَـنِ الجِهـادِ بِالقُـوةِ، وقَارِنْـهُ بِـكلامِ الأستاذِ سَـيدِ قُطبٍ رَحِمَهُمَـا اللهُ، تَجِـدْهُ قَرِيبًـا مِـنْ قَريـبٍ.

(99) سيد قطب: *معالم في الطريق*، ص 82.

فقدْ وَجدَ الإمَامُ البنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ النَّاسَ يَتسَاءَلُونَ: «هَلْ فِي عَزمِ الإِخْوَانِ المُسلِمِينَ أَنْ يَستخْدِمُوا القُوةَ فِي تَحقيقِ أَغراضِهِم وَالوصُولِ إِلَىٰ غَايتِهِمْ؟»، فأجَابَ إجابةً طَويلَةً بَيّنَ فِيهَا أنَّ القُوةَ شِعارُ الإسلامِ؛ وَمِنْ ثَمّ يَجِبُ أَنْ يَكونَ الإخوَانُ أقويَاءَ، أَمّا مَتَىٰ يَستخدِمُونَ هَذهِ القُوةَ، فقدِ اشترَطَ لَهَا الإمَامُ البنَّا ثَلاثةَ الشُّروطِ التِي شَرطَها الأستاذُ سَيدُ قُطب، وَقَد قَالَهَا الإمامُ البنَّا بِهذهِ الصِّيغَةِ: (قُوةُ الإيمَانِ وَالعَقِيدَةِ، ثُمّ قُوَّةُ الوَحْدَةِ وَالارتِبَاطِ، ثُمّ قُوّةُ السَّاعدِ والسِّلاحِ). وَالحَقُّ أنَّ كَلامَ الإمَامِ البنَّا حَولَ (مَوقفِ الإخوَانِ مِنَ القُوةِ)، جَديرٌ بِأَنْ يُقرأَ كُلَّهُ، لِأَنَّ فيهِ فِقْهًا عَالِيًا بدَرجَاتِ القُوّةِ وَمَواطنِ استخدَامِهَا، وَلَا يَنبغِي أَنْ يَجهَلَ أبنَاءُ الصَّفِّ الكرامُ مثلَ هذا الفِقْهِ، وَيَحسُنُ أَنْ أَنقُلَ هُنا بعضَه، حَيثُ يقُولُ الإمَامُ البنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وَلَكِنَّ الإخوانَ المسلمينَ أَعْمقُ فِكرًا وَأَبعدُ نَظَرًا مِنْ أَنْ تَستَهوِيَهم سَطحِيَّة الأَعمَالِ وَالفِكَرِ، فَلا يَغوصُوا إِلَىٰ أَعمَاقِهَا وَلَا يَزِنُوا نتَائِجَهَا وَمَا يُقصَدُ مِنهَا وَمَا يُرَادُ بِهَا، **فَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ أَوَّلَ دَرجةٍ مِنْ دَرجاتِ القُوَّةِ قُوةُ العَقيدَةِ وَالإيمَانِ، ثُمَّ يَلِي ذَلِكَ قُوَّةُ الوَحدَةِ وَالارتِبَاطِ، ثُمَّ بَعدَهُمَا قُوةُ السَّاعدِ وَالسَّلاحِ**، وَلَا يَصِحُّ أَنْ تُوصَفَ جَماعةٌ بِالقُوّةِ حَتَّىٰ تَتوفَّرَ لَهَا هَذهِ المَعَانِي جَميعًا، وَأَنَّهَا إِذَا استَخدَمَتْ قُوَّةَ السَّاعدِ وَالسَّلاحِ، وَهِيَ مُفكَّكَةُ الأَوصَالِ مُضطربَةُ النظَامِ أَوْ ضَعيفَةُ العَقيدَةِ، خَامِدَةُ الإِيمَانِ فَسَيكُونُ مَصيرُهَا الفَنَاءَ وَالهَلاكَ.

هَذهِ نَظرَةٌ، وَنَظرةٌ أُخْرَىٰ: هَلْ أَوْصَىٰ الإسلامُ - وَالقُوّةُ شِعارُهُ - بِاستخْدَامِ القُوّةِ فِي كُلِّ الظُّرُوفِ وَالأَحوالِ؟ أَمْ حَدَّدَ لِذلِكَ حُدودًا وَاشترَطَ شُروطًا، وَوجَّهَ القُوةَ تَوجِيهًا مَحدُودًا؟

وَنَظرَةٌ ثَالثةٌ: هَلْ تَكونُ القُوةُ أَوَّلَ عِلاجٍ أَمْ أَنَّ آخِرَ الدَّواءِ الكَيُّ؟ وَهَلْ مِنَ الواجبِ أَنْ يُوازِنَ الإنسَانُ بَينَ نَتائجِ استِخْدَامِ القُوَّةِ النَّافِعَةِ وَنَتائجِهَا الضَّارَّةِ، ومَا يُحِيطُ بِهذَا الاستِخْدامِ مِن ظُروفٍ؟ أَمْ مِنْ وَاجبِه أنْ يَستخدِمَ القُوةَ وَلْيكُنْ بَعدَ ذَلِكَ مَا يَكونُ؟ هَذِهِ نَظراتٌ يُلقِيهَا الإخوانُ المُسلمونَ عَلَىٰ أُسلُوبِ استِخْدَامِ القُوّةِ قَبلَ أَنْ يُقدِمُوا عَليهِ، وَالثورَةُ أَعنَفُ مَظاهرِ القُوَّةِ، فنظَرُ الإخوَانِ المُسلِمِينَ إِليهَا أَدَقُّ وَأَعمَقُ، وَبخَاصَّةٍ فِي وَطنٍ كَمِصْرَ جَرّبَ حَظَّهُ مِنَ الثورَاتِ فَلَمْ يَجنِ مِنْ وَرائِهَا إِلَّا مَا تَعلَمُونَ.

وَبعدَ كُلِّ هَذهِ النظَراتِ وَالتقديرَاتِ أَقولُ لِهؤلَاءِ المُتسائِلِينَ: إِنَّ الإخوانَ المُسلِمينَ سَيستَخْدِمُونَ القُوَّةَ العَمليةَ حَيثُ لَا يُجدِي غَيرُهَا، وَحَيثُ يَثقُونَ أَنّهم قَدِ استَكْمَلُوا عُدَّةَ الإيمَانِ وَالوَحْدَةِ، وَهُمْ حِينَ يَستَخدِمُونَ هَذهِ القُوةَ سَيكُونونَ شُرفَاءَ صُرحاءَ وَسَيُنذرُونَ أَوَّلًا، وَيَنتظِرُونَ بعدَ ذَلِكَ ثُمَّ يُقْدِمُونَ فِي كَرامةٍ وعِزّةٍ، ويَحتمِلُونَ كُلَّ نَتائِجِ مُوقِفِهِم هَذَا بِكُلِّ رِضَاءٍ وَارتِيَاحٍ»[100].

وَبعيدًا عَن تَساؤُلِ النّاسِ حَولَ مَوقفِ الإخوَانِ مِنَ القُوةِ، يَبْدُو أَنَّ الإِمَامَ البنَا نَفسَه قَد لَحظَ بَعضَ نُذُرِ الحَماسَةِ الزائدة لَدَىٰ بَعضِ الإِخْوَانِ، فَقالَ يَنصَحُهم بكلماتٍ مِنْ ذَهبٍ، يَجبُ أَنْ يَحفَظَهَا الإِخْوَانُ وأنْ يَضَعُوهَا نَصْبَ أَعْيُنِهِم دائمًا، فَهِي كَلِمَاتٌ هَادِيَاتٌ، يقُولُ الإمامُ البنَّا «أَيّها الإِخوَانُ المُسلِمُونَ: أَلجِمُوا نَزَواتِ العَواطفِ بِنظَرَاتِ العُقولِ، وَأَنِيرُوا أَشِعّةَ العُقولِ بِلَهبِ العَواطِفِ، وَأَلْزِمُوا الخَيالَ صِدْقَ الحَقِيقَةِ وَالواقِعِ، وَاكتَشِفُوا الحَقائقَ فِي أَضْوَاءِ الخَيالِ الزّاهِيَةِ البَرَّاقَةِ. وَ﴿**لَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ**﴾ [النساء: 129]، وَلَا تُصادِمُوا نَوَامِيسَ الكَوْنِ فَإِنَّهَا غَلَّابَةٌ، وَلَكِنْ غَالِبُوهَا وَاستَخدِمُوهَا وَحَوِّلُوا تَيارَهَا واستَعِينُوا

(100) حسن البنا: مجموعة *رسائل الإمام البنا*، رسالة المؤتمر الخامس. ص 349.

بِبعْضِهَا عَلَىٰ بَعضٍ، وَتَرَقَّبوا سَاعةَ النَّصْرِ وَمَا هِيَ مِنكُم بِبعِيدٍ»[101].

بَينَ فِقْهِ الْمِحْنَةِ وَاغْتِنَامِ الفُرَصِ

وَمِنَ المَفاهِيمِ الخَاطِئَةِ التِي هَيمَنَتْ عَلَىٰ كَثِيرِينَ مِنَ العَامِلِينَ فِي الحَقْلِ الإِسْلَامِيِّ مَعَ الأَسفِ الشَّدِيدِ؛ أَنَّهم تَصوَّرُوا أَنَّ تَكرَارَ المِحَنِ والابتلَاءاتِ، وَدُخولَ الصَّفِّ فِيهَا وَمُواجَهتَه وتَحمُّلَه لَهَا؛ دَلِيل مِصْدَاقِيَّةٍ، وأَمَارةُ سَلامةٍ وَصِحَّةٍ، وَيَبقَىٰ النَّاتِجُ عَن ذَلِكَ هُوَ عَجزَ التعَامُلِ مَعَ الغَيرِ، وَإِذَا حَاولُوا لَمْ يُحْسِنُوا لأَنَّهم لَمْ يُجوِّدُوا أَسَالِيبَهم. وَهَذِهِ مِنَ الصُّوَرِ الَّتِي نَرَاهَا حَوْلَنا كَثِيرًا؛ حتَّىٰ إِذَا فُتِحَ هَامِشٌ مِنَ الحُرِيَّةِ، فسُرْعَانَ مَا تَجِدُ الفَصِيلَ الإِسْلَامِيَّ يُغلِقُه بِنفْسِهِ؛ لأنهُ عَاجِزٌ عَنِ التعَامُلِ مَعهُ، صَارَ لَا يُحْسِنُ إِلَّا قَاعِدَةَ الابتِلَاءِ بِالشَّرِّ وَحدَهُ، بوَصْفِهَا دَلِيلًا علَىٰ الصدْقِ وَالسلامَةِ أَوِ الصَّوابِ وَالصِّحَّةِ!

وَقَد رَأيتُ نَموذَجًا لِهذَا التفكيرِ، وَنحنُ فِي السِّجْنِ بَعدَ فَترةِ التَّحقيقَاتِ وَالتعْذيبِ الأُولَىٰ، فَقَدْ بَدَا لَنظَامِ عبدِ الناصرِ أَنْ يَفتَحَ لَنَا بَابًا مِنَ السَّعَةِ وَالتَّيسيرِ لِكَثيرٍ مِنَ الإِخوَةِ الذينَ كَانُوا مَعنَا فِي عَامَ (1965م)، لكِنَّ بَعضَ الأخوَةِ رَفضُوا ذَلِكَ، وَشَكَّلُوا تَيَّارًا داخلَ الصَّفِّ، وَكانَ أَوَّلُ مَا سُمِحَ بِه هُوَ زِيَارَةَ بَعضِ كِبارِ مُفتِّشِي الدَّاخِليَّةِ وَأَعضاءِ مَجلسِ الشَّعبِ لَنَا، وَمُرورَهُم عَلَىٰ الزنَازِينِ، ويسألوننا: هَلْ لَنا طَلباتٌ أَوْ أَيّ شَيءٍ؟ فَكانَ هذا التَّيارُ الرافِضُ يَأْبَىٰ التعَاملَ مَعهُمْ، بَلْ يَرفُضُ حَتَّىٰ مُجرَّدَ الحَديثِ أَوِ التفَاهُمِ مَعهُم أَوْ أَيَّ شَيْءٍ مَعهُم، ثُمَّ حَدَثَ بَعدَ ذَلِكَ نَوعٌ مِنَ اللقَاءاتِ بَينَ رِجالِ المَباحثِ العَامَّةِ فِي ذَلِكَ الوَقْتِ، وَبَعضِ الإِخوانَ، فكانَ هَذَا التّيارُ يَرفضُ كَذَلِكَ الحديثَ مَعهُم أَوِ التفَاوضَ مَعهُم بِالمَرَّةِ، وَكَانُوا يُقابِلُونَهُم بِنَوعٍ مِنَ الاستِهَانَةِ والسُّخْرِيَةِ، وَحِينَما كَانُوا يَدخلُونَ

(101) حسن البنا: *مجموعة رسائل الإمام البنا، رسالة المؤتمر الخامس*، ص 339.

عَليهِـمُ الزنَازيـنَ يَجدُونَهُـم نَائمِيـنَ مَادِّيـنَ أَرْجُلَهُـم فِـي وُجُوهِهِـم. وَكانَ يَدخُلُ النائِبُ العَامُّ ويَسأَلُ هَلْ هُناكَ أَيُّ طَلباتٍ لَنَا؟ وكَذلِكَ كِبارُ مُفتِّشِي الدَّاخِلِيّةِ، فَلَا يَـرُدُّ عَلَيهِ أَحدٌ وَلَا يُكلِّمُه أَبَـدًا، وكأنّه غَيرُ مَوجُودٍ!

وَلَا ريبَ أنَّ هَـذَا الأُسلوبَ يَزِيدُ الطِّينَ بِلَّـةً كَما يَقولُونَ، ويَـزِيدُ الأَزْمَةَ. إنَّ رَفْضَ أَيَّ نَـوعٍ مِـنَ التفَاهُـمِ أو الحـوَارِ، وَعَـدمَ اغتِنَامِـهِ يُـؤدِّي إِلَـىٰ مَزيـدٍ مِـنَ الجُمـودِ وَالارتبَـاكِ وَالعجْـزِ فِي التعَامُـلِ مَـعَ الغيرِ.

كَمَـا أَذكـرُ وَنحـنُ فِـي لِيمَـانِ (طُـرَةَ) وَفِـي الأَيّـامِ الأَخيـرَةِ جِـدًّا سَـنةَ (1974)، وَكَانَ مَعنَـا إخـوَانٌ كِبـارٌ، وَلَهُـم أسـلوبُهم فِـي التفكِيـرِ وَعَقُولُهـم الناضِجَـةُ تَختَلِـفُ عَـنْ فَصيـلِ (1965)، فَجـاءَ إِلينَـا **فُـؤَادُ عَـلَّام**، وَجـاءَ مَعـهُ بَعـضُ ضُبّـاطِ الدّاخليـةِ، وَقَالُـوا لَنـا: إنّهـم يُريـدُونَ الجُلـوسَ مَـعَ الإخـوَانِ، لِيتكَلَّمُـوا مَعَهُـم، وَكَانَ هَـذَا الطَّلَـبُ سَـببًا فِـي حُـدوثِ مُشـادَّةٍ بَيـنَ الفَصيلَيـنِ [فَصيـلِ (65)، وَفَصيـلِ (54)]: كيـفَ نَذهـبُ؟ وكَيـفَ نَـقعدُ مَعَهُـم؟ لَكـنْ فِي النهَايـةِ جَلسْـنَا جَمِيعًـا، وَجَـاءَ فُـؤادُ عَـلّام إلينَـا، وبـدأَ يَقـولُ بـأنَّ الدولـةَ الآنَ فِي مَرحلـةٍ جَديـدةٍ، وتَنظُـرُ إِلَينَا بعَيـنٍ جَديـدَةٍ، بالإضافـةِ إِلَـىٰ أنـهُ قَـد سَـادَتْ رُوحُ الاعتِـدَالِ وَالتسَـامُحِ عَلَـىٰ سُـلُوكِهِم وَأَخلاقِهِـم، وَأَصبـحَ هُنـاكَ نـوعٌ مِـنَ التعَامُـلِ... إلَـخ. فَلمَّـا انتَهَـىٰ مِـن كَلامِـهِ بَعـدَ سَـاعةٍ تَقرِيبًـا؛ لَـمْ يَـرُدَّ عَلَيـهِ أحدٌ، وَلَـمْ يَتفَاهَـمْ معـهُ أَحـدٌ؛ غيـرَ الأسـتاذِ حَامِـدِ أبـو النَّصـرِ، فَهُـوَ الوحيـدُ الّـذِي رَفَـعَ يَـدَهَ، وطَلَـبَ أَنْ يَتكلَّـمَ فِـي هَـذِهِ الجلسَـةِ التَّاريخيّـةِ، وَكَانَ مِـن كَلمَاتِـهِ مـا يأتِـي: «إنَّ رُوحَ التسـامُحِ والاعتِـدَالِ وَحُسـنَ السُـلُوكِ لَيـسَ غَرِيبًـا عَلَـىٰ دَعوَتِنَـا - مِـنْ كَلمَاتِـهِ بِالنـصِّ - لأنّهـا تَنضَبِـطُ بَضوَابـطِ الإسْـلام، وَالحَقِيقَـةُ يـا سَـعادَةَ العَقيـدِ: أَنَّ إِدَارَةَ السِّـجنِ هِـيَ الّتِي تَحوَّلَـتْ إِلَـىٰ نـوعٍ مِـنَ اللاآدَمِيّـةِ وَاللاإنسَـانيّةِ، وَأَمَّـا الإخـوَانُ فَهِـيَ فِيهِـم مُنـذُ القِـدَمِ؛ لأنّهُـم مُنضبِطُـونَ بِضَـوابطِ الشَّـرعِ، وضَـوابـطِ الإسـلامِ، وإنَّ هَـذِهِ السِّـنينَ لَا يَـعُدُّهَا الإِخْـوانُ فَيتمَنَّـوْنَ أَنْ

تَمضِيَ بِسُرعَةٍ، بَـلْ يَحسَبُونَ أَنَّهَـا فِي مِيزَانِ حَسناتِهِمْ، وَأَنَّ أَيَّ قَـرارٍ تَتخـذُهُ الدَّولَـةُ لَا يَـنقُصُ مِـنْ أَعمَارِنَـا أَوْ يَـزِيدُهَا شَيْئًا، فَنحـنُ نُؤمِنُ بقَـولِ اللهِ تَعالَىٰ: ﴿**قُـل لَّـن يُصِيبَنَـا إِلَّا مَـا كَتَـبَ اللهُ لَنَـا**﴾ [التوبـة: 51]. وَإِنَّ مَـا تَعرضْنَـا لَـهُ مِـنَ التعْذيـبِ لَـمْ يُغيِّـرْ مِـنْ عَقيدَتِنَـا شَـيْئًا فِـي أَنْ نَحفَـظَ لِلمُحسِـنِ إِحْسَانَـهُ وَنَـغفِرَ لِلمُسـيءِ إِسَاءَتَـهُ، وَقَـدْ عَلَّمَنَـا رَبُّـنَا سُبحَانَـهُ وتَعالَـىٰ: ﴿**فَمَـنْ عَفَـا وَأَصْلَـحَ فَأَجْـرُهُ عَلَـىٰ اللهِ**﴾ [الشـورىٰ: 40]. ثُـمَّ جَلَـسَ، وَكَانَ العَقِيـدُ بِالطَّبْـعِ فَرِحًـا جِـدًّا.

وَلَـمْ يَمـضِ إِلا يَومَـانِ أَو ثَلاثَـةٌ، وَإِذَا بالنِّهايةِ السَّـعيدَةِ، وَقَـرَارِ الإِفرَاجِ عَنِ الأُسـتَاذِ حَامِـد أَبـو النصْـرِ، وَكَانَ هَـذَا القـرارُ مُثِيـرًا دَاخِـلَ السِّـجْنِ وَخَارِجَـه، وَكانَ بَعـضُ الفَصيـلِ المُعَاصـرِ لِسَـنَةِ (65) يَرفـضُ هَـذَا النقَـاشَ، أَوْ ذَلِـكَ الحِـوارَ، رُغـم اعتِدَالِـهِ وَسَـماحتِهِ وَضَـوابطِهِ الشَّـرعِيّةِ، ولَـم يَكـن فِيـهِ أَيُّ نَـوعٍ مِـنَ التنَـازُلِ عَـنْ شَـيءٍ، أو التَّرَخُّـصِ فِـي مَبَادِئِنَـا، أَوْ إِعْـلانٍ لِلتأْيِيـدِ، إِنمَّـا ذَكَـرَ هَـذِهِ النقـاطَ، وَخُلاصَتُهَـا: أَنّنـا لَـنْ نَنسَـىٰ عَقيدَتَنـا عَلَـىٰ الرغـمِ مِـن مُـرورِ هَـذِهِ السـنينَ الطَّويلَـةِ، وَمَـا وَقَـعَ عَلينَـا مِـنَ التعْذيـبِ.

وَهَـذِهِ القِصَّـةُ تُعلِّمُنَـا كَيفيـةَ التعَامُـلِ مَـعَ الغَيـرِ، وَتُعلِّمُنَـا كَذلِـكَ أَنَّ القِيـادَةَ الحَكِيمَـةَ هِـيَ التِي تَـفتَحُ الأبوَابَ وَلَا تُغلِقُهَـا، وَتَغتَنِمُ الفُـرصَ وَقْتَ الأزَمَاتِ وَلا تُضيِّعُهَـا، وَلَا تُغلِـقُ بَابًـا قَـد يَكُـونُ فِيـهِ انفرَاجَـةٌ عَلَـىٰ الدَعـوَةِ وَأبنائِهَـا، أَمَّـا العَاجِـزُ المُرتَبِـكُ فَهُـوَ مَـنْ يُغلِـقُ الأبـوابَ، وَيَسُـدُّ مَنافِـذَ الخَيـرِ، وَيُسِـيءُ الظَّـنَّ بِكُلِّ يَـدٍ تُـمَدُّ إِلينَـا، وَيَـرَىٰ فِي الاستِجَابَـةِ لَهَا ضَرْبًا مِـنَ التّرخُّـصِ أَوِ التَّنازُلِ. إن التشـدد يحسـنه كلُّ أحـد، أمـا الرخصـة فتحتـاج إلـىٰ فقيـه. وَلَا رَيْـبَ أَنَّ بَعْـضَ الفَصَائِلِ الإِسْـلَامِيَّةِ المُعَاصِـرَةِ تَحْتَـاجُ إِلَـىٰ مَزِيـدٍ مِـنَ الحِكْمَـةِ، وَإِلَـىٰ تَرْسِـيخِ رُوحِ التَّسَـامُحِ وَالاعْتِـدَالِ فِـي المُمَارَسَـاتِ وَالمَوَاقِـفِ.

وأَذكـرُ كَذَلِـكَ أنَّ الأستَاذَ عُمَـرَ التلمِسَـانِيَّ كَتَـبَ - حِينَمـا خَرجَـتِ المَجمُوعَـةُ الأُولىٰ مِـنَ الإخـوانِ، وَكُنـتُ وَاحِـدًا مِنهُـم - فِي جَريـدَةِ الأَهـرَام خِطَابًـا إِلَىٰ السَّـاداتِ، جَاءَ فيـهِ: كُنَّا أَولَ مَجْمُوعـةٍ خَرجَـتْ بَعـدَ الحَـربِ مِـنْ أَجْلِ هَـذَا أَشْكُـرُهُ، وَكَانـتْ كَلمـةً طَيبـةً. وَكَمَـا سَـمِعْتُ - لأَنَّنِي كُنْـتُ خَرجْتُ مِـنَ السِّـجْنِ وَقتَهَـا - حَـدثَ نَـوعٌ مِـنَ القَلـقِ فِي السِّـجْنِ حِينَهـا، وَقَـالَ بَعـضُ الإِخـوَانِ: لَيتَـه مَـا كَتـبَ هَـذَا الخِطَـابَ! مَـنْ قَـالَ لَـهُ: نَحـنُ نُريـدُ أَنْ نَخـرُجَ.. وَكَلامٌ مِـنْ هَـذَا القَبِيـلِ. لَكِـنَّ بعـضَ الأُمُـورِ تَحتـاجُ إِلَـىٰ نَـوعٍ مِـنَ التعَهُّـدِ وَالتربِيَـةِ، وَتَستغْرِقُ فَتَراتٍ طَويلَـةً جِـدًّا، وَعَـدمُ التَّنبُّـهِ لَهـا أَوِ الالتفَـاتِ إليهَا، يُلحِـقُ العَنـتَ بِالأفـرادِ وَالأُمَـمِ أَوِ الجَماعَـاتِ؛ فَلَـوِ افتَـرَضْنَا أَنَّ أَحَـدًا لَمْ يَسْـعَ إِلىٰ التوَاصُـلِ وَالتفَاهُـمِ، أَلا يَعنِي ذَلِـكَ أَنْ يَـزِيدَ عَنَـتُ الإخـوة المَسـجُونِينَ، وَأَنْ تطـولَ المِحْنَـةُ عَلَـىٰ أُسَـرِهِم وَذَوِيهِـمْ؟! وَلَا سِـيَّمَا أَنَّ التفَاهُـمَ لَا يَعنِـي التَّنَـازُلَ.

وَمِـنْ رَحمـةِ اللهِ بِهـذهِ الأُمَّـةِ أَنْ جَعـلَ الظَّنِّيـاتِ فِـي قُـرآنِـهِ الكَرِيـمِ أَكثـرَ مِـنَ القَطعِيّـاتِ؛ حَتَّـىٰ لَا يُـضَيِّقْ عَلَيْهَـا وَاسِـعًا، لأَنَّ الظَّنِيـاتِ مَعنَاهَـا أَنْ تَتعَـدَّدَ الـدِّلالَاتُ، وَأَنْ تَتعـدَّدَ تَبعًـا لِذلِـكَ آرَاءُ الفُقهـاءِ وَالعُلمَـاءِ، مِمّـا يَفتَحُ مَنافِـذَ فِي التفْكِيرِ وَالحَركَـةِ، وَيتِيـحُ بدَائِـلَ كَثِيـرَةً تُسْـعِفُ الدَّعـوَةَ فِـي اختِـلَافِ الظُّـروفِ وَالبِيئَـاتِ. وَقَـدْ رُوِيَ عَـنْ عُمَـرَ بْـنِ عَبْـدِ الْعَزِيـزِ، أَنَّـهُ قَـالَ: «مَـا يَسُـرُّنِي أَنَّ لِـي بِاخْتِلَافِهِـمْ حُمْـرَ النَّعَـمِ»، قَـالَ الْقَاسِـمُ: «لَقَـدْ أَعْجَبَنِـي قَـوْلُ عُمَـرَ بْـنِ عَبْـدِ الْعَزِيـزِ: «مَـا أُحِـبُّ أَنَّ أَصْحَـابَ رَسُـولِ اللهِ ﷺ لَـمْ يَخْتَلِفُـوا؛ لِأَنَّـهُ لَـوْ كَانَ قَـوْلًا وَاحِـدًا كَانَ النَّـاسُ فِـي ضِيقٍ، وإنما أَئِمَّـةٌ يُـقْتَدَىٰ بِهِـمْ؛ فَلَـوْ أَخَـذَ أَحَـدٌ بِقَـوْلِ رَجُـلٍ مِنْهُـمْ كَانَ فِـي سَـعَةٍ»[102].

(102) انظر أبو إسحاق الشاطبي: *الموافقات*، تحقيق أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، ط 1، دار ابن عفان، 1417 هـ - 1997م، 5/ 68.

وَلِهـذَا لَا يَنبَغِـي وَلَا يَصِـحُّ أَنْ يُفزِعَنَـا اخْتِـلَافُ الآرَاءِ، أَو تَعـدُّدُ وجهَـاتُ النظَـرِ، مَـا دَامَ الاختِـلافُ مَحكُومًـا بضَوابـطِ الإِسْـلَامِ وَآدابـهِ، وَمَـا دَامَ مَبنِيًّـا عَلَـىٰ أَسَـاسٍ مَكيـنٍ مِـنَ المَحبَّـةِ وَالمَـودَّةِ، ثُـمَّ مَـا دُمْنَـا نَختَلِـفُ حَريصِيـنَ عَلَـىٰ تَمحيـصِ الأَدلَّـةِ، وَالوصُـولِ إِلـىٰ الصَّـوابِ، حَريصيـنَ عَلَـىٰ مَصلحَـةِ دَعوتِنَـا وَنُمُوِّهَـا؛ فَـلا رَيـبَ أَنّ مِثْـلَ هَـذا الاختِـلافِ يُـدرِّبُ أَبنَـاءَ الدعـوَةِ عَلَـىٰ المُوازنَـةِ بَيـنَ المَصَالِـحِ وَالمفَاسِـدِ، وَيَزيدُهُـم قُـدرةً عَلَـىٰ إِدرَاكِ الخَطـأِ وَالصـوَابِ، وَيُسـعِفُهُمْ فِـي التَّخَلُّـصِ مِـنَ البِيئَـاتِ الخَانِقَـةِ، فَيهجُرونَهَـا إِلَـىٰ حَيـثُ يَرتَـقُونَ بِـدَعوَتِهِمْ. وَلَنـا فِـي رَسُـولِ اللهِ ﷺ أُسْـوَةٌ حَسـنَةٌ، فَقَـدْ كانَ يَرتـادُ لدعْوَتـهِ الوَلِيـدَةِ آفاقًـا جَديـدةً، وَيَبحَـثُ لأصحَابـهِ عَـنْ بِيئَـاتٍ أَكثرَ أَمْنًـا وَحُريّـةً؛ لِكَـي تَنمُـوَ الدعْـوةُ وَتَـزدَهِـرَ.

وَمِـنْ صُـورِ العَجْـزِ عَـنِ التعَامُـلِ مَـعَ الغَيـرِ؛ مَـا نَلحظُـهُ فِـي بَعـضِ الفَضائِيّـاتِ، فَلربَّمَـا سُئِلَ أَحـدُ الذيـنَ يَعيشُـونَ فِـي دَولـةٍ غَرْبيّـةٍ عَـنْ رَأيـهِ فِـي الغَـربِ أَوْ عَمّـا يَدعُـوهُ لِلْعَيـشِ فِيـهِ، فَـتراهُ يَقـولُ: الغَـرْبُ مِثْـلُ المِرحَـاضِ لَا بُـدَّ لِلإِنسَـانِ أَنْ يَدخُلَـه، أَوْ يَلجـأَ إِلَيْـهِ! وهَـذَا كَلامٌ لَا يَقُولُـه إِلَّا عَاجـزٌ عَـنِ التعَامُـلِ مَـعَ الآخَـرِينَ، أَلَـمْ يَبْعَـثْ رَسـولُ اللهِ ﷺ أَوَّلَ مَجمُوعَـةٍ مِـنْ صَحَابتِـهِ إِلَـىٰ الحَبَشَـةِ، وَقَـدِ استَطاعُوا أَنْ يَتعامَلُـوا مَـعَ مُجتمَـعٍ غَريـبٍ عَليهِـم تَمَامًـا، والمُؤمِـنُ كَالغَيـثِ أينَمَـا وَقَـعَ نَـفَعَ.

وَسِـيرَةُ رَسُـولِ اللهِ ﷺ تُعلِّمُنَـا أَنْ نَرتَـادَ لِدعْوَتِنَـا آفَاقًـا أَوْ بِيئَـاتٍ جَديـدَةً، إِذَا ضَاقـت بيئَـةٌ مَـا بِالدَّعـوَةِ وَأَهلِهَـا، فَقَـدْ عَلِـمَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ أَنَّ أَصْحَمَـةَ النَّجاشِـيَّ مَلِـكَ الحَبَشَـةِ مَلِـكٌ عـادِلٌ، لا يُظْلَـمُ عِنْـدَهُ أَحَـدٌ أَبَـدًا، فَقَـالَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ لِأَصحابِـهِ، وقَـدْ رَأَىٰ مـا يَنْـزِلُ بِهِـمْ مِـنَ البَـلَاءِ، ومـا يُصِيبُهُـمْ مِـنَ القَهْـرِ والأَذَىٰ، وهُـوَ لا يَقْـدِرُ عَلَـىٰ أَنْ يَمْنَعَهُـمْ مِمَّـا هُـمْ فِيـهِ، قَـالَ لَهُـمْ: «لَـوْ خَرَجْتُـمْ إِلَـىٰ أَرْضِ الحَبَشَـةِ، فـإِنَّ بِهَـا مَلِـكًا لا يُظْلَـمُ عِنْـدَهُ أَحَـدٌ، وهِـيَ أَرْضُ صِـدْقٍ،

حَتَّىٰ يَجْعَلَ اللهُ لَكُمْ فَرَجًا مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ. قَالَ الشَّيْخُ عَلِي الطَّنْطَاوِي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ: ودَعاهُمُ الرَّسُولُ ﷺ إِلَىٰ مَا هُوَ أَشَدُّ مِنْ هَذَا كُلِّهِ، إِلَىٰ فِراقِ الوَطَنِ، وتَركِ الأَهْلِ، وَأَنْ يَمْشُوا فِرارًا بِدِينِهِمْ إِلَىٰ بِلادٍ لَيْسُوا مِنْهَا، ولَيْسَتْ مِنْهُمْ، ولا لِسَانُها لِسانُهُمْ، وَلَا دِينُها دِينُهُمْ، إِلَىٰ الحَبَشَةِ، فَخَرَجُوا مِنْ مَنازِلِهِمْ وهَجَرُوا أَهْلِيهِمْ، ومَشَوْا إِلَىٰ الحَبَشَةِ، فَلَحِقَهُمْ أَذَىٰ قُرَيْشٍ إِلَىٰ الحَبَشَةِ، وأَوْغَلَتْ قُرَيْشٌ فِي كُفْرِهَا وصَدِّها وعِنَادِهَا، ولَكِنْ هَلْ تَقْدِرُ قُرَيْشٌ أَنْ تُطْفِئَ نُورَ اللهِ تَعَالَىٰ؟[103].

وَهَذِهِ هِيَ **الهِجرَةُ الأُولَىٰ إِلَىٰ الحَبَشَةِ**، بَل هِيَ أَوَّلُ هِجْرَةٍ فِي الإِسْلام، وَذَلِكَ فِي رَجَبٍ مِنَ السَّنَةِ الخَامِسَةِ لِلْبَعْثَةِ، وَكَانُوا أَحَدَ عَشَرَ رَجُلًا وأَرْبَعَ نِسْوَةٍ. وأَوَّلُ مَنْ خَرَجَ إِلَىٰ الحَبَشَةِ هُوَ عُثْمانُ بنُ عَفَّانَ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ)، ومَعَهُ زَوْجُهُ رُقَيَّةُ بِنْتُ رَسُولِ الله ﷺ.

ثم كانت **هجرة ثانية إلىٰ الحبشة**؛ لَمَّا رَأَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَا أَصَابَ أَصْحَابَهُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ مِنَ البَلَاءِ أَذِنَ لَهُمْ بِالهِجْرَةِ إِلَىٰ الحَبَشَةِ مَرَّةً ثَانِيَةً. وَكَانَتِ الهِجْرَةُ الثَّانِيَةُ أَشَقَّ مِنْ سَابِقَتِهَا، ولَقِيَ المُسْلِمُونَ مِنْ قُرَيْشٍ تَعَنِيفًا شَدِيدًا، ونَالُوهُمْ بِالأَذَىٰ. وكَانَ عِدَّةُ مَنْ خَرَجَ فِي هَذِهِ الهِجْرَةِ مِنَ الرِّجَالِ: ثَلَاثَةٌ وثَمَانُونَ رَجُلًا، ومِنَ النِّسَاءِ ثَمَانِي عَشْرَةَ امْرَأَةً: إِحْدَىٰ عَشْرَةَ قُرَشِيَّاتٍ، وسَبْعٌ غَيْرُ قُرَشِيَّاتٍ، وذَلِكَ عَدَا أَبْنَائِهِمْ الذِينَ وُلِدُوا لَهُمْ فِي الحَبَشَةِ. وكَانَ أَمِيرُهُمْ فِي هَذِهِ الهِجْرَةِ الثَّانِيَةِ جَعْفَرُ بنُ أَبِي طَالِبٍ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ).

وَفِي حَدِيثِ جَعفرِ بنِ أَبِي طَالِب (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ). مَعَ مَلِكِ الحَبشَةِ، مَا يَدُلُّ عَلَىٰ حُنكَتِهِ، وَقُدرَتِه عَلَىٰ التَّكيفِ مَعَ البيئَةِ الجَديدَةِ، حَتَّىٰ أَقنَعَ

(103) انظر: موسىٰ بن راشد العازمي: *اللؤلؤ المكنون في سيرة النبي المأمون*، 1/ 413، وما بعدها وَانظُر كذلك الشيخ علي الطنطاوي: *رجال من التاريخ*، ص 14،

النَجَاشِـيَّ بِسُـمُوِّ الدِّيـنِ الإِسْـلَامِي وَتَرفُّعِـهِ عَلَـىٰ رذَائـل الجَاهليـةِ، فَأجـارَ النجَاشـيُّ المُسـلِمينَ المُهاجِريـنَ مِـنْ قُريـشٍ، وَضَمِـنَ لَهُـم الأَمْـنَ وَالحُريَّـةَ فِـي بِـلادِهِ، وَهَـذَا جُـزْءٌ مِـنَ الحَديـثِ الطَّويـلِ الـذِي رَوَاهُ الزُّهْـرِيِّ، عَـنْ أُمِّ سَـلَمَةَ بِنْـتِ أَبِـي أُمَيَّـةَ بْـنِ الْمُغِيـرَةِ زَوْجِ رَسُـولِ اللهِ ﷺ أَنَّهَـا قَالَـتْ: «... فَكَانَ الَّـذِي كَلَّمَـهُ جَعْفَـرُ بْـنُ أَبِـي طَالِـبٍ، فَقَـالَ لَـهُ: أَيُّهَـا الْمَلِـكُ، كُنَّـا قَوْمًـا أَهْـلَ جَاهِلِيَّـةٍ، نَعْبُـدُ الْأَصْنَـامَ، وَنَـأْكُلُ الْمَيْتَـةَ، وَنَأْتِـي الْفَوَاحِـشَ، وَنَقْطَـعُ الْأَرْحَـامَ، وَنُسِـيءُ الْجِـوَارَ، وَيَـأْكُلُ الْقَـوِيُّ مِنَّـا الضَّعِيـفَ، فَكُنَّـا عَلَـىٰ ذَلِـكَ، حَتَّـىٰ بَعَـثَ اللهُ إِلَيْنَـا رَسُـولًا مِنَّـا، نَعْـرِفُ نَسَـبَهُ وَصِدْقَـهُ وَأَمَانَتَـهُ وَعَفَافَـهُ، فَدَعَانَـا إِلَـىٰ اللهِ لِنُوَحِّـدَهُ وَنَعْبُـدَهُ، وَنَخْلَـعَ مَـا كُنَّـا نَعْبُـدُ نَحْـنُ وَآبَاؤُنَـا مِـنْ دُونِـهِ مِـنْ الْحِجَـارَةِ وَالْأَوْثَـانِ وَأَمَرَنَـا بِصِـدْقِ الْحَدِيـثِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَـةِ، وَصِلَـةِ الرَّحِـمِ، وَحُسْـنِ الْجِـوَارِ، وَالْكَـفِّ عَـنْ الْمَحَـارِمِ وَالدِّمَـاءِ، وَنَهَانَـا عَـنْ الْفَوَاحِـشِ، وَقَـوْلِ الـزُّورِ، وَأَكْلِ مَـالِ الْيَتِيـمِ، وَقَـذْفِ الْمُحْصَنَـاتِ، وَأَمَرَنَـا أَنْ نَعْبُـدَ اللهَ وَحْـدَهُ، لَا نُشْـرِكُ بِـهِ شَـيْئًا، وَأَمَرَنَـا بِالصَّـلَاةِ وَالـزَّكَاةِ وَالصِّيَـامِ- قَالَـتْ: فَعَـدَّدَ عَلَيْـهِ أُمُـورَ الْإِسْـلَامِ- فَصَدَّقْنَـاهُ وَآمَنَّـا بِـهِ، وَاتَّبَعْنَـاهُ عَلَـىٰ مَـا جَـاءَ بِـهِ مِـنْ اللهِ، فَعَبَدْنَـا اللهَ وَحْـدَهُ، فَلَـمْ نُشْـرِكْ بِـهِ شَـيْئًا، وَحَرَّمْنَـا مَـا حَـرَّمَ عَلَيْنَـا، وَأَحْلَلْنَـا مَـا أَحَـلَّ لَنَـا، فَعَـدَا عَلَيْنَـا قَوْمُنَـا، فَعَذَّبُونَـا، وَفَتَنُونَـا عَـنْ دِينِنَـا، لِيَرُدُّونَـا إِلَـىٰ عِبَـادَةِ الْأَوْثَـانِ مِـنْ عِبَـادَةِ اللهِ تَعَالَـىٰ، وَأَنْ نَسْـتَحِلَّ مَـا كُنَّـا نَسْـتَحِلُّ مِـنْ الْخَبَائِـثِ، فَلَمَّـا قَهَرُونَـا وَظَلَمُونَـا وَضَيَّقُـوا عَلَيْنَـا، وَحَالُـوا بَيْنَنَـا وَبَيْـنَ دِينِنَـا، خَرَجْنَـا إِلَـىٰ بِـلَادِكَ، وَاخْتَرْنَـاكَ عَلَـىٰ مَـنْ سِـوَاكَ، وَرَغِبْنَا فِـي جِـوَارِكَ، وَرَجَوْنَـا أَنْ لَا نُظْلَـمَ عِنْـدَكَ أَيُّهَـا الْمَلِـكُ. قَالَـتْ: فَقَـالَ لَـهُ النَّجَاشِـيُّ: هَـلْ مَعَـكَ مِمَّـا جَـاءَ بِـهِ عَـنْ اللهِ مِـنْ شَـيْءٍ؟ قَالَـتْ: فَقَـالَ لَـهُ جَعْفَـرٌ: نَعَـمْ، فَقَـالَ لَـهُ النَّجَاشِـيُّ: فَاقْـرَأْهُ عَلَـيَّ، قَالَـتْ: فَقَـرَأَ عَلَيْـهِ صَـدْرًا مِـنْ: «كهيعص: 1- 19». قَالَـتْ: فَبَكَـىٰ وَاللهِ النَّجَاشِـيُّ حَتَّـىٰ اخْضَلَّـتْ لِحْيَتُـهُ، وَبَكَـتْ أَسَـاقِفَتُهُ حَتَّـىٰ أَخْضَلُّـوا مَصَاحِفَهُـمْ، حِيـنَ سَـمِعُوا مَـا تَـلَا عَلَيْهِـمْ، ثُـمَّ قَـالَ (لَهُـمْ) النَّجَاشِـيُّ: إِنَّ هَـذَا وَالَّـذِي جَـاءَ

بِـهِ عِيسَـىٰ لَيَخْـرُجُ مِـنْ مِشْـكَاةٍ وَاحِـدَةٍ، انْطَلِقَـا، فَـلَا وَاللهِ لَا أُسْـلِمُهُمْ إِلَيْكُمَـا، وَلَا يُـكَادُونَ»[104].

(104) جمال الدين ابن هشام: *السيرة النبوية*، تحقيق مصطفىٰ السقا، وإبراهيم الإبياري، وعبد الحفيظ شلبي، ط 2، مكتبة ومطبعة مصطفىٰ البابي الحلبي وأولاده بمصر، 1375 هـ - 1955م 1/ 334، وما بعدها.

رُكْنُ التَضحِيَةِ

كَما أَدْركَ الإمامُ البنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّ إخوانَهُ ووَرَثَةَ دعوتِهِ مضطرونَ إلىٰ بذلٍ وتضحياتٍ كبيرة، ما داموا قَد آثَرُوا سَبيلَ العِزّةِ والشَرفِ، والرفعةِ والجهادِ، وَلِهذَا أَيضًا جعلَ (التَّضحِيةَ) رُكْنًا من أركَانِ البَيعةِ، لِيعْلَمَ إخوانُه أنَّ هذِهِ الدَّعوةَ مَغرَمٌ في الدنيَا، ولكنَّها مَغْنَمٌ ونَعيمٌ مُقيمٌ فِي الآخِرَةِ؛ لمَنْ أخذَهَا بحقِّهَا.

وقد أشرنَا مِن قَبلُ إلىٰ أن الغاياتِ التي تأسَّسَتْ مِن أجلِهَا دعوةُ الإخوانِ المسلمينَ لَا تتحققُ دُونَ جهادٍ دَائمٍ، وَليسَ هُناكَ جِهادٌ دُونَ تَضحِياتٍ، ولذلكَ جعلَ الإمامُ البَنَّا رُكنَ التضحيةَ تَالِيًا لِركْنِ الجِهَادِ، وقالَ فِي تَعريفِ التَّضحيَةِ: «وأريدُ بالتضحيةِ: بذلَ النفسِ وَالمالِ وَالوقتِ وَالحياةِ، وكُلِّ شَيءٍ في سبيل الغايةِ، ولَيس فِي الدنيا جِهادٌ لا تضحيةَ معَهُ، ولا تَضِيعُ في سَبيلِ فِكرتِنَا تَضحية، وإنمَا هوَ الأجرُ الجَزيلُ وَالثوابُ الجميلُ، ومَن قَعدَ عنِ التضحيةِ مَعنَا فَهُو آثِمٌ: ﴿**إِنَّ اللهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ**﴾ [التوبة: 111]، ﴿**قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ..**﴾ [التوبة: 24]، ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ**﴾ [التوبة: 120]، ﴿**فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللهُ أَجْراً**﴾ [الفتح: ١٦]، وَبذلِكَ تَعرِفُ مَعنىٰ هُتافِكَ الدَّائِمِ: (والمَوتُ فِي سَبيلِ اللهِ أَسْمَىٰ أمانِينَا)»[105].

وتعلَّمَ الإمامُ البنَّا مِنْ سِيرَةِ المُصْطفَىٰ ﷺ، أنَّ أيَّ دعوةٍ عَلىٰ مِنهاجِ النبُوَّةِ؛ مُبتلاةٌ بِالحَمْقَىٰ المُطاعِينَ، وما أكثرَهم في أيامِنَا هَذهِ، وقد رَوَىٰ

(105) حسن البنا: مجموعة رسائل الإمام البنا، *رسالة التعاليم*، ص 274.

عَطَـاءُ بْـنِ يَسَـارٍعَنْ أَبِـي هُرَيْـرَةَ (رَضِـيَ اللهُ عَنْـهُ) قَـالَ: «كَانَ الْبَـدَلُ فِـي الْجَاهِلِيَّـةِ أَنْ يَقُـولَ الرَّجُـلُ لِلرَّجُـلِ بادِلْنِـي امرأتـكَ وأُبادِلُـكَ بِامرأتِـي، أَنْ تَنْـزِلَ عَـنِ امْرَأَتِـكَ، وَأَنْـزِلَ لَـكَ عَـنِ امْرَأَتِـي، فَأَنْـزَلَ اللهُ تَبَـارَكَ تَعَالَـىٰ: ﴿وَلَا أَنْ تُبَـدَّلَ بِهِـنَّ مِـنْ أَزْوَاجٍ وَلَـوْ أَعْجَبَـكَ حُسْـنُهُنَّ﴾.

قَـالَ: فَدَخَـلَ عُيَيْنَـةُ بْـنُ حِصْـنٍ الْفَـزَارِيُّ عَلَـىٰ النَّبِـيِّ ﷺ، وَعِنْـدَهُ عَائِشَـةُ (رضي الله عنها)، فَدَخَـلَ بِغَيْـرِ إِذْنٍ فَقَـالَ لَهُ رَسُـولُ اللهِ ﷺ: فَأَيْنَ الِاسْـتِئْذَانُ؟ فَقَـالَ: يَـا رَسُـولَ اللهِ، مَـا اسْـتَأْذَنْتُ عَلَـىٰ رَجُـلٍ مِـنْ مُضَـرَ مُنْـذُ أَدْرَكْـتُ ثُـمَّ قَـالَ: مَـنْ هَـذِهِ الْحُمَيْـرَاءُ الَّتِـي جَنْبَـكَ؟ فَقَـالَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ: هَـذِهِ عَائِشَـةُ أُمُّ الْمُؤْمِنِيـنَ قَـالَ: أَفَـلَا أَنْـزِلُ لَـكَ عَـنْ أَحْسَـنِ الْخَلْـقِ؟! قَـالَ: يَـا عُيَيْنَـةُ، إِنَّ اللهَ تَبَـارَكَ تَعَالَـىٰ قَـدْ حَـرَّمَ ذَلِـكَ قَـالَ: فَلَمَّـا أَنْ خَـرَجَ، قَالَـتْ عَائِشَـةُ رَحْمَـةُ اللهِ عَلَيْهَـا: مَـنْ هَـذَا؟ قَـالَ: أَحْمَـقُ مُطَـاعٌ، وَإِنَّـهُ عَلَـىٰ مَـا تَرَيْـنَ، لَسَـيِّدُ قَوْمِـهِ»[106].

وَسَـواءٌ عَلينَـا أصَـحَّ ذَلِـكَ الموقـفُ أمْ لَـمْ يَصِـحَّ، فـإنَّ سِـيرةَ المُصْطَفَـىٰ ﷺ لَـمْ تَخْـلُ مِـنْ حَماقـاتِ المُشـرِكِينَ وَسَـفاهَتِهِم، وَمِـنْ ثَـمَّ رَأَىٰ الإمـام البنَـا، مُهتديًـا بِسنّةِ نَبيّنَـا الكريـم أنَّ (العَمَـلَ) وَحْـدَهُ غيرُ كافٍ، ولهـذَا أضـافَ أَرْكَانًـا أخـرَىٰ يَقتَضِيهَـا مِثْـلُ هَـذَا (العمَـل) كَالجِهَـادِ والتضحيَـةِ وَالثبَـاتِ، والطَّاعـةِ، وَالثقَـةِ وغَيرِهَـا مِـن أركانِ البَيعـةِ العَشْـرة، التـي لَا يَكتَمِـلُ رُكنُهـا الرئيـسُ (العمـلُ) إلا بِهـذِهِ الأركَانِ.

وَمَـنْ يَقـرَأْ تُـراثَ الإمـامِ البَنـا يَجِـدُهُ يُصـارِحُ إخوانَـه بِمَـا يَنتظِـرُهُم مِـن تَضحيَّاتٍ، حَتَّـىٰ يُبايعَ الأخُ عَلَـىٰ العمَـلِ فِي هَـذِه الدَّعـوةِ وَهُـوَ علَـىٰ بَيِّنـةٍ مِـن أمـرِهِ، ففِـي رِسَـالَة (بيـنَ الأمـسِ وَاليَـومِ)، يسـردُ الإمامُ البنَّـا (كأنّه يَتحـدَّثُ عَن

(106) أخرجه البزار في مسنده (15/ 275) والدارقطني في سننه (3/ 218)، وقال البزار: «وَهَـذَا الْحَدِيـثُ لَا نعلمُـهُ يُـرْوَىٰ إلاَّ عَـنْ أبـي هُرَيـرة بهـذا الإسناد، ورواه إسـحاق بـن عَبـد الله، وَإسـحاق لَيِّـنُ الحديـثِ جِـدًّا».. إسناده ضعيف جدًا، لكـن طريـقَ الدعـواتِ لا تخلُـو مـن أحمـقَ مُطَـاعٍ.

هَـذهِ الأيـام التِي نَحيَاهَـا)، مَـا يَنتظِـرُ إخوانَـهُ مـن عقبـاتٍ، وَفِتَـنٍ وَاختِبَـاراتٍ، فيَقُـولُ: «أُحِـبُّ أَنْ أُصارِحَكُـمْ أَن دَعوتَكُـمْ لَا زَالَـتْ مَجهولـةً عِنـدَ كَثيـرٍ مِـنَ النّـاسِ، وَيَـومَ يَعرفُونَهـا ويُدرِكُـونَ مَرامِيَهَـا سَـتَلقَىٰ مِنهُـم خصومَـةً شَـديدةً وَعـداوةً قاسـيةً، وَسـتجِدُونَ أَمامَكُـم كَثِيـرًا مِـنَ المَشـقَّاتِ، وسَـيعتَرِضُكُمْ كَثِيـرٌ مِـنَ العقبـاتِ، وفِي هـذَا الوقـت وحـدَه تكونـونَ قَـد بَدأتُـم تَسْـلُكُونَ سـبيلَ أصحَـابِ الدعـوَاتِ. أمَّـا الآنَ فَـلا زِلتُـم مَجهولِيـنَ تُمهِّـدُونَ لِلدعْـوةِ وَتَسـتعدُّونَ لِمَـا تَتطَلَّبُـه مِـن كفـاحٍ وَجِهـادٍ. سَـيقِفُ جَهْـلُ الشَّـعبِ بِحقيقَـةِ الإسـلامِ عَقبـةً فِـي طَريقِكُـمْ، وَسَـتجِدُونَ مِـن أَهْـلِ التَّديُّـنِ وَمِـنَ العُلمـاءِ الرَّسْـمِيِّينَ مَـنْ يَستغْرِبُ فَهمَكُـم لِلإسـلَامِ، وَيُنكِـرُ عَليكـم جِهادَكُـم فِي سَـبيلِهِ، وَسَـيحقِدُ عَليكُـم الرؤَسَـاءُ والزعَمـاءُ، وَذَوُو الجـاهِ وَالسُّـلْطانِ، وَسـتَقِفُ فِـي وَجْهِكُـم كُلُّ الحكومـاتِ عَلَـىٰ السـوَاءِ، وَسَـتحاوِلُ كُلُّ حُكومـةٍ أَنْ تَحُـدَّ مِـن نشَـاطِكُم، وَأَنْ تَضـعَ العَراقِيـلَ فِـي طَرِيقِكُـمْ.

وَسَـيتذَرّعُ الغاصبـونَ بِـكلِّ طَرِيـقٍ لِمُناهضَتِكُـم وَإطفَـاءِ نُـورِ دَعوتِكُـم، وَسَيسْـتَعينُونَ فِـي ذَلِـكَ بِالحكُومَـاتِ الضَّعيفَـةِ، والأَيـدِي المُمتَـدَّةِ إِلَيهِـم بِالسُّـؤالِ وَإِلَيكُـمْ بِالإسَـاءَةِ وَالعُـدوانِ. وَسَـيُثِيرُ الجَميـعُ حَـولَ دَعوتِكُـمْ غُبـارَ الشُّـبهَاتِ وَظُلْـمَ الاتِّهَامَـاتِ، وَسَـيُحاوِلُونَ أَنْ يَصطَـدُوا بِهَـا كُلَّ نَـقِيصَةٍ، وَأَنْ يُظهِرُوهَـا للنـاسِ فِي أَبشَـعِ صُـورَةٍ، مُعتمِدِيـنَ عَلَـىٰ قُوتِهِـم وسُـلطانِهِم، ومُعتَدِّيـنَ بِأموالِهِـم ونُـفُوذِهِم: ﴿يُرِيـدُونَ أَن يُطْفِئُـوا نُـورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِـمْ وَيَأْبَىٰ اللهُ إِلَّا أَن يُتِـمَّ نُـورَهُ وَلَـوْ كَـرِهَ الْكَافِـرُونَ﴾ [التوبـة: 32].

وَسَـتدخُلُونَ بِذلِـكَ - وَلا شَـكَّ - فِـي دَوْرِ التجرِبَـةِ وَالامتحَانِ، فَتُسْـجَنُونَ وتُعتَقلُـونَ، وتُنقَلُـونَ وتُشـرَّدُونَ، وتُصـادَرُ مَصالحُكُـم، وتُعطَّـلُ أعمَالُكُـم، وتُـفتَّشُ بُيوتُكُـمْ، وقَـد يَطُـولُ بِكُـم مَـدَىٰ هـذَا الامتحـانِ: ﴿**أَحَسِـبَ النَّـاسُ أَنْ يُتْرَكُـوا أَنْ يَقُولُـوا آمَنَّـا وَهُـمْ لا يُفْتَنُـونَ**﴾ [العنكبـوت:2]. ولكـنَّ الله وعدَكُـم

مِـنْ بَعـدِ ذَلِـكَ كُلِّـه نُصْـرةَ المُجاهديـنَ، وَمَثُوبـةَ العَامليـنَ المُحسـنِينَ ﴿يَـا أَيُّهَـا الَّذِيـنَ آمَنُـوا هَـلْ أَدُلُّكُـمْ عَلَـىٰ تِجَـارَةٍ تُنْجِيكُـمْ مِـنْ عَـذَابٍ أَلِيـمٍ ... فَأَيَّدْنَـا الَّذِيـنَ آمَنُـوا عَلَـىٰ عَدُوِّهِـمْ فَأَصْبَحُـوا ظَاهِرِيـنَ﴾ (الصـف:10-14).

فَهَلْ أَنتُمْ مُصرُّونَ عَلَىٰ أَنْ تَكُونُوا أنصَارَ اللهِ؟»[107].

كانَ الإمـامُ البنّـا رَحِمَهُ اللَّهُ علـىٰ بَينَـةٍ مِن أَمْـرِه، يُـدْرِكُ وُعـورَةَ طَريـقِ الدعْـوَةِ، وأَنّ هـذهِ السـبيلَ مَحفوفَـة بالمخاطـرِ والتضْحيّـاتِ؛ لأنّهـا طَريـقُ الجَنـةِ، وَمِـن ثَـمّ حَـرِصَ عَلَـىٰ تَبصِيـرِ إِخْوَانِـهِ، وتَذكيرِهِـم بـأنَّ تَضحيّتَهـم لَـن تَذهَبَ سُـدًىٰ، وقَـدْ أُثِـرَ عَنـهُ أنـهُ قَـالَ: **لَـنْ نَبْـذُلَ بِغَيْـرِ حَاجَـةٍ، وَلَـنْ نُضَحِّـيَ بِغَيْـرِ رِبْـحٍ، وَلَـنْ نَخْطُـوَ بِغَيْـرِ هَـدَفٍ، وَلَـنْ نَجْـرَحَ دُونَ إِصْـلَاحٍ، رَائِدُنَـا المَصْلَحَـةُ وَكَفَـىٰ»**

كَمـا كَتـبَ الإمـامُ البَنَّـا رَحِمَهُ اللَّهُ مَقـالًا بعُنـوانِ «**مَـن كانَ مُسـتعِدًّا مَعنَـا فِـي هَـذِهِ الطريـقِ فَليتَجَهَّـزْ**»، وَنُشِـرَ هَـذَا المقـالُ فِـي جَريـدَةِ «الإِخْـوان المُسـلمُون»، كَمَـا أَكَّـدَ ذلـك الحَـاجُّ عبـاسُ السِّيسـيّ رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابـه (فِـي قافلَـةِ الإخـوَان المسـلمينَ) هـذا المَعنَـىٰ فقـالَ: «لَسْـنَا هَاذِئِـينَ مَـن كَانَ مَعنَـا فَليتَجَهَّـزَ». نَعم، مَـن كان معنـا فليتجهَّـزْ لأَمريـنِ مُهمَّينِ: (**مُتطلبَـات الدَّعَواتِ، وَحُمق الغَيْـرِ**).

يَبقَـىٰ أَنْ نُؤكِّـدَ أَنَّ التَّضحيَـةَ التِـي أَرَادَهَـا الإمَـامُ البنَّـا رَحِمَهُ اللَّهُ، كَانَـتْ تَضحِيَـةً مُنضَبِطَـةً؛ ذَلِـكَ أَنّـهُ عِندَمَـا تَحـدَّثَ عَـنِ التضحيـةِ نَـأىٰ بِهَـا أَنْ تَكـونَ تَحدِّيًـا لَـم يَـأتِ وَقتُـه بَعـدُ، وتحـدَّثَ عـن تضحيـةٍ عَزيـزةٍ غَاليَـةٍ لَا يَـقِفُ دُونَهـا بُخْـلٌ وَلَا طَمـعٌ. إِنَّهـا شَـيْءٌ مُختلِـفٌ تَمامًـا عَـنِ المُقامـرَةِ بِالجُهُـودِ أوِ المُغامـرَةِ بِالشِّـعَارِ.

قـالَ مُعلِّقًـا عَلَـىٰ تصـرُّفِ الشَـبابِ الغَاضِـبِ عِندَمَـا ثَـارُوا فِـي شَـوارِعِ مِصْـرَ وكَسَّـرُوا الحَوانِيـتَ، قَـالَ: «إِنَّـه تَحَـدٍّ لَـمْ يَـأتِ وَقتُـه بَعـدُ، فَقـدْ كَانَ

(107) حسن البنا: مجموعة *رسائل الإمام البنا*، [رسالة بين الأمس واليوم]، ص 515، وما بعدها.

يَنبغِـي اختِيَـارُ الظَّـرفِ المُناسـبِ، وَاسـتِخدَامُ مُنتهَـىٰ الحِكْمَـةِ فيـهِ، وإنفَـاذُهُ عَلَـىٰ نحـوٍ أخَـفَّ ضَـررًا وأبلَـغَ فِـي الدِّلالَـةِ عَلَـىٰ المَقْصـدِ»، فوضَـعَ بِذَلِـكَ ضَوابـطَ لِلتضْحِيَـةِ تَنـأَىٰ بِهَـا أَنْ تَكـونَ نَوعًـا مِـنَ المُقامـرَةِ بِالجُهـودِ أو المُغامـرَةِ بِالشِّـعَارِ، أو تَبدِيـدًا للجُهـودِ، وَلِذلِـكَ كَانَ دَائِمًـا مَـا يقُـولُ: «إِنَّ تَجـارِبَ المَاضِـي وَالحاضـرِ تُؤكِّـدُ أَنّـه لَا خيـرَ إِلَّا فِـي خُطَّتِكُـم فَاعمَلُـوا وَاللهُ مَعكُـم، وَلَـن يَترَكَـمُ أَعمَالَكُـم، ومَـا كَانَ اللهُ لِيُضِيـعَ إِيمَانكُـم إِنَّ اللهَ بِالنـاسِ لـرؤُوفٌ رَحيـمٌ»[108].

(108) حسن البنا: *مجموعة رسائل الإمام البنا*، [رسالة المؤتمر الخامس]. ص 339.

رُكْنُ الـطَّاعَـةِ

اعْلَـمْ أَخِـي الكَريـمِ أَنَّ الإِمَـامَ البنَّـا رَحِمَهُ اللَّهُ، أَرَادَ بِرُكْـنِ (الطَّاعَـةِ) أَنْ يَحمِـيَ إخوانَـه مِمَّـا تُحدِّثُهُـم بِـهِ أنفسُـهُم، أَوْ مَا يَظُنُّـونَ أَنَّهُم قَـادِرُونَ عَلَىٰ فِعْلِهِ دُونَمَا حَـرَجٍ؛ مَـا دَامَـتِ الطاعَـةُ فِي غَيـرِ مَعصيَـةٍ، فَـلَا طَاعـةَ لِمخْلُـوقٍ فِي معصيـةِ الخَالِـقِ؛ لأن الرّجُـلَ – الإمـام البنـا–أَدْرَكَ أَنَّـه رُغـمَ اختِيَـارِهِ لِلعمَـلِ السِّـلمِيِّ الهـادِئِ المُعتَـدِلِ فإنَّ القُـوَىٰ المُهيمِنَـةَ والنافـذَةَ سـوفَ تُلجِئُـه إِلَـىٰ الَمُواجهَةِ؛ لأَنَّـهُ خَـارِجٌ عَلَـىٰ سِياسَـتِهَا، مُهَـدِّدٌ لمَصَالِحِهَـا، مِمَّـا يوقِعُـه فِـي مَـأزِقٍ قَـد يُضْطَـرُّ فَصِيلُـه المُجاهِـدُ مَعَـه إِلَـىٰ العُنفِ أَوْ إِلَـىٰ تَفضيـلِ استِخْدَامِهِ؛ ولذلِـكَ أَخـذَ مِنْهُـم بَيعَـةً عَلَـىٰ الطاعـةِ بِمَـا تَعنِيـهِ مِـنْ تَنفِيـذِ المَطْلُـوبِ لَا مَـا تَقـدِرُ عَلَيـهِ، (وأنْ تُنفِّـذَ مَـا يُطلَـبُ مِنْـكَ لَا مَـا تَقـدِرُ عَليـهِ)، وهُنـاكَ فـارِقٌ كَبيـرٌ؛ لأَنَّـه كانَ يُرِيـدُ أَنْ يَتلافَـىٰ الأخطَـارَ وَيتفَـادَىٰ الصراعَـاتِ؛ فَـلا يَقـعُ فِي جهـادٍ عَبثِيٍّ زَائِـدٍ عَـنِ الحَاجَـةِ، أَوْ فِـي تَضحِيَـةٍ هِـيَ تَحَـدٍّ لَـم يَـأتِ وَقتُـه بَعـدُ.

عندَمَا أرسَـلَ رَسـولُ اللهِ ﷺ الصحَابِيَّ الجَليـلَ حُذيفَـةَ بـنَ اليمَـانِ (رَضِيَ اللهُ عَنْـهُ) لِيَأتِيَـه بخَـبرِ المُشـرِكِينَ فِي غَـزوَةِ الأحـزَابِ، هَـمَّ حذيفـةُ أن يقتـل أبـا سـفيان، لكنـه تذكـرَ وَصَيَّـةَ رسـولِ اللهِ ﷺ «اذْهَـبْ فَأْتِنِـي بِخَبَـرِ الْقَـوْمِ، وَلَا تَذْعَرْهُـمْ عَلَـيَّ»، فَلَـمْ يَفعَـلْ طَاعَـةً لأَمـرِ رَسُـولِ اللهِ ﷺ(أي لـم يفعـل القتـل).

فَفِـي صَحيـحِ مُسـلِمٍ عَـن حُذيفَـةَ بـنِ اليمَـانِ أَنّـهُ قَـالَ: «...لَقَـدْ رَأَيْتُنَـا مَـعَ رَسُـولِ اللهِ ﷺ لَيْلَـةَ الْأَحْـزَابِ وَأَخَذَتْنَـا رِيـحٌ شَـدِيدَةٌ وَقُـرٌّ، فَقَـالَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ: أَلَا رَجُـلٌ يَأْتِينِـي بِخَبَـرِ الْقَـوْمِ، جَعَلَـهُ اللهُ مَعِـي يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ. فَسَـكَتْنَا، فَلَـمْ يُجِبْـهُ مِنَّـا أَحَـدٌ. ثُـمَّ قَـالَ: أَلَا رَجُـلٌ يَأْتِينَـا بِخَبَـرِ الْقَـوْمِ، جَعَلَـهُ اللهُ مَعِـي

يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ. فَسَـكَتْنَا، فَلَـمْ يُجِبْـهُ مِنَّـا أَحَـدٌ. ثُـمَّ قَـالَ: أَلَا رَجُـلٌ يَأْتِينَـا بِخَبَـرِ الْقَـوْمِ، جَعَلَـهُ اللهُ مَعِي يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ. فَسَـكَتْنَا، فَلَـمْ يُجِبْـهُ مِنَّـا أَحَـدٌ. فَقَـالَ: قُـمْ يَـا حُذَيْفَـةُ، فَأْتِنَا بِخَبَـرِ الْقَـوْمِ. فَلَـمْ أَجِـدْ بُـدًّا إِذْ دَعَانِـي بِاسْـمِي أَنْ أَقُـومَ، قَـالَ: اذْهَـبْ فَأْتِنِي بِخَبَـرِ الْقَـوْمِ، وَلَا تَذْعَرْهُـمْ عَلَـيَّ. فَلَمَّـا وَلَّيْـتُ مِـنْ عِنْـدِهِ جَعَلْـتُ كَأَنَّمَـا أَمْشِـي فِـي حَمَّـامٍ حَتَّـىٰ أَتَيْتُهُـمْ، فَرَأَيْـتُ أَبَـا سُـفْيَانَ يَصْلِـي ظَهْـرَهُ بِالنَّـارِ، فَوَضَعْـتُ سَـهْمًا فِـي كَبِـدِ الْقَـوْسِ، فَـأَرَدْتُ أَنْ أَرْمِيَـهُ، فَذَكَـرْتُ قَـوْلَ رَسُـولِ اللهِ ﷺ: وَلَا تَذْعَرْهُـمْ عَلَـيَّ. وَلَـوْ رَمَيْتُـهُ لَأَصَبْتُـهُ، فَرَجَعْـتُ وَأَنَـا أَمْشِـي فِـي مِثْـلِ الْحَمَّـامِ، فَلَمَّـا أَتَيْتُـهُ فَأَخْبَرْتُـهُ بِخَبَـرِ الْقَـوْمِ وَفَرَغْـتُ قُرِرْتُ، فَأَلْبَسَـنِي رَسُـولُ اللهِ ﷺ مِـنْ فَضْـلِ عَبَـاءَةٍ كَانَـتْ عَلَيْـهِ يُصَلِّـي فِيهَـا، فَلَـمْ أَزَلْ نَائِمًـا حَتَّـىٰ أَصْبَحْـتُ، فَلَمَّـا أَنْ أَصْبَحْـتُ قَـالَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ: قُـمْ يَـا نَوْمَـانُ»[109].

وقـد شَـهِدْتُ بنفسِـي حَادِثَـةً فِـي وَاقِعِنَـا المُعاصِـرِ، تَـدلُّ عَلَـىٰ اهتمَـام الإمَـام البنَّـا برُكـنِ (الطَّاعـةِ)، وَكَيـفَ رَبَّـىٰ عَلَيـهِ أتباعَـهُ ومُرِيدِيـهِ؛ إِذْ كَانَ مَعنَـا فِـي مَجمُوعَتِنَـا فِـي تَنظيـم (1965م) الحَـارِسُ الشَّـخْصِيُّ للرئيـسِ جَمـالِ عَبـد النَّاصـرِ الّـذِي كَانَ يَبيـتُ مَعـهُ فِي غُرفَـةٍ وَاحـدَةٍ، شَـابٌّ فِي العِشْـرِينِيَّاتِ مِـنْ عُمُـرِهِ هـو الأخ إسـمَاعِيلُ الفيُّومِـيُّ - رحمَـهُ اللهُ وأسْـكنَه فسـيحَ جنَّاتِـهِ -، وَكانَ يَحضُـر مَعنـا اللقَـاءَاتِ وَلَـم يكـنْ هنالـكَ تَعـارفٌ فِي اللقـاءاتِ فِي ذَلِـكَ الوَقْـتِ، وإنَّمَـا كنَّـا نَتعامَـلُ بِأسـمَاء مختلفـة.

وكانَ الأخ إِسْـمَاعيلُ الفيوميُّ مِـن أَمهَـرِ الرمَـاةِ، وفِي الوقـتِ الّـذِي اعتُقِلَ فِيـهِ الإخـوانُ جَميعًـا عـامَ (1965م)، واسـتمَرَّتْ الاعتقَـالاتُ أُسـبوعَينِ أَو ثَلاثَـة، اعتُقِـلَ فِيهَـا كلُّ الإخـوةِ، حتّـىٰ قِيـادَات التَّنظِيـمِ، وكانَ الشـيخُ عَبـدُ

(109) انظر صحيح مسلم: حديث رقم (1788)، وقَالَ النَّوويُّ: (وَلاَ تَـذْعَرْهُمْ عَلَـيَّ): لاَ تُـفزِّعْهُم وَلاَ تُحرِّكْهُم عَلَيَّ، وَقِيلَ مَعناه: لَا تُنفرِّهُم وَهُو قَريبٌ مِنَ المعنَىٰ الأول، والمَعْنَىٰ: لَا تُحرِّكْهُم عَليكَ، فَإِنَّهم إِنْ أَحـذُوكَ كَانَ ذَلِـكَ ضَـرَرًا عَلَـيَّ لأَنَّـكَ رَسُـولِي وَصَاحِبِي .. وَيُـفْهَمُ مِـنْ كَلامِ الإمَـامِ النَّـوَوِيِّ أَنَّ وَصِيَّـةَ رَسُـولِ اللهِ ﷺ لِحُذيفَـةَ كَانَـتْ حِرصًـا عَلَـىٰ حُذيفَـةَ فِـي المَقَـامِ الأَوَّلِ.

الفتَّاحِ إسمَاعِيل هُوَ المَسْؤُولَ عَن هَذَا الأخِ الفاضلِ (إسمَاعِيلَ الفيّومِيّ).

وأعلَنَ جَمالُ عَبدِ الناصرِ مِنْ مُوسْكُو فِي نِهايَةِ أَغسطُسَ أَنّه اكتشَفَ تَنظيمًا لِلإخوَانِ، وأنّه سَيفعَلُ بِهِ كَذَا وكذَا، وكانَ (إسماعيلُ الفيّومِيّ) فِي استِقْبالِهِ عِندَ عَودتِه مِنْ مُوسْكُو، ويُؤَدِّي لَه التحيةَ عِندَ نُزُولِه مِنْ سُلمِّ الطَّائرَةِ، ويَصحبُه حَتَّىٰ مَكتَبِه وَغُرفَةِ نَومِهِ وَهُوَ بِسِلَاحِهِ، وَلَا يَدفعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَفعَلَ مَا لَمْ يُطلَبْ مِنْهُ، وَإِنْ كانَ قادرًا عَلَيهِ.

فكَانَ كَمَا عَلَّمَه الإخوَانُ أنَّ: «الطاعَةَ امتِثَالُ الأمْرِ، وإنفَاذُهُ تَوًّا مِنْ غَيرِ تردُّدٍ وَلَا شَكٍّ وَلا مُراجَعَةٍ، وَلا جَدَلٍ، ولا انتِقَاصٍ، ولَا تَحويرٍ»، فَامتثَلَ الرجُلُ.

وبعدَ أن اعترفَ عَلَيهِ مَنِ اعترَفَ مِن شِدَّةِ التعْذيبِ، جَاءُوا بِهِ إِلَىٰ السجْنِ الحَربيِّ وَهُم مُندَهِشونَ، وعَذَّبُوهُ عَذابًا شديدًا وطَلبُوا إليهِ أَنْ يَتكَلَّمَ عَن الذينَ معَه مِنْ أفرَادِ الحرَاسَاتِ فَلم يَنطِقْ بكلمَةٍ وَاحدَةٍ، يقُولُ عنهُ مَن كَانَ مَعه فِي حلقَاتِ التعْذيبِ أنَّه لَمْ يُجِبْ عَن سُؤالٍ وَاحدٍ مِن أَسئِلَتِهِم، حَتَّىٰ السؤَال عَنِ اسمِهِ أَوْ سِنِّهِ لَمْ يُجِبْ عَليهِ، وَاستَمرُّوا فِي تَعذِيبِه حَتَّىٰ لَقِيَ رَبّه شَهيدًا بَعدَ يَومٍ واحدٍ مِنَ التَّعذِيبِ.

مَضَىٰ إِلَىٰ ربِّه يَحمِلُ أَسرَارَهُ فِي صَدْرِهِ.

وبعدَ وَفاتِه غيَّرَ النظَامُ كُلَّ قُوّةِ الحرَسِ الجُمهورِيِّ وَعَدَدُهم خَمسَةُ آلافٍ لخَوفِهم أَنْ يَكونَ مِنْ بَينِهم مَنْ يَنتَمِي إِلَىٰ هَذِهِ الفِكْرَةِ.

وهَذِه صَورَةٌ مِنْ صُوَرِ الطَّاعةِ الّتِي رَبّىٰ عَلَيهَا الإمامُ البنَّا أتبَاعَهُ، ولَو فَعلَ كُلُّ وَاحدٍ ما خَطَرَ بِبَالِهِ، أو حَدَّثَتْهُ بِهِ نفسُه، أَوْ مَا يَقدِرُ عَلَيهِ لانتَهَىٰ الأمرُ إِلَىٰ الفَوضَىٰ والانحِرَافِ.

وَفِي مُنتصَفِ السَّبعينيّاتِ عِندَمَا كَتبَ الأستاذُ صَلاحُ شَادِي رَحِمَهُ اللَّهُ كِتابًا حملَ فِيهِ عَلَىٰ النظامِ الخَاصِّ، وأَدانَ فِيهِ كثيرًا مِنَ الأشيَاءِ الّتِي صَدرَتْ مِنهُم، فَذهَبَ بَعضُ رِجَالِ النظَامِ الخَاصِّ القُدامَىٰ إِلَىٰ الأستَاذِ أَحْمَد حَسَنين رَحِمَهُ اللَّهُ أَحَدِ قَادةِ النظَامِ الخَاصِّ فِي حِينِه، وَكَانَ فِي ذَلِكَ الوقْتِ مَسؤُولًا عَنْ دَارِ النَّشرِ وَالتوزِيعِ الإسلاميةِ، وطَلَبُوا مِنهُ نَشرَ كِتَابٍ يَرُدُّونَ فِيهِ عَلَىٰ كِتَابِ اللواءِ صَلاحِ شَادِي.

قَالَ لَهُم: هُوَ يكتبُ وَأَنْتَم تَردُّونَ، ثم هُوَ يَردُّ ثُمَّ أَنتُم تَردُّونَ ونُثِيرُ مَا نُرِيدُ أَنْ نَنساه ولا نَشْغل به النَّاس، ولَا تَخلُو تَجرِبَةٌ بشَرِيّةٌ مِن أخطَاءٍ، وَلَا نُرِيدُ أَنْ تكونَ بِدايةُ عَملِنَا (في منتصَفِ السبْعِينِيَّاتِ مِنَ القَرنِ العِشرينَ المِيلادِيِّ) الحديثَ عَنِ الأخْطَاءِ، مِمَّا نفقِدُ معَه جُزءًا مِن أُمتِنَا، فسَأَلُوه عَن رَأيِهِ. فَقَالَ لَهُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسمَعُوا رَأْيِي أَمْ تُنفِّذُوهُ؟ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نُنفِّذَهُ. (إِنّهم رِجَالُ النظَامِ الخَاصِّ والرجُلُ كَانَ مَسؤُولًا عَنهُم، ورُغْمَ أَنَّ هَذَا الأمرَ كَانَ فِي الأربَعِينِيّاتِ إِلَّا أَنَّ هَذِهِ الرُّوحَ مَا زَالَتْ تَسْرِي فِي نفُوسِهِمْ).

فَقَالَ لَهُم: «تَحْرِقُون هذا الوَرقَ».

فأخذُوا الكِبريتَ مِن أَمَامِهِ وأَحرقُوهُ أَمامَ عَينَيهِ!

إِنَّ أعظَمُ مَا انتصَرَ بِهِ المُسلِمُونَ قَديمًا الحُبُّ والوَحْدَةُ، وأَعظَمُ مَا ابتُلُوا بِهِ الفُرقَةُ وَالخِلافُ.

لَقَدْ رَبَّىٰ الإِمامُ البنَّا أَتبَاعَهُ علَىٰ منهجٍ يُوصَفُ بِأَنَّهُ: «صُوفِيٌّ بَحْتٌ مِنَ النَّاحِيَةِ الرُّوحيَّةِ، وَعَسكَرِيٌّ بَحتٌ مِنَ الناحيَةِ العَمليةِ، وَشِعَارُ هَاتينِ الناحِيتَينِ (أَمْرٌ وطَاعةٌ) مِنْ غَيرِ تَردُّدٍ وَلَا مُراجعَةٍ وَلا شَكٍّ وَلَا حرَجٍ»[110].

(110) حسن البنا: *مجموعة رسائل الإمام البنا، رسالة التعاليم*، ص 275.

شُبهَاتٌ حَوْلَ الطَّاعَـةِ فِي دَعْـوَتِـنَا

وَرُبَّمَـا ظَـنَّ بعـضُ النَّـاسِ مِمَّـنْ عَمِيَـتْ عَليهِم دَعـوةُ (الإخوَان المُسلِمِين) وَلَـمْ يَـفهَمُوا حَقِيقتَهَـا، أَنَّ رُكـنَ (الطَّاعَـة) فِيهَـا يَجعـلَ أبناءَهَـا أَشـبَهَ بِقطيـعٍ يُطيـعُ دُونَ بينـةٍ أَو بَصيـرَةٍ، فَهِـيَ طاعـةٌ عَميَـاءُ. وَبِـئْسَ مَـا ظَنُّـوا وَمَـا زَعَمُـوا؛ لأنّهـم لَـمْ يُدرِكُـوا أَنَّ هَـذِهِ الدَّعـوةَ تُصْلِـحُ مَـا فَسـدَ، وَتُـقِيمُ المُعـوَجَّ وتُقـاوِمُ الظُّلْـمَ، وَأَنّهـا مِـن ثَـمّ تُـقِضُّ مَضَاجِـعَ الظلَمَـةِ والمُفسـدِينَ، وأنّ آفـةَ مُقاومـةِ الظُّلـمِ العِنَـادُ، فالظَّلَمَـةُ والمُستبدُّونَ مَعانِـدُونَ، لَا يَتصالَحُـونَ وَلا يتقارَبُـونَ، وَمَعنَىٰ هـذَا أنَّ أبنَـاءَ هَـذِهِ الدّعْـوةِ، وَكُل مَنْ سَـلكَ سَبِيلَهُم، وَاقعـونَ لَا مَحالَةَ فِي مَـأزِقٍ، وَهُـمْ يُقاومُـونَ الظُّلـمَ والفَسَـادَ، وأَنَّ طَرِيقَهـم سَـينْتهِي بِـهِم - وَلَا بُـدّ - إِلَىٰ الارتِطـام وَالصرَاعِ، وَقَـدْ يَدخلُـونَ بذَلِـكَ فِي نَـفَقٍ مَسـدُودٍ، وذَلكَ مَـا كانَ يُدركُـه الإمَـامُ البنَّـا رَحِمَهُ اللَّهُ، مِـنَ استقْرِائِـه تَاريـخَ الرسُـل وَالأنبيَـاءِ، وَسِيرَةَ الدعَـاةِ والمُصلحِينَ. أَلَـمْ يقلْ ورَقَـةُ بـنُ نَوفَـلٍ لِـرَسولِ اللهِ ﷺ حيـنَ أَخبَـرهُ خَبَـرَ مَـا رَأىٰ: «هَـذَا النَّامـوسُ الـذي نَـزَّلَ اللهُ عَلـىٰ مُوسَـىٰ، يـا لَيتَنـي فيهـا جَذَعًـا، لَيتَنـي أكـونُ حَيًّـا إذ يُخرِجُـك قَومُـكَ، فقـال رَسـولُ اللهِ ﷺ: أَوَ مُخرِجـيَّ هُـمْ؟! قـالَ: نَعَـم، لَـم يَـأتِ رَجُـلٌ قَطُّ بِمِثلِ مـا جِئتَ بـهِ إلَّا عُـودِيَ، وإن يُدرِكْنـي يَومُـك أنصُـرْكَ نَصـرًا مُـؤَزَّرًا»[111].

وَقَـد يَظـنُّ آخـرونَ أنَّ (الطَّاعـةِ) فِـي دَعـوةِ الإخـوَانِ تُنافِي الحُريَّـةَ أَوْ تُـقيِّدُ الوُسْـعَ، وتُحجِّـمُ مَـنْ كانَ عَالِـيَ الهِمَّـةِ يَستطِيعُ أَنْ يَفعَـلَ أشـياءً كثيـرةً، وإن كانَـتْ غيـرَ مَطلُوبَـةٍ، أَوْ لَـمْ يَحِـنْ وَقتُهـا، وَلَيسَ الأمـرُ كَمَـا ظَنُّـوا أو تَصـوَّرُوا؛ فَالطاعَـةُ فِـي دَعـوةِ الإخـوَانِ تَنظِيـمٌ لِلوُسْـعِ وَلَيسَـتْ تَـقْيِيدًا لَـه، وممّـا ينسـبُ للإمـام البنَّـا قَولُـه: إنَّ الحُريـةَ السَّـليمَةَ لَا تُجَافِي القيُـودَ السَّـلِيمَةَ بَـل تَزِيدُهَـا قُـوّةً وَاعتِبَـارًا، بِاحتِـرَامِ النّظَـامِ، واحتِـرَامِ السُّـلطَانِ، وهُـوَ القِيـادَةُ التِـي يَرفَـعُ

(111) أخرجه البخاري (3)، ومسلم (160). (جذعًا: شاب قويٌّ فتيٌّ).

حُكْمُهَا الخِلافَ، أمَّا الحريةُ الرخِيصَةُ فهيَ مُخالفَةُ القِيادَةُ.

وَمِنْ مَقاصِدِ الإمَامِ البنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ مِنْ رُكْنِ (الطَّاعَةِ)، أَنْ يَنسَجِمَ الصَّفُّ مَعَهُ فِي الحَرَكَةِ وَالتنْفِيذِ، فَلا تَجِدُ مَن يَشِذُّ أَوْ يَتقَدَّمُ لِشدَّةِ حَمَاسِهِ فَيُعجِّلُ الصِّدامَ والارتِطامَ قَبلَ اكتِمَالِ البنَاءِ، وَإلَّا فَحدِّثُونِي بِرَبِّكُمْ: أَمَا كانَ أَخُونَا الشَّهيدُ إسمَاعِيلُ الفيومِيُّ الذِي حَدثْتُكُمْ عَنهُ مِن قَبلُ قَادِرًا علَىٰ قَتْلِ جَمالِ عَبدِ الناصرِ، وَهُوَ حَارِسُه الشَّخْصِيُّ، وَمُلازِمُه فِي غَدوَاتِه وَرَوحَاتِه، وفِي عَمَلِهِ وَراحَتِه، حَتَّىٰ فِي حُجرَةِ نَومِهِ، وَلَا سِيّمَا أَنَّ إِخْوَانَه قَدِ اعتُقِلُوا جَمِيعًا وَلَم يَبقَ إِلَّا هُوَ؟!

نَعَمْ، لقَدْ كَان قادرًا وَلكنَّه لَمْ يَفعَلْ، لِماذَا؟ لأنّه يَعلَمُ أنّهُ بِفعلِه يُؤذِي الجَميعَ، ولَمْ يَكُنْ هَذَا مِنْ نَهجِ الإخوَانِ وَلَا مِنْ خُطَّتِهم، مِمَّا قَد يؤثِّرُ فِيهِم تَأثِيرًا جَوْهرِيًّا، كَمَا أنّهُ لَمْ يَأْخُذْ إِذْنًا بذَلِكَ الفِعْل، وإنَّمَا ظَلَّ منضبطًا بمَنهَجِ الصَّفِّ متلائمًا مَعَهُ، يَفعَلُ مَا يُطلَبُ مِنهُ لَا مَا يَقدِرُ عَلَيهِ؛ حتَّىٰ اعتُقِلَ وَلَقِيَ رَبّهُ شَهِيدًا أثنَاءَ التحقيقَاتِ.

وَاعتمَدَ الإخوانُ عَلَىٰ هَذَا النمُوذجَ المشرِّفِ؛ فِي أَنَّهُم لَمْ يُسَوِّغُوا لأَنفُسِهِمْ سَفْكَ الدمَاءِ، وَلَو كَانَ هَذَا مَقصِدُهُم أَوْ غايتُهم؛ لَكانَ اغتِيالُ عَبدِ النَّاصرِ أسْهَلِ شَيْءٍ فِي مُتناوَلِ أيديهِم، ومِنْ أَوَّلِ يَومٍ اعتُقِلَ فيهِ الإخوَانُ.

وَلذلِكَ جعلَ الإمامُ البنا رَحِمَهُ اللَّهُ الطَّاعَةَ رُكنًا مِن أركانِ البيعَةِ، فلمَاذَا؟

حَتَّىٰ لَا يكونَ الأخُ العَامِلُ صَاحبَ حَمَاسٍ، أَوْ هَائِجًا يُعطِّلُ كل خطوَةٍ أَو وَسيلةٍ تَتقدّمُ بِها الدعوة، ويرفضُ كل خُطواتِ التقاربِ وَالتصالحِ والتوسُّطِ.

وفي سيرة رَسُولِ اللهِ ﷺ أنهُ قَاتلَ وَفَاوضَ، وَصَالَحَ وَهَادَنَ، ولَم تكنْ حياتُه كُلُّها قِتالًا، وَمِنْ ثَمَّ فالذينَ يَبغونَها قِتالًا أبديًّا لَا يَعرِفُ صُلحًا أو مُهادنةً، إنَّما يُحركُهُم الحَمَاسُ الهَائجُ، مِمَّا يَجعلُهم في صدَامٍ دائمٍ يَحولُ دُونَ تقدمِ دَعوتِهم، وَهُنَا تكونُ الطاعةُ ضابطَةً لِحركَةِ الأَخِ وَرُؤيتِهِ، وتَصوّراتِه وَتصرُّفَاتِه، فليسَ كُلّ مَا يَرَاهُ أو يَتصوَّرُه يُسمَحُ لَه بفعْلِهِ أو يُمْكِنُ فِعلُه، فَلربَّما ضَرَّ تَصورُهُ أَكثَرَ مِمَّا نَفَعَ، وهُنَا تُلْزِمُه الطاعةُ، فَتُلجِمُ نَزَواتِ حَماسِهِ الهَائِجِ، وعَلَىٰ كلِّ أَخٍ أنْ يتدبَّرَ مَليًّا كَلمَاتِ الإمامِ البنَّا رَحِمَهُ اللهُ وَيُنصِتَ إِلَىٰ حِكْمَتِهِ وبصيرتِه؛ إِذْ يَقُولُ: «أَيّها الإخوانُ المُسلِمونَ: أَلجِمُوا نَزَواتِ العَواطفِ بِنظَرَاتِ العقُولِ، وأَنِيرُوا أشعَّةَ العُقولِ بلهَبِ العوَاطفِ، وألزِمُوا الخيَالَ صِدْقَ الحَقِيقَةِ وَالواقِعِ، وَاكتشِفُوا الحقائقَ فِي أضوَاءِ الخيَالِ الزَّاهيَةِ البرَّاقَةِ، وَلا تَميلُوا كُلَّ المَيلِ فَتذرُوهَا كَالمُعلَّقَةِ، وَلا تُصادِمُوا نَواميسَ الكونِ فَإِنّها غَلّابَةٌ، ولكنْ غَالِبُوهَا واستَخدمُوهَا، وَحَوِّلُوا تَيارَهَا وَاستَعينُوا بِبعْضِهَا عَلَىٰ بَعضٍ، وتَرقَّبوا سَاعةَ النصْرِ وَمَا هِيَ مِنكُم ببعيدٍ»[112].

فللإخوانِ خُطةٌ وَمِنهاجٌ يَسيرُونَ وَفْقَهُمَا، وَقَدْ يُضطَرُّونَ إلىٰ خُصُومَةٍ مَرةً، وَقَدْ يُصالِحُونَ وَيتَقَارَبُونَ مَرةً أخرَىٰ، والّذِي يحدِّدُ هَذهِ المواقفَ، وَيُوَازِنُ وَيَختَارُ مِنْهَا مَا يُحقِّقُ مَصْلَحَةَ الدَّعْوَةِ؛ القيَادةُ المَعروفَةُ الصِّفَةِ؛ حيث يَرفَعُ قَرارُهَا وَحُكْمُهَا الخِلافَ؛ لأنّهَا هِيَ الّتِي تَختَارُ الرُّخْصَةَ، أَوْ تَختَارُ العَزيمَةَ. فالتشدد يحسنه كل أحد أما الرخصة فتحتاج إلىٰ فقيه.

(112) حسن البنا: *مجموعة رسائل الإمام البنا، المؤتمر الخامس*، ص 339.

وَقفَاتٌ مَعَ رُكْنِ الطَّاعَةِ

رُكنِ (الطاعَةِ)، في بيعتِنا، رُكنٌ مهمٌّ ومِحوريٌّ، وَمِنَ الغَريبِ أنَّ الأستاذَ الإمَامَ البنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ أَفْرَدَ لَه سُطُورًا لَمْ يُفرِدْهَا لِغيرِهِ مِنَ الأركَانِ كَمَا أَفْرَدَ لِلفَهْمِ وَكمَا أَفرَدَ لِلعمَلِ؛ لأنَّ هَذِهِ الأركانَ تُعَدُّ أرْكانًا مِحوريةً مِنْ أركانِ البيعَةِ فَالخَلَلُ فِي رُكْنِ (الفَهْمِ). وَهُوَ الركنُ المَعنِيُّ بِمُرادِ اللهِ تعالىٰ؛ لأنَّ حقيقَةَ الإيمانِ كَما يُكررُ الإمامُ البنَّا دائمًا هِيَ حَقيقَةُ الفَهْمِ عَنهُ، فَالخلَلُ الطارئُ عَلَىٰ هَذَا الركْنِ يُؤدِّي إِلَىٰ بَاطِلٍ وَضَلالٍ فِي فَهْمِ مُرادِ اللهِ تعالىٰ من التكلف، بَلْ قَدْ يُؤدِّي إِلَىٰ مُروقٍ مِنَ الدِّينِ، أَوْ يؤدِّي إِلَىٰ حَالةٍ مِن الضَّعفِ الإيمَانِيِّ الشديدِ، وَكذلِكَ الخَلَلُ الطارئُ فِي رُكنِ (العمَلِ) يؤدِّي إِلَىٰ تَضْييعِ (فِقْهِ الأولوياتِ)، أوْ ما قَالَ عنهُ أَبُو حَامدِ الغَزاليِّ فِي إحيائِه: «وتركُ الترتيبِ بَينَ الخيرَاتِ مِنْ جُملَةِ الغُرورِ، بَل قَد يَتعَيَّنُ عَلَىٰ الإنسانِ فَرضَانِ: أَحدُهُمَا يَفوتُ، والآخرُ لَا يفُوتُ، أوْ فَضْلَانِ أحدُهما يَضِيقُ وقتُه، والآخَرُ يَتَّسِعُ وَقتُه، فَإنْ لَم يَحفَظِ التَّرتِيبَ فيهِ كَانَ مَغْرُورًا»[113].

ثُمَّ يُفصِّلُ أَبُو حَامدٍ الغَزاليُّ فَيذكُر أنوَاعًا مِنَ الفَرائضِ تَقضِي الترتِيبَ، وتَقتَضِي تقْدِيمَ بَعضِهَا عَلَىٰ بعضٍ، فيقُولُ: «ونَظائِرُ ذَلِكَ أكثَرُ مِنْ أَنْ تُحصَىٰ، فإنَّ المَعصِيَةَ ظَاهِرَةٌ والطَّاعَةُ ظاهرةٌ. وَإِنَّما الغَامِضُ تَقدِيمُ بَعضِ الطَّاعاتِ عَلَىٰ بَعضٍ. كَتقدِيمِ الفَرائضِ كُلِّهَا عَلَىٰ النوَافِلِ. وتَقديمِ فُروضِ الأَعيانِ عَلَىٰ فُروضِ الكِفايَاتِ، وتقديمِ فرضِ كفايةٍ لَا

(113) أبو حامد الغزالي: *إحياء علوم الدين*، ط 1، دار المنهاج، جدة – السعودية، 1432هـ – 2011م، 6/ 684.

قَائِـمَ بِـهِ عَلَـىٰ مَـا قَـامَ بِـهِ غَيـرُهُ. وَتَقديـمِ الأَهَـمِّ مِـن فُـروضِ الأَعيَـانِ عَلَـىٰ مَـا دُونَـهُ. وَتَقدِيـمِ مَـا يَفُـوتُ عَلَـىٰ مَـا لَا يَفُـوتُ، وَهَـذَا كَمـا يَجـبُ أَنْ يُقـدِّمَ حاجـةَ الوَالِـدَةِ عَلَـىٰ حَاجَـةِ الوَالِـدِ.. وَكَذَلِـكَ مَـنْ لَا يَـفِي مَالُـهُ بنفَقَـةِ الوَالدَيْنِ وَالحَـجِّ، فَربَّمـا يَحُـجُّ وَهُـو مَغـرورٌ، بَـل يَنبغِـي أَنْ يُقـدِّمَ حَقَّهُمـا عَلَـىٰ الحَـجِّ، وَهَـذَا مِـنْ تَقديـمِ فَـرضٍ أَهَـمَّ علَـىٰ فَـرضٍ هـوَ دُونَـهَ»[114].

والحـقُّ أنَّ كلامَ أَبِـي حَامـدٍ الغَزالـيِّ فِـي هَـذَا البَـابِ كَثِيـرٌ مُتنـوِّعٌ، وقَـد أشـارَ إِلَـىٰ كَثيرٍ مِـنَ الفِـرَقِ التِـي تَغتَـرُّ بِبعْـضِ الطَّاعَـاتِ، وَلَا تُـدرِكُ أَنَّ هُنـاكَ مَـا هُـوَ أَوْلَـىٰ مِنْهَـا وأَحـقُّ بالتقْديـمِ، مِثْلَمـا أَشَـارَ إلـىٰ فَرقـةٍ مِـنَ النَّـاسِ «رُبَّمَـا يَحْرِصُـونَ عَلَـىٰ إِنْفَـاقِ الْمَـالِ فِـي الْحَـجِّ، فَيَحُجُّـونَ مَـرَّةً بَعْـدَ أُخْـرَىٰ، وَرُبَّمَـا تَرَكُـوا جِيرَانَهُـمْ جِيَاعًـا، وَلِذَلِـكَ قَـالَ ابْـنُ مَسْـعُودٍ (رَضِـيَ اللهُ عَنْـهُ): (فِـي آخِـرِ الزَّمَـانِ يَكْثُـرُ الْحَـاجُّ بِـلَا سَـبَبٍ، يَهُـونُ عَلَيْهِـمُ السَّـفَرُ، وَيُبْسَـطُ لَهُـمْ فِي الـرزقِ، وَيَرْجِعُـونَ مَحْرُومِيـنَ مَسْـلُوبِينَ، يَهْـوِي بِأَحَدِهِـمْ بَعِيـرُهُ بَيْـنَ الرِّمَـالِ وَالْقِفَـارِ، وَجَـارُهُ مَأْسُـورٌ إِلَـىٰ جَنْبِـهِ لَا يُوَاسِـيهِ»[115].

إنَّ تَـركَ التَّرتيـبِ فِـي فِعْـلِ الخَيـرَاتِ، هُـوَ مَـا نَـراهُ كَثِيـرًا فِـي الفَصَائـلِ الإِسْـلاميّةِ المُعاصِـرَةِ، وَيُـؤدِّي إِلَـىٰ النَّتيجَـةِ التـي قَالَهـا أَبُـو حَامـدٍ الغَزالِـيِّ كذلـك: «وَقَـد كَانَ الـذِي خِفْنَـا أَنْ يَكـونَ، فإِنَّـا للهِ وَإِنَّـا إليـهِ رَاجعـونَ؛ إِذْ قَـدِ انـدرَسَ مِـنْ هَـذَا القُطْـبِ عَملُـه وَعِلْمُـه، وانْمحَـقَ بِالكُلِيّـةِ حَقيقتُـه ورَسْـمُه، فَاسـتَوْلَتْ عَلـىٰ القلُـوبِ مُداهنَـةُ الخَلْـقِ، وانْمَحَـتْ عَنهَـا مُراقبَـةُ الخَالـقِ، وَاسْترسَـلَ النَّـاسُ فِـي اتِّبَـاعِ الْهَـوَىٰ وَالشَّـهَوَاتِ، اسْتِرْسَـالَ الْبَهَائِـمِ، وَعَـزَّ عَلَـىٰ بِسَـاطِ الْأَرْضِ مُؤْمِـنٌ صَـادِقٌ لَا تَأْخُـذُهُ فِي اللهِ لَومَـةُ لائِـمٍ»[116].

(114) السابق: الصفحة نفسها.
(115) أبو حامد الغزالي: *إحياء علوم الدين*، 6/ 703.
(116) أبو حامد الغزالي: *إحياء علوم الدين*، 4/ 537.

لأنَّ صُـورَ التَّربيةِ التِي نَراهَـا اليـومَ، قَـدْ يُخرجُ بعضَهَـا دَرْويشًـا، يتحَمَّـلُ الظُّلـمَ ويَرضَـاهُ، وَلَا تُخْـرِجُ المُؤمِـنَ الصَّالِـحَ الـذِي يُـدرِكُ مُـرادَ اللهِ مِـنْ خَلقِـهِ وَاستخْلافِهِ فِـي هَـذهِ الدُّنيَـا، وَلِذلِـكَ فَصَّـلَ الإمـامُ البنَّـا فِـي رُكْـنِ (العَمـل) تَفصِيـلًا وَاسِـعًا. ولَعَـلَّ الأستاذَ سعيدَ حـوَّىٰ، قَـد علـلَ ذلـكَ التفصيـلَ حيـنَ قـال: «إِنَّ مِـنْ أَكثَـرِ أبـوابِ العِلْـمِ غُموضًـا بـابَ (التكلِيفِ الإلهِـيِّ)، وَقَليلُـونَ هُـمُ الذِيـنَ يَفطِنُـونَ لِمجْمُـوعِ مَـا هُـم مُكلَّفُـونَ بـهِ كَأفـرادٍ، وَمَـا هُـمْ مُكلَّفُـونَ بِهِ مَـعَ غَيرِهِـمْ كَأبنـاءِ لأمَّـةٍ وَاحِـدَةٍ، فاقتضَـىٰ ذَلِـكَ بَـيَانًا»[117].

كَمَـا تكَلَّـمَ الإمـامُ البنَّـا رَحِمَهُ اللَّهُ عَـنِ الجِهَـادِ، ورأَىٰ أنَّ الخَلـلَ فِـي فَهمِـهِ كذلـكَ يُلحِـقُ العنَـتَ بالأفـرَادِ وَالأُمـمِ، وَذَلِـكَ أَنَّ نُصُـوصَ الجِهَـادِ كَثِيـرَةٌ، لَكـنَّ قِراءَتَهـا دونَ مُراعَـاةِ المَراحَـلِ التاريخيّـةِ المُتجدِّدةِ قَـد يُـؤَدِّي إِلَـىٰ خَطرٍ عَظيـمٍ، وَقَـد جَمـعَ الإمـامُ البنَّـا رَحِمَهُ اللَّهُ فِـي رِسَـالَةِ (الجِهَـادِ) مُـا وَرَدَ فِـي هـذِهِ الفريضَـةِ المَاضِيَـةِ إِلَـىٰ قِيـامِ السَّـاعَةِ (الجِهـادِ)؛ مَـا يُؤكِّـدُ فَرضِيّتَهـا مِـنْ: آيَـاتٍ قُرآنِيةٍ، وأَحَادِيـثَ نَبويـةٍ ﷺ، وأَقـوَالٍ للعلَمـاءِ عَلَـىٰ اختِلَافِ مَذاهِبِهِـم وَمَشـارِبِهِم، بَـل أَشَـارَ إِلَـىٰ كُتـبٍ عُنِيَـتْ بِجَمـعِ النصُـوصِ الـوارِدَةِ فِـي (الجِهَـادِ)، لَكِنَّهَـا قَـدْ تُحدِثُ كَثِيـرًا مِـنَ الخَلْـطِ وَالإِربَـاكِ، إِذَا قَرأَهَـا مُسْـلِمٌ لَا يُحْسِـنُ فَهْـمَ النصُـوصِ فِي ضَـوْءِ المَقَاصِـدِ العَامّـةِ لشـريعتنا، وَلَا يُحْسِـنُ فِقْـهَ وَاقِعِنَـا المعَاصِـرِ المَعِيـشِ.

وَلِذلِـكَ لَـم يَكتَـفِ الإمَـامُ البنَّـا بحَشْـدِ النصُـوصِ الدالَّـةِ عَلَـىٰ فَرضِيّـةِ الجِهَـادِ وَفَضلِـهِ، وَلَكنَّـهُ بَصَّـرَ بِضَـرُورَةِ مُراعَـاةِ واقِـعِ المسـلمينَ، فقَـالَ: «فهَـا أَنْـتَ تَـرىٰ مِـنْ ذَلِـكَ كُلِّـه كَيـفَ أَجْمَـعَ أَهْـلُ العِلْـمِ مُجتَهِدِيـنَ وَمُقلِّديـنَ، سَـلفِيّينَ وَخَلَفِيـيّـنَ، عَلَـىٰ أنَّ الجِهـادَ فَـرضُ كِفَايـةٍ عَلَـىٰ الأُمّـةِ الإسْـلامية،

(117) سعيد حوي: *في آفاق التعاليم*، مكتبة وهبة، ص 139.

لنشْـرِ الدَّعْـوَةِ، وَفَـرْضُ عَيـنٍ لِدَفْـعِ هُجُـومِ الكُفَّـارِ عَليهَـا»[118].

ثُـمَّ نَـزلَ مِـن هَـذهِ القِمَّـةِ الكَبيـرَةِ؛ لِيَضَـعَ القُيـودَ الشَّـرعيّةَ حَتَّـىٰ لَا يَتحَمَّـسَ أَخٌ يَقـرَأَ هَـذِهِ النصُـوصَ، فَيُسـارِعَ إِلَـىٰ خُطـوةٍ لَـم يَحِـنْ أَوانُهـا، فيُوقِـعَ بِنَـزَقِهِ وَتَسَـرُّعِهِ الدَّعْـوَةَ والحَركـةَ فِـي حَـرجٍ حَريـجٍ، يَقـولُ الإِمـامُ البَنَّـا رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَالمُسـلِمُونَ الآنَ كَمـا تَعلَـم مُسْـتَذَلُّونَ لِغَيرِهِـمْ مَحكومُـونَ بِالكُفّـارِ، قَـد دِيسَـتْ أَرْضُهُـم، وَانْتُهِكَـتْ حُرمَاتُهُـمْ، وَتَحكَّـمَ فِـي شُـؤونِهِمْ خَصْمُهُـم، وَتَعطَّلَـتْ شعائِرُ دِينِهِـم فِي دِيَارِهِـمْ، فَضْـلًا عَـنْ عَجْزِهِـمْ عَـنْ نَشْـرِ دَعْوتِهِـم، فَوجَـبَ وجوبًـا عينيًّـا لا منـاصَ مِنْـهُ أَنْ يتجهـز كل مسـلم، وأَنْ يَنطَـوِيَ علـىٰ نيـةِ الجهـادِ وإعـدادِ العـدةِ لـهُ، حتَّـىٰ تَحِيـنَ الفرصـةُ ويقضـيَ اللهُ أمـرًا كانَ مفعـولًا»[119].

والحـقُّ أنّ رُكْـنَ (الطَّاعـةِ) لَيـسَ بِنَجْـوَةٍ مِـنْ مثـلِ هـذهِ الأَخْطَـاءِ وَالشـبُهاتِ، فَمَـنْ يَقـرَأْ كَثيـرًا مِـنَ النقْـدِ الـذِي وُجِّـهَ إِلَـىٰ الجَماعَـةِ فِيمَـا يتعلَـقُ بهـذَا الركـنِ، حَتَّـىٰ لَقـد كَتـبَ عَنـهُ بعـضُ أبنـاءِ الحَركَـةِ الإِسْـلَاميّةِ أَنفُسِـهم، أَوْ مَـنِ انتمَـوْا إِلَيهَـا فِـي فَـترةٍ مِـنَ الفَـتراتِ، فَقَـدْ لَمـزَ د. عَبـدُ اللهِ النَّـفِيسِيّ هَـذَا الرُّكْـنَ خِـلالَ تَوطِئَتِـه كِتَـابَ (***الحَركَـة الإِسْـلامِيّة، رُؤيـة مُسـتقْبلِيّة***)[120] الـذِي حَـرَّرَهُ، وَاسـتَكْتبَ فِيـهِ بَعـضَ كِبَـارِ الإِخـوَانِ القُدَامَـىٰ، وبعـضَ المَحسُـوبِينَ علَـىٰ الحَركَـةِ الإِسْـلامِيةِ؛ أمثَـالِ الدكتـورِ حَسّـان حَتْحُـوت، وَالدكْتُـور فَرِيـد عَبـدِ الخَالـقِ، وَالدكتُـور تَوفِيـق الشَّـاوِي، وَعَدنَـان سَـعدِ الدِّيـنِ، وَمُنيـر شَـفيق،

(118) حسن البنا: *مجموعة رسائل الإمام البنا*، ص 609.

(119) حسن البنا: *مجموعة رسائل الإمام البنا*، [رسالة الجهاد]، ص 610.

(120) انظر د. عبد الله النفيسي: *الحركة الإسلامية، رؤية مستقبلية (أوراق في النقد الذاتي)*، ط 2، مكتبة آفاق، الكويت 2013م، ص 26، حيثُ يقولُ د. النفيسيّ: «فَعِندَمَا يَكْسِبُ تنظيمٌ مَا عُضوًا يَدِينُ بِالطّاعةِ وَلَا يُناقِشُ وَيُتابِعُ الأَوَامِرَ، فهَذَا يُعتَبَرُ مُنتَمِيًا وَالعَكْسُ بِالعَكْسِ، وَكَانَ مِنْ نَتائجِ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ التَّربويّةِ أَنَّه خَرجَ جِيلٌ أَو مَجمُوعَةٌ كَبيرَةٌ مِنَ الشَّبابِ تَنتظِرُ الأوامِرَ فَقَطْ، وَبِذلِكَ حُرِمَتْ مِنْ مَيزةِ الإِبدَاعِ وَالحركَةِ الذَّاتيةِ، وَالإِبدَاعُ هُوَ سِرُّ تَفوُّقِ الدعَواتِ، وَعَلَىٰ العَكسِ خَسِرَتْ بَعضُ التَّنظِيمَاتِ أَهَمَّ عَناصِرِهَا وأَنشِطَتِهَا وأَكثَرِهَا إِبْدَاعًا».

والدكتُور طَـارِق البِشْـرِي، والدكتـور محمَّـد عمـارة، وغيرهـم، وَقَـد تَنـاوَلَ بَعضُهُـم رُكْـنَ (الطاعـةِ)، أَوْ خصَّـهُ ببعـضِ العِنَايـةِ والتركيـزِ.

كَمَـا كَتـبَ الأستاذُ صَـلاحُ شَـادِي فِـي كِتَابِـهِ (أَوراقٌ مِـنَ التَّاريـخِ: حَصَـادُ العُمـرِ)، عَـن رُكْـنِ (الطَّاعـةِ)، وتَناولَـه بشَـيءٍ مِـنَ النقْـدِ وَالتمحِيـصِ.

وَيتصَـوَّرُ بَعـضُ النـاسِ أنَّ رُكْـنَ (الطاعـةِ) يُمثّـلُ فِـي دَعوتِنَـا، سَـلبًا للعقـلِ وَكَبْتًـا لِلحُريّـةِ، أوْ أنَّـه نَـوعٌ مِـنَ الاستِسْـلامِ وَالخُنـوعِ، وَالحقيقَـةُ أنَّ مَـن يَقْـرأُ مَـا كَتبَـه الإمـامُ البنَّـا فِـي رُكْـنِ (الطاعَـةِ) تحديـدًا، وَمَـا فَصَّلَـهُ فِيـهِ؛ يَجِـدْ أنَّ الإمـامَ البنَّـا رَحِمَهُ اللَّهُ كَانَ بعيـدَ النظَـرِ عِندَمَـا أَفْـرَدَ لَـهُ هَـذِهِ السُّـطورَ، حَتَّـىٰ يَنفِـيَ عَنـهُ تِلـكَ الشُّـبهَاتِ التِـي أَحاطَـتِ بـهِ.

وَلَسْـنَا نُمَـارِي فِـي أنَّ (الطاعـةَ) تكليـفٌ شَـاقٌّ؛ لأنَّ مَعنـاهُ اتّهـامُ العَقلِ عِندَ اختِـلَافِ الاجتِهَـاداتِ، وَالضَّغـطُ عَلَـىٰ الرغبـاتِ عِنْـدَ إبـدَاءِ الآرَاءِ. معنـاهُ: أَنْ تَنـزِلَ عَلَـىٰ رَأَىٰ غَيْـرِكَ وإنْ كنـتَ تخالفُـهُ، وكثيـرٌ مِـنَ النَّـاسِ يتَجنَّبُـونَ العمـلَ الجَماعِـيَّ لعَـدَمِ فَهمِهِـم لِهَـذَا المَعنَـىٰ فهمًـا كَافِيًـا فيتَصـوَّرُونَ أَنَّهُـم بمجَـرِّدِ أنْ يُعطُـوا الطاعـةَ مِـنْ أنفُسِـهِمْ، فمعنَـىٰ هَـذَا سَـلبُ حُريتِهِـم وعُقُولِهِـم، وَتَـقْييدٌ لإرادَتِهِـم، وَهُـوَ تكليـفٌ شَـاقٌّ عَلَـىٰ النفْسِ بـلَا ريـبٍ.

وأذكـرُ أنَّ أَخًـا فِـي سـنةِ (1965م) ، كانَ مَعنـا قَبـلَ أَنْ نُبايـعَ وَنَلتَحِـقَ بالصـفِّ، وكَانَ لَـه فَضْلُـه وَسَـبقُهُ، وكَانَ عَابِـدًا وَرِعًـا مُحبًّـا لِلعلْـمِ، وَمُجِـدًّا مُجتَهِـدًا، وَلكِـنْ لمَّـا عُـرِضَ عَلَيـهِ الانضمـامُ إِلَـىٰ التنظِيـمِ كَانَ الشَّـيءُ الوحيـدُ الـذِيٰ يَمنَعُـه مـن الانضِمَـام إلـىٰ عَمَـلٍ حَركـيٍّ تنظيمـيٍّ؛ هُـوَ أنّـه لَا يَسـتطيعُ أَن يَسـمَعَ كَلامَ أَحـدٍ لَا يَعرِفُـهُ، وَأَنْ يَكـون هَـذَا الـرأْيُ الـذِي يَجِـبَ عَلَيـهِ أنْ يَسْـمَعَه، أَوْ يَمتَثِـلَ لَـه ويُنفِّـذَه، يُؤثِّـرُ عَلَـىٰ حَياتِـه أَوِ استقرَارِهِ، وَيُؤثِّـرُ عَلَـىٰ أُسـرَتِه وَمُستقبَلِه، وَلِذلِـكَ لَـمْ يَستَطِعْ أنْ يُبايـعَ ويَنضَـمَّ إِلَـىٰ الصَّـفِّ رُغْـمَ أنَّ

الصـورَةَ العَامـةَ المُجْملـةَ مِـنْ بَعيـدٍ صُـورَةٌ مُضيئَـةٌ، وصَـورةٌ طيبـةٌ وكَريمـةٌ لكـنَّ هَـذَا الجَانِـبَ بِالـذَّاتِ لَـم يَستَطِعْ أنْ يَتقبَّلَـه أَبَـدًا، وقـالَ هَـذَا الـكلامَ صَراحـةً للشَّـهيدِ عَبـدِ الفتـاحِ إِسـمَاعِيل.

وأَحْسَـبُ أنَّ الإمَـامَ البنَّـا رَحِمَهُ اللَّهُ أَحَسَّ بِمَـا فِـي رُكْـنِ (الطَّاعـةِ) مِـنْ مَشَـقَّةٍ وَثِـقَل عَلَـىٰ النفْـسِ، وَلِذَلِـكَ فَسَّـر هَـذَا الركـنَ وَوضَّحَـه حَتَّـىٰ يُيسِّـرَهُ عَلَـىٰ المُسـلِم، وَهَـذِهِ ولا شَـكَّ مُهِمَّتُنَـا إجْمَـالًا، وَلَا سِـيَّمَا مَـن هُـمْ فِـي مَوقِـعِ المَسؤولِيةِ، أَنْ يُيَسِّـروا هَـذَا التكلِيفَ الشَّـاقَّ عَلَـىٰ القَاعِـدَةِ العَرِيضَـةِ، وَمِـنْ عَوامـلِ التَّيسيرِ فِي فقهِ الإمَامِ البنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ، أنَّه جَعلَ الدعْـوةَ مَراحـلَ، وَجعلَ لـكُلِّ مَرحلـةٍ مُسْـتَوًىٰ مِـنَ الطَّاعِـةِ مَطلوبًـا لِذاتِـهِ، وَهَـذِهِ صُـورَةٌ مِـن صُـوَرِ التَّيسـيرِ لِهـذَا التكْليـفِ الشَّـاقِّ.

فَالطاعـةُ لَيسَـتْ مَطلبًـا قائِمًـا بذَاتِـه، وإنَّمَـا هِـيَ مُرتبِطـةٌ بِالإيمَـانِ، وَمَبنِيّـةٌ كَمـا يقـولُ الأسـتاذُ مُحمَّـدُ الراشِـد فِـي كِتابِـهِ (العَوائِـقُ) واصفًـا أُخوَّتَنـا بأنّهـا كَمَـا قَـالَ النبـيُّ ﷺ يَصِـفُ أَوّلَ زُمْـرةٍ تَدخُـلُ الجنـةَ: «(قُلوبُهُـمْ عَلَـىٰ قَلْـبِ رَجُـلٍ وَاحِـدٍ، لَا اخْتِـلافَ بَينَهُـم وَلَا تَـبَاغُضَ)[121]، فَهِـيَ طَاعـةٌ تَبغِي أَنْ تُصِيـبَ هَـذَا الصَّفَـاءَ، وتَنسُـبَ صَاحِبَهـا إِلَـىٰ هَـذِهِ الزُّمـرَةِ الفَائِـزَةِ، مِـنَ الإيمَـانِ تَنطَلِـقُ، وبقَواعِـدِهِ تَسترشِـدُ، وَإِلَيـهِ تَعُـودُ، وَلَيسَـتْ هِـيَ استِكَانَـةَ خَاضِـعٍ رَاهِـبٍ، وَلَا تَملُّـقَ مَصْلَحِـيٍّ رَاغِـبٍ. إنّهـا طَاعـةٌ إسْـلاميّةٌ مُميـزَةٌ، لَيسَـتْ ككُلِّ طَاعـةٍ، يَعتَبِرُهَـا الدُّعـاةُ رُكْنًـا في إيمَانِهـم، لَا كَمَـالَ لَـهُ بدُونِهَـا، وَيَعتـورُهُ النقْـصُ بِفقْدَانِهَـا.

قَـوْمٌ يَرَوْنَ الحَقَّ نَصْرَ أَمِيرِهِمْ وَيَـرَوْنَ طَاعَـةَ أَمْـرِهِ إِيمَانًا

وَلِذلِـكَ يَسُـوغُ مِـن أَجْلِهَـا اتِّهـامُ العَقْـلِ عِنـدَ اختِـلافِ الاجتِهَـادِ، وَالضَّغْـطُ

(121) أخرجهُ البخاري (3246)، ومُسلم (2834) باختلافٍ يَسير.

عَلَىٰ القَلْبِ عِندَ نَداءَاتِ الرَّغْبةِ، حِفْظًا لِهذَا الإيمَانِ مِنْ أَنْ يَنثَلِمَ»[122].

وتَرْتَبِطُ الطاعةُ بِالإيمَانِ؛ لأنّهَا رُكْنٌ مِن أَركَانِه، وَهَذِهِ أَوّلُ صُورَةٍ مِنْ صُوَرِ تَقْييدِهَا، وتيسِيرِهَا في الوقت ذاتِهِ عَلَىٰ السامعِ، يقولُ الشيخُ سَعيدُ حَوَّىٰ: «مَا مِنْ رَسُولٍ مِنَ الرسُلِ إِلَّا وَقَد طَالَبَ قَومَه بِأمرَيْنِ: بِالتقْوَىٰ والطّاعَةِ ﴿فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ﴾[آل عمران: 50، الشعرَاء: 108، الزخرف: 63]، فبدونِ طَاعةٍ لَا تَكونُ جَماعةٌ، ولَا حَركةٌ ولَا نِظَامٌ وَلا تَنظيمٌ ولا زَكَاةٌ للنفْسِ، وَلا مُسارعَةٌ نَحوَ مَرضَاةِ الله وَلا جِهادٌ، وَلا هَدَفٌ يَتحَقّقُ»[123].

وَمَعنَىٰ ذَلِكَ أنَّ الطاعةَ فِي دِينِنَا ارتبَطتْ بِطاعةِ اللهِ تعالَىٰ وتَقوَاهُ، وَهَذَا أولُ قَيدٍ لَهَا، فَهِيَ لَيسَتْ طَاعةً مُطلقَةً لِذاتِهَا، وَإنَّمَا هِيَ طَاعةٌ مُرتبطَة بِالإيمانِ بِاللهِ تعالَىٰ، وَحِينَ طَلَبَ سَيدُنَا أَبُو بكرٍ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) إِلَىٰ النّاسِ أَن يُطيعُوه فِي خُطبَةِ الخِلافَةِ؛ رَبَطَ طاعتَهُ بطاعة اللهِ تعالَىٰ، فقالَ: «أَطِيعُونِي مَا أَطَعْتُ اللهَ فِيكُمْ»، وَهَذَا أَوّلُ شَيءٍ يُريحُ السَّامعَ بِأنَّ الطاعةَ لَيسَتْ مطلوبةً لذاتِهَا، وَلَا يُفْهَمُ مِنْ جَعْلِهَا رُكْنًا مِنْ أَرْكَانِ بيعتِنَا أَنْ يَسمعَ الأخُ ويُطيعَ دُونَ وَعيٍ أَوْ بَصيرَةٍ، وَلَكِنَّها طاعةٌ مُقيَّدَةٌ بِمَطالِبِ الإيمَانِ باللهِ.

والمَعنَىٰ الآخَرُ العَميقُ وَراءَ ارتِبَاطِ الطاعةِ بِالإيمَانِ أَنَّ الإيمانَ فِي ذَاتِه إنمَا يَقومُ عَلَىٰ الحُريةِ وَالإرادَةِ وَالاختِيَارِ؛ فهوَ كَسْبٌ إنسَانِيٌّ واسْتجَابة لتعَاليمِ الوَحْيِ وَمُغَالبَةٌ لشهَواتِ النفْسِ، وعِنَادِ البيئَةِ؛ فَهُوَ مرتبِطٌ بتعَاليمِ الوَحْيِ المَعْصُومِ، **وَمِنْ ثَمَّ كَانَتِ الطاعةُ رُكنًا مِنْ أركانِ الإيمَانِ، قَبلَ أنْ تَكُونَ ركنًا من أركانِ بيعتِنَا**، أَي أَنّهَا تَقُومُ عَلَىٰ مَا يقُومُ عَلَيهِ الإيمَانُ من (حُريّةٍ وَاختِيَارٍ وَإرَادَةٍ)، فَحِينَما يَنحَازُ الإنسانُ إِلَىٰ الإيمَانُ وَيختَارُهُ

(122) محمد أحمد الراشد: *العوائق*، دار المنطلق، 1415هـ/ 1994م، ص 6.
(123) سعيد حوي: *في آفاق التعاليم*، مكتبة وهبة، ص 134.

عَلَىٰ مَا سِوَاهُ ﴿**وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ**﴾ [الحشر: 9]. وَكَمَا يَقولُ الأستاذُ سَيد قُطب (عَنِ الأَنْصَارِ): «.. وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ.. أي دَارَ الهِجْرَةِ، يَثرِبَ مَدينَةَ الرسُولِ ﷺ، وَقَد تَبوَّأَهَا الأنصارُ قَبلَ المُهاجِرِينَ. كمَا تَبوّأُوا فِيهَا الإِيمَانَ، وَكَأَنّهُ مَنزِلٌ لَهم ودَارٌ، وَهُوَ تَعبيرٌ ذُو ظِلالٍ، وَهُوَ أَقْربُ مَا يُصوِّرُ مَوقِفَ الأنصَارِ مِنَ الإيمَانِ. لقَد كَانَ دَارَهَم وَوَطَنَهُم الذِي تَعِيشُ فِيهِ قُلُوبُهُم، وتَسكُنُ إِلَيهِ أَرْوَاحُهُم، وَيثُوبونَ إِلَيهِ وَيَطمئِنُّونَ لَه، كَمَا يَثُوبُ المَرءُ وَيطْمئِنُّ إِلَىٰ الدَّارِ»[124].

اختَارُوا الإيمَانَ لَهُم مَنزِلًا وَدَارًا، فَهَذَا الاختيارُ هُوَ اختِيارٌ لِمطَالبِ الإيمَانِ.

وَلِلإيمَانِ مَطالِبُ: مِنهَا ١- **الصَّفُّ الواحِدُ** ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾[الصف: 4]، ومِنهَا 2- **الأمرُ الجَامِعُ** ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ﴾[النور: 62]، وَمِنهَا 3- **القِيادَةُ الرَّاشِدَةُ** ﴿حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ﴾. وَهَذِه القِيادَةُ الرَّاشِدَةُ يَرفَعُ حُكْمُهَا الخِلافَ، كَمَا يقُولُ الإِمَامُ البنَّا. «وثَمَّ أمرٌ آخَرُ جَديرٌ بالنظَرِ؛ إِنَّ النَاسَ كَانُوا إِذَا اختلَفُوا رَجعُوا إِلَىٰ (الخَليفَةِ)، وشَرطُه الإمَامةُ، فَيقْضِي بَينَهُم وَيَرفَعُ حُكْمُه الخِلافَ، أَمَّا الآنَ فأينَ الخليفَةُ؟ وَإِذَا كَانَ الأَمْرُ كَذلِكَ فَأَوْلَىٰ بالمسلِمينَ أَنْ يَبحثُوا عَنِ القَاضِي، ثُمَّ يَعرضُوا قَضِيَّتَهُم علَيهِ، فَإِنَّ اختِلافَهُم مِنْ غَيرِ مَرجِعٍ لَا يَرُدُّهُم إِلَّا إِلَىٰ خِلافٍ آخَرَ»[125]. وَحِينَما وَلِيَ سَيدُنَا عُمرُ بنُ عَبدِ العزِيزِ الخلافةَ، دَعَا الخَوارِجَ أَنْ يَنزِلُوا دِمَشْقَ التِي هِيَ عَاصِمَةُ الخلافَةِ وَأَنْ يَبتعِدُوا عَنِ التفَرُّدِ حَتَّىٰ ينعمُوا بتِلْكَ النعمَةِ بَعدَ الإيمَانِ وَهِيَ الجَماعةُ والخليفَةُ.

(124) سيد قطب: *في ظلال القرآن*، مكتبة الشروق، 6/ 3526.

(125) حسن البنا: *مجموعة رسائل الإمام البنا*، ص 139.

وَجَليٌّ أَنَّ هَذِهِ الأمُورَ مُسلَّمَاتٌ عَقليّةٌ؛ فَمَتَىٰ كانَ صَفٌّ، وَأَمْرٌ جَامِعٌ، وَهِيَ مِنْ مَطالبِ الإيمَانِ؛ فَإِنَّ القيادَةَ الرَّاشِدَةَ مَطلَبٌ مِن مَطالبِ الإيمَانِ كذلكَ، وَهَذَا يَعنِي أَنَّ الأخَ حِينَ يَختَارُ الإيمانَ، فإنّهُ يَختَارُ مَطالِبَهُ كذلكَ، وَعَليهِ أَنْ يَحترِمَ تِلكَ المَطالِبَ.

وحَتَّىٰ الإمامُ البنَّا نَفسُه لَم يَدْعُ إلَىٰ (الطاعَةِ) دُونَ قُيودٍ، وَأَوَّلُ قيودِ الطَّاعةِ فِي دَعوَتِنَا أنَّ لَها مَرجعيّةً حَاكِمَةً يَرجعُ إِليهَا الجَميعُ؛ فَقدْ قَسَّمَ الإمامُ البنَّا الدعوةَ ثَلاثَ مَراحِلَ، لكلِّ مرحلةٍ مَرجعيَّةٌ ودَرجَةٌ مَطلوبةٌ مِنَ الطَّاعَةِ؛ فَمرحلةُ (التعْريفِ)، وَهِيَ أُولَىٰ مَراحل الدَّعوَةِ، مرجعِيّتُهَا قولُ الإمامِ البنَّا: «وَيُنظِّمُها القانونُ الأَسَاسِيُّ، وتَشرحُهَا رسَائلُ الإخوَانِ وجَريدتُهُم، والدَّعوةُ فِي هَذا الطَّورِ عَامّةٌ»[126]، وأمَّا درجةُ الطاعةِ المَطلُوبةِ فِي هَذهِ المَرحلَةِ فيُمثِّلُها قَولُ الإمام البنَّا: «وَلَيسَتِ الطاعةُ التامّةُ لازمةً فِي هَذَا الطَّورِ، بِقَدرِ مَا يلزَمُ احتِرَامُ النظُمِ وَالمبادِئِ العَامةِ للجَمَاعَةِ»[127].

فلَمَّا كانتِ الدعوةُ عامةً فِي طَورِ (التعْريفِ) لَم يَشتَرِطِ الإمَامُ البنَّا طاعةً تامةً، وَرَضِيَ بِأَنْ يَحترِمَ الأخُ نُظُمَ الدعْوَةِ، وأنْ يُحافِظَ علَىٰ مبَادِئِهَا، وَلَمَّا كَانتِ الدعْوةُ فِي مَرحلَتِي (التكْوينِ والتنفيذِ) خَاصَّةً، فَقدِ اشترَطَ الإمامُ البنَّا طَاعةً كاملةً، حَتَّىٰ يَنجَحَ العَمَلُ، لأنَّ الأخَ فِي هَاتينِ المَرحلَتينِ يَكونُ قَد وَصَلَ إِلَىٰ درجَةِ القَناعَةِ التَّامّةِ بِالعمَلِ مَعَ هذَا الصفَّ، أَيْ أَنّه اختارَ العَملَ مَعَ هذَا الصَّفِّ بكامل حريتِه، وَعليهِ أَنْ يَحترمَ مَا اختَارَهُ، وَإِلَّا فَقد كَانَ يَسَعُه رَفْضَ العَمل مَعَ هذا الصفِّ ابتِدَاءً، يقولُ الإمامُ البنَّا عَن طَورِ (التكْوينِ): «وَالدَّعوَةُ فِيهِ خاصةٌ، لَا يتصِلُ

(126) حسن البنا: مجموعة *رسائل الإمام البنا*، [رسالة التعاليم]، ص 275.
(127) السابق: الصفحة نفسها.

بِهَا إِلَّا مَنِ استعدَّ استعدَادًا تامًّا حقيقيًّا لِتحَمُّلِ أعبَاءِ جِهادٍ طَويلِ المَدَىٰ كَثيرِ التَّبعَاتِ، وأَوَّلُ بَوادِرِ هَذَا الاستِعْدادِ كَمَالُ الطَّاعَةِ»[128]. ثم يقولُ عَنْ طَورِ (التَّنفيذِ): «وَالدَّعوةُ فِي هَذَا الطورِ جِهَادٌ لا هوَادةَ فِيهِ، وعَملٌ مُتواصلٌ فِي سَبيلِ الوُصُولِ إِلَىٰ الغَايَةِ، وَامتِحَانٌ وابتِلَاءٌ لَا يَصبرُ عَليهِمَا إِلَّا الصَّادقُونَ، وَلَا يَكفُلُ النجَاحُ فِي هَذهِ المَرحلَةِ إِلَّا كَمَالُ الطَّاعةِ كَذلِكَ وعلَىٰ هذَا بايعَ الصفُّ الأولُ مِنَ الإخوانِ المُسلِمين فِي يَومِ 5 رَبيع الأَوَّل سَنةَ 1359هـ»[129].

وَلَعلكَ تَلحَظُ فِقهَ الإمامِ البنَّا؛ حَيثُ أطلع إِخْوَانَه علَىٰ طَبيعةِ كُلِّ مَرحلَةٍ، وَدرجَةِ الطَّاعةِ المَطلوبَةِ فِيهَا، كَي يَكونُوا عَلَىٰ بينةٍ مِنْ أَمرِهِم.

وَمِنْ كَمَالِ فِقهِهِ كَذَلِكَ مَا يُمكِنُ أَنْ نُسمِّيَهُ (فِقْه التَّدرج)؛ حيثُ تَدرّجَ في المَراحل، وتدرَّجَ في دَرجةِ الطَّاعةِ كَذلِكَ، لأنَّ الطَّاعةَ التامَّة شَاقّةٌ عَلَىٰ النفْسِ، وَلاَ بدَّ مِن تَدريبٍ مُتدرِّجٍ عَليهَا، فَلا يَبلُغُها إلّا الصادقونَ الذينَ اختارُوا العملَ معَ هذَا الصفِّ عَنْ حُريةٍ وَإِرَادةٍ، وقَناعَةٍ وَرغبةٍ، وَاستعدُّوا لتكاليفِه، وَمِنْ ثَمّ وَجبَ عَليهِم أَنْ يَحترِمُوا مَا اختَارُوهُ وَإِلّا كَانُوا مُتناقِضينَ مَعَ أَنفسِهم.

هَذَا، وقَد خَتمَ الإمَامُ البنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ كَلامَهُ عَن رُكْنِ (الطَّاعَةِ)، بِمَا يُؤكِّدُ ضَرورةَ أَنْ يَحترمَ الأخُ اختيَارَهُ الحُرَّ، وَأَنْ يَفِيَ بِمَطالبِه، إِذْ يَقولُ: «وأَنْتَ بانضِمَامِكَ إِلَىٰ هَذهِ الكَتيبَةِ، وَتَقبُّلِكَ لهَذِهِ الرسَالَةِ، وتَعهُّدِكَ بِهذَهِ البَيعَةِ، تَكونُ فِي الدَّوْرِ الثَّانِي[التَّكوين]، وَبِالقُرْبِ مِنَ الدَّوْرِ الثَّالثِ [التنْفِيذ]، فَقدِّرِ التَّبِعَةَ التِي التزَمْتَها وَأَعِدَّ نَفْسَكَ لِلوفَاءِ بِهَا»[130]، وَبِهذَا يَحترِمُ الأخُ

(128) السابق: الصفحة نفسها.
(129) السابق: الصفحة نفسها.
(130) حسن البنا: مجموعة *رسائل الإمام البنا*، ص 275.

نَفسَهُ وَعَقْلَهُ وَإِرَادَتَه، ويَحترِمُ مَا اختَارَهُ عَن طَواعيَةٍ.

وَلِذلِكَ كَانَ مِن كَلمَاتِه: «وَلَقَدْ أَعْجَبَنِي مِنْ صَدِيقٍ دَعَوْتُهُ إِلَىٰ جَمَاعَتِنَا أَنَّهُ كَانَ يُرَاجِعُنِي فِي كُلِّ كَلِمَةٍ، وَيَقِفُ أَمَامَ كُلِّ عِبَارَةٍ، وَيُنَاقِشُ كُلَّ وَسِيلَةٍ، حَتَّىٰ إِذَا اقْتَنَعَتْ نَفْسُهُ قَالَ كَلِمَتَهُ، فَمَا زَالَتْ مَرْعِيَّةَ الْجَانِبِ، مُحَقَّقَةَ الْمَعْنَىٰ، وَاضِحَةَ الْأَثَرِ، وَمَا زَالَ هُوَ الْعَامِلَ الْمُجِدَّ إِلَىٰ الْآنِ، وَأَرْجُو أَنْ يَظَلَّ كَذَلِكَ بِحَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ»[131].

وأذكرُ أن الأستَاذِ محمد حَامد أَبو النصْرِ أثنَاءَ التحقِيقَاتِ سَنةَ (1954م)، كَانَ يَحكِي لَنَا، أنَّ جَمالَ عَبد الناصرِ أرسلَ إليهِ - لأنَّه مِن بلَدِهِ مَنفلُوط مِن بَنِي مُرِّ - رسولًا خَاصًّا يَطلُبُ إليهِ مُجرَّدَ التوقيعِ عَلَىٰ ورقةٍ بالاعتذَارِ عَمَّا صدَر مِنهُ، لِيُخَفِّفَ الحُكْمُ الصَّادِرُ فِي حِقِّه مِنَ المُؤبّدِ إِلَىٰ أنْ تُطوَىٰ القَضيّةُ تَمامًا، وَيُفرَجَ عَنهُ فَوْرًا، فأَبىٰ السَّيدُ حَامِدُ أبو النصرِ، وَقَال لِلمُحقِّقِ: «لَقدْ بَايعْتُ الرَّجُلَ (يقصدُ الإمامَ البنَّا) وأَنَا رَجلٌ مَوفورُ الرُّجولَةِ». وَحينَ تَحسِبُ عمرَ الأستاذِ حَامِد أَبو النصْرِ فِي تِلكَ الفترَةِ، هُوَ مِن موَاليدِ (1913م)، وبَايع سنةَ (1933م)،أي أن عمرهُ كان عشرينَ عامًا، وَيقولُ عَن نَفسِهِ: وَأَنَا رَجلٌ مَوفُورُ الرجُولَةِ» فكيفَ أَنقُضُ تِلكَ البيعَةَ لِتعرُّضِي لِمحْنَةٍ أَوْ أَذًىٰ يَقعُ عَليَّ، فَأَنا مُبايِعٌ عَلَىٰ هَذَا، وَقَد فَعلتُ هَذَا وَأَنَا رَجلٌ مَوفُورُ الرجولةِ؛ بمعنىٰ: بايعتُ باختيارِي وَإرادَتِي، فَأَنَا أَحترمُ ذَلِكَ، وَلِذلِكَ ظَلَّ الأستاذُ حَامدُ أَبو النَّصرِ وَفيًّا لِهَذَا العَهدِ الذِي أخذَهُ عَلَىٰ نفسِهِ، بِهذهِ البيعَةِ، وَرُكْنِ (الطَّاعةِ) فِيهَا، ظَلَّ وَفِيًّا لَهَا طَوالَ مِحنةٍ ظلتْ عِشرينَ عَامًا، وَبَعدَ ذَلِكَ أَيضًا إِلَىٰ أَنْ لَقِيَ ربّه رَاضِيًا مَرضِيًّا بِإِذن اللهِ.

(131) حسن البنا: *مجموعة رسائل الإمام البنا*، [رسالة هل نحن قوم عمليون]. ص78.

فالإحسَـاسُ بِهـذَا المعنَـىٰ أنّهـا مبـادرَةٌ مِنـكَ، والأخُ فِـي حاجَـةٍ إِلَـىٰ التذكيـرِ دائمًـا بِهـذِهِ المبـادَرَةِ ولذلِـكَ كانـت هَـذِهِ الإشَـارَة أَو التنويـهُ مِـنَ الأستـاذِ الإمَـام البنَّـا، وَهُـوَ يتكلَّـمُ فِـي هَـذَا الركـنِ «وأَنْـتَ بِانضِمَامِـكَ إِلَـىٰ هَـذِهِ الكَتيبَـةِ، وَتَـقبُّلِكَ لهَـذِهِ الرسَـالَةِ، وتَعهُّـدِكَ بِهـذِهِ البَيعَـةِ، تَكـونُ فِـي الدَّوْرِ الثَّانِـي، وَبِالقُـرْبِ مِـنَ الـدَّوْرِ الثَّالـثِ، فَقـدِّرِ التَّبِعَـةَ التِي التزَمْتَهـا وَأَعِدَّ نَـفْسَكَ لِلوفَـاءِ بِهَـا».

وَلِذَلِـكَ أَشَـارَ الأسـتاذُ سَـيّد قُطْـب رَحِمَهُ اللَّهُ فِـي فَصْـلِ الإيجَابيّـةِ فِـي كِتابـهِ [خصَائـصُ التصَـوُّرِ الإسـلامِيِّ] إِلَـىٰ أَنَّ التصـورَ الإسـلامِيِّ مِـن أَكـبر عَوامـلِ الإيجابيـةِ؛ حيـنَ يَعلَـمُ المُسْـلِمُ أَنّـه مُكلَّـفٌ، وأَنَّـهُ مُعـانٌ عَلَـىٰ التَكليـفِ كذَلِـكَ، فـإنَّ ذلـكَ يَستخرجُ كلَّ مَـا لَدَيـهِ مِـنْ مَواهِـبَ وَقُـدراتٍ وَمَلـكاتٍ وَأَخـلاقٍ، ويوظِّفُهـا كُلَّهـا لِينْجِـزَ مُـرادَ اللهِ تعالـىٰ مِنـهُ. يقـولُ الأسـتاذُ سَـيّد رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَفِـي طَبيعـةِ التصـوّرِ الإسْـلامِيِّ ذاتِـه مَـا يَحفِـزُ الإنسَـانَ لِمُحاولَـةِ الحَركَـةِ الإيجَابيـةِ، لِتَحقيقِ هَـذَا المَنهَـجِ فِـي صُـورةٍ وَاقِعيَّةٍ. فالمُسلِمُ يَعرفُ مِـنْ تَصـورِهِ الإسْـلامِيِّ، أنَّ (الإنسَـانَ) قُـوةٌ إيجابيـةٌ فاعلَـةٌ فِـي هـذِهِ الأرْضِ، وَأنّـه لَيـسَ عَامـلًا سَـلْبيًّا في نظامِهَـا، فَهـوَ مَخلُـوقٌ ابتِـدَاءً لِيُسـتَخْلَفَ فِيهَـا. وَهُـوَ مُستخْلَفٌ فِيهَـا لِيُحقِّـقَ مَنهـجَ اللهِ فِـي صُورَتِـهِ الوَاقعِيّـةِ: لِيُنشِـئَ ويُعمِّـرَ، وَلِيُغيِّـرَ ويُطـوِّرَ، ولِيُصلِـحَ ويُـنمِّيَ. وَهُـوَ مُعَـانٌ عَلَـىٰ هـذِهِ الخِلافَـةِ؛ مُعـانٌ مِـنَ اللهِ سُـبحانَه بِجَعْـلِ النّواميـسِ الكَونيـةِ وَطَبيعَـةِ الكَـونِ الـذِي يَعيـشُ فِيـهِ مُعاوِنَـةً لَـهُ»[132].

ولِذَلِـكَ فمُهمّتُنـا أَنْ نُيسّـرَ هَـذَا التكليـفَ الشَّـاقَّ، وَهُـوَ تكليـفُ (الطَّاعـةِ) عَلَـىٰ كلِّ مَـن مَعنَـا فِـي الصَـفِّ، وَهَـذَا يبـدَأُ أَوَّلًا كَمَـا ذَكـرَ الإمـامُ البنَّـا رَحِمَهُ اللَّهُ بِألَّا يَنضَـمَّ إِلَـىٰ هَـذَا الطـورِ مِـن أطْـوارِ الجمَاعـةِ إِلَّا مَـنِ استَعدَّ استِعْدَادًا حَقِيقيًّـا

(132) سيد قطب: *خصائص التصور الإسلامي ومقوماته*، دار الشروق، القاهرة، ص 165.

لِتحمُّـل أعبَـاءِ جِهـادٍ طَويـل المَـدَىٰ بَعيـدِ المَراحـل، كَثيـرِ العَقبَـاتِ، وأقـلُّ مَـا يَجِـبُ فِـي هَـذَا الطَّـورِ هُـوَ كَمـالُ الطاعـةِ، وَمُهِمَّـةُ هَـذِهِ الجماعـةِ وَمُهِمَّـةُ الصـفِّ أَن يُسـاعِدَ الأخَ عَلَـىٰ بُلُـوغِ درجـةِ الاسـتِعدَاد الحقِيقِـيِّ؛ ليتحمَّـلَ - كَمَـا يقـولُ الإمَـامُ البنَّـا - أَعْبـاءَ طَريـقٍ طَويـلِ المَـدَىٰ، بَعيـدَةِ المَراحِـلِ، كَثِيـرَةِ العَقبـاتِ[133].

وَلَا يُمكِـنُ أَنْ يَصِـلَ الأخُ إِلَـىٰ هَـذَا المُسـتَوَىٰ المَطْلُـوبِ (كَمَـالِ الطَّاعـةِ، أَوْ تَمـامِ الطَّاعَـةِ) دُونَ تَربيَـةٍ إِيمَانيـةٍ، وَصَفهـا الأُسـتاذُ سَـيّدُ قُطب رَحِمَهُ اللَّهُ بالتربيَةِ الإيمَانيـةِ العَاليَـةِ طَويلَـةِ الأَمَـدِ عَميقَـةِ الأثَـرِ، حَتَّـىٰ تَسـتَطِيعَ أَنْ تُنتِـجَ أَخًـا لَديـهِ هَـذَا الاسـتِعدَادُ الـذِي يَجعَـلُ طاعتَـهُ كمَـا قَـالَ الإمـامُ البنّـا: «الطاعَـةَ امتِثَـالُ الأمْـرِ، وإنفَـاذُهُ تَـوًّا مِـنْ غَيـرِ تـردُّدٍ وَلَا شَـكٍّ وَلا مُراجَعَـةٍ، وَلا جَـدَلٍ، ولا انتِقَـاصٍ، ولَا تَحويـرٍ». هَـذَا هُـوَ مُستَوَىٰ الاسـتِعدَادِ أَو صُـورَة كَمـالِ الطاعـةِ فَكيْـفَ نُحقِّـقُ فِـي الصَّـفِّ تِلـكَ الصـورَةَ؟ وَهَـذَا المُستَوَىٰ؟

مُهِمَّتُنـا نَحـنُ إِجمَـالاً هِـيَ إعـدَادُ هَـذَا الصـفِّ بِالتربيَـةِ الإيمَانيّـةِ العَالِيَـةِ عَميقَـةِ الأثَـرِ طَويلَـةِ الأَمَـدِ، حَتَّـىٰ يَستطيعَ أَنْ يُؤدِّيَ هَـذَا الركْـنَ الشَّـاقَّ عَلَـىٰ النفْـسِ؛ وَبخاصـةٍ عِنـدَ اختِـلافِ الآرَاءِ والاجتِهَـادَاتِ، وَالرغَبـاتِ؛ إِذ يَجِـدُ الأخُ نَفسَـه فِـي مَـأزِقٍ حِيـنَ يَمْتَثِـلُ لأمـرٍ يُنفِّـذُهُ عَلَـىٰ الفَـوْرِ وَهُـوَ غَيـرُ رَاضٍ عَنـهُ، أَوْ غَيـرُ مُوافِـقٍ عَليـهِ، وَهَـذِهِ مُهِمَّـة شَـاقَّةٌ تَحتـاجُ إِلَـىٰ إعـدادٍ وَتربيَـةٍ تَنفِـي الـتردُّدَ بِوضُـوحِ الغَايـةِ وَالمَقْصِـدِ وَوضُـوحِ السَّـلامَةِ وَالصِّحّـةِ فِيهِمَـا؛ لأنّـه مَقْصِـدٌ شَـرعِيٌّ، فَـغَايةُ الجَماعَـةِ والصـفِّ غَايـةٌ شَـرعيّةٌ.

ووضـوحُ الطريـقِ أَوِ القصـدِ نِصـفُ النصـرِ كَمـا يقـولُ الأسـتاذُ سَـيّد قُطب رَحِمَهُ اللَّهُ؛ تَعليقًـا عَلَـىٰ قَـولِ اللهِ تَعالَـىٰ: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ**

(133) انظر حسن البنا: مجموعة *رسائل الإمام البنا*، ص 276.

مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ۖ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: 246]؛ بَلْ سَمَّىٰ الأستاذُ سيدُ قطب وُضُوحَ القَصدِ وَالهدَفِ انتِفَاضةً إيمَانيّةً تُهوِّنُ التكَاليفَ الشَّاقّةَ، فَقَالَ: «وَهَذَا التحْدِيدُ مَنهُم [يقصدُ الملأَ من بنِي إسرائيلَ] لِطَبيعَةِ القِتَالِ، وأَنَّهُ فِي (سَبيلِ الله) يَشِي بِانتفَاضَةِ العَقيدَةِ فِي قُلوبِهِم، وَيَقظَةِ الإيمَانِ فِي نُفوسِهِم، وَشُعورِهم بِأَنَّهم أَهلُ دِينٍ وَعقيدَةٍ وَحَقٍّ، وأنَّ أعدَاءَهُم عَلَىٰ ضَلالَةٍ وكُفْرٍ وَبَاطِلٍ، وَوُضُوحِ الطَّرِيقِ أمامَهم للجِهَادِ.. وَهَذَا الوضُوحُ وهَذَا الحَسْمُ هُوَ نِصْفُ الطريقِ إِلَىٰ النصْرِ. فَلا بُدّ لِلمُؤمِنِ أَنْ يَتضِحَ فِي حِسِّهِ أنّه عَلَىٰ الحَقِّ، وَأَنَّ عَدُوَّهُ عَلَىٰ البَاطِلِ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَتجرَّدَ فِي حِسِّهِ الهَدَفُ (فِي سَبيلِ اللهِ). فَلا يُغشِّيهِ الغَبشُ الَذِي لَا يَدْرِي مَعَهُ إِلَىٰ أَينَ يَسِيرُ. وقَد أَرَادَ نَبيُّهم أنْ يَستَوْثِقَ مِنْ صِدْقِ عَزيمَتِهِم، وَثَباتِ نِيتِهِمْ، وتَصْمِيمِهِم عَلَىٰ النهُوضِ بِالتبِعَةِ الثقِيلَةِ، وَجِدِّهِمْ فِيمَا يَعرِضُونَ عَلَيهِ مِنَ الأَمْرِ»[134].

فوضوحُ القَصْدِ وَالهَدَفِ أَمرٌ مُهِمٌّ جِدًّا، وحينَ يَكونُ الهَدفُ ضَئِيلًا فَستكُونُ الهِمَّةُ أَوَ العَزِيمَةُ عليهِ ضَعيفةً بَاهِتَةً شَاحِبَةً كَذلِكَ، وَقَد يَعتريهَا الترَدُّدُ فِي أَوَّلِ مِحنَةٍ، **وَلَكِنْ إِذَا كانَ الهَدَفُ وَاضِحًا، والمُهِمّةُ وَاضحَةً وَالغايةُ وَاضَحةً، فإنَّ العزيمةَ بِلَا شَكٍّ عَلَىٰ الطاعةِ وَالامتِثَالِ وَالتنفِيذِ فِي العُسرِ وَاليُسرِ وَالمنْشَطِ وَالمكرَهِ؛ ستكونُ قَويَّةً جِدًّا.**

وَأَنَا أَذكرُ أنَّ بعضَ إِخْوانِنَا فِي محنةِ (1965) اهتزَّ اهتزازًا عنيفًا أوّلَ أيامِ الاعتقالِ؛ لأنَّ الغايةَ لَم تَكنْ وَاضحةً أَمَامَهُ، وَلأنَّ التربيَةَ لَمْ تَأخُذْ

(134) سيد قطب: *في ظلال القرآن*، مكتبة الشروق، 1/ 266.

حَقَّها مِن طُولِ الأمَدِ، وَعُمقِ الأثَرِ؛ لأنَّ الفترَةَ كَانَتْ قَصيرَةً، واللقَاءاتِ كانتْ مَحدودَةً، والكلامُ عنِ الغَايةِ وَالهَدَفِ لَمْ يَكُنْ وَافِيًا كذلكَ، وَمن ثَمَّ كانَ هُناكَ نَوعٌ مِنَ الغمُوضِ أوِ التشَوُّشِ وَاللَّبْسِ لَدَىٰ بَعْضِنَا، حَتَّىٰ كانَ هُنَاكَ مَنْ يتصَوَّرُ أنّنا سَنَنتَقِمُ لِلإخْوَانِ نتيجةً لِمَا حَدثَ لَهُم سَنةَ (1954م)، وَقَد يُصرِّحُونَ بِذلِكَ، وَهَذِهِ كانتْ فَترةً مِن فَتراتِ الإعدَادِ استَمرَّتْ عَلَىٰ هَذَا النحْوِ؛ إِلَىٰ أنِ التَقَتِ المَجمُوعَةُ الّتِي كانَتْ مَسؤولَةً عَنِ الصَّفِّ بِالأُستاذِ سَيدِ قُطْب، فغَيَّرَ هَذَا الهدَفَ وحوَّلَهُ تَمامًا، وقَالَ لَهُمْ بِأنَّ هَذَا هدَفٌ غَيرُ جَديرٍ بِهَذَا العَملِ المُضْنِي، وأنَّ الإعدادَ لِكتِيبَةِ صِدَامٍ أَوْ لِفرقَةٍ انتِحَاريّةٍ يَختَلِفُ تَمامًا عَنِ الإعدَادِ لِتَغْيِيرِ عُرْفِ الأُمّةِ وَتَهيئَتِهَا وَتربيَتِهَا لِتقُومَ بِالواجِبِ الذِي غَفلَتْ عَنهُ مَنْ أَمْرٍ بِالمعرُوفِ وَنَهْيٍ عَنِ المُنكَرِ، وَهُوَ قُطْبُ الدِّينِ الأَعْظَمِ وَالمُهَمَّةُ التِي مِنْ أَجْلِهَا أَرسَلَ اللهُ الأنبياءَ وَبعثَ المُرسَلينَ.

وفرْقٌ كبيرٌ جِدًّا بينَ الغَايتَينِ، وَلِذَلِكَ أَحْدَثَ عدمُ التَّصورِ الصحيحِ للغايةِ فِي النفُوسِ نَوْعًا مِنَ التردُّدِ ونَوعًا مِنَ التفَلُّتِ، ونوعًا مِنَ النكُولِ[135] فِي الإرَادَةِ أَوِ التقَاعُس؛ لأنّه فَرقٌ كَبيرٌ بينَ أَنْ تُكوِّنَ فَريقًا لِيكُونَ كَتِيبةَ صِدَامٍ، وأَنْ تُكوِّنَ رِجَالًا يَحمِلُونَ عِبْءَ دَعوَةٍ وَعِبْءَ جِهَادٍ طَويلِ المَدَىٰ، بَعيدِ المراحلِ كَثيرِ العَقباتِ كَما يَقولُ الأستاذُ البنَّا رَحِمَهُ اللهُ.

فطريقُ الدَّعوةِ الطَّويلُ يَحتاجُ إِلَىٰ نوعٍ مِنَ الأخلاقِ، وَمِنَ السُلوكِ، وَمِنَ المَواهِبِ، وَمِنَ المَدارِكِ، وَمِنَ الطَّاقَاتِ وَمِنَ الاستِعدَادِ الحَقيقِيِّ وَيَحتَاجُ إِلَىٰ تَربيةٍ إيمانيّةٍ عَاليةٍ عَميقَةِ الأَثَرِ، طَويلَةِ الأَمَدِ، غَيرِ الإعدَادِ العَاجِلِ السَّريعِ القَصيرِ لِكتِيبَةِ صِدَامٍ أَوْ فِرقَةٍ انتحَاريّةٍ.

(135) مادة: نكل: النُّكول: الجُبن والنُّكوص عن الأمر. المعجم الوسيط. ونَكَلَ عَنِ الحَرْبِ: جَبُنَ وَتَرَاجَعَ وَلَمْ يَقْدِرْ. معجم الغني.

لَكِـنْ أَنْ تُخـرِجَ الأُمّـةَ مِـن وُقُوعِهَـا فِـي أَسْـرِ أَهـلِ الكُفـرِ وَالعُـدوانِ، وَأَنْ تُهيِّـئَ النفُـوسَ لِتتحَـرَّرَ مِـنَ الإِلْـفِ والعَـادَةِ، ولِتتَزكَّـىٰ الأَخْـلَاقُ، وتقَـوَىٰ الإِرادَاتُ، فَتتهيَّأَ لِلقيـامِ بِوَاجبِهَـا فَهَـذَا أَمْـرٌ شَـاقٌّ طَويـلٌ يَحتـاجُ إِلَـىٰ نـوعٍ مِـنَ الإِعـدَادِ يَختلِـفُ تَمامًـا عَـن هَـذَا النـوْعِ السَّـابِقِ، وَلذَلِـكَ لَـمْ يَحتَمِـلْ بَعـضُ الإِخـوةِ المُواجَهَـةَ الشَّرسَـةَ العنيفَـةَ أَثنـاءَ الاعتقـالِ والتحْقِيقَـاتِ؛ لأَنَّـه لَـمْ يَتصَـوَّرْ أَنْ يُواجِـهَ تِلْـكَ الشَّراسَـةَ فِـي التَّحقِيقَـاتِ، وَفِـي التعْذِيـبِ، وَهَـذِهِ الأحكامَ القَاسيَةَ التِي صَـدَرَتْ فِي حَقِّ البَعْـضِ، ولأنَّ الإِعـدَادَ لَـم يَكُـنْ مِـن أَجْـلِ هَـذَا المُستَوَىٰ العالِي مِنَ التربيَةِ الإِيمَانيةِ. وَكمَـا يقُـولُ الأُستاذُ سيدُ قُطـبَ رَحِمَهُ اللَّهُ: أمـامَ الهَـوْلِ الحَـيِّ تَتهـاوَىٰ العزَائِـمُ ، وَتتزَلْـزَلُ القُلُـوبُ.

وَهَـذَا حَـقٌّ، لأَنِّـي أَذكُـرُ أَنَّ أَحَـدَ إِخْوانِنَـا كَان رَائِعًـا جِـدًّا، وكانَ مَعنَـا فِـي آخِـرِ لِقَـاءٍ، حيـثُ التقَيْنَـا فِـي شَـقّةِ الأخِ مُرسِـي، واعتُقِلْنـا بَعدَهَـا بأيـامٍ قَليلـةٍ، وكانَـتْ رُوحُـه عَاليـةً، وحَماسَـتُه فَائِـرَةً، ثـمَّ التَقيْتُـهُ بعـدَ أيـامٍ قَليلةٍ فِي السـجْنِ الحَربـيِّ، فكانـتْ أَوَّلُ كَلمَـةٍ يَقُولُهـا لِـي: مَـا هَـذِهِ المُصيبـةُ الّتِـي نَحـنُ فِيهَـا يَـا أَخّ صَـلاح؟! إِنَّـهُ: الاهتـزازُ أَمَـامَ الهَـوْلِ الحَـيِّ تتهَـاوَىٰ العَزائِـمُ وتَتزلـزَلُ القُلـوبُ، فلَـم يَكـنْ مُتصـورًا أَبَـدًا أَنْ يَحْـدُثَ كُلُّ هَـذَا لَنَـا، وإِنْ لَـمْ يُسْـعِفِ الأخَ وُضـوحُ الهـدَفِ، وسَـلامَةُ القَصْـدِ فِـي نَـفْسِهِ، وَصِحَّتُـه وشَـرْعِيَّتُهُ؛ فَلـنْ يَسـتطيعَ أَبَـدًا أَنْ يَصْمُـدَ أمـامَ ذَلِـكَ كُلِّـهِ، وَلَكـنِ الحَمـدُ للهِ، بفَضْـلِ تَعهُّـدِ الإِخـوَةِ لَـهُ وَلنَـا فِـي هَـذِهِ الظـروفِ العَصِيبَـةِ استَطَعْنَا أَنْ نَجتـازَ تِلْـكَ العقَبـةَ الكـؤودَ التِي وَاجَهْتَنـا، وتَهـاوَتْ فِيهَـا العزائِـمُ وَزُلزِلَـتِ القلـوبُ أَمَـامَ الهـوْلِ الحَـيِّ، ورُغْـمَ أنّ هـذَا الأَخَ قَـد حُكِـمَ عَلَيـهِ بالسـجْنِ لمُـدَّةِ خَمـسَ عَشَـرةَ سَـنةً، قضَـىٰ مِنهَـا عَشـرَ سِـنينَ فِـي السِّـجْنِ، فإنـهُ ظَـلَّ مِثالًا لِلصَّـبرِ وَالتجَـرُّدِ والثبـاتِ وَالجِهـادِ وَالتضْحِيَـةِ.

وحـدوثُ الزلْزَلَـةِ طبيعَـةٌ بشـريةٌ كَمَـا يقـولُ الأسـتاذُ سَـيدُ، وَقَـدْ زُلـزِلَ

صحابـةُ رَسُـولِ اللهِ ﷺ أمَـامَ الهَـوْلِ الحَـيِّ يـوم الخنـدق، قـالَ تَعالَـىٰ: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا (10) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا(11)﴾ [الأحزاب]. فَالزَّلزلَـةُ أَمْـرٌ واردٌ مُمكـنُ الحُـدُوثِ، لَكِـنْ لَا يَنبغِي أنْ يُؤدِّيَ إِلَىٰ هزيمةٍ أو فِرَارٍ أَوْ تَفلُّتٍ مِنْ طَاعةٍ، أَوْ نُكْثٍ فِي عَهدٍ، أَوْ نَقْضٍ لِوَعْـدٍ. يقـولُ الأستاذُ سيدُ قُطْـب رَحِمَهُ اللَّهُ، تَعلِيقًـا علَـىٰ هـذِهِ الآيـةِ: «لَقَـدْ كَانُـوا نَاسًـا مِـنَ البشَـرِ، لَا يَملِكُـونَ أَنْ يَتخَلّصُـوا مِـن مَشـاعِرِ البشَـرِ، وَضَعْـفِ البشَـرِ. وَلَيْسَ مَطلوبًا مِنهُـم أَنْ يَتجاوَزُوا حُـدودَ جِنسِـهِمُ البشَـرِيِّ، وَلَا أَن يَخرجُـوا مِـن إطَـارِ هَـذَا الجِنْسِ، ويَفقِـدُوا خصَائِصَـهُ وَمُميزَاتِـهِ. فَلِهـذَا خَلقَهُـم اللهُ. خَلقَهُـم لِيبَقَـوْا بَشَـرًا، وَلَا يَتحَوَّلُـوا جِنْسًـا آخَـرَ. لَا مَلائكـةَ وَلَا شَياطِينَ، وَلَا بَهيمَـةً وَلَا حَجَـرًا .. كَانُـوا نَاسًـا مِـنَ البشَـرِ يَفزَعُـونَ، وَيَضيقُـونَ بالشَّـدّةِ، وَيُـزَلْـزَلُونَ لِلخَطَـرِ الـذِي يَتجَاوَزُ الطاقَـةَ. ولَكنَّهـم كَانُـوا – مَـعَ هَـذَا – مُرتبطِيـنَ بِالعُـروةِ الوُثْـقَىٰ التِي تَشَـدُّهُمْ إِلَـىٰ اللهِ وَتَمنعُهُـم مِـنَ السُّـقُوطِ، وَتَجـدد فِيهـم الأَمـل، وتَحرسُـهُم مِـنَ القُنـوطِ.. وَكَانُـوا بِهـذَا وَذَاكَ نَموذَجًـا فَريـدًا فِي تَاريـخِ البشَـريّةِ لَـم يُعرَفْ لَـه نَظِيـرٌ.

وَعَلينَـا أَنْ نُـدرِكَ هـذَا لِنُـدرِكَ ذَلِـكَ النمُـوذجَ الفَريـدَ فِي تَاريـخِ العصُـورِ. عَلينَـا أَنْ نُـدرِكَ أَنَّهُـم كَانُـوا بشَـرًا، لَـم يَتخَلَّـوْا عَـن طَبيعَـةِ البشَـرِ، بِمَـا فِيهَـا مِـنْ قُـوَّةٍ وَضَعـفٍ. وَأَنَّ مَنشَـأَ امتِيَازِهِـمْ أَنّهُـم بَلغُـوا فِي بَشـرِيّتِهِم هَـذهِ أَعْلَـىٰ قِمَّـةٍ مُهيّـأةٍ لِبَنِـي الإنسَـانِ، فِـي الاحتِفَـاظِ بِخَصَائـصِ البشَـرِ فِـي الأَرْضِ مَـعَ الاستِمْسَـاكِ بِعُـروَةِ السَّـمَاءِ.

وَحِيـنَ نَـرَانَا ضَعُفْنَـا مَـرةً، أَو زُلْزِلْنَـا مَـرةً، أَوْ فَزِعْنَـا مَـرةً، أَوْ ضِقْنَـا مَـرَّةً بِالهَـوْلِ وَالخَطَـرِ وَالشِّـدَّةِ والضِّـيقِ.. فَعلَينَـا أَلَّا نَيـأَسَ مِـنْ أَنفسِـنَا، وَأَلَّا نَهلَـعَ وَنَحسَـبَ أَنّنـا هَلَكْنَـا، أَوْ أَنّنـا لَـمْ نَعُـدْ نَصْلُـحُ لشَـيْءٍ عَظِيـمٍ أَبَـدًا! وَلَكِـنْ عَلينَـا

فِي الوقْتِ ذَاتِه ألَّا نَـقِفَ إِلَىٰ جِوَارِ ضَعْفِنَا؛ لأنّه مِنْ فِطرَتِنَا البشَرِيّـةِ! وَنُصِرَّ عَليهِ لأنَّـهُ يَقعُ لِمَـنْ هُـمْ خَيرٌ مِنَّا! هُنالِكَ العُروَةُ الوُثْقَىٰ. عُـروَةُ السَّماءِ. وَعَلينَـا أنْ نَستمْسِـكَ بِهَـا لننْهَـضَ مِـنَ الكَبـوَةِ، ونَسـتردَّ الثقَـةَ وَالطمأْنينـةَ، ونتَّخِذَ مِنَ الزلْزَالِ بَشِيرًا بِالنصْرِ. فنَـثْبُتَ ونَستَقِـرَّ، وَنَـقْوَىٰ وَنَطمَئِنَّ، وَنَسِيرَ فِي الطَّرِيـقِ..

وَهَـذا هُـوَ التـوَازُنُ الـذِي صَـاغَ ذَلِكَ النمُـوذَجَ الفَريـدَ فِي صَـدْرِ الإسلامِ. النمـوذجَ الـذِي يَذكُـر عنـهُ القُـرآنُ الكَريـمُ مَواقِفَـه الماضيَـةَ وَحُسْـنَ بَلائِـه وَجِهَـادِهِ، وثَباتَـه عَلَىٰ عَهـدِهِ مَـعَ اللهَ، فمِنْهُـم مَـنْ لَقِيَـه، وَمِنْهُـم مَـنْ يَنتَظِـرُ أَنْ يَلقَـاهُ ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾[الأحزاب: 23]»[136].

ولهَـذَا نَصَـحَ الأُستاذُ سَيدُ رَحِمَهُ اللَّهُ القيـاداتِ فِي تعامُلِهَـا مَـعَ الصفُـوفِ فِي مِثلِ هَـذِهِ الظـروفِ العصِيبَـةِ بـأنْ تَحـذَرَ مِثْـلَ تِلْـكَ الحماسَـاتِ الفَائِـرَةِ التِي تَسـمَعُها مِـنَ الصَّـفِّ بَعِيـدًا عَـنِ الهـوْلِ الحَـيِّ تَسـمَعُ حَماسـةً فَائـرَةً ورَغْبـةً ﴿وَمَـا لَنَـا أَلَّا نُقَاتِـلَ فِـي سَـبِيلِ اللَّهِ وَقَـدْ أُخْرِجْنَـا مِـن دِيَارِنَـا وَأَبْنَائِنَـا﴾، لَكِـنْ أَمـامَ الهْـوَلِ الحـيِّ تَختلِـفُ الأمـورُ تَمامًـا، وَمِـنْ ثَـمَّ فـإنّ الاغتِـرَارَ بِتلْـكَ الحمَاسَـةِ الفَائـرَةِ مَعْنـاهُ نَـقْصٌ فِي الإعـدَادِ والتربيَـةِ؛ مِمَّـا يجعـلُ الاسـتِعْدَادَ الموجـودَ غَيـرَ حَقيقِـيٍّ، وَلَا يَصِـحُّ الاعتِمَـادُ عَلَيـهِ فِي اتِّخَـاذِ قَـرارٍ، أو الإقْـدَامِ عَلَىٰ خُطـوَةٍ تَنفِيذِيَّـةٍ؛ وَالصَّـفُّ عَلَىٰ غَيـرِ المُستوَىٰ المَأمُـولِ، وَلِذلِـكَ أَذكُـر أنّ الأسـتَاذَ سَيِّد قُطْـبرَحِمَهُ اللَّهُ فِي نِهايَـةِ المِحنَـةِ وَقبـلَ إعدَامِـهِ بأيـامٍ قليلـةٍ، قَـالَ لإخوانِـهِ الذيـنَ كَانُـوا معَـهُ وخُفِّـفَ عَنهُـم الحُكْـمُ فِـي اللحظَـاتِ الأخيـرَةِ إِلَـىٰ المؤبَّـدِ؛ مِثْـلَ الأخِ صَـبري عَرفـةَ، قَـالَ لَهُـم: [لَقَـدْ كُنّـا فِي هَـذِهِ المِحنَـةِ عَلَىٰ غيرِ المُستوَىٰ المطْلوبِ مِنَّا، وَلَا مُستوَىٰ التضحيَـةِ اللَّائِـق.. عَلَينـا أَنْ

(136) سيد قطب: *في ظلال القرآن*، مكتبة الشروق، 5/ 2844.

نَعترفَ بأخطَائِنَا حَتَّىٰ تَتدَارَكَها الأجيَالُ..حَسْبُنا أنَّنا لَمْ نَكُنْ سَببًا فِي هَذِهِ المِحْنَةِ، وإنَّما كان ذَلِكَ هُوَ مِنْ قَدرِ اللهِ وَفِعْلِه الحَكيمِ]. لأنَّه أحسَّ أنَّ الصفَّ لم يكن قد بلغ من الإعداد الإيماني والتربوي العميق ما يؤهِّله لتحمُّل أعباء جهادٍ طويلِ المدىٰ، كثيرِ العقبات، بعيدِ المراحل، رغم أنَّ مستوىٰ الأداء، في تقدير بعضنا، لا يُقارَن.

وَقَد أَرَادَ الأستَاذ سيدُ رَحِمَهُ اللَّهُ بقولِهِ «بَعضنَا» أَمثَالَنَا مِنْ ذَوِي النظَرِ المَحدُودِ، أَوْ مَنْ يتأثَّرُ بالحَماسَاتِ الفَائرَةِ وَالفَلتَاتِ العَارِضَةِ، لكنَّ صَاحِبَ التفكِيرِ وَالنظَرِ العَميقِ مِثلَ الأستَاذِ سَيِّد رَحِمَهُ اللَّهُ أَدرَكَ أنَّ المُستوَىٰ لَمْ يَكُنْ عَلَىٰ قَدْرِ المَطلُوبِ، وأنَّه يَنبغِي أنْ يَكونَ هُناكَ إِعدَادٌ أَكثَرَ مِن ذَلِكَ لكنَّه قَدَرُ اللهِ وَفِعلُه الحَكِيمُ.

وَهَذِهِ مُهمَّتُنا نَحنُ إِجْمَالًا: أَنْ نُهيِّئَ النفُوسَ لِاختِيَار مَطالِبِ الإِيمَانِ، والامتِثَالِ لِهَذِهِ المَطالِبِ، وَمَا تَقتَضِيهِ من طَاعةٍ وَاستِعدَادٍ نفسِيٍّ هَائلٍ لِتحمُّل تِلكَ الأعباءِ فَلا يَحدُثُ التَّردُّدُ؛ لأنَّ الهدَفَ وَاضِحٌ، والقَصْدَ سَليمٌ، وَالغايةَ وَالمُهِمَّةَ شَرعِيَّةٌ، والأدلَّةُ عَلَىٰ ذَلِكَ قَائِمَةٌ، كَمَا كَانَ يكررُ الإِمَامُ البنَّا: فِكرَتُنَا إِسْلَامِيَّةٌ صَمِيمَةٌ.

رَفْعُ الْحرَجِ وَجَلْبُ التَّيسِيرِ

أَذكُرُ أنني رأيتُ الأستاذَ سَيدَ قُطب رَحِمَهُ اللَّهُ، ونَحنُ مَعَهُ فِي قفصِ الاتّهام فِي القضيّةِ الأُولَىٰ، وأنّه هَمَسَ لِلأَخِ الّذِي بجِوارِهِ أنّه يريد أن يرىٰ الجَميع، وَكَانَ يَرانَا للمرَّةِ الأُولَىٰ، فنظَرَ خَلفَهُ- وكانَ الكَلامُ والسلامُ مَمنوعَينِ أثنَاءَ المُحاكمَاتِ- فَرأَىٰ أربعِينَ شَابًا، كُلُّهُم أعمَارُهم مَا بينَ العِشرِينَ وَالثلاثِينَ، فَهُم قليلُو الخِبرَةِ وَالتجْرِبَةِ مِنْ نَظرتِهِ لَهم، وَهُوَ رَجلٌ مُعلِّمٌ وَمُربٍّ، فَأَدْرَكَ أنَّ الهولَ الّذِي سَيوَاجَهُونَهُ فَوقَ طَاقَتِهم؛ ولِذلِكَ

لَمَّا وقفَ أمامَ رِجَالِ التحْقيقَاتِ قَالُوا لَه: انظُر إِلَىٰ الشبابِ الذِينَ رَبيتَهُم اعترفُوا جَمِيعًا، فكانَ رَدُّهُ: إِنَّ مَا يَحدُثُ هُنَا فوقَ طَاقَةِ البشَرِ، ونَرَاهُ هَنا رَفَعَ الحَرجَ بِغَيرِ مُسَوغٍ وَلا مُراجعَةٍ وَلا تَردُّدٍ وَلَا حرَجٍ.

هـذَا المَوقِفِ موقف مِعطَاءٌ في قِيَمِهِ ومعانيهِ، واليَومَ نَخْرُجُ بمعنًىٰ مُهمٍّ جِدًّا، وهوَ: **أَنْ تَرفَعَ الحرَجَ عَمَّنْ أمامَكَ؛ بأنْ تُكلِّفَهُ مَا فِي مَقدُورِهِ وَوُسْعِهِ، فترفَعُ عَنهُ الحَرجَ، فَتُعينُه عَلَىٰ الطَّاعةِ، لأنّهَا تكليفٌ، وَالإنسَانُ يَنبغِي أَنْ يُعانَ عَلَىٰ التكلِيفِ. وَهَذَا مَنهجٌ قُرآنِيٌّ فَريدٌ**، فَالإنسَانُ مُكَلَّفٌ وَمُعَانٌ عَلَىٰ التكْليفِ كَذلِكَ.

وكَمَا يَقولُ الأستَاذُ سَيدُ قُطْب رَحِمَهُ اللهُ بأنّ الإنسَانَ يُعَانُ بِمَا فِيهِ مِن مَواهِبَ وَقُدرَات، وأنَّه «مُعَانٌ عَلَىٰ هذهِ الخِلافَةِ؛ مُعانٌ مِنَ اللهِ سُبحانَه بِجَعْلِ النّواميسِ الكَونيةِ وَطَبيعَةِ الكَونِ الذِي يَعيشُ فِيهِ مُعاوِنَةً لَهُ»[137]، بِغَيرِ أَجرٍ كَمَا يقولُونَ، وَهَذَا هُوَ مَعنَىٰ السُّخْرَةِ (الخِدمَةُ بُغَيرِ أَجرٍ)، نَاهِيكَ بِأَنَّهُ مُعانٌ بِمَا جَاءَتْ بِهِ الرسُلُ مِنَ الرسَالاتِ للهدَايةِ والإرْشَادِ، فَهُوَ مُكَلَّفٌ ومُعَانٌ عَلَىٰ التكليفِ كَذَلِكَ؛ فأيُّ تكليفٍ شرعيٍّ قائمٌ علىٰ التيسير ورفع الحرج، لا علىٰ التعسير وإيقاع المشقة. فالمشقة تجلب التيسير. كما يقول الفقهاء[138].

وَيعنِي مَا سبقَ أنَّ مُهمّةَ القِيادَةِ، أَنْ تَرفَعَ الحَرجَ عَنْ إِخْوَانِهَا فِي الصَّفِّ، فَلَا تكلفُهُم بِمَا فوقَ طَاقتِهِم أَوْ وُسْعِهِمْ، فَتُعسِّرَ عَليهِم أَمْرَ الطَّاعَةِ؛ إِذَا طَلَبَتْ إِلَىٰ الصفِّ فِعْلَ شَيْءٍ يَصعُبُ تَحقِيقُه، وَلَا سِيَّما أبنَاءُ الصفِّ الذِينَ لَم يَأخذُوا قِسْطًا وافرًا مِنَ التَّربيةِ، وَتَطلبُ إليهِم أَلَّا

(137) سيد قطب: *خصائص التصور الإسلامي ومقوماته*، دار الشروق، القاهرة، ص 165.
(138) ابن نُجَيْم، *الأشباه والنظائر علىٰ مذهب أبي حنيفة النعمان*، ج1، ص245«: القاعدة الرابعة: «المشقة تجلب التيسير».

يَشُكُّوا وَلَا يُـراجِعُوا وَلا يَتحرَّجُـوا. وَذَلِـك مَـا رعَـاهُ الأستَاذُ سَيدُ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَمنْ ثَـمَّ هَمَسَ فِـي أُذُنِ مَـنْ كانَ بجـوارِهِ وَقَـالَ لَـه: قُـلْ لَهُـم: مَـنْ تَضعَـطْ عَلَيـهِ الحكومَـةُ حَتَّـىٰ يُـؤَيّدَ فَلَـهُ أَنْ يَـفْعَلُ، وَلَـم يَفْعَلْهَـا أَحَـدٌ إِلَّا عَلِي عَشْـمَاوِي. وَفِي ذَلِكَ دِلَالَـةٌ علَىٰ بُعْـدِ نَظَرِهِ، وثَاقبِ فَهْمِـهِ رَحِمَهُ اللَّهُ؛ حَيْثُ رَاعَىٰ قُـدرَاتِ النَّـاسِ المَوجُـودَةِ وطَاقتَهـم، فَلَـم يَطلُـبْ مِنهُـم شَـيئًا، وَهُـوَ يَعلَـمُ أَنَّـهُ شَـاقٌّ عَليهِـم.

وَحِيـنَ تَرفُـقُ القيَـادةُ بأبنـاءِ الصَّـفِّ، وَلَا تُحمِّلُهـم مَـا لا طَاقـةَ لَهُـم بِـهِ، فَإِنّهَـا بذَلِـكَ تَهتَـدِي بِسُـنّةِ رَسُـولِ اللهِ ﷺ، إِذْ كَانَ رَحِيمًـا بأصحَابِـهِ، يُبايعُهُـم فَـلا يَشـقُّ عَلَيهِـم، بَـلْ يُلقِّنُهـم (قُـلْ مَـا اسْتَطَعْتَ)، فَعـن عَبـدِ اللهِ بنِ عُمـرَ قَالَ: « كنَّـا نُبايـعُ النَّبـيَّ ﷺ عَلَـىٰ السَّـمْعِ والطَّاعـةِ، ويُلقِّنُنـا: فِيمَـا اسـتَطَعْتَ»[139]. يقـولُ الإمَـامُ النـوَوِيُّ: «هَكَـذَا هُـوَ فِـي جَمِيـعِ النُّسَـخِ (فِيمَـا اسْـتَطَعْتَ)؛ أَيْ قُـلْ (فِيمَـا اسْتَطَعْتُ)، وَهَـذَا مِـنْ كَمَـالِ شَـفَقَتِهِ ﷺ، وَرَأْفَتِـهِ بِأُمَّتِـهِ، يُلَقِّنُهُـمْ أَنْ يَقُـولَ أَحَدُهُـمْ: (فِيمَـا اسْـتَطَعْتُ) لِئَـلَّا يَدْخُـلَ فِـي عُمُـومِ بيعَـةِ مَـا لَا يُطِيقُـهُ، وَفِيـهِ أَنَّـهُ إِذَا رَأَىٰ الْإِنْسَـانُ مَـنْ يَلتزِمُ مَـا لَا يُطِيقُـهُ يَنْبَغِـي أَنْ يَقُـولَ لَـهُ: لَا تَلْتَزِمْ مَـا لَا تُطِيـقُ فَيـترُكَ بَعْضَـهُ وَهُـوَ مِـنْ نَحْـوِ قَوْلُـهُ ﷺ: عَلَيْكُـمْ مِـنَ الْأَعْمَـالِ مَـا تُطِيقُـونَ»[140]، وَهَـذَا مُستَوًىٰ عَـالٍ جِـدًّا مِـنَ التربيـةِ الإيمَانيـةِ، أَوْ مِـنَ التحَمُّلِ الإيمَانِـيِّ.

وَقَـد رَفَـقَ الأستَاذِ الهُضيبِـيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ بِإِخْوَانِـهِ؛ إِذْ أَتَـاهُ بعضُهُـم يطْلُبُـونَ مِنْـهُ أَنْ يُؤَيِّـدُوا، فقَـالَ لَهُـم: أَيِّـدُوا، وَكَانَ بعـضُ الإِخْـوانِ يَعيبُـونَ عَلَيـهِ ذَلِـكَ؛ وَيَلومُونَـهُ: كَيـفَ تَقـولُ لَهُـم هَـذَا؟ أَتُرِيدُ أَنْ يَـنفَضَّ النـاسُ مِنْ حَولِـكَ؟ فكانَ يَـردُّ عَليهِـم: إِنَّ هَـذَا إِكـرَاهٌ، أَوْ مُستوًىٰ الإِكـراهِ هُنَـا مَوجـودٌ وقَائِـمٌ ولَا كَهنُوتَ

(139) أخرجه أبو داود (2940) واللفظ له، وأخرجه البخاري (7202)، ومسلم (1867) باختلاف يسير.
(140) الإمام أبو زكريا النووي: *المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج*، ط 2، دار إحياء التراث العربي – بيروت، 1392هـ، 13/ 11.

فِي الإِسْلَام، أَنتُمْ لَا تَعرِفُونَ هَذَا؟ يقولونَ: نَعم، فيقولُ لهم: حَسَنٌ، لِمَاذَا أنتُم ثَابتُونَ؟ ثُمَّ هُمْ يَرْوْنَنِي قَاعِدًا وثَابتًا لم أتزحْزَح، ولذلِكَ قَامَ ونَشَرَ مَنشُورَهُ هَذَا الّذِي جَاءَ فِيهِ إِنَّ الإِكْرَاه مُستوَاهُ كَذَا وكَذَا.. واستَدَلَّ بأقوَالِ العُلماءِ فِي مُستَوىٰ الإِكْرَاهِ، ومِمَّا قَالَه فِي هَذَا المنشُورِ الذِي وُزِّعَ عَلَىٰ الإِخْوَةِ فِي السِّجْنِ: وَالتهْدِيدُ مِمَّنْ يَملِكُ تَنفيذَهُ إِكرَاهٌ، قَالَ تَعالَىٰ: ﴿**قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ**﴾ [الشعراء: 29]. وَهَذَا يَمْلِكُ تَهدِيدَهُ ويَملكُ تَنفِيذَهُ؛ لأنّه هُوَ الحَاكِمُ وَمَعهُ السلْطَةُ، فَمُجرَّدُ التهْدِيدِ هو نَوعٌ مِنَ الإِكرَاهِ، وَمَتَىٰ تَحقَّقَ الإِكرَاهُ، فَهذَا مَوضِعُ قَوْلِ اللهِ تَعالَىٰ: ﴿**إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ**﴾[النحل: 106]. فَبعدَمَا ذَكرَ الأستاذُ الهُضيبي حُدودَ الإكرَاهِ، عَلَّقَ وكَتبَ فِي آخرِ المَنشُورِ: «... إِلَّا أنّه لَا يَجتَمِعُ صَفٌّ عَلَىٰ رُخْصَةٍ، وقَدْ نَدَبْنَا أنفُسَنَا للأخذِ بالعزِيمَةِ، وَنَأمرُ إِخوانَنا بالأخْذِ بِهَا؛ فَالصَّبرُ أَوْلَىٰ وَأَحَبُّ». وكانَ عُنوانَ المَنْشُورِ: (الصَّبْرُ أَوْلَىٰ وأحَبُّ).

التربيةُ الإيمانيةُ العَالِيةُ

وَمِن ثَمَّ فَهَذِهِ هِيَ الطاعةُ الراضِيَةُ كَمَا يُعَبِّرُ عَنْهَا الأستاذُ سَيدُ قُطبٍ رَحِمَهُ اللهُ فِي كتابِهِ الظِّلال يقولُ: إنَّ الطاعةَ الراضيَةَ أَنْ يَكونَ التَّابعُ والمتبوعُ كِلاهُمَا يُطيعَانِ بالمُستَوَىٰ نفسِهِ مِنَ الرِّضَىٰ والارتياحِ.

بِمَعْنَىٰ: أَنَّنِي لَا أُخْفِي عَمَّنْ يَسِيرُ مَعِي شَيْئًا مِنْ رُخَصِ الشَّرْعِ، فَأَعْلَمُ أَنَّ هُنَاكَ حَدًّا يَجُوزُ فِيهِ التَّرَخُّصُ، ثُمَّ أَكْتُمُهُ عَنِ الصَّفِّ؛ لِئَلَّا يَنْصَرِفُوا عنِّي، فَأُكَلِّفَهُمْ مَا لَا يُطِيقُونَ، فَإِنَّ هَذَا أَمْرٌ فِي مُنْتَهَىٰ الْخُطُورَةِ.

ولذلكَ قالَ الأستاذُ الهُضيبِيُّ: لَا كَهنُوتَ فِي الإسلامِ- أَنتُم لَا تَعرفُونَ هَذَا - فكُلُّ وَاحدٍ يَختارُ لِنفْسِه مَعَ ربِّه، يتَعاملُ مَعَ رَبِّهِ بالصورَةِ الّتِي

يرتَاحُ إِلَيْهَا يعرِفُ مَا هِيَ حدودُ الله وشَرعُه؟ ومَا رُخَصُه وعَزائِمُه؟ وَبعدَ ذَلِكَ يأخُذُ بالرخْصَةِ أَو بالعزِيمَةِ، ومَنْ يأخُذْ بالعزيمَةِ يَكونُ عَنْ رِضًىٰ وارتياحٍ، لأنَّ كُلَّ أمرٍ لَه توابعُه، ولَه آثارُهُ المترتِّبةُ عَلَيهِ، ولَهُ نَتائجُهُ؛ فإنَّ الإنسَانَ لَو لَمْ يَتقبَّلْ ذَلِكَ بالارتيَاحِ وَالرِّضَىٰ سَيعيشُ فِي حَرجٍ شَديدٍ.

وَلِذلِكَ من كلماتِ الأستاذِ سَيدِ قُطب رَحِمَهُ اللَّهُ: إِنَّ التشَدُّدَ لَا يَزِيدُ المُتحرِّجينَ إِلَّا تَحَرُّجًا، فالذِي يُرِيدُ أَنْ يَتفلَّتَ فَلا خَيرَ فِيهِ مُنذُ البَدْءِ.

إِذَا كُنْتَ تُرِيدُ أَنْ تَتشَدَّدَ لِكَيْ تُبْقِيَ عَلَىٰ النَّاسِ مَعكَ، فالذِي يُرِيدُ أَنْ يتفَلَّتَ لَن يَنفعَهُ هَذَا التشَدُّدُ إِنَّمَا سَيضُرُّ المُتحرِّجِينَ أَصْلًا فإنَّ التشَدُّدُ لَا يَزِيدُهمْ إلا تَحرُّجًا.

ولذلكَ، فإنَّه إذا توافرتِ التربيةُ الإيمانيَّةُ العاليةُ، طويلةُ الأمدِ، عميقةُ الأثرِ، تيسَّرَ أمرُ الطاعةِ، فلا يكونُ ثَمَّ حرجٌ وأنتَ تؤدِّيها؛ إذ لا تُكلَّفُ بما ليس في مقدورِكَ إلَّا إذا أُعِنتَ عليه، وعندئذٍ يكونُ ما تُكلَّفُ به داخلًا في وُسعِكَ: فإنْ كان موضعُه الرخصةَ بُيِّنَتْ لك الرخصةُ، وإنْ كان موضعُه العزيمةَ بُيِّنَتْ لك العزيمةُ، وبذلكَ يكونُ لكلِّ إنسانٍ القدرةُ علىٰ أن يختارَ لنفسِهِ ما يراه أقربَ إلىٰ حالِهِ، فيتحمَّلَ نتائجَ هذا الاختيارِ برضًا وارتياحٍ، كما يقولُ الإمامُ البنَّا.

المراجعَةُ بَينَ القَائِدِ وَالْجُندِيّ

قَد يَتصوَّرُ بَعضُ الإِخْوَةِ أنَّ المُراجعةَ غَيرُ مَطلوبَةٍ تَمَامًا، وأنَّ الأَمْرَ مَا هُوَ إلّا: طَاعةٌ بغيرِ تَرَدُّدٍ وَلا مُراجعَةٍ وَلا شَكٍّ وَلا حَرجٍ! لكنَّنَا نَجِدُ الصحَابةَ رَضِيَ اللهُ عَنهُم يُراجِعُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي أُمورٍ كَثيرَةٍ، حَتَّىٰ المَوَاقِفِ الحَاسِمَةِ، فَلَمَّا نَزَل ﷺ مَنْزِلَهُ بِبَدْرٍ قَال لَهُ الْحُبَابُ بْنُ الْمُنْذِرِ: يَا رَسُول اللهِ أَرَأَيْتَ هَذَا الْمَنْزِلَ؟ أَمَنْزِلٌ أَنْزَلَكَهُ اللهُ لَيْسَ لَنَا أَنْ نَتَقَدَّمَهُ

وَلاَ نَتَأَخَّرَ عَنْهُ؟ أَمْ هُوَ الرَّأْيُ وَالْحَرْبُ وَالْمَكِيدَةُ؟ فَقَالَ: بَلْ هُوَ الرَّأْيُ وَالْحَرْبُ وَالْمَكِيدَةُ، قَالَ: إِنَّ هَذَا لَيْسَ لَنَا بِمَنْزِلٍ، فَانْهَضْ بِالنَّاسِ، حَتَّىٰ نَأْتِيَ أَدْنَىٰ مَنْزِلٍ مِنَ الْقَوْمِ فَنَنْزِلَهُ، ثُمَّ نَغُوِّرَ مَا وَرَاءَهُ مِنَ الْقُلُبِ، وَنَبْنِيَ لَكَ حَوْضًا فَنَمْلأَهُ مَاءً، ثُمَّ نُقَاتِلَ النَّاسَ، فَنَشْرَبَ وَلاَ يَشْرَبُونَ. فَقَالَ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَقَدْ أَشَرْتَ بِالرَّأْيِ»[141].

وَلَئِنْ شَابَ القِصَّةَ السَّابِقَةَ ضَعْفٌ، لَقَدْ صَحَّ أَنَّ أُمَّ المُؤمنينَ عَائِشَةَ رضيَ اللهُ عنهَا رَاجَعَتِ رَسُولَ اللهِ ﷺ، حِينَ استَخْلَفَ أباهَا عَلَىٰ الصَّلاةِ بالنَّاسِ، فَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ الله عنهَا أَنَّها قَالَتْ: «لَمَّا ثَقُلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ جَاءَ بِلَالٌ يُؤْذِنُهُ بِالصَّلَاةِ فَقَالَ: مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ، قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ أَبَا بَكْرٍ رَجُلٌ أَسِيفٌ، وَإِنَّهُ مَتَىٰ يَقُمْ مَقَامَكَ لَا يُسْمِعِ النَّاسَ فَلَوْ أَمَرْتَ عُمَرَ!! فَقَالَ: مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ. قَالَتْ: فَقُلْتُ لِحَفْصَةَ: قُولِي لَهُ: إِنَّ أَبَا بَكْرٍ رَجُلٌ أَسِيفٌ، وَإِنَّهُ مَتَىٰ يَقُمْ مَقَامَكَ لَا يُسْمِعِ النَّاسَ فَلَوْ أَمَرْتَ عُمَرَ!! فَقَالَتْ لَهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: إِنَّكُنَّ لَأَنْتُنَّ صَوَاحِبُ يُوسُفَ، مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ. قَالَتْ: فَأَمَرُوا أَبَا بَكْرٍ يُصَلِّي بِالنَّاسِ. قَالَتْ: فَلَمَّا دَخَلَ فِي الصَّلَاةِ وَجَدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ نَفْسِهِ خِفَّةً، فَقَامَ يُهَادَىٰ بَيْنَ رَجُلَيْنِ وَرِجْلَاهُ تَخُطَّانِ فِي الْأَرْضِ. قَالَتْ: فَلَمَّا دَخَلَ الْمَسْجِدَ سَمِعَ أَبُو بَكْرٍ حِسَّهُ ذَهَبَ يَتَأَخَّرُ، فَأَوْمَأَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ قُمْ مَكَانَكَ. فَجَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّىٰ جَلَسَ عَنْ يَسَارِ أَبِي بَكْرٍ، قَالَتْ: فَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُصَلِّي بِالنَّاسِ جَالِسًا وَأَبُو بَكْرٍ قَائِمًا يَقْتَدِي

(141) هَذِهِ رِوَايَةٌ مَشْهُورَة لَكنَّها ضَعِيفَةٌ، وقَد أَخرَجَ الحَاكِمُ هَذِهِ القِصَّةَ فِي مُستدرَكِهِ، كِتاب (معرفة الصحَابةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ)، بابُ ذِكْرِ مَناقِبِ الحُبابِ بنِ المُنذِرِ رضي الله عنه، حديثُ رَقم (5856)، وَقالَ الذَّهبيُّ: هذَا حَدِيثٌ مُنكَرٌ، وَسَنَدُهُ وَاهٍ، وَأَخرجَهَا ابنُ إسحَاقَ فِي السيرَةِ (2/ 232) بإسنَادٍ مُنقَطِع، كَمَا أَنَّ هَذِهِ الروايةَ مُخَالِفَةٌ لِلرِّوَايَةِ الصَّحِيحَةِ التِي أَخْرَجَهَا الإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ عَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ هُوَ الذِي اخْتَارَ النُّزُولَ عَلَىٰ أَفْضَلِ مَاءٍ مِنْ مِيَاهِ بِئْرِ بَدْرٍ أَوَّلَ مَا نَزَلَ.

أَبُو بَكْرٍ بِصَلَاةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَيَقْتَدِي النَّاسُ بِصَلَاةِ أَبِي بَكْرٍ»[142].

وَقَالَتْ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «لَقَدْ رَاجَعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي ذَلِكَ وَمَا حَمَلَنِي عَلَىٰ كَثْرَةِ مُرَاجَعَتِهِ إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَقَعْ فِي قَلْبِي أَنْ يُحِبَّ النَّاسُ بَعْدَهُ رَجُلاً قَامَ مَقَامَهُ أَبَدًا، وَلَا كُنْتُ أُرَىٰ أَنَّهُ لَنْ يَقُومَ أَحَدٌ مَقَامَهُ إِلَّا تَشَاءَمَ النَّاسُ بِهِ، فَأَرَدْتُ أَنْ يَعْدِلَ ذَلِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ أَبِي بَكْرٍ»[143].

بَل رُوِيَ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنهَا أَنّهَا: «كَانَتْ لَا تَسْمَعُ شَيْئًا لَا تَعْرِفُهُ إِلَّا رَاجَعَتْ فِيهِ حَتَّىٰ تَعْرِفَهُ وَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: مَنْ حُوسِبَ عُذِّبَ قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقُلْتُ أَوَلَيْسَ يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ ﴿**فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا**﴾ قَالَتْ: فَقَالَ إِنَّمَا ذَلِكَ الْعَرْضُ، وَلَكِنْ مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ يَهْلِكْ»[144].

وَلَمْ يَكُنِ المَقصُودُ بِالمراجعَةِ - كَما يذكرُ الأستاذُ سَيِّدُ قُطْب - المُماحَكَةَ وَالتسْويفَ والرغبةَ فِي التقَاعُسِ، إِنَّمَا هُوَ الأَخْذُ وَالرَّدُّ أَوِ (الشُّورَىٰ)، لأنَّ هَذَا الأمرَ يَشتركُ فِيهِ الجَميعُ وَيَشتركُونَ كَذلِكَ فِي آثَارِهِ وَنتائجِهِ المُترتِّبةِ عَليهِ. وَكَانَ الرسولُ ﷺ مجالَ المُنَاقَشَةِ وإِبْدَاءِ، بَل يَطْلُبُ مِنهُم المَشُورَةَ، قَبلَ اتِّخَاذِ القَرارِ؛ وَلِذلِكَ لمَّا أرادَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُصَالَحَةَ عُيَيْنَةَ بْنَ حِصْنٍ الْفَزَارِيَّ وَالْحَارِثَ بْنَ عَوْفٍ الْمُرِّيَّ، حِينَ حَصَرَهُ الأَحْزَابُ فِي الْخَنْدَقِ عَلَىٰ أَنْ يُعْطِيَهُمْ ثُلُثَ ثِمَارِ الْمَدِينَةِ، وَهُمَا قَائِدَا غَطَفَانَ عَلَىٰ أَنْ يَرْجِعَا عَنِ الْمَدِينَةِ، فَاسْتَشَارَ السَّعدَينِ (سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ، وَسَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ)، فَقَالَا: يَا رَسُولَ اللهِ: أَهْوَ أَمْرٌ تُحِبُّهُ فَنَصْنَعُهُ، أَمْ شَيْءٌ أَمَرَكَ اللهُ بِهِ لَا بُدَّ لَنَا مِنَ الْعَمَلِ بِهِ، أَمْ شَيْءٌ تَصْنَعُهُ لَنَا؟ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: بَلْ شَيْءٌ أَصْنَعُهُ لَكُمْ وَاللهِ مَا أَصْنَعُ ذَلِكَ إِلَّا لِأَنِّي رَأَيْتُ الْعَرَبَ قَدْ

(142) أخرجه البخاري (713)، ومسلم (418)، والنسائي (833) وابن ماجه (1232)، وأحمد (25876).
(143) أخرجه البخاري في: 64 كتاب المغازي: 83 باب مَرض النَّبي ﷺ وَوَفَاته.
(144) أخرجه البخاري، كتاب العلم، باب مَنْ سَمِعَ شيئًا فراجَعَ حَتَّىٰ يَعرِفَه.

رَمَتْكُـمْ عَـن قَـوس وَاحِـد وَكَالَبُوكُـمْ مِـنْ كُلِّ جَانِـبٍ فَـأَرَدْتُ أَنْ أَكْسِـرَ عَنْكُـمْ مِـنْ شَـوْكَتِهِمْ إِلَـىٰ أَمَرٍ مَـا. قـال سَـعْدُ بْـنُ مُعَـاذٍ: يَـا رَسُـولَ اللهِ، قَـدْ كُنَّـا نَحْـنُ وَهَـؤُلَاءِ الْقَـوْمِ عَلَـىٰ الشِّـرْكِ بِـاللهِ لَا نَعْبُـدُ اللهَ وَلَا نَعْرِفُـهُ، وَهُـمْ لَا يَطْمَعُـونَ أَنْ يَأْكُلُـوا مِنْهَـا ثَمَـرَةً وَاحِـدَةً إِلَّا قِـرًىٰ أَوْ بَيْعًـا، أَفَحِيـنَ أَكْرَمَنَـا اللهُ بِالْإِسْـلَامِ وَهَدَانَـا إِلَيْـهِ وَأَعَزَّنَـا بِكَ وَبِـهِ نُعْطِيهِـمْ أَمْوَالَنَـا؟ مَـا لَنَـا بِهَـذَا مِـنْ حَاجَـةٍ، وَاللهِ لَا نُعْطِيهِـمْ إِلَّا السَّـيْفَ حَتَّـىٰ يَحْكُـمَ اللهُ بَيْنَنَـا وَبَيْنَهُـمْ، قَـالَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ: فَأَنْـتَ وَذَاكَ[145].

وَكَثِيـرًا مَـا نَتعـرَّضُ لِمِثْـلِ هَـذِهِ المَوَاقِـفِ، فَقَـدْ يَكُـونُ أَحَدُنَـا مَسـؤُولًا عَـن فَصِيـلٍ أَوْ مَجمُوعَـةٍ، ثُـمَّ يُسـأَلُ فِـي أَمـرٍ مَـا، فَيُصـادِرُ آراءَ الآخَرِيـنَ، ويُجِيـبُ زاعمًـا أَنَّ قولَـه هُـوَ رَأيُ الجَماعَـةِ، وَهَـذَا مَسْـلَكٌ مرفـوضٌ، وَمِـنَ الأَمَانَـةِ أَنْ يقُـولَ: هَـذَا رَأْيِـي أَنَـا، أَوْ أَنَـا أَرَىٰ كَـذَا، وَلَا يَقْطَـعُ الطَّرِيـقَ عَلَـىٰ مَـنْ يُرِيـدُ أَنْ يُراجِـعَ أَوْ يُنَاقِـشَ أَوْ يَنصَـحَ، وَهَـذَا أمـرٌ طَبِيعِـيٌّ جِـدًّا ولَا حَـرجَ فِيـهِ، بَـلْ هُـوَ مَطلـوبٌ أَنْ يَكُـونَ ضِمـنَ تَصوُّرِنَـا، ونَحْـنُ نُرَبِّـي الصَّـفَّ عَلَـىٰ مَعنَـىٰ (الطَّاعَةِ) بغيـرِ تَـردُّدٍ وَلَا شَـكٍّ وَلا مُراجعَـةٍ وَلَا حَـرجٍ؛ فذلـكَ ممَّـا يُسـهِّلُ أَمْـرَ (الطَّاعَـةِ) ويُعِيـنُ عَليهَـا.

قِـيَادَةٌ تَسبِقُ وَصَفٌّ يُطِيعُ

وَمِـنَ الأُمُـورِ الَّتِـي تُيَسِّـرُ أَمْـرَ (الطَّاعَـةِ) عَلَـىٰ النفُـوسِ؛ هُـوَ تميـزُ القِيَـادَةِ بِصِفَـةِ السَّـبْقِ، وَكَمَـا يَقـولُ الشـيخُ مُحمَّـدُ الراشِـدُ فِـي (العَوائِـقِ): «وَلَا شَـكَّ أَنـهُ وَاجِـبٌ مُـزدَوِجٌ وَحِـرصٌ يَنبغِـي أَنْ يَصـدُرَ عَـن كِلَا الطَّرفَيـنِ: قِيَـادَةٌ تَسـبِقُ، وَدَاعِيَـةٌ يُطِيـعُ. فَالقِيَـادَةُ يَجِـبُ أَن تَكـونَ سَـابِقَةً لِمَجْمُـوعِ الدُّعَـاةِ فِـي طَرحِهَـا لِلاجتِهَـادِ الـذِي يَقتَضِيـهِ تَطـوُّرُ الأَوْضَـاعِ، وَفِـي تَنسِـيقِهَا لِـدرُوسِ التَّجرِبَـةِ، فَـإِنْ لَـم تُسْـعِفْهُ بِفِقْـهٍ وَاضِـحٍ سَـيدُورُ مَـعَ الخَطـأِ، وَيُـراوِحُ فِـي مَكانٍ مَحصُورٍ،

(145) انظر تاريخ الطبري: 2/ 573.

وَلَيسَ لَكَ مِنْ سَبِيلٍ لَوْمٍ، وَإِلَّا أَرْهَقْتَهُ مِنْ أَمْرِهِ عُسْرًا»[146].

يَنبَغِي أَنْ يَرَىٰ الصَّفُّ القِيادَةَ سَبّاقَةً فِي الرُّؤيَةِ وَالتفْكِيرِ، سِبَّاقَةً فِي التخْطِيطِ وَتوقُّعِ العوَاقِبِ، فَإِنَّ هَذَا يُعطِي الصَّفَّ نَوعًا مِنَ الثقَةِ، يَستَشْعِرُ مَعَهَا صَوَابيّةَ الفِكْرِ وَالقَرارِ، فيَسْتَسْهِلُ (الطَّاعَةَ)، بَلْ يُسارِعُ إلَيْهَا. أمَّا الصفُّ الذِي يَرىٰ قِيَادَتَهُ تَدورُ فِي دَائرَةِ الخَطَأ؛ فَإنَّ ثِقتَهُ فِيهَا وَفِي قَرارَاتِهَا تَضْعُفُ حَتَّىٰ تَتلاشَىٰ، وَلَا مُسوِّغَ حِينئِذٍ لِأَنْ تُطَالِبَهُ تِلْكَ القِيَادَةُ بطاعَةٍ!

وَالقِيَادَةُ بِخَيرٍ مَا دَامَتْ تَأخذُ بِالشُّورَىٰ، وَتَجْهَدُ لإخْوَانِهَا وَتَنصَحُ لَهُم، عَمَلًا بِمَا رَواهُ مَعقِلُ بنُ يَسارٍ: «سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يقولُ: مَا مِن أَمِيرٍ يَلِي أَمرَ المُسلِمينَ، ثُمَّ لا يَجهَدُ لَهُمْ ويَنصَحُ، إلَّا لَم يَدخُلْ معهُمُ الجَنَّةَ»[147]. ويقولُ الشيخُ سَعِيدُ حَوَّىٰ: «إنَّنَا لاَ نقُولُ: إنَّ الجمَاعةَ معصُومَةٌ، ولَكنَّنَا لَا نَقبَلُ بِهذِهِ الحُجَّةِ (أَنْ تُحمَّلَ الجَماعةُ أخْطاءً لَم تَرتكِبْهَا). وَنَحنُ لَا نَقُولُ: إنَّ قِيَادَاتِ الجَماعَةِ مَعصُومَة، وَلَكِنَّنا لَا نَقبَلُ أَنْ تُنقَدَ القِيَادَةُ باستِهتَارٍ. إنَّ الأَصْلَ فِي الجَماعَةِ أَنْ تَكُونَ عَلَىٰ صوَابٍ، وَالخَطأُ عَارِضٌ، فَعنْدَمَا يُصبِحُ الأخُ يَتصَوَّرُ أَنَّ الأَصْلَ هُوَ الخَطَأُ، والصَوَّابُ عَارِضٌ، فعِندَئذٍ تَكونُ كَارِثَةٌ»[148].

فَبعْدَ **صُلْحِ الحُديبيَةِ**، لَمْ يَكُنْ أَحَد مِنَ المُسْلِمِينَ رَاضِيًا عَن هَذَا الصُّلْحِ، إلَّا أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ)، وَغَلَبَ عَلَيْهِمُ الحُزْنُ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا خَرَجُوا مِنَ المَدِينَةِ وَهُمْ لَا يَشُكُّونَ فِي دُخُولِهِمْ مَكَّةَ، وَطَوَافِهِمْ بِالبَيْتِ لِلرُّؤْيَا التِي رَآهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَلَمَّا رَأَوْا مِنَ الصُّلْحِ وَالرُّجُوعِ،

(146) محمد أحمد الراشد: *العوائق*، دار المنطلق، 1415هـ/ 1994م، ص 9.
(147) أخرجه البخاري (7150) بمعناه، ومسلم (142).
(148) سعيد جوىٰ: *المدخل إلىٰ دعوة الإخوان المسلمين*، دار عمار – بيروت، ص 176.

وَعَـدَمِ العُمْـرَةِ هَـذَا العَـامِ، دَخَـلَ عَلَيْهِـمْ مِـنْ ذَلِـكَ أَمْـرٌ عَظِيـمٌ[149]، بَـلْ جَعـلَ بَعضُهـم يُجـادِلُ رَسُـولَ اللهِ ﷺ، حَتَّـىٰ لَيقُـولُ لَـه سَـيِّدُنَا عُمـرُ بـنُ الخَطَّـابِ بَعـدَ نُـزولِ سُـورَةِ الفتْـحِ: «يَـا رَسُـولَ اللهِ! أَفَتْـحٌ هُـوَ؟ فَقَـالَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ «نَعَـمْ»، فَطَابَـتْ نَفْـسُ عُمَـرَ (رَضِـيَ اللهُ عَنْـهُ)»[150].

وَفِـي مَغـازِي الوَاقـدِيِّ: «وَقَـالَ عُمَـرُ وَرِجَـالٌ مَعَـهُ مِـنْ أَصْحَـابِ النَّبِـيِّ ﷺ: يَـا رَسُـولَ اللهِ، أَلَـمْ تَكُـنْ حَدَّثْتَنَـا أَنَّـك سَتَدْخُلُ الْمَسْـجِدَ الْحَـرَامَ، وَتَأْخُـذُ مِفْتَـاحَ الْكَعْبَـةِ وَتُعَـرِّفُ مَـعَ الْمُعَرِّفِيـنَ؟ وَهَدْيُنَـا لَـمْ يَصِـلْ إِلَـىٰ الْبَيْـتِ وَلَا نَحْـنُ! فَقَـالَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ: قُلْـتُ لَكُـمْ فِـي سَـفَرِكُمْ هَـذَا؟ قَـالَ عُمَـرُ: لَا. فَقَـالَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ: أَمَـا إِنَّكُـمْ سَـتَدْخُلُونَهُ، وَآخُـذُ مِفْتَـاحَ الْكَعْبَـةِ، وَأَحْلِـقُ رَأْسِـي وَرُؤُوسَكُمْ بِبَطْـنِ مَكَّـةَ، وَأُعَـرِّفُ مَـعَ الْمُعَرِّفِيـنَ! ثُـمَّ أَقْبَـلَ عَلَـىٰ عُمَـرَ فَقَـالَ: أَنَسِـيتُمْ يَـوْمَ أُحُـدٍ ﴿إِذْ تُصْعِـدُونَ وَلَا تَلْـوُونَ عَلَـىٰ أَحَـدٍ وَأَنَـا أَدْعُوكُـمْ فِـي أُخْرَاكُـمْ؟﴾ أَنَسِـيتُمْ يَـوْمَ الْأَحْـزَابِ ﴿إِذْ جَاءُوكُـمْ مِـنْ فَوْقِكُـمْ وَمِـنْ أَسْـفَلَ مِنْكُـمْ، وَإِذْ زَاغَـتِ الْأَبْصَـارُ وَبَلَغَـتِ الْقُلُـوبُ الْحَنَاجِـرَ؟﴾ أَنَسِـيتُمْ يَـوْمَ كَـذَا؟ وَجَعَـلَ رَسـولُ اللهِ ﷺ يُذَكِّرُهُـمْ أُمُـورًا - أَنَسِـيتُمْ يَـوْمَ كَـذَا؟ فَقَـالَ الْمُسْـلِمُونَ: صَـدَقَ اللهُ وَرَسُـولُهُ يَـا نَبِـيّ اللهِ، مَـا فَكّرْنَـا فِيمَـا فَكّـرْت فِيـهِ، لَأَنْـتَ أَعْلَـمُ بِـاللهِ وَبِأَمْـرِهِ مِنّـا! فَلَمّـا دَخَـلَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ عَـامَ الْقَضِيّـةِ وَحَلَـقَ رَأْسَـهُ قَـالَ: هَـذَا الّـذِي وَعَدْتُكُـمْ. فَلَمّـا كَانَ يَـوْمُ الْفَتْـحِ أَخَـذَ الْمِفْتَـاحَ فَقَـالَ: اُدْعُـوا لِـي عُمَـرَ بْـنَ الْخَطّـابِ! فَقَـالَ: هَـذَا الّـذِي قُلْـت لَكُـمْ. فَلَمّـا كَانَ فِـي حَجّـةِ الْـوَدَاعِ بِعَرَفَـةَ فَقَـالَ: أَيْ عُمَـرُ، هَـذَا الّـذِي قُلْـتُ لَكُـمْ! قَـالَ: أَيْ رَسُـولَ اللهِ، مَـا كَانَ فَتْـحٌ فِـي الإِسْـلامِ أَعْظَـمُ مِـنْ صُلْـحِ الْحُدَيْبِيَـةِ! وَكَانَ أَبُـو بَكْـرٍ الصّدّيـقُ (رَضِـيَ اللهُ عَنْـهُ) يَقُـولُ: مَـا كَانَ فَتْـحٌ فِـي الْإِسْـلَامِ أَعْظَـمَ مِـنْ فَتْـحِ الْحُدَيْبِيَـةِ، وَلَكِـنّ

(149) انظر موسىٰ بن راشد العازمي: *اللؤلؤ المكنون في سيرة النبي المأمون*، ط 1، المكتبة العامرية – الكويت، 1432هـ – 2011م ، 3/ 327.

(150) انظر السابق،1432هـ – 2011م ، 3/ 329.

النّاسَ يَوْمئِذٍ قَصَرَ رَأْيُهُمْ عَمّا كَانَ بَيْنَ مُحَمّدٍ وَرَبّهِ، وَالْعِبَادُ يَعْجَلُونَ، وَاَللّٰهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لَا يَعْجَلُ كَعَجَلَةِ الْعِبَادِ حَتّىٰ تَبْلُغَ الْأُمُورُ مَا أَرَادَ اللّٰهُ[151].

نَلحَظُ هُنَا سَبْقَ القيادةِ فِي التفْكيرِ، وَرُؤْيَةِ العَواقِبِ وَنَتائجِهَا، وَقَدْ يُقَالُ إِنَّ هذا رَسُولٌ يُوحَىٰ إِلَيهِ. وهذا حقٌّ؛ لكنَّ القِيادَةَ الراشِدَةَ المَوصُولَةَ بِاللهِ الحريصةَ عَلَىٰ الشُّورَىٰ مُوفَّقَةٌ مُسَدَّدَةٌ بِإِذْنِ اللهِ، وَمُعَانَةٌ فِي قَرارِهَا، وَلَنْ يَخْذُلَها رَبُّها؛ فَحِينَ استشَارَ سيدُنَا أبوبكرٍ الصَّحابةَ فِي قِتَالِ المرتدِّينَ، وَرُغْمَ رَفْضِ الصَّحابةِ رَأْيَ أَبِي بَكرٍ فِي قِتالَ المرْتدِّينَ، لكنَّه مَا زالَ يُقنِعُهم، ويُقدِّمُ لَهُم الأدلَّةَ عَلَىٰ ضَرُورَةِ قِتالِهم، حَتَّىٰ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُم لِرأيهِ وَقَاتلُوهُم مَعَهُ، وانظُرْ مَا يقولُهُ ابنُ حَجَرٍ: «وَمن ثَمَّ قَالَ أَبُو هُرَيْرَة (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) لَوْلَا أَبُو بكرٍ مَا عُبِدَ اللهُ بعدَ مُحَمَّدٍ ﷺ؛ أَيْ لِأَنَّهُ الَّذِي رَأَىٰ قِتالَ الْمُرْتَدينَ مَعَ مُخَالفَة أَكثرِ الصَّحَابَة لَهُ، حَتَّىٰ أَقَامَ عَلَيْهِم الْأَدِلَّة الْوَاضِحَةَ عَلَىٰ قِتَالِ الْمُرْتَدينَ وَمَانِعِي الزَّكَاة إِلَىٰ أَن رَجَعُوا إِلَيْهِ وقاتلُوهُمْ بأَمْره فكشَفَ الله بِهِ وَبِهِمْ تِلْكَ الْغُمَّة وَأَزالَ عَن الْإِسْلَام وَالْمُسْلِمينَ تِلْكَ المِحْنَةَ»[152].

فَسيدُنَا أَبُو بَكرٍ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) نَمُوذَجٌ فَذٌّ لِلقِيَادَةِ الرَّاشِدَةِ السَّباقَةِ إِلَىٰ رُؤيةِ العَواقبِ وَالمآلاتِ، وكَانَ أَبُو بَكرٍ أفقَهَ الصَّحابةِ بكلامِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، يُدرِكُ مِنهُ مَا لَا يُدرِكُونَ، فَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ جَلَسَ عَلَىٰ المِنْبَرِ فَقَالَ: «إِنَّ عَبْدًا خَيَّرَهُ اللهُ بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا مَا شَاءَ، وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ، فَاخْتَارَ مَا عِنْدَهُ» فَبَكَىٰ أَبُو بَكْرٍ وَقَالَ: فَدَيْنَاكَ بِآبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا، فَعَجِبْنَا لَهُ، وَقَالَ النَّاسُ: انْظُرُوا إِلَىٰ هَذَا الشَّيْخِ، يُخْبِرُ رَسُولُ اللهِ

(151) انظر محمد بن عمر الواقدي: *المغازي*، تحقيق: د. مارسدن جونس، جامعة أكسفورد – لندن، ١٩٦٦م، 2/ 609، وما بعدها.

(152) ابن حجر الهيتمي: *الصواعق المحرقة على أهل الرفض والضلال والزندقة*، تحقيق عبد الرحمن بن عبد الله التركي وكامل محمد الخراط، ط 1، مؤسسة الرسالة – لبنان، 1417هـ 1997–م، 1/ 137.

ﷺ عَـنْ عَبْـدٍ خَيَّـرَهُ اللهُ بَيْـنَ أَنْ يُؤْتِيَـهُ مِـنْ زَهْـرَةِ الدُّنْيَـا، وَبَيْـنَ مَـا عِنْـدَهُ، وَهُـوَ يَقُـولُ: فَدَيْنَـاكَ بِآبَائِنَـا وَأُمَّهَاتِنَـا، فَـكَانَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ هُـوَ المُخَيَّـرَ، وَكَانَ أَبُـو بَكْـرٍ هُـوَ أَعْلَمَنَـا بِـهِ»[153].

لَقَـدْ تَعجَّـبَ الصَّحابـةُ مِـن قَـولِ أبـي بَكـرٍ (رَضِـيَ اللهُ عَنْـهُ) وبُكائِـه؛ لأنَّهَـمْ لَـم يَفْهَمـوا مِـن كَلامِ النَّبـيِّ ﷺ مَـا يَسـتَدْعِي هَـذَا القـولَ أَوْ ذَلِـكَ البُـكَاءَ، فلمَّـا مَـاتَ رسـولُ اللهِ ﷺ، فَهِمُـوا النَّـاسُ مَقصِـدَه ﷺ مِـن كَلامِـه، وَأَدركُـوا فِطنـةَ أَبِـي بَكـرٍ وفِرَاسَتَـهُ.

فكُلَّمَـا تَوفَّـرتْ فِي القيـادَةِ مَظاهِـرُ السَّـبقِ وَالارْتيَـادِ، وَالبَصَـرِ بِعوَاقـبِ الأمُـورِ، كَانَ ذَلِـكَ مَبعَـثَ ثِـقَةٍ وَاطمئْنَـانٍ لَـدَىٰ الصَّـفِّ، وَمِـنْ ثَـمَّ تُصبِـحُ طَاعَةُ الصَّـفِّ لِقـرَارَاتِ القِيـادَةِ أَيْسَـرَ مَـا تَكُـونُ.

التَّشْعِيبُ وَالتكْوِينِ

يقـولُ الأسـتَاذُ مَحمُـودُ عبـدِ الحليـم: «وَكَانَ هـذَا الرجُـلُ (يقصـد الإمـام البنـا) بثَاقِـبِ فكـرِه، ومُرهَـفِ حِسِّـهِ، وبخاصيـةٍ أودعَـهُ اللهُ إيَّاهَـا - يتحَـدَّثُ إِلَـىٰ النـاسِ عَـن أُمـورٍ يَراهَـا هُـوَ وَاقِعَـةً لَا مَحالـةَ، وَهِـيَ فِـي خَواطِرنَـا شَـيْءٌ مِـنْ هَواجِسِ النَّـفْسِ، وَأَوهَـامِ الخَيـالِ؛ فإنّـه كَانَ يَـعُدُّ مِـن حِيَاطَـاتِ الحَـذَرِ مِـنْ أَخْطَـارٍ يَتوقَّعُهَـا وَلَا نُـكَادُّ نُصَـدِّقُ، وهـوَ يُحذِّرُنَـا مِنْهَـا .. ثُـمَّ لَا تَقـعُ هَـذِهِ الأخطَـارُ إلا بعـدَ سـنواتٍ ... وعِنْدَمَـا تُواجِهُنَـا، نَـرىٰ أسـبَابَ الحَيطـةِ التِـي اتخَذَهَـا مُنـذُ سَـنواتٍ - دُونَ مُـبرِّرٍ فِي نَظرِنَـا إِذْ ذَاكَ - هِـيَ وَحدَهـا التِـي تُحصِّنُـنا إِزَاءَ هَـذِهِ الأخْطَـارِ»[154]، مِثْلَمـا حـدَّثَ إخوانَـه عَـنْ فَـترَةِ مَـا بعـدَ انتِهَـاءِ الحـربِ العَالمِيَّـةِ وَكَانَ حَديثُـه، ذَلِـكَ أثنـاءَ الحـرْبِ سـنَةَ (1939م)

(153) أخرجه البخاري (3904).

(154) محمود عبد الحليم: *الإخوَانُ المسلمونَ: أحداثٌ صنعت التاريخ*، ط 5، دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع، الإسكندرية، 1414هـ - ١٩٩٤م، 1/ 161.

وَنَصَحَهُم أنْ يَغتَنِمُوا هَذِهِ الفترَةَ؛ حَيثُ إنَّ المستَعمِرَ والحُكومَةَ المِصْرِيةَ مَشغُولانِ بأمرِ الحربِ؛ فَعلَىٰ الإخوَانِ أنْ يَستكمِلُوا عَناصِرَ القُوّةِ فِي أَقْربِ وَقتٍ بِالتركِيزِ علَىٰ أَمريْنِ: التَّشْعِيبِ، وَالتكْوِينِ.

أَمَّا **التشْعيبُ** فهوَ العَملُ عَلَىٰ أنْ تَصِلَ الفِكرَةُ الإسلامِيّةُ إِلَىٰ كُلِّ فَرْدٍ فِي أنحَاءِ مِصْرَ، وَأَنْ يَصِلَ صدَاهَا إِلَىٰ البِلادِ العَربيّةِ وَالإسْلاميّةِ، وأَنْ يَكونَ للدعْوةِ شُعبَةٌ فِي كُلِّ حَاضِرَةٍ وَمَدينةٍ وَقَريَةٍ وَعِزبَةٍ فِي جَميعِ أنحاءِ مِصرَ.

وأمَّا **التكْوِينُ**، فيَكُونُ بالعمل عَلَىٰ رَبطِ المُنتَمِينَ إِلَىٰ الدَّعوَةِ معًا برَوابطِ مِنَ الأُخوَّةِ وَالحُبِّ وَالتعَاوُنِ فِي ظِلِّ أسلوبٍ عَملِيٍّ مِنَ التربيَةِ البدَنيةِ وَالرُّوحيّةِ وَالثقَافيّةِ(155).

كَمَا نصحَهُم الإمامُ البنَّا رَحِمَهُ اللهُ فِي سبيلِ إنجَازِ هَاتينِ الغَايتينِ العُظمَيْنِ، بَأنّه يَجِبُ عَليهِم - خِلالَ فترةِ الحربِ - أَنْ يَغضُّوا الطرْفَ عَنِ الشؤُونِ السيَاسِيّةِ، فيتجَنَّبُوا مَا استطَاعُوا اتخَاذَ مواقفَ سياسيةٍ مُحددَّةٍ مُكتفينَ بالأمورِ التربويّةِ وَالاجتمَاعيةِ وَالاقتصَاديّةِ، وَوَعدَهُم الإمامُ البنَّا - إِذَا سَلكُوا ذَلِكَ المَسْلَكَ- بأنَّ دَعوةَ الإخوانِ سَتفَاجِئُ العالَمَ بعدَ انتهَاءِ الحَربِ(156). وقَد صَدَقَ حَدْسُه، فمَا إِنِ انتهَتِ الحربُ حَتَّىٰ كانتْ جَماعةُ الإخوَانِ هِيَ أَقْوَىٰ الجَماعَاتِ أَو الأحزَابِ المَوجُودَةِ عَلَىٰ الساحَةِ؛ لأنّهَا لَمْ تُرهِقْ نَفْسَهَا بأَيِّ دُخولٍ فِي مَعارِكَ جَانبيّةٍ أَوْ حِزبيّةٍ أَوْ سِياسِيّةٍ، وَالتفتَتْ إِلَىٰ التكوينِ الداخلِيِّ الإدارِيِّ وَإِلَىٰ نَشرِ الدعْوَةِ، وَلَمَّا عُرِضَ عَلَيهِ الترشِيحُ، وَعَرَضَ عَلَيهِ النحَّاسُ بَاشَا أَنْ يَتنازَلَ فِي سَبيلِ أَنْ يَترُكَ لَه المَجَالَ وَاسعًا فيَنشُرَ الدعْوةَ، وافَقَ الإمامُ رُغْمَ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ

(155) انظر السابق، 1/ 219، وما بعدها.
(156) انظر السابق، 1/ 220.

الإخـوانِ عَاتبـوهُ عَلَىٰ ذلِـكَ، وَلكـنْ صَـدقَ حَدْسُـهُ لِلجَميـعِ عِندَمَـا وَافَـقَ أنْ يَتنـازَلَ مِـنْ أَجْـلِ مَكسَـبٍ آخـرَ، وَضَـنَّ بأوقـاتِ الإخـوانِ وَدِمَائِهـم أَنْ يَدخُلُـوا فِـي مَعـارِكَ جَانِبيّـةٍ.

وقَـدْ عُـرِف عَـن الإمـام البنّـا رَحِمَهُ اللَّهُ أنّـهُ إِذَا رَأَىٰ مَندوحَـةً أَسْـرعَ إِلَيْهَـا حَتَّىٰ يَضِـنَّ بدمَـاءِ إخوانـهِ وأوقَاتِهِـمْ، أَنْ يَدخلُـوا فِـي معـارِكَ خَاسِـرَةٍ، ولذلِـكَ نَجحـتِ الدعـوَةُ فِعْـلاً فِـي ذَلِـكَ العَهـدِ عِنْدَمَـا وعـدَهُ النحَّـاسُ بَاشَـا بأنـهُ سـيُطْلِق لـه يـدَهُ يَكتُـبُ وَينشُـرُ، وَيَجُـولُ فِـي القُـرىٰ ويتَحـدَّثُ، ويُكَـوِّنُ الشُّـعَبَ والكتَائِبَ، وَيَـبقَىٰ النشـاطُ مَسْـمُوحًا بـهِ فِي تِلكَ الأوقَاتِ العَصيبَةِ، فِي مقابـلِ أَنْ يـترِكَ الإِمَـامُ عَمليـةَ الانتخـابِ وَالترشِـيحِ، وَقـد وافـقَ الأسـتاذُ البنَّـا رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَـىٰ ذَلِـكَ، وَكَانَـتْ هَـذِهِ نظـرةً بَعيـدَةً مِنـهُ.

وَتتضِـحُ تِلْـكَ النظْـرَةُ البَعيـدَةُ المَـدَىٰ فِـي قَـولِ الإمـام البنَّـا رَحِمَهُ اللَّهُ، عِندَمَـا تَسـاءلَ النـاسُ عَـنْ مَوقـفِ الإخـوَانِ مِـنَ الحُكْـمِ، فقـرَّرَ أَنَّ النبـيَّ ﷺ جَعـلَ الحُكْـمَ عُـروةً مِـن عُـرَىٰ الإِسـلام، وَأَنَّ الحُكـمَ مَعـدودٌ فِـي كُتِبنَـا الفِقهيّـةِ مِـنَ الأُصـولِ، وأَنَّ الإخـوَانَ لَا يَطلُبُـونَ الحُكْـمَ لأنفسِـهم، بَـلْ هُـمْ جُنـودٌ لِمَـنْ حَكـمَ بِمنهَـاجِ الإِسْـلام، ثُـم كانَـتْ قَولتُـه الدَّالَّـةُ عَلَـىٰ ثَاقِـبِ فِكـرِهِ، ورُؤيتِـهِ البَعيـدَةِ المَـدَىٰ: «وَمَـعَ هَـذَا فَالإِخْـوانُ المُسْـلِمُونَ أَعْقَـلُ وَأَحـزَمُ مِـنْ أَنْ يَتقدَّمُـوا لِمُهمَّـةِ الحُكْـمِ وَنفُـوسُ الأُمَّـةِ عَلَـىٰ هَـذَا الحَـالِ، فَـلا بُـدَّ مِـنْ فَـترةٍ تَنتَشِـرُ فِيهَـا مَبـادِئُ الإِخْـوانِ وَتَسُـودُ، وَيتعَلَّـمُ فِيهَـا الشَّـعْبُ كَيـفَ يُؤْثِـرُ المَصْلَحَـةَ العَامَّـةَ عَلَـىٰ المَصْلَحَـةِ الخَاصَّـةِ»[157]؛ فقَـد كَانَ بعيـدَ النظَـرِ فِـي قَـرارِهِ أَلَّا يتقـدَّمَ إِلَـىٰ تِلـكَ المُهمّـةِ العَصيبـةِ الشَّـاقّةِ، وَتَضِيـع فِيهَـا جهـودُ الإخـوانِ، وَتكـونُ النتائـجُ مَحـدودةً فِـي الوقـتِ الّـذي تَحتـاجُ فِيـهِ الأمـةُ إِلَـىٰ التربيـةِ وَإِلَـىٰ الإعـدادِ.

(157) حسن البنا: مجموعة *رسائل الإمام البنا*، ص 351.

وكذلـكَ كَانَ الأستاذُ الهُضيبـيّ رَحِمَهُ اللَّهُ ذَا نَظـرَةٍ ثَاقِبَـةٍ بعِيـدَةِ المَـدَىٰ، عندَمَـا قَـالَ عَـنِ الحَركـةَ الّتِي قَامَـتْ سَـنةَ (1952)؛ بأنَّـه لَيـسَ مِـنْ وَرائِهَـا أيُّ خيـرٍ للإسـلامِ وَالمُسـلِمينَ، وكَانَـتْ هَـذِهِ نظـرةً بعيـدَةً جِـدًّا، فِـي الوقـتِ الّـذِي كانَ فِيـهِ كثيـرٌ مِـنَ الإخْـوانِ يَعقـدُونَ عَلَيهَـا الكَثِيـرَ مِـنَ الآمَـالِ، وَكَانُـوا يقُولُـونَ: الأَخَّ جَمَـال وَالأخّ فُـلان، والأَخّ فُـلانَ، وكَانَ الأسـتَاذُ الهُضيبـيّ يَـرىٰ أَنَّ الأمُـورَ لَـنْ تَسِيرَ كَمَـا يَهـوَىٰ هَـؤلاءِ، وأَنَّ لِلأمـورِ عَواقِـبَ لَـمْ تَكـنْ يَتصوَّرُهـا الكَثيـرونُ، وَلَـم يَتصـوَّرْ أَحَـدٌ أنَّ تِلْـكَ المِحنَـةَ العَصيبَـةَ التِي نَزلَـتْ بِالدَعْـوَةِ، كَانَ يُمكـنُ حُدُوثُهـا. لكـنْ صَـدقَ حَـدْسُ الأسـتَاذِ الهُضَيبـيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ. فَالقِيـادَةُ تَسبِقُ وَالجنـدِيُّ يُطيـعُ، وَشُـعُورُ الصَّـفِّ بِتلْـكَ المِصدَاقيّـةِ وَهَـذِهِ الثقـة يُعيـنُ وَلَا شَـكَّ عَلَـىٰ الطّاعَـةِ.

المُعِيناتِ علىٰ الطَّاعَـةِ

حُسْنُ اختِيارُ المُعلِّـمِ

وَلَا رَيـبَ أنَّ اختيَـارَ المُعَلِّـم مِـنَ الأُمـورِ الّتِي تُعِيـنُ عَلَـىٰ الطاعـةِ كذلـكَ، قَـالَ تَعالَـىٰ: ﴿قَـالَ لَـهُ مُوسَـىٰ هَـلْ أَتَّبِعُـكَ عَلَـىٰ أَن تُعَلِّمَـنِ مِمَّـا عُلِّمْـتَ رُشْـدًا (66) قَـالَ إِنَّـكَ لَـن تَسْـتَطِيعَ مَعِـيَ صَبْـرًا (67) وَكَيْـفَ تَصْبِـرُ عَلَـىٰ مَـا لَـمْ تُحِطْ بِـهِ خُبْـرًا (68) قَـالَ سَـتَجِدُنِي إِن شَـاءَ اللَّهُ صَابِـرًا وَلَا أَعْصِـي لَـكَ أَمْـرًا (69) قَـالَ فَـإِنِ اتَّبَعْتَنِـي فَـلَا تَسْـأَلْنِي عَـن شَـيْءٍ حَتَّـىٰ أُحْـدِثَ لَـكَ مِنْـهُ ذِكْـرًا (70)﴾ [سـورة الكهـف﴾.

وَذَلِـكَ مَـا نَـبَّهَ إِلَيْـهِ الإمـامُ البَنَّـا رَحِمَهُ اللَّهُ كُلَّ أَخٍ مِـنْ إِخوَانِـهِ؛ فقـال: «وَلِهـذَا يَجـبُ أَنْ يَسـأَلَ الأَخُ الصـادِقُ نَفسَـهُ هَـذِهِ الأسـئلةَ لِيتعـرَّفَ عَلَـىٰ مـدَىٰ ثِـقتِهِ بِقيَادَتِـهِ: هَـلْ تَعـرَّفَ إِلَـىٰ قَائـدِهِ مِـنْ قَبـلُ ودَرَسَ ظُـروفَ حَياتِـهِ؟ هَـلِ اطمَـأنَّ

إِلَـىٰ كِفَايتِـه وَإِخْلاصَـهِ؟»[158].

دَعـوةٌ وَمُطالبَـةٌ للصَّـفِّ أَنْ يَتعـرَّفَ عَلَـىٰ النخبَـةِ فِيـهِ، وَهَـذَا هُـوَ مَـا يُعيـنُ عَلَـىٰ الاختِيَـارِ الدَّقيـقِ بِمعَاييـرِهِ الشَّـرعيّةِ الدَّقيقَـةِ العَالِيَـةِ الراقيَـةِ، وَلَا يُوجَـدُ فِيهَـا مَجَـالٌ لِلهَـوَىٰ وَلَا لِحَـظِّ النفْـسِ وَلا لِلشِّـلَلِيَّةِ وَلَا لِلجُيـوبِ؛ إِنَّمـا الاخْتِيَـارُ يكـونُ بِمعَاييـرَ دَقِيقَـةٍ يُعِيـنُ عَلَيهَـا جَـوُّ التعَـارُفِ العَـامِّ الـذِي يَنتشِـرُ فِي الصَّـفِّ، فكُلُّ واحـدٍ يَعـرِفُ أَخـوُهُ مَعرفَـةً جَيـدَةً يَتعـرَّفُ عَلَيـهِ فِي العَمـلِ اليَومِـيِّ المُسـتمِرِّ، عَلَـىٰ مَـدَىٰ كَفاءَتِـهِ، وَعَلَـىٰ مَـدَىٰ إِخْلاصِـهِ ، وَيَـدرُسُ ظُـروفَ حيَاتـهِ، وَهَـذَا يُعينُـه عَلَـىٰ أَمـرِ الطَّاعَـةِ وَلا شَـكَّ، وَيَجعَلُهـا أمـرًا مَيْسُـورًا؛ لأَنَّ مَـن تَستَطِيعُ أَنْ تَـثِقَ بِـهِ؛ فإنـكَ تَـثِقُ فِـي رَجَاحَـةِ فِكـرِهِ، وَنَظرتِـهِ الثَّاقِبَـةِ، كَمَـا تَـثِقُ فِـي جِهَـادِهِ وكفاءَتِـهِ وَإِخْلاصِـهِ.

فَحِيـنَ أرادُ سَيدُنَا أبـو بَكـرٍ (رَضِـيَ اللهُ عَنْـهُ) أَنْ يَستَخْلِفَ سَيدَنَا عُمـرَ بـنَ الخَطَّـابِ (رَضِـيَ اللهُ عَنْـهُ) مِـنْ بَعـدِهِ جَمـعَ بَعـضَ الصحابـةِ وَسَـأَلَهَمْ عَنـهُ. فَقَـدَ أَخـرَجَ الوَاقِـدِيُّ مِـنْ طُـرقٍ: « أَنَّ أَبَـا بَكْـرٍ لَمَّـا ثَقُلَ دَعَـا **عَبْـدَ الرَّحْمَـنِ بْـنَ عَـوْفٍ** فَقَـالَ: أَخْبِرْنِـي عَـنْ عُمَـرَ، فَقَـالَ: مَـا تَسْـأَلُنِي عَـنْ أَمْـرٍ إِلا وَأَنْـتَ أَعْلَـمُ بِـهِ مِنِّـي، قَـالَ: وَإِنْ، فَقَـالَ: هُـوَ وَاللهِ أَفْضَـلُ مِـنْ رَأْيِـكَ فِيـهِ، ثُـمَّ دَعَـا **عُثْمَـانَ** فَسَـأَلَهُ عَـنْ عُمَـرَ، فَقَـالَ: عِلْمِـي فِيـهِ أَنَّ سَـرِيرَتَهُ خَيْـرٌ مِـنْ عَلانِيَتِـهِ وَأَنَّـهُ لَيْـسَ فِينَـا مِثْلُـهُ، فَقَـالَ: يَرْحَمُـكَ اللهُ وَاللهِ لَـوْ تَرَكْتُـهُ مَـا عَدَوْتُـكَ، وَشَـاوَرَ مَعَهُمَـا سَـعِيد بْـن زَيْـدٍ، وَأُسَـيْد بْـن الْحُضَيْـرِ وَغَيْرهمَـا، فَقَـالَ قَائِـلٌ: مَـا تَقُـولُ لِرَبِّـكَ إِذَا سَـأَلَكَ عَـنِ اسـتخلاف عُمَـرَ وَقَـدْ تَـرَىٰ غِلْظَتَـهُ؟ فَقَـالَ: أَجْلِسُـونِي، أَبِـاللهِ تُخَوِّفُونِـي! أَقُـولُ: اسْـتَخْلَفْتُ عَلَيْهِـمْ خَيْـرَ أَهْلِـكَ»[159].

(158) حسن البنا: *مجموعة رسائل الإمام البنا، رسالة التعاليم(ركن الثقة)*، ص 278.

(159) شـمس الديـن الذهبي: *تاريخ الإسـلام ووفيات المشـاهير والأعـلام*، المكتبـة التوفيقيـة – القاهـرة، 1427هـ – 2006م، 3/ 11.

فَانظُـرْ كيفَ يَـزِنُ سَيدُنَا أبُـو بَكرٍ الرجَـالَ، وَكَيـفَ يَختارُهُـم وَيستَقْصِي آرَاءَ العُـدولِ فِيهِـم، وَلَقَـدْ أَحْسَـنَ فِي اختيـارِهِ سَـيدَّنَا عُمَـرَ خَلِيفَـةً بَعـدَهُ، فَقـد كَانَ الإسلامُ فِي عَهـدِ الفَـارُوقِ قَويًّا عَزيـزًا مَهيبًا، وتَوسَّـعَتْ الفتُوحَـاتُ فِي عَهـدِهِ؛ لأَنَّ طَاعَـةَ الرعيّـةِ لَـه كَانَـتْ عَـنْ رِضًـىٰ. وَيَـنبغِي أَنْ نَتعلَّـمَ مِـنْ هَـذَا المَوقِـفِ الاختِيـارَ الجيَّـدَ لِلأفـرَادِ، وَفْـقَ مَعاييـرَ سَـلِيمَةٍ، نَاتِجَـةٍ عَـن مَعرفـةٍ دَقيقـةٍ بِهِـم؛ فهَـذِهِ المَعرفَـةُ الدَّقيقـةُ هِـيَ الّتِي جَعلَتْ أمثَـالَ هَـؤلاءِ الأَكَارِمِ فِي صَـدارَةِ الأُمَّـةِ، وَفِي صَفِّهَـا الأَوَّلِ يَتقدَّمُـونَ الجَميعَ، وهَـذِهِ المَعرفَـةُ الدقيقَـةُ هِـيَ التِي جَعلَـتْ عُمـرَ بـنَ الخطـاب، وأبـا عبيـدة بـن الجـراح يـقدِّمَانِ أبَـا بكـرٍ فِـي سـقيفة بنـي سـاعدة، ولَا يَعـترضُ عَلَيـهِ أحـدٌ؛ إذ كانَ عُمَـرُ فَتكَلَّـمَ قَبْـلَ أَبِـي بَكْـرٍ فَحَمِـدَ اللهِ وَأَثْنَـىٰ عَلَيْـهِ بِمَـا هُـوَ أَهْلُـهُ ثُـمَّ قَـالَ: أَيُّهَـا النَّـاسُ إِنِّـي قَـدْ كُنْـتُ قُلْـتُ لَكُـمْ بِالْأَمْـسِ مَقَالَـةً مَـا كَانَـتْ مِمَّـا وَجَدْتُهَـا فِـي كِتَـابِ اللهِ، وَلَا كَانَـتْ عَهْـدًا عَهِـدَهُ إِلَـيَّ رَسُـولُ اللهِ ﷺ، وَلَكِنِّـي كُنْـتُ أَرَىٰ أَنَّ رَسُـولَ اللهِ سَيَدْبُرُ أَمْرَنَـا - يَقُـولُ: يَكُـونُ آخِرَنَـا - وَإِنَّ اللهَ قَـدْ أَبْقَـىٰ فِيكُـمْ كِتَابَـهُ الَّـذِي بِـهِ هَـدَىٰ رَسُـولَ اللهِ ﷺ، فَـإِنِ اعْتَصَمْتُـمْ بِـهِ هَدَاكُـمُ اللهُ لِمَـا كَانَ هَـدَاهُ لَـهُ، وَإِنَّ اللهَ قَـدْ جَمَـعَ أَمْرَكُـمْ عَلَـىٰ خَيْرِكُـمْ؛ صَاحِـبِ رَسُـولِ اللهِ ﷺ وَثَانِـيَ اثْنَيْـنِ إِذْ هُمَـا فِـي الْغَـارِ فَقُومُـوا فَبَايِعُـوهُ. فَبَايَـعَ النَّـاسُ أَبَـا بَكْـرٍ بَيْعَـةَ الْعَامَّـةِ بَعْـدَ بَيْعَـةِ السَّـقِيفَةِ[160].

وَقـد أَشَـارَ بعـضُ المؤرخِيـنَ إِلـىٰ غيـابِ سَـادَةِ قُريـشٍ عَـنِ اجتِمَـاعِ سَـقيفَةِ بَنِـي سَـاعِدَة، وَفِـي مُقدِّمتِهِـم أَبُـو سُـفيان بـنُ حَـربٍ؛ لأنّهـم أدْرَكُـوا أنّهُـم لَـن يَتمَكَّنُـوا مِـنْ تكويـنِ أَغْلَبيـةٍ بَيـنَ المُهاجِريـنَ والأنصَـارِ تَـقِفُ أَمَـامَ

(160) ابـن كثيـر: *البدايـة والنهايـة*، تحقيـق د. عبـد الله بـن عبـد المحسـن التركـي، ط 1، دار هجـر للطباعـة والنشـر والتوزيـع والإعـلان، 1420هـ، 8/ 89.

قُـوةِ أَبِـي بَكـرٍ وَعُمـرَ وَأَبِـي عُبَيْـدَةَ[161]؛ فَقَـدْ أَوْجَـدَ الإِسْـلامُ مَقاييـسَ جَديـدَةً تُخَالِـفُ مَقَاييـسَ الجاهليـةِ فِـي تَقويـمِ الرجَـالِ وَوَزْنِهِـمْ بِالتقْـوَىٰ، وَسَـبْقِهِم إِلَـىٰ الإِسْـلَامِ، وَسُـهْمَتِهِم فِـي نُصـرَةِ ديـنِ اللهِ تَعالَـىٰ. فَـلا يَسـتَوِي مَـن قَاتَـلَ رَسُـولَ اللهِ مَـعَ مَـنْ قَاتـلَ مَعَـهُ، وَصَحِيـحٌ أَنَّ أَبَـا سُـفيانَ كَانَ قَـدْ أَسْـلَمَ يومَئـذٍ، لَكـنَّ رَصِيـدَه فِـي الإِسْـلامِ لَا يَبلُـغُ رَصِيـدَ أَبِـي بَكْـرٍ وَعُمَـرَ، وبَقيّـةِ الصحْـبِ الكِـرَامِ مِـنَ المُهاجِريـنَ وَالأَنصَـارِ، يقُـولُ اللهُ تَعالَـىٰ: ﴿**لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**﴾ [الحديـد: ١٠].

وَمَعنَـىٰ ذَلِـكَ أَنَّ الاختِيَـارَ الـذِي يُراعِـي أقـدَارَ الرجَـالِ وَيُنزِلُهُـم مَنازِلَهـم، فَـلا يُحابِـي وَلَا يُجامِـلُ، يَجعَـلُ الصـفَّ مُطمَئِنًّـا إِلَـىٰ صِحَّـةِ اختِيَـارِ القِيَـادَةِ، وَمِـنْ ثَـمَّ تَسْـهُلُ عَلَيـهِ (الطَّاعَـةُ)؛ وَدَلِيـلُ ذَلِـكَ أَنَّ اجتِمَـاعَ السقِيفَةِ قَـدْ تَمَخَّضَ عَـنِ اختِيَـارِ أَبِـي بَكـرٍ خَليفَـةً رسـولِ اللهِ ﷺ بِإجمَـاعِ الحَاضِرِينَ الذينَ انْـقَادُوا لِهـذِهِ البيعَـةِ وَأَطَاعُوهَـا، وَإِنْ جَـرىٰ بَينَهـم نَـوعٌ مِـنَ الجِـدَالِ، وَضَـرْبٌ مَـنَ الحـدَّةِ فِـي النقَـاشِ، فَـإِنَّ بَيعـةَ أَبِـي بكـرٍ حَسَـمَتِ الخِـلافَ، بَـلْ بُويـعَ الصِّديقُ (رَضِـيَ اللهُ عَنْـهُ) بِالخِلافـةِ مَرتيـنِ:

أُولَاهُمَـا فِـي اجتِمَـاعِ السَّـقيفَةِ يَـومَ الاثنيـنِ، وَهُـوَ يـومُ وَفـاةِ رَسُـولِ اللهِ ﷺ، حَيـثُ حَسَـمَ عُمـرُ الخِـلافَ، فَقـالَ: «وَارْتَفَعَـتِ الْأَصْـوَاتُ حَتَّـىٰ فَرِقْـتُ مِـنَ الاخْتِـلَافِ، فَقُلْـتُ: ابْسُـطْ يَـدَكَ يَـا أَبَـا بَكْـرٍ؛ فَبَسَـطَ يَـدَهُ، فَبَايَعْتُـهُ وَبَايَعَـهُ الْمُهَاجِـرُونَ، ثُـمَّ بَايَعَتْـهُ الْأَنْصَـارُ»[162].

وَ**ثَانِيتُهُمَـا** فِـي اليَـومِ التَّالِـي (الثُلاثَـاءُ)، حَيـثُ اجْتَمَـعَ النـاسُ فِـي المَسْـجِدِ،

(161) انظـر د. فالـح حسـين: *بحـث في نشـأة الدولـة الإسـلامية*، ط 1، مركـز دراسـات الوحـدة العربيـة، بيـروت، 2010م، ص 93.

(162) أخرجه البخاري في صحيحه (6830)، والإمام أحمد في مسنده (391).

فَكانَـتِ البيعَـةُ العَامّـةُ؛ إِذْ بَايَـعَ النَّـاسُ أَبَـا بَكْـرٍ ﷺ بَيْعَـةً عَامَّـةً، بَعْـدَ بَيْعَـةِ السَّـقِيفَةِ، أَمَّـا عَلِـيُّ بْـنُ أَبِـي طَالِـبٍ، وَالزُّبَيْـرُ بْـنُ الْعَـوَّام رَضِـيَ اللهُ عَنْهُمَـا، فَقَـدْ بَايَعَـا مِـنْ أَوَّلِ يَـوْم، أَوْ ثانِي يَـوْم مِـنْ وَفَـاةِ رَسُـولِ اللهِ ﷺ، وَفْقًـا للروايـةِ الصحيحَـةِ التِـي رواهَـا أَبُـو سَـعيدٍ الخُـدْرِيِّ(163).

وَمِـنَ الأمـورِ الّتِي تُيسِّـرُ أمـرَ الطاعةِ كَذَلِكَ أَنْ يَـتقبَّـلَ القَائِـدُ ذُهـولَ التّابِعِ، إذا ارتبـكَ لِأوَّلِ وَهْلةٍ، أوِ اضْطـرَبَ فِـي استِجَابتِهِ لِلأمْـرِ، فأَتَـتْ طَاعتُـه عَلَـىٰ غيـرِ الصـورَةِ المطْلُوبـةِ أَوِ المَرجُـوّةِ مِنـهُ، وقَـد حَـدثَ مِثْـلُ ذَلِـكَ مَـعَ سَـيدِنَا مُوسَـىٰ (عليـه السـلام)، قَـالَ تَعالَـىٰ: ﴿قَـالَ لَا تُؤَاخِذْنِـي بِمَـا نَسِـيتُ وَلَا تُرْهِقْنِـي مِـنْ أَمْـرِي عُسْـرًا﴾[الكهف: 73]؛ فهُنَـا نَلحـظُ ذُهـولَ التَّابِـعِ، وَهُـوَ يَـرىٰ أَمامَـه أَشـيَاءَ لَا يَسـتَطِيعُ فَهْمَهَـا.

حَتَّـىٰ سَـيدُنَا عُمـرُ بـنُ الخَطَّـابِ، قَـد ذُهِـلَ أولَ الأمـرِ فِـي صُلْـحِ الحُديبيَـةِ، إِذْ ظَـنَّ أنَّ المُسـلِمينَ قَـد أَعْطَـوُا الدنيّـةَ فِـي دِينِهِـم، وَكَانَ أَشَـدَّ المُسْـلِمِينَ اسْـتِيَاءً وَحُزْنًـا مِـنْ هَـذَا الصُّلْـحِ؛ بَـلْ رَاجـعَ رَسُـولَ اللهِ ﷺ وَسَـأَلَه مُستنكِرًا: «أَلَسْـنَا عَلَـىٰ الحَـقِّ وَعَدُوُّنَـا عَلَـىٰ البَاطِلِ؟ قَـالَ ﷺ: «بَلَـىٰ»، فَقَـالَ عُمَـرُ: فَلِـمَ نُعْطِـي الدَّنِيَّـةَ فِي دِينِنَـا إِذنْ؟ فَقَـالَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ: «إِنِّـي رَسُـولُ اللهِ وَلَسْـتُ أَعْصِيـهِ، وَهُـوَ نَاصِـرِي»، فَقَـالَ عُمَـرُ: أَوَلَيْسَ كُنْـتَ تُحَدِّثُنَـا أَنَّـا سَـنَأْتِي البَيْـتَ فَنَطُـوفُ بِـهِ؟ فَقَـالَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ: «بَلَـىٰ، فَأَخْبَرْتُـكَ أَنَّـا نَأْتِيـهِ العَـامَ»؟ قَـالَ عُمَـرُ: لَا. فَقَـالَ ﷺ «فَإِنَّـكَ آتِيـهِ وَمُطَـوِّفٌ بِـهِ»، ثُـم يَفعَـلُ عُمـرُ الشَّـيْءَ نَـفسَهُ

(163) فَقَدْ أَخْرَجَ الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ قَالَ: «لَمَّا قَعَدَ أَبُو بَكْرٍ عَلَىٰ الْمِنْبَرِ نَظَرَ فِي وُجُوهِ الْقَوْمِ، فَلَمْ يَرَ عَلِيًّا ﷺفَسَأَلَ عَنْهُ، فَقَامَ نَاسٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَأَتَوْا بِهِ. فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: ابْنَ عَمِّ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَخَتَنَهُ، أَرَدْتَ أَنْ تَشُقَّ عَصَا الْمُسْلِمِينَ؟ فَقَالَ عَلِيٌّ ﷺلَا تَثْرِيبَ يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَبَايَعَهُ، ثُمَّ لَمْ يَرَ الزُّبَيْرَ بْنَ الْعَوَّامِ، فَسَأَلَ عَنْهُ حَتَّىٰ جَاؤُوا بِهِ. فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ ابْنَ عَمَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَحَوَارِيَّهُ، أَرَدْتَ أَنْ تَشُقَّ عَصَا الْمُسْلِمِينَ؟ فَقَالَ مِثْلَ قَوْلِ عَلِيٍّ لَا تَثْرِيبَ يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَبَايَعَهُ». أخرجه الحاكم في المستدرك، رقم (4514)، وأورده الحافظ ابن كثير في (البداية والنهاية) حديث رقم (5/ 261)، وقال: إسناده صحيح

مَـعَ أَبِـي بَكـرٍ، وَيَسـأَلُه الأسـئلَة ذَاتَهَـا، فَيقـولُ لَـهُ أَبُـو بَكْـرٍ: أَيُّهَـا الرَّجُـلُ، إِنَّـهُ لَرَسُـولُ اللهِ ﷺ، وَلَيْـسَ يَعْصِـي رَبَّـهُ، وَهُـوَ نَاصِـرُهُ، فَاسْتَمْسِـكْ بِغَـرْزِهِ[164] فَـوَاللهِ إِنَّـهُ عَلَـىٰ الحَـقِّ[165].

وَرُغْـمَ أنَّ سـيدَنَا عُمـرَ لَـمْ يَكُـنْ قَـادِرًا عَلَـىٰ اسـتيعَابِ المَوقـفِ، حَتَّـىٰ نَزَلَـتْ سُـورَةُ الفَتْـحِ، فَأَرْسَـلَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ إِلَـىٰ عُمَـرَ ، فَقَرَأَهَـا عَلَيْـهِ، فَقَـالَ عُمَـرُ: يَـا رَسُـولَ اللهِ! أَفَتْـحٌ هُـوَ؟ فَقَـالَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ: «نَعَـمْ»، فَطَابَـتْ نَفْـسُ عُمَـرَ، بَعـدَ أنْ لَـمْ يَكُـنْ قـادرًا عَلَـىٰ أنْ يَتصـوَّرَ هَـذَا الأمـرَ؛ إنّـه ذُهُـولُ التابـعِ.

وَلِذلِـكَ يَربطُـونَ (الطَّاعـةَ) بِالإيمَـانِ، فَهِـيَ تَزيـدُ وَتَنقُـصُ، مِثلَ الإيمَـانِ، فَلَمَّـا هَـدأَتْ نَـفسُ عُمـرَ (رَضِـيَ اللهُ عَنْهُ)جَعـلَ يُسـارِعُ فِـي الخَيـرَاتِ، وَيفعَـلُ الصَّالحَـاتِ، يَبتغِـي أَنْ يُكَفِّـرَ بِهَـا عَـنْ هـذا المَوقِـفِ الـذِي ارتـابَ فِيـهِ، وَتَـرَدَّدَ فِـي (طَاعَـةِ) النَّبـيِّ ﷺ أَوَّلَ الأَمْـرِ، فَـكَانَ عُمَـرُ (رَضِـيَ اللهُ عَنْـهُ) يَقُـولُ: «مَـا زِلْـتُ أَصُـومُ وَأَتَصَـدَّقُ وَأُصَلِّـي وَأُعْتِـقُ مِـنَ الـذِي صَنَعْـتُ، مَخَافَـةَ كَلَامِـي الـذِي تَكَلَّمْـتُ بِـهِ يَوْمَئِـذٍ حَتَّـىٰ رَجَـوْتُ أَنْ يَكُـونَ خَيْـرًا»[166].

وَيَدلُّنَـا مَـا سَـبقَ عَلَـىٰ أَنَّ الأَخَ يَحتَـاجُ مِـنْ مَسـؤُولِهِ أَوْ قَائِـدِه بعـضَ الحِلْـمِ وَالأَنَـاةِ، وَسَـعةِ الصَّـدْرِ؛ بـأَنْ يتقَبّـلَ هَـذَا الإِربَـاكَ، وَهَـذَا العَجْـزَ، وَهَـذَا الجُنـوحَ؛ يَتقبَّلُـه وَيتحَمَّلُـه منـه.

وَكُلُّنـا يَعـرِفُ مَـا فعلَـه حَاطـبُ بـنُ أَبِـي بَلتعَـةَ قبيـلَ فتـحِ مكَّـةَ، لَقَـدْ أَتَـىٰ فِعْـلًا إِدًّا لَا يُنافِـي مَفهُـومَ (الطّاعـةِ) فَحَسْـبُ، بَـلْ لَا يُتصَـوَّرُ أَن يأتِيَ صَحَابِـيٌّ

(164) الغَـرْزُ: رِكابُ الرَّحْـلِ من جِلْدٍ مَخْـرُوزٍ، وَالغَـرْزُ للناقةِ مثلُ الحِـزَامِ للفرَسِ، وَمِـنَ المَجاز: الْـزَمْ غَـرْزَ فلانٍ، أَي أَمْـرَه ونَهْيَـه. وَاسْتَمْسِـكْ بغَـرْزِه، أَي اعْتَلِـقْ بِهِ وأَمْسِكه واتَّبِـع قَوْلَـه وفِعلَـه، وَلَا تُخالِفه فاستعارَ لَـهُ الغَـرْزَ، كَالَّـذي يُمسِـكُ بِـركابِ الرّاكِـبِ، ويسيرُ بسَـيْرِه.

(165) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم (2731) (2732)، ومسلم في صحيحه، رقم (1785)، وأحمد في مسنده، رقم (18910) (18928).

(166) أخرجه الإمام أحمد في مسنده رقم (18910)، وإسناده حسن.

مِثْلَ هَـذا الفِعْـلِ الـذِي قَـدْ يَضعُـهُ فِـي زُمـرَةِ الخَائِنِيـنَ للهِ وَرَسُـولِهِ ﷺ؛ لكـنَّ رَسُـولَ اللهِ لَا يُعاجِلُـهُ حَتَّىٰ يَـرَىٰ دَوافِعَهُ إِلَىٰ هـذَا الفِعْـلِ الشَّـنِيعِ، وخَبَـرُ ما فعلَهُ حَاطِبٌ أَنَّـه: لَمَّـا أَجْمَعَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ المَسِيرَ إِلَىٰ مَكَّةَ، كَتَبَ حَاطِبُ بـنُ أَبِـي بَلْتَعَـةَ كِتَابًـا إِلَـىٰ قُرَيْـشٍ يُخْبِرُهُـمْ بِمَسِـيرِ رَسُـولِ اللهِ ﷺ إِلَيْهِـمْ، ثُـمَّ أَعْطَـاهُ امْـرَأَةً مِـنْ مُزَيْنَـةَ، وَجَعَلَ لَهَـا جُعْـلًا عَلَىٰ أَنْ تُبَلِّغَهُ قُرَيْشًـا. وَقَدْ أَخْـرَجَ الشَّـيْخَانِ فِي صَحِيحَيْهِمَـا عَـنْ عَلِيٍّ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) أَنَّـهُ قَـالَ: بَعَثَنِي رَسُـولُ اللهِ ﷺ وَالزُّبَيْـرَ بـنَ العَـوَّامِ وَأَبَـا مِرْثَـدٍ الغَنَـوِيَّ وَكُلُّنَـا فَـارِسٌ، فَقَـالَ: «انْطَلِقُـوا حَتَّـىٰ تَأْتُـوا رَوْضَـةَ خَـاخٍ فَـإِنَّ بِهَـا امْـرَأَةً مِـنَ المُشْـرِكِينَ مَعَهَـا صَحِيفَـةٌ مِـنْ حَاطِـبِ بـنِ أَبِـي بَلْتَعَـةَ إِلَـىٰ المُشْـرِكِينَ، فَأْتُونِـي بِهَـا». قَـالَ عَلِـيٌّ: فَانْطَلَقْنَـا عَلَىٰ أَفْرَاسِنَا حَتَّىٰ أَدْرَكْنَاهَـا حَيْـثُ قَـالَ لَنَـا رَسُـولُ اللهِ ﷺ، تَسِيرُ عَلَىٰ بَعِيرٍ لَهَـا، فَقُلْنَـا لَهَـا: أَيْـنَ الكِتَـابُ الـذِي مَعَـكِ؟

قَالَـتْ: مَـا مَعِـيَ كِتَـابٌ، فَأَنَخْنَـا بِهَـا بَعِيرَهَـا، فَابْتَغَيْنَـا فِـي رَحْلِهَـا، فَلَـمْ نَجِـدْ فِيـهِ شَـيْئًا، فَقَـالَ صَاحِبَايَ: مَـا نَـرَىٰ مَعَهَـا الكِتَـابَ، فَقُلْـتُ: لَقَـدْ عَلِمْتُمَـا مَـا كَـذَبَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ، وَالـذِي أَحْلِـفُ بِـهِ لَئِـنْ لَـمْ تُخْرِجِـي الكِتَـابَ لَأُجَرِّدَنَّـكِ، فَأَهْـوَتْ إِلَـىٰ حُجْزَتِهَـا، وَهِـيَ مُحْتَجِـزَةٌ بِكِسَـاءٍ، فَأَخْرَجَـتِ الصَّحِيفَـةَ، فَانْطَلَقْنَـا بِهَـا إِلَـىٰ رَسُـولِ اللهِ ﷺ، فَقَـالَ ﷺ لِحَاطِـبٍ: يَـا حَاطِـبُ مَـا حَمَلَـكَ عَلَـىٰ مَـا صَنَعْـتَ؟. قَـالَ: لَا تَعْجَلْ عَلَـيَّ يَـا رَسُـولَ اللهِ! إِنِّـي كُنْـتُ امْـرَأً مُلْصَقًـا فِـي قُرَيْـشٍ - أَيْ كَانَ حَلِيفًـا لَهُـمْ، وَلَـمْ يَكُـنْ مِـنْ أَنْفُسِـهَا -، وَكَانَ مَـنْ مَعَـكَ مِـنَ المُهَاجِرِيـنَ لَهُـمْ قَرَابَـاتٌ يَحْمُـونَ أَهْلِيهِـمْ، فَأَحْبَبْـتُ إِذْ فَاتَنِـي ذَلِـكَ مِـنَ النَّسَـبِ فِيهِـمْ أَنْ أَتَّخِـذَ عِنْدَهُـمْ يَـدًا يَحْمُـونَ بِهَـا قَرَابَتِـي، وَلَـمْ أَفْعَلْـهُ كُفْـرًا، وَلَا ارْتِـدَادًا عَـنْ دِينِـي، وَلَا رِضًـا بِالكُفْـرِ بَعْـدَ الإِسْـلَامِ. فَقَـالَ رَسُـولُ اللهِ: أَمَـا إِنَّـهُ قَـدْ صَدَقَكُـمْ.

فَقَـالَ عُمَـرُ: يَـا رَسُـولَ اللهِ، إِنَّـهُ قَـدْ خَـانَ اللهَ وَرَسُـولَهُ وَالمُؤْمِنِيـنَ، فَدَعْنِي أَضْـرِبْ عُنُقَـهُ، فَقَـالَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ: إِنَّـهُ قَـدْ شَـهِدَ بَـدْرًا، وَمَـا يُدْرِيـكَ لَعَـلَّ اللهَ اطَّلَـعَ عَلَىٰ أَهْـلِ بَـدْرٍ فَقَـالَ: اعْمَلُـوا مَـا شِـئْتُمْ فَقَـدْ غَفَـرْتُ لَكُـمْ، فَدَمَعَـتْ عَيْنَـا عُمَـرَ، وَقَـالَ: اللهُ وَرَسُـولَهُ أَعْلَـمُ. وَأَنْـزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَاأَيُّهَـا الَّذِيـنَ آمَنُـوا لَا تَتَّخِـذُوا عَـدُوِّي وَعَدُوَّكُـمْ أَوْلِيَاءَ...الآيـة﴾»[167].

تَـأَمَّلْ حِلْـمَ رسُـولِ الله ﷺ أَمَـامَ زَلَّـةٍ لِصَحابِـيٍّ جَليـل، فَـلا يُطـارِدُهُ بِـزَلَّتِهِ وَلَا يَـدَعُ أَحَـدًا يُطـارِدُهُ بِهَـا، بَـلْ يُعينُـه عَلَىٰ النهُـوضِ مِـنْ كَبوَتِـهِ، وَيَـذكُـرُ لَـه سَـابِقَةً فِـي الإِسْـلَام (وَهِـيَ شُـهودُهُ غَـزوَةَ بَـدْرٍ)، فتكـونُ شـفيعًا لَـه فِـي اغتِفَارِ الزلَّـةِ. إنهُ الذهُـولُ الّـذِي يَحدُثُ أَحيَانًـا، لِمَـاذَا؟ لأَنَّ الأمـورَ حِينـذَاكَ تَكـونُ فَـوْقَ الطّاقـةِ، أَوْ فَـوْقَ الإِدْراكِ، وَمِـنْ هُنَـا تَأتِـي ضَـرورَةُ تَسـويغِ الفِعْـل، وَتَعلِيـلِ الأمـرِ، وَشَـرحِ ضَوابطِـهِ الشَّـرعيَّة، فذلِـكَ مِمَّـا يُيسِّـرُ أَمْـرَ (الطَّاعَـةِ) كَذلِـكَ. فَقَبُـولُ هَـذَا الذهُـولِ أَمْرٌ مُهِـمٌّ جِـدًّا، وَتَعلِيلُـه أيضًـا، وَأَنْ يَسَـعَهُ صَـدْرُ الحَليـمِ القَائِـدِ المَسؤُولِ، وكَذلِـكَ الأَنَـاةُ والـرأيُ الصَّائِـبُ، والوَقَارُ وَالرّزَانَـةُ تَقدِيـرًا لِلظُّـروفِ.

وَمِـنْ ثَـمَّ كَانَ الأسـتاذُ يُوسُـفُ هَـوَّاش، يُسـلِّمُ عَلَـىٰ (عَلِـي عَشْـمَاوِي)، وينظُـر إليـهِ، ويُلقِـي عَلَيـهِ السَّـلامَ ونحـنُ فِـي قَفـصِ الاتّهـامِ فِـي القضيّـةِ الأُولَـىٰ، فِـي حِيـنَ كَانَ الإخـوَانُ يُعرِضُـونَ عَنْـهُ، فَيَنهَانَـا الأسـتَاذُ هَـوَّاش عَـن ذَلِـكَ ، وَيقـول لنَـا: لَا تُعينُـوا الشـيطَانَ عَلَـىٰ أخيكـم، رُغْـمَ مَـا فَعلَـه (عَلِـي عَشْـمَاوِي)، وَهُـوَ الّـذِي سَـلَّمَ القَضيّـةَ كُلَّهـا، وَلِهـذَا لَـمْ يَنْسَ الأسـتاذُ عَلـيٌّ عَشـمَاوِي لَـهُ هَـذَا المَوقِـفَ، وَكَتـبَ ذَلِـكَ فِـي مُذكراتِـهِ، فقـالَ: كَانَ أَحسَـن اثنيـنِ يُعاملُونَنِـي سَـيد قُطْـب وَيُوسُـف هـواش، رُغـمَ أنـهُ كانَ سـببًا فِـي تَسـلمِيهِمَا لِحَبْـلِ المشـنقَةِ، وَمُذكراتُـه مَوجـودَةٌ فِـي السُّـوقِ وَيُمكـنُ لأيِّ أحـدٍ

(167) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم (3081).

أَنْ يَقرأَهَا؛ حيثُ يُكمِلُ فيقولُ: وَكنتُ أَسمَعُهُما وَهُما يقولانِ للإخوانِ: لَا تُعامِلُوهُ بِهذَا الشكلِ، سَلِّمُوا عَليهِ، ألقُوا عَلَيهِ السلامَ، لَا تُعينُوا الشيطَانَ عَلَىٰ أَخِيكُمْ.

فَهَذِهِ مَعَانٍ دَقيقةٌ، قَلَّ مَنْ يُدرِكُهَا مِنَ الناسِ، ويتَحَلَّىٰ بِصفاتِ الحِلْمِ والأَنَاةِ، وَسَعةِ الصَّدْرِ، ويُرَاعِي طَاقاتِ النَّاسِ.

وَهَذا مَا جعلَ الأستاذَ سَيِّد قطب يُجِيزُ لِمَنْ أَنْهكَهُ التعذيبُ، وَلَمْ يَقْوَ عَلَىٰ احتِمَالِهِ، أنْ يُؤَيِّدَ تَقديرًا للظروفِ والأوضاعِ والطاقاتِ، فَقَدْ وَضَعْتْ شَريعَتُنَا للمُكلَّفِ رُخصةً وَعَزيمَةً، وَتَركَتْهُ يَختَارُ مَا فِي وُسْعِهِ، حَتَّىٰ تُصبِحَ طَاعتُه طاعةً رَاضِيَةً، وَلَا تُحجِّرْ عَليهِ وَاسعًا فَتضعُه فِي حَرجٍ، ولَنْ يَزِيدَ التَّشدُّدَ مَعَ الأخِ إلا تَحَرُجًا، ومَنْ أَرَادَ أَنْ يَتفَلَّتَ فَلا خيرَ فِيهِ مُنْذُ البَدْءِ.

إِظهَارُ الامتِنَانِ وَالتقْدِيرِ

وَهَذَا مِنْ أَكبَرِ المُعينَاتِ عَلَىٰ (الطّاعَةِ) كَذلِكَ؛ أَنْ تُقدِّرَ القِيادَةُ الأَخَ إِذَا أَحْسَنَ، وُتُعبِّرَ عَن فَرحِهَا وسُرورِهَا؛ إِذَا أَنجزَ أَمْرًا مَا، وَلَو كَانَ يَسِيرًا أَوْ صَغِيرًا، وَهُوَ مَنهَجٌ قُرْآنِيٌّ ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الفتح: 26]. وَسَيدُنَا رسولُ اللهِ ﷺ كَانَ يَحفُرُ الخندقَ، وَينظُر إِلَىٰ الأَنصَارِ وَالمُهاجِرينَ، ويقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنَّ العَيْشَ عَيْشُ الْآخِرَةِ فَاغْفِرْ لِلْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَةِ». وَهَذَا نوعٌ مِن إِظهَارِ التقدِيرِ وَالامتِنَانِ لَهُم، وأوصىٰ بِالأنصار خيرًا في أحاديث، منها ما رَوَاه الشَّيْخَانِ فِي صَحِيحَيْهِمَا عَنْ أَنَسِ بنِ مَالِكٍ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) قَالَ: صَعِدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ المِنْبَرَ، وَلَمْ يَصْعَدْهُ بَعْدَ ذَلِكَ اليَوْمِ، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: «أُوصِيكُمْ بِالأَنْصَارِ، فَإِنَّهُمْ كَرْشِي وعَيْبَتِي، وَقَدْ قَضَوا الذِي عَلَيْهِمْ،

وَبَقِيَ الـذِي لَهُـمْ، فاقْبَلُـوا مِـنْ مُحْسِنِهِمْ، وتَجَـاوَزُوا عَـنْ مُسِيئِهِمْ»[168]، أَدَّوْا مَـا عَلَيهِـم مِـنَ المُبَايعَـةِ وَالنُّصْـرَةِ وَالجِهـادِ، وَبَـقِيَ الّـذِي لَهُـم مِـنَ الأجـرِ وَالكرامَـةِ، والجَنَّـةِ، لأنَّهـم بَايعُـوا النَّبـيَّ ﷺ عَلَىٰ النُّصـرَةِ، وَجَزاؤُهُـمُ الجَنَّـةُ، وَقَـدْ وَفَّـوْا فَلَهـم الجَنَّـةُ بِـإذْنِ اللهِ تَعالَـىٰ.

وأخْـرَجَ الإمَـامُ البُخَـارِيُّ في صَحِيحِـهِ عَـنْ عُمَـرَ بـنِ الخَطَّـابِ (رَضِـيَ اللهُ عَنْـهُ) أَنَّـهُ قَـالَ - وَهُـوَ يُوصِـي الخَلِيفَـةَ مِـنْ بَعْـدِهِ، وهَـذَا الـكَلَامُ قَالَـهُ لَمَّـا طُعِـنَ-: «... وَأُوصِيـهِ بِالأنْصَـارِ خَيْـرًا، الذِيـنَ تَبـوَّأُوا الـدَّارَ وَالإيمَـانَ مِـنْ قَبْلِهِـمْ، أَنْ يُقْبَـلَ مِـنْ مُحْسِـنِهِمْ، وَأَنْ يُعْفَـىٰ عَـنْ مُسِـيئِهِمْ».

والتقَـىٰ سيدنَا عُمـرُ بـنُ الخَطَّـابِ (رَضِـيَ اللهُ عَنْـهُ) بوفـدٍ مِـنْ طَـيِّءٍ فِيهِـم عَـدِيُّ بـنُ حَاتِـمِ الطَّائِي، فَـرأَىٰ عَـدِيٌّ مِنهُ جَفـوةً فَتعجَّـبَ، وَقَـد كَانَ عَـدِيُّ بنُ حَاتِـمٍ أَحـدَ الركَائِـزِ الّتِي ثَـبَّتَتْ الإيمـانَ فِي قُلـوبِ قَبيلَـةِ طَـيِّءٍ لَمَّـا أرادتْ أنْ تَرتـدَّ، فَمنعَهـا مِـنَ الـردَّةِ عَـديُّ بـنُ حَاتِـمِ الطَّائِـيِّ (رَضِـيَ اللهُ عَنْـهُ)، فَعَـنْ عَدِيِّ بْـنِ حَاتِـمٍ قَـالَ: «أَتَيْنَـا عُمَـرَ فِـي وَفْـدٍ فَجَعَـلَ يَدْعُـو رَجُـلًا رَجُـلًا وَيُسَـمِّيهِمْ، فَقُلْـتُ: أَمَـا تَعْرِفُنِي يَـا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِيـنَ، قَـالَ: بَلَىٰ أَسْـلَمْتَ إِذْ كَفَـرُوا، وَأَقْبَلْـتَ إِذْ أَدْبَـرُوا، وَوَفَيْـتَ إِذْ غَـدَرُوا، وَعَرَفْـتَ إِذْ أَنْكَـرُوا، فَقَـالَ عَـدِيٌّ: فَـلَا أُبَالِـي إِذًا»[169]. لقَـد شَـمخَ بِهـا عَـديُّ بـنُ حَاتِـمٍ الطَّائِـيِّ، فَـلاَ يَعبـأُ بَعـدَ ذَلِـكَ أَعرَفَـهُ النـاسُ أم أَنكـرُوهُ.

وَعلَىٰ هَـذَا النهْـجِ سـارَ الإمـامُ البنَّـا رَحِمَهُ اللَّهُ، فـكانَ يَعْـرِفُ لإِخْوَانِـهِ فَضْلَهـم، ويَحـرِصُ أشَـدَّ الحـرصِ عَلَىٰ إِظهَـارِ الفَـرحِ بِهِـمْ، وَاللهْفَـةِ إِلَىٰ لِقائِهـم، ولمَّـا

(168) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم (3799)، ومسلم في صحيحه، رقم (2510).، ومعنىٰ كَرْشِي: بِطَانَتِي وخَاصَّتِي الذينَ أثِقُ بهِم وأعْتَمِدُهُمْ في أمُورِي. والعَيْبَةُ: وِعَاءٌ مَعروفٌ يَحْفَظُ الإنسَانُ فِيهَا ثِيَابَهُ وفاخِرَ مَتَاعِهِ، ويَصُونُهَا، ضَرَبَهَا ﷺ مثلًا لأنَّهم أهلُ سِرِّهِ وخَفِيِّ أحْوَالِهِ.
(169) أخرجه البخاري، رقم (4394).

سُئِلَ عَن ذَلِكَ قَالَ: «أَنْتُم رَأْسُ المَالِ وَهُوَ قليلٌ، أَسأَلُ اللهَ ألَّا يُرِيَنِي الفَجيعَةَ فِيكُمْ، وأَنْ يَجعَلَ نِهايتَكُم أفضَلَ مِنَ البدَايةِ، وَأَنْ يجعلَ حَقيقَتَكُم أَفصَحَ مِنَ الظَّنِّ». كُلُّ هَذَا يُمثِّلُ نَوعًا مِنَ الامتِنَانِ وَالتقْديرِ وَالتعبيرِ عَن السرُورِ، وَهَذَا يُيَسِّر أمرَ (الطَّاعَةِ)، وَتَكَالِيفَهَا الشَّاقَةَ، وَمَا تَقتَضِيهِ مِنَ الامتِثَالِ وَالتنفِيذِ.

وَقَد حَدثْتُكُم عَنْ نَظْرَةِ الأستَاذِ سَيدِ قُطْب إِلينَا، ونَحنُ فِي قفصِ الاتِّهام، وَالسَّلامُ وَالكلَامُ فِيهِ ممنوعَانِ، لكنَّ الرجُلَ يَملِكُ نَظرَةَ عَينَيْهِ؛ فَجَالَ بِطَرْفِهِ فِينَا جَمِيعًا، وُكُنَّا أَربَعينَ فَرْدًا، وَكَانَ كُلُّ صَفٍّ يَقولُ: للذِي قَبلَهُ: انْخفِضْ قَلِيلًا حَتَّىٰ يَنظُرَ الأستَاذُ إِلَى الّذِي وَرَاءَكَ، وَفِي لحْظَةِ صَمْتٍ، ينظُرُ إِلَىٰ كلِّ وَاحدٍ مِنَّا رُبْعَ دَقِيقَةٍ فَقَطْ، مُحْدِثًا نوعًا مِنَ التعْبيرِ عَنِ الامتِنَانِ وَالتقْديرِ لِهَؤُلاءِ الرجَالِ الذينَ آمَنُوا بفكرتِهِ، ووَقفُوا مَعَهُ فِي تِلكَ الظُّروفِ العَصيبَةِ، وَإِنْ لَمْ يَعرِفْهُمْ جَميعًا، وَكَانَ هَذَا أَقْصَىٰ مَا يَستَطِيعُه رَحِمَهُ اللهُ: التعبيرُ عَنْ الامتِنَانِ بِنَظْرَةِ العَينِ!

الاتِّفَاقُ وَعَدمُ التَّنافُرِ فِي الصَفِّ

فالتقديرُ والامتِنانُ والتعبيرُ عَنِ السرُورِ مَشَاعِرُ تُيَسِّرُ أَمْرَ (الطَّاعَةِ) وَلَا شَكَّ، وَممَّا يُعينُ عَلَىٰ (الطَّاعَةِ) كَذَلِكَ وَيُيَسِّرُهَا أَنْ تَسُودَ الصَّفَّ رُوحُ الائْتِلَافِ وَالاتِّفَاقِ، وَأَنْ يَقِلَّ بينَ الإِخْوَةِ التَّنافُرُ وَالاختِلافُ، فَإِذَا تنافَرتِ القلُوبُ داخِلَ الصّفِّ تَصدَّعَ وتشَقَّقَ، واختِلافُ القُلوبِ يُورِثُ فقدَانَ الحمَاسَةِ، فَالوَهنَ فَالتراجُعَ، وَعندئذٍ تكونُ (الطاعةُ) محكومةً بِالهَوَىٰ، يُسارِعُونَ إِلَىٰ الطاعَةِ فِيمَا يُحبُّونَ، وَيُبطِئونَ فِيمَا يَكرهُونَ. فَإِنِ امتُحِنُوا بأمرٍ يَكرهُونَه وفِيهِ صَلاحُ الجماعةِ عَذَّرُوا وَوَلَّوْا، أَوْ أَطاعُوا كَارِهِينَ، وامتَثَلُوا سَاخِطِينَ... وَقَدْ يَؤُولُ الأمْرُ ببعضِ الإخوَةِ إِلَىٰ الاعتِزَالِ، وَلَا

سِـيّمَا أَنْ يَكُـونَ ثَمَّـةَ إِشْـكَالٌ أَوْ إِرْهَـاقٌ أَوْ دِمَـاءٌ؛ كَمَـا يقُـولُ الأستاذُ مُحمَّـدُ الراشِـدُ[170].

وَهـذَا أمـرٌ لَـه خطُورتُـه التِـي تَتمثَّـلُ فِـي: عُمـوم الفَوضَـىٰ، وعُمـوم البلْـوَىٰ، واضطـراب القـرَار واضطـراب الخُطَـطِ، وفَوضَـىٰ التوجيـهِ. أُمُـورُ يَنبغي أنْ يَحرِصَ الصفُّ كلُّه عَلَىٰ ألَّا تَحْدُثَ بَينَنا أبَـدًا، لأن هَـذَا سيؤدِّي إِلَـىٰ الإشـكالِ، أَو إِلَـىٰ الإرهَـاقِ، أَوِ الدِّمَـاءِ لا قَـدَّرَ اللهُ؛ مِثـلَ فَـترةِ المِحنَـةِ الشـديدةِ الّتِـي عاشَـهَا الصحْـبُ الكِـرامُ، وَقَـدِ اعتزَلَهَـا بعضُهُـم وابتعـدُوا عَنْهَـا؛ لأنَّ هُنـاكَ إِشْـكالًا وَإرْهاقًـا وَدِمَـاءً، أَدَّىٰ إِلَـىٰ اعتـزالِ بَعضِهـم، وَلَـم يَعِبْ أحـدٌ عَلَىٰ مَنِ اعتَزلَ، بل قَالُوا: مَن اعتَزلَ أَفضَـلُ مِمَّـنْ شَـارَكَ، لأنّه لَـمْ تكُـنْ هُنَالـكَ جَماعـةٌ وَلَـمْ يَكُـنْ إِمَـامٌ، ولِذَلِـكَ يقـول علمـاءُ الإدارة: إنَّ القـرارَ الخاطـئَ خيـرٌ مـن غيـابِ القـرار؛ لأنَّ غيابَـه يـؤدِّي إلـىٰ الفوضـىٰ. وليس المقصـودُ بالقـرار الخاطـئ اتِّبـاعَ الهـوىٰ، وإنمـا المقصـودُ بـه القـرارُ المبنيُّ علىٰ الاجتهـاد والنصـح وبـذل الوُسع. فـإن جـاء القـرارُ غيـرَ صـوابٍ، كان المجتهـدُ مأجـورًا وإن أخطـأ.

والرسـولُ ﷺ يُوضِّـحُ خطـورةَ تَـرْكِ الإمَـام النصْـحَ لِرعيَّتِـه فِـي حَديـثِ مَعقِـل بـنِ يَسـارٍ، الـذي أشـرنا إلـىٰ بعضـه مـن قبـلُ، وتمامـه: «أنَّ عُبَيْـدَ اللهِ بـنَ زِيَـادٍ دَخَـلَ عَلَىٰ مَعْقِـل بـنِ يَسَـارٍ فِـي مَرَضِـهِ، فَقـالَ لـه مَعْقِـلٌ: إنِّـي مُحَدِّثُـكَ بحَدِيـثٍ لَـوْلَا أَنِّـي فِـي المَـوْتِ لَـمْ أُحَدِّثْـكَ بـه، سَـمِعتُ رَسُـولَ اللهِ ﷺ يقـولُ: مَـا مِـن أَمِيـرٍ يَلِـي أَمـرَ المُسـلِمينَ، ثُـمَّ لا يَجهَـدُ لَهُـمْ ويَنصَـحُ، إلَّا لَـم يَدخُـلْ معهُـمُ الجَنَّـةَ»[171]. عقـابٌ وحِرمـانٌ لأنَّ الـدورانَ فِـي دائـرةِ الخَطـأِ أَمْـرٌ لَـه خُطورَتُـه، لَكِـنْ حِينَمَـا يُتَخَـذُ قَـرَارٌ عَـنِ اجتهَـادٍ وَنُصـحٍ، ثُـم يَكـونُ ثَمَّـةَ خَطـأٌ،

(170) انظر محمد أحمد الراشد: *العـوائق*، دار المنطلق، ص 12، 20.
(171) أخرجه البخاري (7150) بمعناه، ومسلم (142).

فالاجتِمَاعُ عَلَيهِ خَيرٌ مِن الافْتِرَاقِ عَلَىٰ عَدَمِهِ (لَا قَرَارَ)، لأنَّ الخطأَ يُمكنُ استدراكُه وَتَصحِيحُه، وَيُمكِنُ تَفادِي آثَارِهِ، وهَذَا أَفضَلُ بِكثيرٍ جِدًّا مِن التفَرُّقِ والفَوضَىٰ الّتِي يَنتُجُ عَنْهَا العُزلَةُ، أوْ يَنتُجُ عَنْهَا الاعتِزَالُ، وَهَذَا أَخْطَرُ مَا فِي الأمْرِ؛ لأنهُ مُفارَقَةٌ لِلجمَاعَةِ، أَوْ خَلعُ يَدٍ مِنْ طَاعةٍ، يُوقِعُ فِي مُخالفَةٍ لأحاديثِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَمِنْهَا قَوْلُهُ ﷺ: «مَنْ خَلَعَ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ لَقِيَ اللهَ تَعَالَىٰ يَومَ القِيَامَةِ لَا حُجَّةَ لَهُ»[172]؛ أَيْ لاَ حُجّةَ لَهُ فِي فِعْلِهِ وَلاَ عُذْرَ لَهُ يَنْفَعُهُ. وَقَد رُوِيَ عَنِ الفَارُوقِ عُمرَ بنِ الخَطَّابِ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) أَنهُ قَالَ: «يَا مَعْشَرَ الْعُرَيْبِ، الْأَرْضَ الْأَرْضَ، إِنَّهُ لَا إِسْلَامَ إِلَّا بِجَمَاعَةٍ، وَلَا جَمَاعَةَ إِلَّا بِإِمَارَةٍ، وَلَا إِمَارَةَ إِلَّا بِطَاعَةٍ، فَمَنْ سَوَّدَهُ قَوْمُهُ عَلَىٰ الْفِقْهِ، كَانَ حَيَاةً لَهُ وَلَهُمْ، وَمَنْ سَوَّدَهُ قَوْمُهُ عَلَىٰ غَيْرِ فِقْهٍ، كَانَ هَلَاكًا لَهُ وَلَهُمْ»[173].

أَوْتَادُ الدَّعوةِ مَبعَثُ ثِقَةِ الصَّفِّ واطْمئْنَانِهِ

ثمَّةَ قَولٌ قَديمٌ مَشهورٌ نَسمَعُهُ كثيرًا، عنيتُ قولَ سَيدِنَا عُمرَ بنِ الخَطّابِ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ): «أَمَّرَ خَالِدٌ نَفْسَهُ». وسببُ هَذهِ المَقولَةِ أنَّ سيدَنا أَبَا عُبَيْدَةَ أَرْسلَ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ إِلَىٰ قِنَّسْرِينَ.. وَسَارَ خَالِدٌ حَتَّىٰ نَزَلَ عَلَىٰ قِنَّسْرِينَ فَتَحَصَّنُوا مِنْهُ، فَقَالَ: لَوْ كُنْتُمْ فِي السَّحَابِ لَحَمَلَنَا اللهُ إِلَيْكُمْ، وَلَمْ يَزَلْ بِهِمْ حَتَّىٰ فَتَحَهَا اللهُ عَلَيْهِ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ. فَلَمَّا بَلَغَ عُمَرَ صَنِيعُ خَالِدٍ قَالَ: «أَمَّرَ خَالِدٌ نَفْسَهُ، يَرْحَمُ اللهُ أَبَا بَكْرٍ هُوَ كَانَ أَعْلَمَ بِالرِّجَالِ مِنِّي، وَقَدْ كَانَ عَزَلَهُ وَالْمُثَنَّىٰ بْنَ حَارِثَةَ .

وَقَالَ: إِنِّي لَمْ أَعْزِلْهُمَا عَنْ رِيبَةٍ وَلَكِنَّ النَّاسَ عَظَّمُوهُمَا فَخَشِيتُ أَنْ

(172) أخرجه مسلم في صحيحه، رقم (1851).
(173) أخرجه الدارمي موقوفًا، 13/ 260.

يُوكَلُوا إِلَيْهِمَا»[174].

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَىٰ نِعَمَائِهِ؛ إِذْ يُقَيِّضُ لِدِينِهِ وَدَعْوَتِهِ رِجَالًا كَأَمْثَالِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ فِي كُلِّ زَمَانٍ، وَلَمْ يَخْلُ صَفُّ (الإِخْوَانِ الْمُسْلِمِينَ) مِنْ هَؤُلَاءِ الرِّجَالِ الَّذِينَ نُسَمِّيهِمْ (الأَوْتَادَ)، فَهُمْ يَرُدُّونَ الثِّقَةَ إِلَىٰ الصَّفِّ، وَيُؤَمِّنُونَ وَحْدَتَهُ، وَيُيَسِّرُونَ عَلَيْهِ أَمْرَ الطَّاعَةِ، فَلَا خَوْفَ عَلَىٰ صَفٍّ يَضُمُّ أَمْثَالَهُمْ.

وَأَذْكُرُ أَنَّنِي رَأَيْتُ مِنْ رِجَالِ الدَّعْوَةِ مَنْ زَيَّنَهُمُ اللهُ بِصِفَاتٍ وَفَضَائِلَ يَجْتَمِعُ عَلَيْهَا النَّاسُ، وَيَصْدُقُ عَلَيْهِمْ قَوْلُ سَيِّدِنَا عُمَرَ: «أَمَّرَ خَالِدٌ نَفْسَهُ». وَكَانَ مِنْهُمْ: الْحَاجُّ مَحْمُودُ أَبُو رَيَّةَ، وَالشَّيْخُ عَبْدُ الْمَقْصُودِ الْعَزَبُ، وَالْحَاجُّ عَبْدُ الرَّزَّاقِ عِمَادُ الدِّينِ، وَالشَّيْخُ عَبْدُ الْفَتَّاحِ الشَّرِيفُ، وَالأَخُ مُحَمَّدُ سَلِيمُ مُصْطَفَىٰ. كَانَ النَّاسُ يَجْتَمِعُونَ عَلَيْهِمْ، وَيُحِبُّونَهُمْ، وَيَسْمَعُونَ لَهُمْ، وَيَسْتَشِيرُونَهُمْ، فَيُؤَكِّدُونَ مَعَانِيَ الثِّقَةِ وَالاطْمِئْنَانِ، وَيَحْفَظُونَ لِلصَّفِّ هُدُوءَهُ وَتَنَاغُمَهُ، بَعِيدًا عَنِ الشِّلَلِيَّةِ وَالْمَذْهَبِيَّةِ وَالانْعِزَالِيَّةِ.

وَقَدْ كَانَ وُجُودُ أَمْثَالِ هَؤُلَاءِ بَيْنَنَا فِي السُّجُونِ مَصْدَرَ ثِقَةٍ وَطُمَأْنِينَةٍ. وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّا كُنَّا، إِذَا حَدَثَ شَيْءٌ مِنْ إِخْوَانِ الْمَحَلَّةِ فِي سِجْنِ الْقَنَاطِرِ أَوْ طُرَةَ، حَكَّمْنَا الشَّيْخَ عَبْدَ الْوَهَّابِ الشَّاعِرَ، فَيُصْلِحُ بَيْنَ الإِخْوَةِ لِمَا يَحْظَىٰ بِهِ مِنْ مَكَانَةٍ وَهَيْبَةٍ.

وَمِثْلُهُ أَخُونَا بَسْيُونِي بَطْنِينَةُ؛ كَانَ مُجَرَّدُ النَّظَرِ فِي عَيْنَيْهِ يَبْعَثُ الرَّاحَةَ وَالطُّمَأْنِينَةَ، حَتَّىٰ كَانَ الأُسْتَاذُ حَامِدُ أَبُو النَّصْرِ يَقُولُ: «الأَخُ بَسْيُونِي بَطْنِينَةُ يُرَبِّينَا بِعَيْنِهِ». فَكَانُوا يَتَعَهَّدُونَ إِخْوَانَهُمْ بِالتَّرْبِيَةِ وَالإِعْدَادِ وَالنُّصْحِ وَالإِرْشَادِ، رَحِمَهُمُ اللهُ أَجْمَعِينَ.

(174) انظر عز الدين ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ): *الكامل في التاريخ*، ط 1، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان، 1417هـ/ 1997م، ٢/ 324. وانظر كذلك ابن كثير: *البداية والنهاية*، 9/ 650.

مَـهَابَـةُ القِـيَادةِ تُـيسِّرُ الطَّاعَـةَ

وَقَـدْ ذَكـرْتُ لكُـمْ مِثـالَ عَـدِيِّ بـنِ حاتـمٍ، أَكَان فِـي اسـتطَاعَةِ أَحَـدٍ أَنْ يَـردَّ قَبيلَـةَ طَـيِّءٍ كُلّهـا إِلَـىٰ الإسـلام إلا عَـدَيَّ بـنَ حَاتـمٍ (رَضِـيَ اللهُ عَنْـهُ). قَـالَ الواقِـدِيُّ: «وَهَمَّـتْ قَبَائِـلُ طَـيِّءٍ أَنْ يَرْتَـدُّوا عَـنْ دِيـنِ الإسـلام، فَقـامَ سَـيدُهُم عَـدِيُّ بْـنُ حَاتِـمٍ الطَّائِـيُّ، فَقَـالَ: (يَـا مَعْشَـرَ طَـيِّءٍ، إِنَّكُـمْ إِنْ أَقَمْتُـمْ عَلَـىٰ دِيـنِ الإِسْـلام أَصَبْتُـمُ الدُّنْيَـا وَالآخِـرَةَ، وَإِنْ رَجَعْتُـمْ عَنْـهُ خَسِـرْتُمُ الدُّنْيَـا وَالآخِـرَةَ، وَاسْـتَغْنَىٰ اللهُ عَنْكُـمْ، وَعَلِمْتُـمْ أَنَّ اللهَ تَبـارَكَ وتَعالَـىٰ قَـد قَبـضَ نَبيَّكُـم مُحمَّـدًا صَلَّـىٰ اللهُ عَليـهِ وَآلِـهِ وَسَـلَّمَ... وَهَـذَا أَبُـو بَكْـرٍ الصِّدِّيـقُ خَلِيفَـةُ رَسُـولِ اللهِ صَلَّـىٰ اللهُ عَليـهِ وَآلِـهِ وَسَـلَّمَ، وَقَـدْ عَـزَمَ عَلَـىٰ أَنْ يُوَجِّـهَ إِلَيْهِـمْ بِخَالِـدِ بْـنِ الْوَلِيـدِ فِـي الْمُهَاجِرِيـنَ وَالأَنْصَـارِ، فَكُونُـوا سَـيْفَهُ الْقَاطِـعَ، وَرُمْحَـهُ النَّافِـذَ، وَسَـهْمَهُ الصَّائِبَ)،فَأَجَابَتْـهُ قَبَائِـلُ طَـيِّءٍ إِلَـىٰ جَمِيـعِ مَـا أَحَـبَّ[175].

وَفَعَـلَ سُـهيلُ بـنُ عَمـرٍو مَـعَ أَهْـلِ مَكـةَ، مـا فعَلَـهُ عـديٌّ مـعَ قَبيلتِـهِ طَـيِّءٍ؛ «لَمَّـا تُوُفِّـيَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ، وَوَصَـلَ خَبَـرُهُ إِلَـىٰ مَكَّـةَ، وَعَامِلِـهِ عَلَيْهَـا عَتَّـابِ بْـنِ أَسِـيدِ بْـنِ أَبِـي الْعَـاصِ بْـنِ أُمَيَّـةَ، اسْـتَخْفَىٰ عَتَّـابُ وَارْتَجَّـتْ مَكَّـةُ، وَكَادَ أَهْلُهَـا يَرْتَـدُّونَ، فَقَـامَ سُـهَيْلُ بْـنُ عَمْـرٍو عَلَـىٰ بَـابِ الْكَعْبَـةِ وَصَـاحَ بِهِـمْ، فَاجْتَمَعُـوا إِلَيْـهِ، فَقَـالَ: يَـا أَهْـلَ مَكَّـةَ، لَا تَكُونُـوا آخِـرَ مَـنْ أَسْـلَمَ وَأَوَّلَ مَـنِ ارْتَـدَّ، وَاللهِ لَيُتِمَّـنَّ اللهُ هَـذَا الْأَمْـرَ كَمَـا ذَكَـرَ رَسُـولُ اللهِ ...إلـخ»[176].

وَهَـذَا سَـيدُنَا أَبُـو بَكـرٍ الصِّدِّيـقُ (رَضِـيَ اللهُ عَنْـهُ)، يسأَلَـهُ بَعـضُ مَـنْ رَآهُ يأخـذُ بِـرَأْيِ عُمـرَ: «وَاللهِ مَـا نَـدْرِي أَنْـتَ الْخَلِيفَـةُ أَمْ عُمَـرُ؟» فَقَـالَ: بَـلْ هُـوَ، وَلَـوْ شَـاءَ كَانَ. وقِصَّـةُ ذَلِـكَ مَـا رَواهُ السُّـيوطِيُّ عَـنْ عُبَيْـدَةَ قَـالَ: جَـاءَ عُيَيْنَـةُ

(175) انظر محمد بن عمر الواقدي: *الردة مع نبذة من فتوح العراق وذكر المثنىٰ بن حارثة الشيباني*، تحقيق يحيىٰ الجبوري، ط 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1410هـ – 1990م، ص 63، وما بعدها.
(176) انظر عز الدين ابن الأثير (ت 630هـ): *الكامل في التاريخ*، 2/ 186.

بْنُ حِصْنٍ وَالأَقْرعُ بْنُ حَابِسٍ إِلَىٰ أَبِي بَكْرٍ فَقَالَا: يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِنَّ عِنْدَنَا أَرْضًا سَبِخَةً لَيْسَ فِيهَا كَلأٌ وَلَا مَنْفَعَةٌ، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تُقْطِعَنَاهَا لَعَلَّنَا نَحْرثُهَا وَنَزْرَعُهَا؟ فَأَقْطَعَهَا إِيَّاهُمَا، وَكَتَبَ لَهُمَا عَلَيْهِ كِتَابًا وَأَشْهَدَ فِيهِ عُمَرَ، وَلَيْسَ فِي الْقَوْمِ، فَانطلقا إِلَىٰ عُمَرَ لِيُشْهِدَاهُ، فَلَمَّا سَمِعَ عُمَرُ مَا فِي الْكِتَابِ تَنَاوَلَهُ مِنْ أَيْدِينَا، ثم تَفَلَ فِيهِ وَمَحَاهُ، فَتذمَّرا، وَقَالَا لَهُ مَقَالَة سيئَةً، فَقَالَ عُمَرُ: إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ يَتَأَلَّفُكُمَا وَالإِسْلَامُ يَوْمَئِذٍ ذَلِيلٌ، وَإِنَّ الله قَدْ أَعزَّ الإِسْلَامَ، فَاذْهَبَا فَاجْهَدَا جُهْدَكمَا، فَأَقْبَلَا إِلَىٰ أَبِي بَكْرٍ وَهُمَا يَتَذَامَرانِ، فَقَالَا: وَالله مَا نَدْرِي أَنْتَ الْخَلِيفَةُ أَمْ عُمَرُ؟ فَقَالَ: بَلْ هُوَ، وَلَوْ شَاءَ كَانَ[177].

يقولُ سَيدُنا أبو بَكرٍ ذَلِكَ في حقِّ عمرَ بنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا؛ لأنّه يَعلَمُ أنَّ سَيدَنَا عُمرَ لَنْ يُحدِثَ فِتنةً داخل صَفِّ الجمَاعةِ المُسْلِمَةِ، وَلَن يَتخِذَ بِطَانَةً، أَو (جِيْبًا)، وَلَا حِزبًا وَلَا شِلَّةً، وَقَد كَانَ عُمرُ بنُ الخطَّابِ مِن ذَوِي الهَيبةِ وَالوقَارِ فِي نُفوسِ صَحابةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وفي نفُوسِ الرعيَّةِ مِنْ بَعدُ، لَكنَّه مَعَ هَيبتِه وَوقَارِهِ يُبصِرُ أَخاهُ عَمْرَو بنَ العَاصِ يَمشِي فَيشْهَدُ لَه بِالهَيبَةِ. «رَوَىٰ ضَمْرَةُ، عَنِ اللَّيْثِ بْنِ سَعْدٍ، أَنَّ عُمَرَ نَظَرَ إِلَىٰ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ يَمْشِي فَقَالَ: «مَا يَنْبَغِي لِأَبِي عَبْدِ اللهِ أَنْ يَمْشِي عَلَىٰ الْأَرْضِ إِلَّا أَمِيرًا»[178]؛ وَكَانَ مَعرُوفًا عَن سَيدِنَا عَمْرٍو بن العاص أنَّ فِيهِ هيبةَ السِّيادَةِ وَالإِمَارَةِ، ثَمَّ يَأتِي عَبدُ اللهِ بنُ عُمَرَ، فَيشْهَدُ لِمُعاوِيةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا بِالسِّيَادَةِ؛ «رَوَىٰ العَوَّامُ بنُ حَوْشَبٍ، عَنْ جَبَلَةَ بنِ سُحَيْمٍ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: مَا رَأَيْتُ أَحَداً أَسْوَدَ مِنْ مُعَاوِيَةَ. قُلْتُ: وَلاَ عُمَرُ؟ قَالَ: كَانَ عُمَرُ خَيْراً مِنْهُ، وَكَانَ مُعَاوِيَةُ أَسْوَدَ مِنْهُ»[179]؛ أَيْ فِيهِ سِيَادَةٌ وَهَيبَةٌ. أَرَأَيتَ

(177) انظر الجلال السيوطي: *الجامع الكبير*، 2/ 1322.
(178) انظر شمس الدين الذهبي: *سير أعلام النبلاء*، 3/ 70.
(179) انظر شمس الدين الذهبي: *سير أعلام النبلاء*، 3/ 152.(أسود منه: يعني أكثر في السيادة).

كَيفَ يُـقدِّرُ الصحَابَـةُ بَعضُهُـم بَعْضًـا؟ مَـا أَحْـوَجَ الصَّـفَّ إِلَـىٰ هَـذِهِ الأَخْـلَاقِ النبيلَـةِ!

رَئِيسُ تَـنظِيمِ السُّجُـونِ

وَأَذْكُـرُ الحَـاجَّ عَبـدَ الـرزَّاقِ عِمَـادِ الدِّيـنِ، وكانَ يُعَـدُّ شَـيخَ إخوَانِنَـا فِـي المنُوفيـةِ، وَرَئِيـسَ مكتـبِ إدَارِي المنُوفِيّـةِ قَدِيمًـا، وكانَ قَـدْ حُكِـمَ عَلَيـهِ بالسـجْنِ عَشـرَ سِـنينَ فِـي سـنةَ (1954م)، وخـرجَ سَـنةَ (1964)، ثُـمّ اعتُقِـلَ مَـرّةً أخـرىٰ سـنة (1965م)، وَسُـجِنَ بحُكْـمٍ آخـرَ؛ لأنّـه كَانَ رَئِيـسَ تَنظِيـمِ السُّـجُونِ كَمَـا كَانُـوا يَتهِمُونَـه، وَهَـذَا الرجـلُ كُنـتُ أُحِـبُّ جِـدًّا أَنْ أَجْلِـسَ إِلَيـهِ وَأَنْ أَسْـكُنَ مَعَـهُ، وَكانَـتْ إِدارَةُ السِّـجْنِ تَـترُكُ لِلإِخـوَانِ حُريّـةَ تَسـكِينِ الزَّنازِيـنِ، وبعـدَ ذَلِـكَ تأخُـذُ مِنهُـم الأَسْـمَاءَ الَّتِي سَـكنَتْ، فَطلبْتُ مِـنَ الأخوَةِ المَسـؤُولِينَ أَنْ أَسْـكُنَ مَـعَ الحَـاجِّ عَبـدِ الـرزّاقِ عِمَـادِ الديـنِ حَتَّـىٰ أَسـتفِيدَ مِنهُ، فَهُـوَ رجـلٌ عَالِـمٌ وفَاضـلٌ وَعَابِـدٌ وَفِيـهِ رُوحَانِيّـاتٌ عَاليـةٌ، مُـرَبٍّ فَاضِـلٌ فِعْـلًا؛ فرفَضُـوا وقَالُـوا: نَحْـنُ سَنُسَـكِنُكَ بطَرِيقَتِنَـا، فذَهبْـتُ إليـهِ وَقُلْـتُ لَـهُ: طَلبـتُ مِـنَ الإِخـوَانِ أَنْ يُسـكِنُونِي مَعـكَ فَرفضُـوا، فَقـالَ لِـي: اذْهَـبْ وقُـلْ لَهـم: الحَـاجُّ عَبـدُ الـرزّاقِ يَقـولُ لَكُـم: اجْعَلُـوا صَـلاح مَعِـي فِـي التَّسـكِينِ، عَلَـىٰ الرغْـمِ مِـن أنّـه لَـمْ يَكُـنِ هُـوَ المسـؤوَلَ فِـي القناطِـرِ، بَـل كَانَ هُنـاكَ أَخٌ آخَـرُ، فذَهبـتُ وَقُلـتُ لَهُـم: الحـاجُّ عَبـدُ الـرزاقِ يَقـولُ لَكُـم: كَـذَا وَكَـذَا، فَقالُـوا: لَا، وَمَـعَ ذَلِـكَ لَـنْ تَسـكُنَ مَعـهُ، فَرجعْـتُ وَقُلـتُ لَـه هَـذَا الـكلامَ فَضحِـكَ، وقَـالَ لِـي: أَقُلْـتَ لَهُـم: إِنّنـي قُلـتُ لَـكَ هـذَا؟ قلـتُ: نَعَـمْ، فَضحِـكَ وَقَـالَ: إِذَنْ تَسـمَعَ كَلامَهُـم، لأنَّ كَلامَهُـم فِيـهِ بَرَكَـةٌ.

وَفِعـلًا كانـتْ وِجهـةُ نظرِهِـم أنّه رَجـلٌ كَبيرٌ ومَعروفٌ وخَطيرٌ، إنّه رَئيسُ تَنظيـمِ السُّـجونِ، أَسَّـسَ تَنظيمًـا داخِـلَ السِّـجنِ، وليـسَ خَارجَـهُ، بِحَيـثُ تَكُـونُ كُلّ هَـذِهِ العَشَـراتِ مَتوزِّعـةً عَلَـىٰ الأقَاليـمِ، يَبـدَأُ كلُّ واحـدٍ عَمَلَـهُ فَـوْرَ

أَنْ يَخرُجَ، وَكَانُوا قُرابَـةَ تِسعَةٍ وَتِسعينَ أَخًا، وَهُـوَ رَئِيسُـهُم، وَاعـترَفَ عَليهِم عَلِي عَشْـمَاوي كذلـكَ، فَحُوكِمُـوا كُلُّهـم، وَصَـدَرْ فِي حقِّهـم أَحكَامٌ جَديـدَةٌ، وَلِهـذَا اعتُقِلُـوا بَعـدَ خُروجِهِـم مَـرةً أُخْـرَىٰ.

صَـدِيـقُ الـزّنْـزانَـةِ

والأُستاذُ هَـوَّاش أُعْـدِمَ، ولَـمْ يَفعَـلْ شَـيئًا أبـدًا، غَيـرَ أنّـه كَانَ يَسكُنُ مَـعَ الأستاذِ سَيّدِ قُطْبٍ فقَـط فَأَعْدَمُـوهُ! الأستاذُ هَوّاش لَـم يُقابِـلْ أَحَدًا مِـنْ تَنظيمِ (1965)، وَلَـمْ يَتـوَلَّ أَيَّ أمرٍ مِـنَ الأُمـورِ وَلَا أَيّ مُهمّـةٍ أَبـدًا، كلُّ التهمَـةِ الّتِي وُجِّهَـتْ إِلَيـهِ أَنـه جَالِـسٌ مَـعَ سَـيدِ قُطـبٍ لِمُـدّةِ عَشـرِ سِـنينَ، فأَصبحَ يَحمِـلُ أَفـكارَهُ وَمُتأثـرًا جِـدًّا بِهَـا، وبشَـخصيةِ سَـيدِ قُطـب بوَصْفـهِ شَـخصيَّةً قِياديـةً ذَاتَ عَقـلٍ رَاجـحٍ، إضافـةً إِلَىٰ أَنَّ لَديـهِ هَـذَا الاسـتعدَادَ، والأستاذُ سَيِّد قَـالَ لَـه: لَـو حَـدَثَ لِـي شَـيْءٌ تَكـونُ أَنـتَ بَعـدِي قَـالَ: نَعَـمْ، رُغْـمَ أنـهُ لَـمْ يَـرَ أحَـدًا منهُـم وَلَـم يَـرَوْهُ، ولكنَّهـم أَعدَمُـوهُ فَقـطْ لِهـذَا السَّـبب! وَقَـدْ كانَ الوحِيـدَ مِـنَ الإخـوانِ الّـذِي مَكـثَ المُـدَّةَ كُلَّهـا، مَـعَ أَنَّ النـاسَ كَانَـتْ تَأتِـي إِلَـىٰ السِّـجنِ مَرضَـىٰ ثـم تخـرجُ، إنَّمـا الّـذِي كانَ مُلازمًـا لَـه وعَلَـىٰ السـرير الّـذِي بجـوارِهِ عَشـرَ سِـنينَ كَاملَـةً هُـوَ يوسُـفُ هَـوَّاش فأُعْـدِمَ مِـن أَجلِ هَـذَا، فهَـؤُلاءِ الإخوَانُ رَأيُهـم فِيـهِ بَركـةٌ فِعـلًا، قَالُـوا لِـي: أَنْـتَ لَـو جَلسْـتَ مَعـهُ سَـتُوضَعُ فِـي دائِـرَةٍ شَـديدَةِ الخُطـورَةِ، ونحـنُ نُريـدُ لـكَ عُمْـرًا أطـوَلَ فِـي الدعْـوَةِ.

وَصَدَقُـوا حَقًّـا، إذْ كانَ أَولُ قـرارٍ بالإفـراجِ عـنِ الإخـوَانِ بَعـدَ الحَـربِ وَأحداثِهَـا فِـي نِهايـاتِ سـنة (1974)، أَفرجُـوا عَـن عشـرةٍ مِـنَ المُعتدلِيـنَ كُنْـتُ أَنَـا عَلَـىٰ رَأسِـهم، لأنّهـم لَـمْ يُسْـكِنُونِي مَـعَ أخٍ كَبيـرٍ، وقالُـوا لِـي: أنـتَ مُمكِـنْ تَستفِيد مِنـهُ فِـي وَقـتٍ آخـرَ، كانَ لَـه بَرامـجُ وَكانَ يَجلسُ يُـدرِّسُ زَادَ المَعـادِ، وَهُـوَ نفسُـه كانَ يَعرفُنِـي جَيِّـدًا، وَهُـوَ نفسُـهُ طَلَـبَ مِنِّـي ونحـنُ فِـي السـجْنِ الحَربـيِّ أَنْ أَمشِـيَ مَعـهُ لِكَـيْ يَحكِـيَ لِـي تَاريـخَ الدعْـوةِ، وَأَرْسَـلَ

إلـيَّ مَـعَ أنِّـي لَا أَعْرِفُـه، وَإِنَّمـا جَاءَنِـي أحـدُ الإِخـوَةِ وقـالَ الحَـاجُّ عَبـدُ الـرزّاقِ يُـرِيدُكَ، فقُلـتُ لَـهُ: مَـنْ الحـاج عبـد الـرَّزاق؟ قَـالَ: رَئِيـسُ تَنظيـمِ السُّـجُونِ، فَقلـتُ لَـه: تَنظِيـمٌ وَنَحـنُ فِـي السِّـجنِ الحَربـيِّ، فقـالَ لِـي: أَلَا تَعرِفُـهُ، قُلـتُ لَـه: لَا أَعرِفُـهُ، فَقَـالَ: هُـوَ يَعرفُكَ وَيُرِيـدُكَ أنْ تُقابلَـه فِـي طَابـورِ اليـوْمِ، قُلـتُ: وَكَيـفَ أَعرِفُـهُ؟ قَـالَ: هُـوَ لَديـهِ بُهـاقٌ وَسَـتجِدُهُ وَاقفًـا فِـي السَّـريّةِ رَقَـمَ كَـذَا فِي الصَّـفِّ الأوّلِ فِيهَـا.

وَفِعـلًا جلسـتُ أنظُـر حَتَّـىٰ رأيتُـه فَذهبـتُ أَجـرِي نَحـوَهُ لأقِـفَ بِجـوَارِهِ، وَكانُـوا قَـد نَظَّمُـوا لَنـا طَوابيـرَ وتَعذِيبًـا وأشيَـاءَ أُخْـرَىٰ فِـي تِلـكَ الطوَابيـرِ، فلمَّـا اقتربـتُ منـهُ، وَوقفْـتُ بجَـوارِهِ فَـورًا أَمسَـكَ يَـدِي وقَـالَ لِـي: كيـفَ حَالُـكَ يَـا أخّ صَـلاح؟ تأمـلْ سَبْـقَ القِيـادَةِ الحَكِيمَـةِ وَنَحـنُ فِـي السِّـجْنِ الحَربـيِّ أَثنـاءَ الطَّوابيـرِ الّتِـي لَا أحـدَ فِيهَـا يَعـرِفُ مَـنْ بِجـوَارِهِ، وقَـالَ لِـي: تَمْشِـي بِجـوَارِي فِـي كُلِّ طَابـورٍ، حَتَّـىٰ أَحْكِـيَ لَـكَ تَاريـخَ الدعْـوَةِ؛ لأنَّـنِي أَعلَـمُ عَنـكَ أَنـكَ تَحفَـظُ جَيّـدًا، انظُـرْ! كيـفَ يَعلَـمُ كلَّ شَـيءٍ عَنِّـي ونَحنُ لَـم نَمكُثْ فِي السِّـجْنِ الحَربـيِّ إلّا مُـدةً قَليلـةً؟ لكنَّـه رَئيـسَ تَنظيـمِ السُّـجُونِ فِعـلًا، كانَ يَستحِقُّ هَـذَا اللقَـبَ، بَـركَة فِعْـلاً فِـي الـرأْيِ فَاستمَعْتُ إِلَـىٰ رَأْيِهِم فِعـلًا، فَهـؤلاءِ لَا يَعرِفُونَ الشِّـلِليّةَ. بَـلْ وُجُـودُ أمثـالِ هَـؤلاءِ الإخـوة أَوِ (الأَوْتَـادِ) دَاخِـلَ الصَّـفِّ يُـؤَمِّنُ العمـلَ وَالمَسِـيرَ، وَيُـيَسِّرُ أمـرَ (الطاعـةِ)، وَمَـا أَشَقَّـهُ علَـىٰ النفـوسِ.

رُكْنُ الثَّباتِ

يَقـولُ الإمَـامُ البَنَّـا وَأُرِيـدُ بِالثَّبَـاتِ: «أَنْ يَظَـلَّ الْأَخُ عَامِـلًا مُجَاهِـدًا فِـي سَبِيلِ غَايَتِهِ، مَهْمَـا بَعُـدَتِ الْمُـدَّةُ، وَتَطَاوَلَـتِ السِّـنُونَ وَالْأَعْـوَامُ، حَتَّـىٰ يَلْقَـىٰ اللهَ عَلَـىٰ ذَلِـكَ، وَقَـدْ فَـازَ بِإِحْـدَىٰ الْحُسْـنَيَيْنِ: فَإِمَّـا الْغَايَـةُ، وَإِمَّـا الشَّـهَادَةُ فِـي النِّهَايَـةِ: ﴿مِـنَ الْمُؤْمِنِيـنَ رِجَـالٌ صَدَقُـوا مَـا عَاهَـدُوا اللهَ عَلَيْـهِ فَمِنْهُـمْ مَـنْ قَضَىٰ نَحْبَـهُ وَمِنْهُـمْ مَـنْ يَنْتَظِـرُ وَمَـا بَدَّلُـوا تَبْدِيـلًا﴾ [الْأَحْـزَابِ: 23].

وَالْوَقْـتُ عِنْدَنَـا جُـزْءٌ مِـنَ الْعِـلَاجِ، وَالطَّرِيـقُ طَوِيلَـةُ الْمَـدَىٰ، بَعِيـدَةُ الْمَرَاحِـلِ، كَثِيـرَةُ الْعَقَبَـاتِ، وَلَكِنَّهَـا وَحْدَهَـا الَّتِـي تُـؤَدِّي إِلَـىٰ الْمَقْصُـودِ، مَـعَ عَظِيـمِ الْأَجْـرِ وَجَمِيـلِ الْمَثُوبَـةِ.

وَذَلِـكَ أَنَّ كُلَّ وَسِـيلَةٍ مِـنْ وَسَـائِلِنَا السِّـتِّ تَحْتَـاجُ إِلَـىٰ حُسْـنِ الْإِعْـدَادِ، وَتَحَيُّـنِ الْفُـرَصِ، وَدِقَّـةِ الْإِنْفَـاذِ، وَكُلُّ ذَلِـكَ مَرْهُـونٌ بِوَقْتِـهِ: ﴿وَيَقُولُـونَ مَتَىٰ هُـوَ قُـلْ عَسَـىٰ أَنْ يَكُـونَ قَرِيبًـا﴾ [الْإِسْـرَاءِ: 51][180].

الثَّبَاتُ زَادٌ فِي الْمِحَنِ الطِّوَالِ

الأصـلُ فِـي المُسـلِمِ أَنْ يُـؤثِـرَ العَافِيَـةَ وَيَحـرِصَ عَلَيْهَـا، وأَنْ يَتجَنَّـبَ الصِّـدامَ مَـعَ خصُومِـهِ، مَـا اسـتطَاعَ إِلَـىٰ ذلِـكَ سَـبيلًا، وَإِنَّ دَعـوةَ «الإِخْـوَانِ المسـلمينَ» لَتأخُـذُ أبنَاءَهَـا بِذلِـكَ النَّهـجِ النبَـوِيِّ الشَّـرِيفِ، فَفِـي صَحِيـحِ مُسلم عَـنْ عَبْـدِ اللهِ بْـنِ أَبِـي أَوْفَـىٰ، أَنَّـهُ كَتَـبَ إِلَـىٰ عُمَـرَ بْـنِ عُبَيْـدِ اللهِ حِينَ سَـارَ إِلَـىٰ الْحَرُورِيَّـةِ يُخْبِـرُهُ أَنَّ رَسُـولَ اللهِ ﷺ كَانَ فِـي بَعْـضِ أَيَّامِـهِ الَّتِـي لَقِـيَ فِيهَـا

(180) *رسالة التعاليم*- ركن الثبات. ص276.

الْعَـدُوَّ، يَنْتَظِـرُ حَتَّـىٰ إِذَا مَالَـتِ الشَّـمْسُ قَـامَ فِيهِـمْ فَقَـالَ: «يَـا أَيُّهَـا النَّـاسُ، لَا تَتَمَنَّـوْا لِقَـاءَ الْعَـدُوِّ، وَاسْـأَلُوا اللهَ الْعَافِيَـةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُـمْ فَاصْبِرُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّـةَ تَحْتَ ظِـلَالِ السُّـيُوفِ. ثُـمَّ قَـامَ النَّبِـيُّ ﷺ وَقَـالَ: اللَّهُـمَّ مُنْزِلَ الْكِتَـابِ، وَمُجْـرِيَ السَّـحَابِ، وَهَـازِمَ الْأَحْـزَابِ، اهْزِمْهُـمْ وَانْصُرْنَـا عَلَيْهِـمْ»[181].

لَكِـنَّ قِيـادَةَ الإِخـوَانِ لا تَضمَـنُ أَنْ تَـدُومَ العَافِيـةُ، وَأَنْ تَسِيرَ كُلُّ أُمُورِهَـا هينـةً لينـةً، وَقَـد تُضطَـرُّ فِي بَعـضِ المَواقِـفِ أَنْ تَأْخُـذَ بِالعزِيمَـةِ، وَلَا سِـيَّمَا أَنَّ دَعـوةَ الإِخْـوَانِ المُسْـلِمينَ لَا تَلقَـىٰ تَرحيبًـا مِـنَ الحُـكَّامِ أَوِ المُستبدِّينَ، بَـلْ هُـمْ أَحْـرصُ النـاسِ عَلَـىٰ التَّخَلُّـصِ مِنهَـا، يُسـانِدُهُم فِـي ذَلِـكَ نِظـامٌ دَوْلِـيٌّ جَائِـرٌ، يكـرَهُ كُلَّ مَـن يَتكلَّـمُ بِاسْـمِ الإِسْـلامِ، وَيُعـادِي كُلَّ مَـن يَرفَـعُ رَايـةَ الدَّعْـوَةِ إِلَـىٰ تَحكيـمِ كِتَـابِ اللهِ تَعَالَـىٰ.

فـإِذَا اضْطُـرَّتِ القيـادَةُ إِلَـىٰ الأَخْـذِ بِالعزِيمَـةِ فِي بعـضِ مَواقِفِهَـا، فَعلَـىٰ أبنَـاءِ الصَّـفِّ أَنْ يُطيعُـوا، وأَنْ يَعْلَمُـوا أَنَّ وَرَاءَ هَـذِهِ الطَّاعَـةِ مِحنـةً رُبَّمـا تَطـولُ وَلا يَعلَـمُ مَداهَـا إِلَّا اللهُ تَعالَـىٰ، وَهُنَـا يَأتِـي دَوْرُ الثَّبـاتِ لِيَكُـونَ زَادَ الإِخْـوَةِ العَامليـنَ فِـي تَجـاوُزِ أيِّ مِحْنَـةٍ تُلِـمُّ بِهِـم، وَكَأَيِّـنْ مِـنْ مِحنـةٍ تَجاوزْتَهـا دَعـوةُ الإِخـوَانِ بِثبَـاتِ أَبنائِهَـا الكِـرَامِ. وطريـقُ الدعَـواتِ لَيـسَ مَفرُوشًـا بِالـوُرُودِ.

وَلَـم يَغِـبْ عَـنِ الإِمـامِ البنّـا رَحِمَهُ اللهُ أن أصحـابَ هَـذِهِ الطَّريـقِ عَلَـىٰ سَـنةِ الأَنْبيـاءِ، وَأَنَّهُـم لَا مَحالَـةَ مُبتَلَـوْنَ، وَلِهـذَا جعلَ «**الثَّـبَاتَ**» الرُّكـنَ السّـابعَ مِـن أركَانَ البيعَـةِ، مُهتديًـا فِي ذلـكَ بِسُـنَّةِ رسـولِنَا الكَريـمِ، فقَـد ثَبـتَ بنُـو هَاشِـمٍ مِسْـلِمُهم وكَافِرُهُـم مَـعَ رَسُـولِ اللهِ ﷺ علـىٰ حِصَـارِ قُـرَيشٍ لَهُمْ، حَتَّـىٰ جاءَهُمُ الفَـرجُ مِـنَ اللهِ تَعالَـىٰ بعـدَ ثَـلاثِ سَـنواتٍ مِـنَ الحِصَـارِ، يقُـولُ ابـنُ القَيِّـمِ فِـي زَادِ المَعـادِ: «ثُـمَّ أَسْـلَمَ حَمْـزَةُ عَمُّـهُ وَجَمَاعَـةٌ كَثِيـرُونَ، وَفَشَـا الْإِسْـلَامُ،

(181) صحيح *البخاري*، الصفحة أو الرقم 2965.

فَلَمَّا رَأَتْ قُرَيْشٌ أَمْرَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي عَلُوٍّ وَالْأُمُورُ تَتَزَايَدُ، أَجْمَعُوا عَلَىٰ أَنْ يَتَعَاقَدُوا عَلَىٰ بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي الْمُطَّلِبِ وَبَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، أَنْ لَا يُبَايِعُوهُمْ، وَلَا يُنَاكِحُوهُمْ، وَلَا يُكَلِّمُوهُمْ، وَلَا يُجَالِسُوهُمْ، حَتَّىٰ يُسَلِّمُوا إِلَيْهِمْ رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَكَتَبُوا بِذَلِكَ صَحِيفَةً وَعَلَّقُوهَا فِي سَقْفِ الْكَعْبَةِ يُقَالُ: كَتَبَهَا: مَنصُورُ بنُ عِكرمةَ بنِ عَامرِ بنِ هَاشِمٍ، وَيُقَالُ: النَّضْرُ بنُ الحَارثُ، وَالصَّحِيحُ: أَنَّهُ بَغِيضُ بْنُ عَامرِ بنِ هَاشِمٍ، فَدَعَا عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَشُلَّتْ يَدُهُ، فَانْحَازَ بَنُو هَاشِمٍ وَبَنُو الْمُطَّلِبِ مُؤْمِنُهُمْ وَكَافِرُهُمْ إِلَّا أَبَا لَهَبٍ، فَإِنَّهُ ظَاهَرَ قُرَيْشًا عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَبَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي الْمُطَّلِبِ، وَحُبِسَ رَسُولُ اللهِ ﷺوَمَنْ مَعَهُ فِي الشِّعْبِ شِعْبِ أَبِي طَالِبٍ لَيْلَةَ هِلَالِ الْمُحَرَّمِ سَنَةَ سَبْعٍ مِنَ الْبَعْثَةِ، وَعُلِّقَتِ الصَّحِيفَةُ فِي جَوْفِ الْكَعْبَةِ، وَبَقُوا مَحْبُوسِينَ وَمَحْصُورِينَ مُضَيَّقًا عَلَيْهِمْ جِدًّا، مَقْطُوعًا عَنْهُمُ الْمِيرَةُ وَالْمَادَّةُ نَحْوَ ثَلَاثِ سِنِينَ، حَتَّىٰ بَلَغَهُمُ الْجَهْدُ وَسُمِعَ أَصْوَاتُ صِبْيَانِهِمْ بِالْبُكَاءِ مِنْ وَرَاءِ الشِّعْبِ، وَهُنَاكَ عَمِلَ أَبُو طَالِبٍ قَصِيدَتَهُ اللَّامِيَّةَ الْمَشْهُورَةَ، أَوَّلُهَا:

جَزَىٰ اللهُ عَنَّا عَبْدَ شَمْسٍ وَنَوْفَلًا
عُقُوبَةَ شَرٍّ عَاجِلًا غَيْرَ آجِلِ

وَكَانَتْ قُرَيْشٌ فِي ذَلِكَ بَيْنَ رَاضٍ وَكَارِهٍ، فَسَعَىٰ فِي نَقْضِ الصَّحِيفَةِ مَنْ كَانَ كَارِهًا لَهَا، وَكَانَ الْقَائِمُ بِذَلِكَ هِشَامَ بنَ عَمرِو بنِ الحَارثِ بنِ حَبِيبِ بنِ نَصْرِ بنِ مَالِكٍ، مَشَىٰ فِي ذَلِكَ إِلَىٰ الْمُطْعِمِ بنِ عَدِيٍّ وَجَمَاعَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ فَأَجَابُوهُ إِلَىٰ ذَلِكَ، ثُمَّ أَطْلَعَ اللهُ رَسُولَهُ عَلَىٰ أَمْرِ صَحِيفَتِهِمْ، وَأَنَّهُ أَرْسَلَ عَلَيْهَا الْأَرَضَةَ فَأَكَلَتْ جَمِيعَ مَا فِيهَا مِنْ جَوْرٍ وَقَطِيعَةٍ وَظُلْمٍ إِلَّا ذِكْرَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ، فَأَخْبَرَ بِذَلِكَ عَمَّهُ، فَخَرَجَ إِلَىٰ قُرَيْشٍ فَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ ابْنَ أَخِيهِ قَدْ قَالَ كَذَا وَكَذَا، فَإِنْ كَانَ كَاذِبًا خَلَّيْنَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ، وَإِنْ كَانَ صَادِقًا رَجَعْتُمْ عَنْ قَطِيعَتِنَا وَظُلْمِنَا، قَالُوا: قَدْ أَنْصَفْتَ، فَأَنْزَلُوا الصَّحِيفَةَ،

فَلَمَّا رَأَوُا الْأَمْرَ كَمَا أَخْبَرَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ ازْدَادُوا كُفْرًا إِلَىٰ كُفْرِهِمْ»[182].

وَمِنْ ثَمَّ فَالثَّبَاتُ فِي دَعْوَتِنَا ضَرُورَةٌ؛ لِأَنَّهَا دَعْوَةٌ مُجَاهِدَةٌ، ذَاتُ طَابَعٍ خَاصٍّ وَفِقْهٍ خَاصٍّ، وَلَا يَسْتَسْهِلُ أَعْبَاءَهَا أَوْ يَتَرَاجَعُ عَنْهَا إِلَّا مَنْ ضَعُفَتْ عَزِيمَتُهُ وَقَصُرَ نَظَرُهُ، وَهَؤُلَاءِ يَحْتَاجُونَ إِلَىٰ التَّثْبِيتِ وَالتَّرْبِيَةِ وَالصَّبْرِ. أَمَّا الَّذِينَ يَقِفُونَ فِي وَجْهِ الدَّعَوَاتِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ، فَهُمْ الصِّنْفُ الَّذِي وَاجَهَ الرُّسُلَ الْكِرَامَ، وَسَعَىٰ إِلَىٰ عَرْقَلَةِ رِسَالَاتِهِمْ وَصَدِّ النَّاسِ عَنْهَا.

حَتَّىٰ وجَدْنَا نَبِيًّا كَرِيمًا كَنَبِيِّ اللهِ سُلَيمَانَ (عليه السلام) يَتخلَّصُ مِنَ الخُيولِ، قَالَ تَعالَىٰ: ﴿**رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ(33)**﴾ [سورة: ص] . لَمْ يَجِدْ مَن يَنهضُ مَعهُ بتكاليفِ الدعْوةِ وَالرسَالَةِ. وَقَدِ اسْتَنْبَطَ بَعْضُ الْكُتَّابِ مِنْ مَوْقِفِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ الدَّاعِيَةَ قَدْ يَتْرُكُ بَعْضَ الْوَسَائِلِ أَوِ الْمُبَاحَاتِ إِذَا شَغَلَتْهُ عَنْ مُهِمَّتِهِ الْأَصْلِيَّةِ (غَيْرَ أَنَّ هَذَا لَيْسَ هُوَ التَّفْسِيرَ الْمَشْهُورَ لِلْآيَةِ).

أمّا دعوتُنا فهيَ دعوةٌ مجاهِدَةٌ علَىٰ خطَىٰ رُسُولِنَا الأَمينِ، وَصَحْبِه الكِرام، وَلَا بُدَّ أَن يَكونَ لحركَةِ أبنَائِهَا ضَابِطٌ، حَتَّىٰ لَا يَسْتَسْهِلُوا النكُوصَ وَالتَّرَاجُعَ، وهَذَا الضَّابطُ هُوَ «**الثَّبَاتُ**»، وانظرُوا إلىٰ مَا فعلَه الإمامُ الهُضيبي رَحِمَهُ اللهُ فِي ظروفٍ مَيئوسٍ منها، وَهِيَ ظروف المِحنةِ فقد جاءَهُ بَعضُ الإخوةِ يَطلبُونَ التَّرخُّصَ، فقالَ لَهم: إننَا دَعْوَةٌ مجاهدةٌ، لَا يجتمع صفٌّ عَلَىٰ رخصَةٍ، فَالصَّبرُ أَوْلَىٰ وأَحَبُّ، وقَد أَخذْنَا أنفسَنا بِالعزِيمَةِ.

هَذَا فِقهُ الدَّعَواتِ المُجاهِدَة، وَهُو فِقْهٌ خَاصٌّ، ثَقِيلُ التبعَةِ، وَلَا يَقدِرُ عَليهِ إلا أُولُو العَزْمِ مِنَ الدُّعَاةِ، وَمَن لَم يَأخُذْهُ بحقِه، أَو لَم يَجِدْ

(182) ابن قيم الجوزية: *زاد المعاد في هَدي خير العباد*، 3/ ص 26، وما بعدها.

في نَفسِـه قُـدرةً علَـىٰ الوفَـاءِ بِـهِ، فَخيـرٌ لـهُ أنْ يَـترك هـذهِ الدَّعْـوَةَ إِلَـىٰ غَيرِهَـا مِـنَ الدَّعـوَاتِ، أَوْ يَدعُـوَ إِلَـىٰ الله مُنفـردًا، وَحِينئِـذٍ يَسـعُه مَـا يَسَـعُ عَـوامَّ النَّـاسِ وَأَفـرادَهُم، فَلِمِثْـلِ هَـؤلاءِ وُضِعَـتْ هَـذهِ القاعـدةُ: «**يَسعُ الفَـرْدَ مَـا لَا يَسَعُ الجَماعـةَ**»، فَالفـردُ السَّـائبُ غيـرُ الفَـردِ العَامـلِ، وَالفـردُ السَّـائِبُ يَسـعُه مَـا لا يَسـعُ الفَـردَ العَامِـلَ فِـي جَماعَـةٍ[183]. وَقَـدْ أُذِنَ للأفـرادِ بِالرخْصَـةِ عِنـدَ الإِكـراهِ، أمَّـا الدعَـواتُ المُجاهِـدَةُ وَالصَّـفُّ العامـلُ، فـإنَّ فِقْهَـه الخَـاصَّ قَـد يُلزِمُـه بِـأنْ يَأخُـذَ بالعزيمَـةِ عِنْـدَ الإِكْـراهِ.

نَماذِجُ مِنَ الصبرِ وَالثَّباتِ

لَـم يَكتشِـفِ الإمـامُ البنَّـا رَحِمَهُ اللَّهُ الطاقـاتِ المذْخـورَةَ فِي أبنـاءِ جِيلِه فحَسْـبُ، وَلَـم يُطلِقْهَـا للعَمـلِ والبنَـاءِ خِدْمَـةً لِهَـذَا الديـنِ فحَسْـبُ، ولكنَّه عَلَّمهُـم كذلِكَ كَثِيـرًا مـن الفضَائِـلَ الخُلقيـةِ الّتِي لَا يَعلَـمُ وَفرتَها إلا اللهُ، فربَّـاهُم علَـىٰ مَعَانِي الصَّـبر وَالزهْـدِ وَالتـوكُّل وَالثَّبـاتِ، وغَيرِهَـا مِـنَ المَعانِـي الّتِي أَصْبَحَـتْ بَاهِتَـةً فِـي النَفُـوسِ، وَلَا يَسـتغْنِي عَنْهَـا العَامِلُـونَ لِدِيـنِ الله تعالـىٰ، فَإِنّهـم لَا مَحالَـة مُبتلَـوْنَ، ولَـن يُعينَهـم فِـي المِحَـنِ والشَّـدائِدِ إِلَّا مِثْـلُ هَـذهِ الأَخْـلَاقِ، وَمِنْهَـا الصَّبْـرُ الـذي وَصَفَـهُ رَسُـولُ اللهِ ﷺ بقولِـهِ: «.. وَالصَّـبرُ ضِيَـاءٌ...»[184]. يُـرِي الإنسـانَ طَرِيـقَ الحـقِّ مِـنَ الباطـلِ، وتَعلَـمُ بِـهِ الأمـةُ الْحـقَّ مِـنَ الباطـلِ، فيصبرُ المسْـلِمُ عَلَـىٰ الحـقِّ الـذِي مَعَـه وَيتحَمَّـل فِـي سَـبيلِ ذَلِـكَ الابتـلاءَ والمُعانـاةَ. وَقَـد رأيـتُ ذَلِـكَ بنَفْسِـي إِخـوَةٍ بُسـطاءَ، لَكـنَّ اقتنَاعَهُـم بالحَـقِّ الـذِي مَعَهُـم وَالثِّقـةَ فِيـهِ جَعلَتْهُـم يُواجهُـونَ أَعْتَـىٰ الجَاهِليَّـاتِ وَأشـدَّهَا بَأْسًـا وَصلابـةً، بِسَـببِ فَضائِلِهـم الخُلقيّـةِ. لقَـدْ قدَّمُـوا صُـورًا مِـنَ الصبـرِ كانـتْ ضِيـاءً فِـي الحَقيقَـةِ، ونُـورًا فارقًـا بيـنَ الحـقِّ وَالباطـلِ؛ لأنّهُـم قدمُـوا مَثَـلًا وَقُـدْوةً تُغـرِي بِالاقتِـدَاءِ. كَمـا كَان الإمـامُ البنَّـا يقـولُ فِـي تَعريـفِ القُـدوَةِ: « إِنَّ النَّـاسَ لَا

(183) انظر د. عبد الكريم زيدان: *أصول الدعوة*، ط 9، مؤسسة الرسالة، 1421 هـ-2001 م ص 466.
(184) رواه مسلم من حديث أبي مالكٍ الحارث بن عاصمٍ الأشعري (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ).

يُؤْمِنُونَ لِأَحَدٍ حَتَّىٰ يَرَوْا أُنَاسًا مِثْلَهُمْ يُؤْمِنُونَ، ثُمَّ يَمْضُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ لَا يَكْتَرِثُونَ بِمَا يُصِيبُهُمْ».

وأذكرُ مِنْ هَذهِ النماذجِ الشهيدَ عَبدَ الفتَّاحِ إِسْمَاعيل، وهوَ رَجلٌ بَسِيطٌ شِبهُ أُمِّيّ (لَا يعرفُ القراءَةَ وَالكتَابةَ)، لكنَّه قَدَّمَ في سنَةِ (1965) صورةً مِنَ الصبرِ وَالجَلادَةِ وَالتَّحمُّلِ لَا تُوصَفُ إِلَّا بِأَنَّها نُورٌ وضِياءٌ، رأيناهَا بأمِّ أعينِنَا، وَهُم يَجرُّونَهُ للتعذيبِ وَيَحلقونَ نصفَ رأسِه ونصفَ لِحيتِه وَنِصْفَ شَارِبِهِ(يريدون السخرية منه) أَمَامَنا وأمامَ تِلكَ المجمُوعاتِ الّتِي كانَ مَسؤُولًا عَنهَا، وعدَدُهم قُرَابَةُ ثَلاثينَ أَخًا مُتحلِّقينَ وَهُوَ واقفٌ فِي المُنتصَفِ، وَيَجعلُونَه يَدُورُ بَينَنا، بِحيثُ نُشاهِدُه فيكون ذلك ترويعًا للشبابِ، وضَربًا مِنَ السُّخريةِ وَالاستِهزَاءِ بِهِ، لكنّه يَصرُخُ بِهِم وَهُوَ واقفٌ وَسطَنَا، ويتلُو فِي وجه هؤلاءِ العُتاةِ قولَ اللهِ تعالَىٰ: ﴿**إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (38) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ(39)**﴾ [سورة هود]؛ فَإِذَا بِهِ يُجدِّدُ - بصبرِهِ وثباتِه - العزمَ فِي نُفوسِنَا، لأنكَ حينمَا تَرىٰ ذَلِكَ وأنتَ مَا زِلْتَ شَابًا صَغيرًا، قَد تَلِينُ عَزيمَتُكَ، وبخاصةٍ إِنْ رأيتَ قُدوَتكَ يَنهَارُ، وَلقَد رَأيتُ أُناسًا كانُوا يشغلونَ مَناصِبَ كَبيرةً، ومِنهُمْ مَنْ بَكىٰ بُكاءَ الأطفالِ، وَهُم يُؤْذُونَهُ أَوْ يَستَهزِئونَ بِهِ. أمَّا الرجُلُ البسيطُ(الشهيد عبد الفتاح إسماعيل) فَقَد واجهَ سخريتَهُم بِمَا فِيهِ مِنْ فَضائِلَ خُلقيةٍ لَا يعلمُ وَفْرَتَها إِلَّا اللهُ، فأغرَىٰ غيرَهُ بِالاقتدَاءِ والثبَاتِ، ولهذَا ثَبتَنَا بفضلِ اللهِ تعالىٰ؛ لأنَّنا رأينَا إِنْسَانًا يؤْمِنُ ثُم يُبتلَىٰ فَيصبرُ ويَثبُتُ؛ كَأنّه يتَمَثَّلُ مَوقِفَ الصَّحَابِيِّ الجليلِ خُبيبٍ الأنصَاريِّ، وقولَهُ لَمَّا خَرَجُوا مِنَ الحَرَمِ ليَقتُلوهُ، فقَالَ خُبَيْبٌ:

وَلَسْتُ أُبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا ... عَلَىٰ أَيِّ شِقٍّ كَانَ للهِ مَصْرَعِي
وَذَلِكَ فِي ذَاتِ الإِلَهِ وَإِنْ يَشَأْ ... يُبَارِكْ عَلَىٰ أَوْصَالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ

كَمَا ثَبّتهُ اللهُ أثناءَ الحُكمِ عَلَيهِ بالإعدامِ، لمَّا جَمَّعونَا فِي مجلسِ إدارَةِ

الثـورَةِ، حَتَّـىٰ نَسـمَعَ النطْـقَ بِالحُكْـمِ، وقَفْنَـا صَفًّـا وَاحِـدًا، ثُـمَّ نُـودِيَ عَلَـىٰ الشـهدَاءِ وَأولُهـم الثلاثَـةُ: سَـيدُ قُطْـب ويُوسُـف هَـوَّاش وَعَبـدُ الفتَّـاح إِسْـمَاعِيل، بَـرزُوا ثلاثتُهـم رِجـالًا مِـنَ الصـفِّ، ونَحـنُ وَاقِفُـونَ كُلُّنـا فِـي القاعةِ سَـنةَ (١٩٦٥)، نُـودِي عَلَيهـم وَأَوَّلُ مَـنْ نَـادَوا عليـهِ الشـهيدُ سَـيِّدُ قُطْـب، وَهُـم يُطلعُونَـه عَلَـىٰ الحُكْـمِ الصَّـادِرِ فِـي حَقِّـه بِالإعـدَامِ شَـنقًا فَقَـالَ:

أَقُـولُ لَـهَا وَقَـدْ طَـارَتْ شُعاعًـا ... مِـنَ الْأَبْطَـالِ وَيْحَكَ لَـنْ تُـراعِي
فَـإِنَّـكِ لَـوْ سَأَلْـتِ بَقَـاءَ يَـوْمٍ ... عَلَىٰ الْأَجَلِ الَّذِي لَكِ لَنْ تُطَاعِي

ثـم نُـودِيَ عَلَـىٰ الشـهيدِ عَبـدِ الفتَّـاحِ إِسـماعِيل فـبرزَ، فقـالَ لَـه: (إِعْـدَام شَـنقًا)، فَـإِذَا بـهِ يَصيـحُ فِـي وجُـوهِ القضـاةِ والجَلاديـنَ: فُـزْتُ وَرَبِّ الكَعبـةِ ونَحـنُ جَميعًـا نسـمعُ، ثُـم تَـلا قَـولَ اللهِ تعالـىٰ: ﴿**فَمَـنْ زُحْـزِحَ عَـنِ النَّـارِ وَأُدْخِـلَ الْجَنَّـةَ فَقَـدْ فَـازَ ۗ وَمَـا الْحَيَـاةُ الدُّنْيَـا إِلَّا مَتَـاعُ الْغُـرُورِ**﴾ [آل عمـران: ١٠٥]. إِنّهـا فَضائـلُ خُلقيـةٌ لَا يَعلَـمُ وَفرتَهـا إلا اللهُ؛ تجلَّـت فيهَـا مَعَـاني التربيـةِ وَالإِعْـدَادِ، وَالرِّعَايـةِ وَالتعَهُّـدِ.

ثِـمَارُ التّعهُّدِ وَالتربِيَةِ

إنّ أمثـالَ هَـذهِ النَّمـاذِجُ الفَـذَّةُ التِـي رَبَّاهَـا الإِمَـامُ البَنَّـا لِـمْ تَـأْتِ طَفْـرَةً، ولَكِنَّهـا ثَمـرَةُ غَـرْسٍ وتربيـةٍ وتَعهُّـدٍ، وقَـد أَدرَكَ الإِمَـامُ البنَّـا رَحِمَهُ اللَّهُ حَاجـةَ هَـذَا الجِيـلِ إِلَـىٰ مَحضَـنٍ تُـرَبَّىٰ فيـهِ هذهِ الفضائـلُ، فَأوجَـدَ ذَلِـكَ الكِيـانَ أَوِ التَّنظِيمَ القَـوِيَّ (الإِخـوَان المسـلمُون) لتتربَّـىٰ فِيـهِ هَـذِهِ الفضائـلُ.

وَقَـد نَصَـحَ الشَّـيخُ الغزالِـيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ، الدعَـاةَ بِتعَهُّـدِ الفضَائِـلِ وَحِراسَـتِهَا، وَنَهاهُـمْ عَـنْ تَـرْكِ المُجتَمعِ للشَّـيْطَانِ فيُفسِـدهُ؛ وذلـكَ فِـي مَقَـالٍ لَـه بِعُنـوانِ [صُمـودُ الدُّعَـاةِ]، وهـوَ مُحـاورَةٌ بينَـه وبَيـنَ رَجُـلٍ يُؤْثِـرُ العُزلَـةَ وَالانسِـحَابَ

مِـنْ هَـذَا الوَاقـعِ البَئِيـسِ، يَقُـولُ الشـيخُ الغَزالِـي: «سَـمعتُهُ يقـولُ: سَـأعتزِلُ النـاسَ، وَأَحيـا بَعيـدًا عنُهـمْ كَـيْ أُرِيـحَ وأَسـتريحَ! إنَّ لغَـطَ النـاسِ وسَـعيَهُم وأَملَهُـم ولُغوبَهـم يُثِيـرُ الضَّجـرَ وَالمَقْـتَ! بَـل إنّـه يَضـعُ حِجابًـا علَـىٰ بصَـرِي وبَصيرَتِي فَـلا أَكادُ أَرَىٰ وَجْـهَ رَبِّـي! ولَا أَكادُ أَشـعُرُ بلـذَّةِ المُناجَـاةِ وَالتأَمُّـلِ.

قُلـتُ لَـه: أَمَّـا أنـكَ سَـتُريحُ وتَسـتريحُ فَهذَا حَـقٌّ، وَلكنَّكَ سَـتُريحُ الشَّـيطَانَ، وتَسـتَرِيحُ مِـنْ مُقاومتِهِ، وَتتركَـه يُـؤَدِّي رِسَـالتَهُ دُونَ وَجَـلٍ! وَأَمَّـا لَـذَّةُ المُناجاةِ التِي تَنشُـدُهَا فَهِـيَ لَـذةُ الشَّـاعرِ الـذِي يَصـوغُ قَصيـدَةً رَائعَةً يُهيِّـجُ بِهَا المَشـاعِرَ ضَـدَّ الأعـدَاءِ، أَو يُثِيـرُ بِهَـا الحَنيـنَ لاسـتِرجَاعِ المَجـدِ المَفقُـودِ، ثُـم تَبقَـىٰ عندَهُ قَصيدَتُـهُ؛ لأنـهُ لَـمْ يَجِـدْ لَهـا نَاشِـرًا! أَخشَـىٰ يَـا صَاحبِي أَنْ يكُـونَ فِـرارُكَ مِـنَ المُجتمَـعِ فِـرارًا مِـنَ الزَّحْـفِ، وَنُكوصًـا عَـنِ الجِهَادِ!

إنَّ العِبـادَةَ الحقيقيَّـةَ للهِ أَنْ تَحْـرُسَ الفِطـرَةَ الإنسَـانيةَ، وَأَنْ تَشـتَبِكَ فِـي حَـرْبٍ دَائمـةٍ مَـعَ البِيئَـةِ التِـي تُريـدُ تَشـويهَهَا أَوْ تَغييرَهَـا! أَنْـتَ تَعـرِفُ أنَّ كُلَّ مَولـودٍ يُولَـدُ عَلَـىٰ الفِطْـرةِ، أَيْ عَلـىٰ حقَائـقِ الإسْـلام، وَأَنَّ التقَاليـدَ الفَاسِـدَةَ وَالعقَائِـدَ الزائفَـةَ هِـيَ التِـي تَتلقَّـفُ الأَجيـالَ النَّاشِـئةَ وَتَنحـرِفُ بِهَـا يَمنـةً ويَسْـرةً بَعيـدًا عَـنِ الصـرَاطِ المُستَقيم. فَكيْـفَ تُـترَكُ المُجتمعَـاتُ يَستَقِـرُّ فِيهَـا البَاطِـلُ؟ ويَتلاشَـىٰ مِنْهَـا الحَـقُّ؟ ويَحِـلُّ الخَنَـا مَحَـلَّ الطُّهْـرِ! وَالكُفـرُ مَـكانَ الإيمَـانِ، وَالجَـوْرُ بَـدلَ العدَالَـةِ؟

مَا يَجوزُ أَبَـدًا الانسِحَابُ مِنَ المَيدَانِ فَيَخْلُو الجَوُّ لِلشَّيطَانِ»[185].

ولِهـذَا لَا يَثبُـتُ وَلا يَصبِـرُ عَلَـىٰ هـذَا الطَّريـقِ، مَـنْ لَـمْ يُتعَهَّـدْ بِالتَّربيَـةِ، صحيـحٌ أنّـهُ قَـدْ يَـثبت مَرحلـةً أو اثنتَيـنِ، ولَكـنْ لَا يَسـتطِيعُ أَنْ يُكمِـلَ مِثْـلَ إِخـوةٍ آخريـنَ أَفاضِـلَ ظَلُّـوا عِشـرينَ سَـنةً وَهُـمْ وَراءَ الأَسـوَارِ، تَاركِيـنَ كُلَّ

(185) محمد الغزالي: *الحق المر*، ط 1، نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، 1996م، 1/ 111.

مُتَـعِ الحيَـاةِ وَكُلَّ المُستقْبلِ الّـذِي كَانَ مَفتُوحًـا أمَامَهُـم، وَفِيهِـم مَـنْ تَـرَكَ أَولادَهُ وَوَظِيفَتـهُ، وَمَـنْ تَـرَكَ حَيـاةً هَنِيئـةً وَادِعَـةً، ورَاحـةً وَاستِقرَارًا ثـم تـراه يسـتقِلُّ كلَّ ابتـلاءٍ وَمَشـقَّةٍ وَمُكابـدَةٍ فِـي جَنْـبِ اللهِ تَعالَـىٰ.

وَمِـنْ نَمـاذِجِ الثَّباتِ الفَـذَّةِ فِي دَعوتِنَا مَا فعَلَـهُ الأستاذُ سَيّد قُطب رَحِمَهُ اللَّهُ، وَالمعروفُ عَـن الأستاذِ سَيَّد أنّه أَوَّلُ مَـنِ اعتُقِلَ فِي يوليُو سنةَ (1965م)، إِذْ كَانَ أوّلَ مَـنْ دَخَـلَ السِّـجْنَ فِـي تلـك المِحْنَـةِ، وَمارسُـوا عَلَيـهِ كُلَّ أنـواعِ الضغُـوطِ؛ لِكَـيْ يَتكلَّـمَ، فَلَـمْ يَتكلـمْ وَهُـوَ رجـلٌ كَبيـرٌ، تَجـاوَزَ السِّـتينَ مِـنْ عُمْـرِهِ، وَوَخَطَـهُ المَشِيبُ، واجْتمَعَـتْ عَلَيـهِ العلـل والأمـراضُ؛ إِذْ كانَ يَعيـشُ برئةٍ واحـدةٍ، ويَشـكُو مِـن ذَبحـةٍ صَدريـةٍ، وضَغـطٍ عَـالٍ، وَكَانَ مَرِيضًـا بِالسُّـلِّ، وَمَـعَ ذَلِـكَ لَـمْ يَضْعُـفْ، ولَـمْ تَـلِنْ قَناتُـه أمـامَ الضغُـوطِ الكَثيـرَةِ التِي مُورِسَـتْ مَعَـهُ كَـي يَذكَـرَ أسـماءَ إِخوَانِـه، فَلَـمْ يَفعَـلْ؛ لأنَّـه يَـرَىٰ أَنَّ ذَلِـكَ حَـرامٌ فِـي حَـقِّ المُسْـلِمِ؛ أَنَّ يَـدُلَّ عَلَـىٰ مَقاتِـلِ المُسـلِمينَ أَوْ أَنْ يَكشِـفَ عَورَتَهـم، وبعدَمَـا اكتُشِـفَ التَّنظِيـمُ بطَرِيـقٍ آخـرَ، واتضـحَ أمَامَهُـم كلُّ شَـيءٍ بعـدَ ثَلاثَـةِ شُـهورٍ استَدعوهُ وَقَالـوا لَـه: انتَهَـىٰ كل شـيءٍ وَانكشَـفَ، وَهـؤلاءِ الرجَـالُ الذيـنَ مَعـكَ تَكلّمُـوا وقَالُـوا كُلَّ شَـيءٍ، وقَالُـوا: إنَّـك كُنْـتَ الـرأْسَ المُدبِّـرَ، فقـالَ: الآنَ أتكَلَّـمُ لَيسَ مِن أجل التخْفيفِ عَن نَـفْسِي لأنني أَتحَمَّلُ المَسؤُوليّة عَن هَـؤلاءِ جَميعًـا، فـالآن أتكلـمُ وَقَبـلَ ذَلِـكَ لَـمْ أتكلَّـمْ لأنَّـهُ حَـرامٌ أَنْ أَدُلَّ عَلَـىٰ مَقَاتِلِهـم أَوْ أَنْ أَكشِـفَ عَورَاتِهـم، أمَّـا الآنَ فَأنَـا أَتحمَّـلُ المَسؤُوليّةَ كَاملـةً عَـن هَـؤُلاءِ؛ لأنّنِي أرَاهُـم خَيـرَ شَـبابٍ حَملتْهُ الأرْضُ فِي هَـذَا الجِيلِ، فَكيـفَ أَدُلُّ عَليهِـم، وإِذَا كانُـوا قـدِ اعترَفُـوا عَلـيَّ جَميعًـا، فأَنـا أتحمَّـلُ المَسـؤوليّةَ عَنْهُـم.

لقـدَ آثَـر الشـهيدُ إخوَانَـهُ، ورضـيَ بِـأَنْ يُقـدَّمَ رأسَـهُ فِـدَاءً لِحركَـةٍ إسـلاميةٍ، سَـتكُونُ قَاعـدةً لِقيَـام نظَـامٍ إِسْـلَامِيٍّ، وَقَـال: أنَـا الّـذِي بـدأتُ وَأَنَـا الـذِي تَكلَّمـتُ، وأنَـا الّـذِي اقترَحْـتُ وَأنَـا الّـذِي نَظَّـرْتُ، وأنـا الّـذِي فَهَّمْـتُ، فأنَـا

أتحملُ المَسؤوليةَ كَاملةً؛ ولكـنَّ وَاجبِي الآنَ وَأنَا بَيـنَ يَـدِي اللهِ أَنْ أُخفِّـفَ عَنهُـم، كَمَـا كَانَ وَاجبِي مِـنْ قَبـلُ أَنْ أَحْمِيَهُـم.

والأسـتاذُ **يوسُـفُ هَـوَّاش** رَحِمَهُ اللهُ كمَـا يقـولُ عنـهُ عَلـي عَشْـمَاوي فِـي مُذكراتِـه – وَعَلِـيٌّ هَـذَا كانَ لَـه حُظْـوةٌ عِنـدَ المُحقِّقيـنَ، لأنّـه اعـترَفَ كَثيـرًا وتكلَّـمَ كَثِيـرًا – وَهُـوَ نفسُـه يقـولُ بِـأنَّ: الإخـوانَ أثنـاءَ التحقيقـاتِ يَكونُـونَ مَعزوليـنَ بِحيـثُ لَا أحـدَ يَتكلَّـمُ مَـعَ الآخَـرِ، وكَانَ كُلُّ وَاحـدٍ مِنْهُـمْ يُحـاولُ أَنْ يتَقـرّبَ مِنِّـي لِكَـيْ أُحـاوِلَ أَنْ أُخفِّـفَ عنْهُ الـدَّوْرَ الّـذِي قَـامَ بِـهِ؛ لأنَّ كَلامِـي كَانَ مُصَدَّقًـا عِنـدَ المُحقِّقيـنَ بعـدَ الاعترافَـاتِ الكَبِيـرَةِ الّتِـي أَدْليـتُ بِهَـا عَـنِ التنْظِيـم، إِلَّا وَاحِـدًا فَقَـطْ هُـوَ الأسْـتاذُ يوسـفُ هَـوَّاش؛ لأنَّـهُ لَـمْ يَفعَـلْ أَيَّ شَـيءٍ أَبَـدًا، وَالأسـتاذُ يُوسُـفُ هَـوَّاش كانَ مَسـجُونًا مَـعَ الأسـتاذِ سَـيدِ قُطْـب، وَكَانَ مَحكومًـا عَلَيـهِ بالإعـدام سَـنةَ (1954م)، وَحُكِـمَ عليـهِ بِالسـجْنِ خَمسـةً وخَمسـينَ سَـنةً لِعـدَةِ قَضَايَـا لُفِّقَـتْ لَـهُ، وظَـلَّ بجـوَارِ الأسـتاذِ سَـيّد قُطْـب يَنامَـانِ عَلَـىٰ فِـرَاشٍ واحـدٍ فِـي زِنزانـةٍ واحـدةٍ لمـدَّةِ عَشـرِ سَـنواتٍ، ثُـمَّ خَرجَـا مَعًـا، وكانَ هَـوَّاشٌ يحمـلُ أفكارَ الشـهيدِ سـيِّدِ قُطْـب وَكُلُّ دَوْرِهِ أَنّـه اعتُقِـلَ لأنَّ الأستَاذَ سَيد قَـالَ لَـه: إِنَّنِـي أَشْـعرُ أَنِّـي سَـأُعْتَقَلُ، فَلـو اعْتُقِلْـتُ تَكـونُ أنتَ مَكانِـي وَأَنـا أَخْـبرتُ إخوانَـك ، قَـالَ لَـه: لَا مُشـكِلَةَ. فَهُـمْ لَـم يَـروْهُ وَهُـوَ لَـم يَـرَهُمْ وَهَـذَا هُـوَ كلُّ دَوْرِهِ (الجِدّيَّـةُ وَالاستعدادُ لتحَمُّـل المَسـؤُولِيّةِ)، وَحُكِمَ عَلَيْـهِ بالإعـدام مِـن أَجْـل ذَلـكَ. فَهَـذَا الرجُـلُ بَعدَمَـا حُكِمَ عليهِ بالسـجنِ عَشـرَ سَـنواتٍ وصُـدِّقَ علَـىٰ الحُكْـم، وكانَ قَـدِ اعْتُقِـلَ وَعُمـرُهُ أربعيـنَ سَـنةً وكانَ رَجُـلًا بَسِـيطًا مستوَاهُ التعليمِـيُّ شَـهادَةُ دُبلـوم صِنَاعِـيٍّ، لكنَّـه كَانَ شَـخصيّةً فَـذّةً، وكانَ يَمتلِـكُ طَاقـاتٍ هائلـةً اكتَشـفَها الإِمَـامُ البنَّـا رَحِمَهُ اللهُ، وأطلقَهـا للعَمـلِ وَالبِنَـاءِ.

وقـد حَكَـىٰ بنَفسِـهِ بَعـضَ مَواقفِـهِ مَـعَ الإمَـامِ البنَّـا فقَـالَ: نَـادَاهُ الأسـتاذُ

البنَّا فِي أحَدِ لقاءاتِ (حَديثُ الثلاثَاءِ) أمامَ الجموعِ الجَالسَةِ، وقَالَ لَه: اجْلِسْ هُنَا ثُم اتَّبعْنِي بعدَ نِهايةِ الحَديثِ، وأخذَهُ وَذَهَبَ بهِ إِلَىٰ بيتِ عَبدِ الرَّحمَنِ السَّندِي، وقدَّمَهُ لَه، وقالَ: يَا عَبْدَ الرَّحمنِ أَعْطِ يوسُفَ مَزيدًا مِنَ الاهتِمَام، فَلا يُوجَدُ مِثلُه كَثِيرٌ فِي ذَلِكَ الوَقْتِ، وَهُوَ فَرِحَ بِهذَهِ الكَلمةَ الّتِي قِيلَتْ فحفِظَهَا وحَكَاهَا.

يقولُ علي عشماوِي: هُوَ الوحيدُ الّذِي لَم يُحاوِلْ أَن يَقتربَ مِنِّي، فلمَّا التقَىٰ بِي قالَ لِي كَلمةً سَتتعجَّبُونَ حِينَما تَسمَعُونَها؛ قالَ لَهَ: كُلُّ دَورٍ قَامِتْ بِه حَميدَةُ قُطْب حَمِّلْه عَلَيَّ!! وكَانَتْ مَسجُونَةً مَعنَا فِي السِّجْنِ وَكانَتْ فِي العِشْرِينَ مِن عُمرِهَا، وكانَتْ تَمشِي تَتعثَّرُ، لأنَّهَا وَسْطَ الرِجَالِ، وهُمْ يُحيطُونَ بِهَا. يقولُ عَشْمَاوِي: قَالَ لِي كُلُّ دَورٍ قامتْ بِهِ حَميدَةُ قُطْب حَمِّلْه عَلَيَّ، وقَد كَانَ فَنجَتْ هِيَ، وَحُكِمَ عَلَيهِ بالإعدَامِ، لِيلْقَىٰ رَبَّهُ شَهِيدًا.

وَكَانَ مَعِي أَخٌ اسمُهُ إِسمَاعيلُ عَبدِ العَالِ فِي زِنْزَانَةٍ واحدَةٍ فِي بِدايةِ اعتِقَالِي، وكَانَ يَعمَلُ بَائِعًا لِلبُنِّ، فسَألتُه: يَا أَخّ إِسْمَاعِيل، مَا الأحكامُ الّتِي تتوقَّعُ أَنْ تَصدُرَ فِي تِلكَ القضيَّةِ؟ فَقالَ لِي: مَاذَا تَنتظِرُ؟ فَمَنْ بَذَلَ مَالًا لَيْسَ كَمَنْ بَذَلَ نَفْسَهُ. وَكَانَ نَقِيبًا لأسرةٍ فِي كَفْرِ الغَابِ وكَانَ يقولُ لِي: واللهِ يَا أَخّ صَلاح لَو حُكِمَ عَلَيَّ بسَنتَينِ أَوْ ثَلاثَةٍ أَخْجَلُ أَنْ أُرِي النَاسَ وَجْهِي، هَلْ أَنَا سَارِقُ عَنْزَةٍ؟!، صَدقَ اللهَ فَصدَقَهُ اللهُ، وحَكمُوا عَلَيهِ بِالمُؤبَّدِ، تَخيَّلُوا وَاحِدًا نَقيبَ أسرةٍ فِي كفْرِ الغَابِ، مَا الّذِي فَعلَه حَتَّىٰ يَحكُمَ عَلَيهِ النظَامُ بِالمُؤبَّدِ خَمسةً وَعِشرينَ سَنةً (رُبع قَرْنٍ)، ولكنَّها مُهمَّةُ التجْديدِ وَالإحياءِ.

وَهَذِهِ مُهِمَّةُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْعُلَمَاءِ، وَنَحْنُ نَدَبْنَا أَنْفُسَنَا لِنَكُونَ عَلَىٰ قَدَمِ

الْأَنْبِيَاءِ، وَلِنَقُومَ بِتِلْكَ الْمُهِمَّةِ. وَكَمَا يَقُولُ أَبُو حَامِدٍ الْغَزَالِيُّ: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ هُوَ الْقُطْبُ الْأَعْظَمُ فِي الدِّينِ، وَهُوَ الْمُهِمُّ الَّذِي ابْتَعَثَ اللهُ لَهُ النَّبِيِّينَ أَجْمَعِينَ». وَلَيْسَ هَذَا الْوَصْفُ مِنَ الْإِمَامِ الْغَزَالِيِّ مُبَالَغَةً فِي بَيَانِ فَضْلِهِ، بَلْ تُؤَيِّدُهُ دَلَالَةُ الْقُرْآنِ؛ إِذْ قَدَّمَ اللهُ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ عَلَىٰ الْإِيمَانِ فِي وَصْفِ خَيْرِيَّةِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾ [آل عمران: 110]، تَنْبِيهًا إِلَىٰ عَظِيمِ أَثَرِهِ فِي إِقَامَةِ الدِّينِ وَحِفْظِهِ، وَإِظْهَارِ ثَمَرَاتِ الْإِيمَانِ فِي وَاقِعِ الْحَيَاةِ.

ويُذكِّرني ذلكَ بأحدِ العَساكِرِ فِي السِّجْنِ الحربيِّ، وكَانَ عَددُ الإخوانِ قُرابةَ أَلفيْ وَاحدٍ يَقفونُ فِي السَّاحةِ، وهَذَا العسكريُّ يَقفُ أَمَامَنَا وَيقولُ لَنَا: «أَنتم تَظنُّونَ أنفُسَكُم أَنبيَاء يَا أَوْلَاد الكَلْب؟!»، هَكذَا كَانَ يقُولُ لَنا، ثُمَّ يقُولُ: طِّيبْ.. أَنْبِيَا صَفَا.. أَنْبِيَا انْتِبَاهْ.. أَنبِيَا لِلخَلْفِ دُرْ!

إِنَّ أَمْرَ الثَّبَاتِ لَيْسَ بِالشَّيْءِ الْهَيِّنِ، بَلْ هُوَ عِمَادُ الدَّعَوَاتِ وَسِرُّ بَقَائِهَا؛ فَبِهِ تَقُومُ وَتَسْتَمِرُّ وَتَبْلُغُ غَايَتَهَا، مَهْمَا عَظُمَتِ التَّحَدِّيَاتُ وَاشْتَدَّتِ الْمِحَنُ. وَمَا بَلَغَتْ دَعْوَةٌ غَايَتَهَا بِكَثْرَةِ أَتْبَاعِهَا وَلَا بِوَفْرَةِ إِمْكَانَاتِهَا، وَلَكِنْ بِثَبَاتِ رِجَالِهَا وَصِدْقِهِمْ وَصَبْرِهِمْ.

وَمِمَّا يُعِينُ عَلَىٰ هَذَا الثَّبَاتِ صِدْقُ الصِّلَةِ بِاللهِ؛ فَكَمَا يَقُولُ الْأُسْتَاذُ سَيِّدُ قُطْب: «كُلُّ أَمْرٍ عَظِيمٍ يَحْتَاجُ إِلَىٰ حَيَاةٍ مَوْصُولَةٍ بِاللهِ جَلَّ شَأْنُهُ»، وَدَوَامُ الذِّكْرِ، وَالثِّقَةُ بِالْقِيَادَةِ وَطَاعَتُهَا فِي الْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ، وَمُلَازَمَةُ الْجَمَاعَةِ، وَاسْتِحْضَارُ الْغَايَةِ، وَالْيَقِينُ بِأَنَّ النَّتَائِجَ بِيَدِ اللهِ. فَمَنْ صَدَقَ مَعَ اللهِ ثَبَّتَهُ، وَكَانَ مِنَ الَّذِينَ قَالَ فِيهِمْ: ﴿**مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ**﴾[الأحزاب:23].

رُكْنُ التَّجرُّدِ

يَقُولُ الْإِمَامُ الْبَنَّا: «وَأُرِيدُ بِالتَّجَرُّدِ: أَنْ تَتَخَلَّصَ لِفِكْرَتِكَ مِمَّا سِوَاهَا مِنَ الْمَبَادِئِ وَالْأَشْخَاصِ؛ لِأَنَّهَا أَسْمَىٰ الْفِكَرِ وَأَجْمَعُهَا وَأَعْلَاهَا: ﴿صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً﴾ [الْبَقَرَة: ١٣٨]، ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [الْمُمْتَحَنَة: 4]».

وَالنَّاسُ عِنْدَ الْأَخِ الصَّادِقِ وَاحِدٌ مِنْ سِتَّةِ أَصْنَافٍ: مُسْلِمٌ مُجَاهِدٌ، أَوْ مُسْلِمٌ قَاعِدٌ، أَوْ مُسْلِمٌ آثِمٌ، أَوْ ذِمِّيٌّ مُعَاهَدٌ، أَوْ مُحَايِدٌ، أَوْ مُحَارِبٌ، وَلِكُلٍّ حُكْمُهُ فِي مِيزَانِ الْإِسْلَامِ، وَفِي حُدُودِ هَذِهِ الْأَقْسَامِ تُوزَنُ الْأَشْخَاصُ وَالْهَيْئَاتُ، وَيَكُونُ الْوَلَاءُ أَوِ الْعَدَاءُ[186].

التَّجَرّدُ أَمَارَةُ وَلَاءٍ

لَا يَصلحُ لِهَذِه الدعوةِ، وَلَا يَنهضُ بِها إلا من تَجرَدَ لَهَا رُؤيَةً وَعَملًا، وآمَنَ بأنَّها أَوْلَىٰ الدَّعواتِ بالاتباعِ، وأَحقُّها بأنْ يَمنحَها وقتَه وجِهَادَه وَعواطِفَه وَفِكرَهُ، وَلا يَحسُنُ بِمَنِ اختارَ هذهِ الدعوةَ، وارْتضَاهَا سَبيلًا لنَهضَةِ أُمتِنَا وَعِزَّتِهَا، وبَايعَ عَلَىٰ العملِ مَعَ إخوانِه وَفْقَ مِنْهاجِهَا؛ أَنْ يُخْدَعَ بِغيرِهَا مِنَ الدعَواتِ أَوِ الأحزَابِ أَو الهَيئاتِ التِي تَملأُ السَّاحَةَ؛ وَلَا يَنبغِي أَنْ يُفهَمَ مِن ذَلِكَ أن دعوةَ الإخوانِ المسلمينَ تُعادِي الدعَواتِ

(186) رسالة التعاليم- ركن التجرد. ص 276.

الأُخْرَىٰ، أَو أَنَّ العَصبيَّةَ تُعمِيهَا فَتغمِطُ الآخرينَ حَقَّهم، أَوْ تَبخَسُهُم فَضْلَهم؛ فكلُّ جُهدٍ يُبذَلُ لِنهضَةِ أُمتِنَا مَشكُورٌ مَأجُورٌ، وَاحتِرامُ الهَيئاتِ الأُخْرَىٰ وَالإقرَارُ بِفَضْلِهَا وَاجِبٌ، وَالإخوانُ المُسلِمُونَ يَرَوْنُ الآخرينَ بِعَينِ مُرشِدِهِم الإمام البنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ؛ حِينَ وَصفَ الإخوَانَ المُسلِمِينَ - أَوْ قُلْ أَمرهُمْ - بِأَنَّهُم: «أَوْسَعُ الناسِ صَدْرًا معَ مُخالِفِيهم، وَيَرَوْنَ أَن مَعَ كُلِّ قَومٍ عِلمًا، وفي كُلِّ دَعْوةٍ حَقًّا وبَاطلًا، فَهُم يَتحرَّوْنَ الحَقَّ ويأْخُذُونَ بِهِ، ويُحاوِلُونَ في هوادةٍ وَرِفْقٍ إقنَاعَ المُخالفينَ بوجهَة نظرِهم. فَإِنِ اقتَنَعُوا فَذاكَ، وَإِنْ لَم يَقتنُعُوا فَإِخوَانٌ فِي الدِّينِ، نَسأَلُ اللهَ لَنا ولَهُم الهِدايةَ»[187].

وَفِي ظَنِّي أَنَّ مَا وَصفَ بِهِ الإمامُ البنّا رَحِمَهُ اللَّهُ الإِخوَانَ المُسلِمِينَ فِي كَلامِهِ السَّالفِ، لَا يُفهَمُ عَلَىٰ أَنَّهُ خَبرٌ، بَل هُوَ إِنشَاءُ وطلبٌ جاءَ فِي صُورَةِ الخَبر، فكأَنَّهُ رَحِمَهُ اللَّهُ يَطلُبُ إِلَىٰ إِخْوَانِهِ أَنْ يَتحقَّقُوا بِهذِهِ الصفَاتِ مَعَ مُخالِفِيهِم أَوْ مَن آثَرَ أَنْ يَسلُكَ طَرِيقًا أُخْرَىٰ فِي الدَّعْوَةِ إِلَىٰ اللهَ: ﴿**وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللهُ جَمِيعًا إِنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ [البقرة: 148].

وَالتجَرُّدُ فِي دَعوتِنَا ضَرُورَةٌ؛ لأَنَّ اقتحَامَ المُجتمَعِ مِنْ أَجْلِ استِثْمَارِهِ لَا مِنْ أَجْلِ تَدميرِهِ يَحتاجُ إِلَىٰ تَجرُّدٍ فِي الحُكمِ عَليهِ، وَسَوفَ يَرىٰ الأَخُ العَامِلُ مَعنَا دُعاةً وَاتجَاهَاتٍ، وَأَحْزَابًا وَجَماعَاتٍ؛ وَإِذَا لَمْ يَتجرَّدْ لِدَعْوتِهِ تَخطَّفتْهُ هَذِهِ الدَّعوَاتُ وَتَوزَّعَتْهُ، فَأَورَثَتْهُ حَيرَةً وتَشَتُّتًا، وقَد تَنتَهِي بِهِ إِلَىٰ كَراهِيةِ العَملِ الجَماعِيِّ جُملةً؛ لأَنَّهُ سَيرَىٰ بينَ الجَماعَاتِ وَالأَحزَابِ اختِلافَاتٍ وَرُبَمَا خُصومَاتٍ تَصلُ إِلَىٰ حَدِّ التَّكفِيرِ، وَقَدْ أَرادَ الإِمَامُ البَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ، أَنْ يَستَنقِذَكَ مَنْ حَيرَةٍ أَوْ تَشتُّتٍ، وَأَنْ يَحمِيَكَ مِنْ أَنْ تَبذُلَ جُهدَكَ فِي غَيرِ مَوضِعِهِ، أَوْ أَنْ تُضيِّعَ طَاقتَكَ فِي طَرِيقٍ غَيرِ مَأمُونَةٍ وَلَا مَضْمُونَةٍ، فَلَا

(187) حسن البنا: *مجموعة رسائل الإمام البنا*، [رسالة دعوتنا]، ص 139.

وَقْتَ أَمامَ أُمتِنَا لتجريبِ الطُّرقِ وَالبدَائل، وَالإِمَامُ البنَّا يقولُ لكلِّ رَاغبٍ فِي نُصرَةِ الإِسْلام: الطريقُ هَا هُنَا، وَيَجزِمُ بِأنَّ طَريقَ (الإِخْوَانِ المُسلِمينَ) أَقومُ سَبيلٍ وَأهدَاهُ، وَأَسْرَعُهُ وَأَنْجَعُهُ، وَأَنَّ التجَارِبَ تَشهَدُ بذلِكَ، وَهَذَا المَعنَىٰ مُتكَرِّرٌ كَثِيرًا فِي رَسائل الإِمَام البنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ، فَهوَ مُتيقِّنٌ مِنهُ، كما في قَولِه: «أَيُّها الإِخوانُ المُسلِمُونَ: إِنَّكُمْ تَبتَغُونَ وَجْهَ اللهِ وَتَحصِيلَ مَثوبتِهِ وَرِضْوَانِهِ، وذَلِكَ مَكفُولٌ لَكُمْ مَا دُمتُم مُخلِصِينَ. وَلَمْ يُكلِّفْكُمُ اللهُ نَتائِجَ الأعمَالِ، وَلَكِنْ كَلّفَكُمْ صِدْقَ التوَجُّهِ وَحُسْنَ الاستِعْدَادِ، وَنحْنُ بَعدَ ذَلِكَ إِمَّا مُخطِئُونَ فَلنَا أَجرُ العَامِلِينَ المُجتَهِدِينَ، وَإِمَا مُصيبُونَ فَلنَا أَجْرُ الفَائِزِينَ المُصِيبِينَ. عَلَىٰ أَنَّ التجَارِبَ فِي المَاضِي وَالحَاضِرِ قَدْ أَثبتَتْ أَنّهُ لَا خَيرَ إِلَّا فِي طَرِيقِكُمْ، وَلَا إِنتَاجَ إِلَّا مَعَ خُطَّتِكُمْ، وَلَا صَوابَ إِلَّا فِيمَا تَعمَلُونَ، فَلا تُغامِرُوا بِجُهودِكُم وَلَا تُقَامِرُوا بِثِمَارِ نَجَاحِكُمْ. وَاعمَلُوا وَاللهُ مَعكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ، وَالفَوزُ لِلعَامِلِينَ ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة:143]»[188].

وَيَبقَىٰ عَليكَ أَخِي المُسلِم أَمَامَ كَلام الإِمَام البنَّا، أَنْ تَكُونَ أَحَدَ رَجُلينِ: فَإِمَّا أَنْ تَرَاهُ مُخطِئًا فَترفُضَ نَهْجَهُ وَتأبَاهُ، وَمَيدانُ العَمَل حِينئذٍ أَمامَكَ فَسِيحٌ، فَلتجَرِّبْ طَرِيقًا أُخرَىٰ، وَاللهُ الهَادِي إِلَىٰ سَواءِ السَّبيلِ، وَإِمَّا أَنْ تَراهُ مُصِيبًا وَتُحِبُّ أَنْ تَلحَقَ بِكَتيبةِ العَامِلِينَ لِدينِ اللهِ تَعالَىٰ، وَإِخْوَانُكَ حَينئذٍ يَبسُطُونَ أَيدِيَهُم لَك، وَيَدعُونَكَ: هَلُمَّ فَبَايِعْ عَلَىٰ هَذهِ الطَّرِيقِ مُتجرِّدًا لَها، غَيرَ مُلتَفِتٍ إِلَىٰ سِواهَا بَعدَمَا اختَرْتَ؛ وَأَنْصِتْ مِليًّا إِلَىٰ الإِمَام المجَدِّد فِي عَصرِنَا الحَدِيثِ، وَهُوَ يَهمِسُ فِي أُذنِكَ: «**أُرِيدُ بِالتجرُّدِ**: أَنْ تَتخَلَّصَ لِفكرَتِكَ مِمَّا سِوَاهَا مِنَ المَبادِئِ وَالأَشْخَاصِ؛ لأَنّهَا أَسْمَىٰ الفِكَرِ وَأَجمَعُهَا وَأَعلاهَا: ﴿صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً﴾

(188) حسن البنا: مجموعة *رسائل الإمام البنا*، [رسالة المؤتمر الخامس]، ص 339.

[البقرة:١٣٨]، ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ إِلا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾[الممتحنة:4]»[189].

إنّ الإمامَ البنَّا رَحِمَهُ اللهُ آمَن إيمانًا لَا يتطرقُ إليهِ شَكٌّ بأنَّ السَّبيلَ التي اختارَهَا هِيَ أَهْدَىٰ السُّبُلِ، وَأَنْجَعُهَا وَأَسْرَعُهَا (وَإِنْ بَدَتْ طَويلةً شَاقةً) لِنهضَةِ هَذِهِ الأمَّةِ، ولَيسَ غَريبًا عَلَىٰ مَنَ بَلغَ هَذَا اليقِينَ أَنَ يَطْلُبَ إِلَىٰ إخوَانِهِ المُبايعِينَ عَلَىٰ العَملِ مَعَهُ أَنْ يَتجَرَّدُوا لِهذِهِ الدَّعْوةِ دُونَ سِواهَا. وَقَد تَساءَلَ الإمَامُ البنَّا رَحِمَهُ اللهُ بِمَا قَدْ يُساوِرُ أَيَّ أَخٍ أَوْ يَجُولُ بِخاطِرِهِ لِطُولِ الطَّرِيقِ، فقَالَ: «**هَلْ هُناكَ طَرِيقٌ أُخْرَىٰ غيرها؟**» ثُمَّ كَانَتْ إجابتُه الحَاسِمَةُ الجَازِمَةُ «بأنَّ هَذِهِ الطَّرِيقَ مَهمَا طَالَتْ فَلَيْسَ هُناكَ غَيرُهَا فِي بناءِ النهضَاتِ بِناءً صَحِيحًا، وَقَدْ أَثبتَتِ التجْرِبَةُ صِحَّةَ هَذِهِ النظَرِة»[190].

وَمِنْ حَقِّ كُلِّ إِنْسَانٍ أَنْ يَرتَابَ فِي كَلامِ الإمَامِ البنَّا رَحِمَهُ اللهُ، وَيَرفُضَه، وَيَسعُه أَنْ يَدعُو إِلَىٰ اللهِ تَعالَىٰ بِمَا يَرَاهُ أفضَلَ وَأَنْجَعَ، أَمَّا مَن آثَرَ طَرِيقَ الإِخْوَانِ المُسلِمينَ وَمِنهَاجَهُم، واختَارَ هَذِهِ السبيلَ دُونَ سِواهَا فَعلَيهِ أَنْ يَتجرَّدَ لَهَا، وأنْ يَضعَ نُصْبَ عَينِهِ كَلماتِ مُؤسِّسِهَا الإمام البنّا رَحِمَهُ اللهُ: «إنَّ تكوينَ الأُمم، وتَربيةَ الشُّعوبِ، وتَحقيقَ الآمَالِ، وَمُناصرَةَ المَبادِئ: تَحتَاجُ مِن الأُمَّةِ التِي تُحاولُ هذَا أَوِ الفِئَةِ التِي تَدعُو إِلَيهِ عَلَىٰ الأقلِّ، إِلَىٰ (قُوةٍ نَفْسيّةٍ عَظيمَةٍ) تَتمثَّلُ فِي عِدَّةِ أُمورٍ: إِرَادةٍ قَويةٍ لا يَتطَرَّقُ إِلَيْهَا ضَعْفٌ، وَوَفَاءٍ ثَابتٍ لَا يَعدُو عَليهِ تَلوّنٌ وَلَا غَدْرٌ، وتَضحيةٍ عَزيزةٍ لَا يَحولُ

(189) حسن البنا: *مجموعة رسائل الإمام البنا*، [رسالة التعاليم]، ص 139.
(190) السابق، [رسالة إلىٰ أي شيء ندعو الناس]، ص 69.

دُونَها طَمعٌ ولا بُخْلٌ، ومَعرفَةٌ بالمَبدَأِ وَإيمَانٌ بِهِ وَتَقديرٌ لَه يَعْصِمُ مِنَ الخطَأِ فِيهِ وَالانحرافِ عَنهُ وَالمُساومَةِ عَلَيهِ، وَالخَديعَةِ بغيرِه. علَىٰ هَذهِ الأركانِ الأوّليّةِ التِي هِيَ مِنْ خُصُوصِ النفُوسِ وَحْدَها، وعَلَىٰ هَذِهِ القُوةِ الرُّوحِيَّة الهَائِلَة، تُبنَىٰ المَبادِئُ وتَتربَّىٰ الأممُ الناهضَةُ، وتتكَوّنُ الشعوبُ الفتِيَّةُ، وتَتجَدَّدُ الحَياةُ فِيمَنْ حُرِمُوا الحَياةَ زَمَنًا طَوِيلاً»[191].

ولعَلَّك بِمَا سَبقَ تُدْرِكُ لِمَ جعلَ الإمَامُ البنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ «**التَّجَرُّدَ**» رُكنًا مِن أَركانِ البَيعَةِ؟ لأنهُ أرَادَ لإخْوانِهِ أَنْ يَستفْرِغُوا طَاقتَهُم، وَيُخْلِصُوا جُهدَهُم وَعَملَهم لِهذَهِ الدَّعْوَةِ، وَأَلَّا تَتوزَّعَهُم الأهواءُ أَوْ تَتفرَّقَ بِهِم السُّبُلُ. ولعَلَّه رَأَىٰ مِنْ بَعضِ إخْوَانِه حَمَاسًا أَوْ نُزُوعًا إِلَىٰ اتخَاذِ العُنْفِ سَبِيلًا للإصلاحِ، فأَرَادَ أَنْ يَضعَ الأُمُورَ فِي نَصَابِهَا، وأنْ يَعلَمَ إخْوَانُه أَنَّ العُنْفَ الجَامِحَ لَا يَتَّفِقُ مَعَ مَشْرُوعِنَا، فَهُوَ مَشْرُوعٌ طَوِيلُ الْأَمَدِ، وَالْعُنْفُ لَيْسَ مِنْ وَسَائِلِ تَحْقِيقِهِ.. وَمَا يَتحقَّقُ بِغَيرِ القُوةِ مِنْ هَذَا المَشرُوعِ، يَجعَلُ استخدَامَ القُوةِ فِي تَحقيقِه حَرَامًا، وهَذَا موقفُ الإمَامُ البَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ مِنَ التَّغييرِ بِالقُوَّةِ.

فالتجرُّدُ هو الأساسُ الذي يحفظُ صفاءَ الفكرةِ ونقاءَ الانتماءِ، ويُحرِّرُ العاملَ من سلطانِ الهوىٰ، ومن التعصُّبِ للأشخاصِ أو المصالحِ أو المكاسبِ العاجلة. وهو لا يعني إلغاءَ العقلِ أو إهدارَ الاجتهادِ، وإنما يعني أن يكونَ الولاءُ للحقِّ، والميزانُ هو كتابُ اللهِ وسنَّةُ رسولِه ﷺ، وأن يذوبَ حظُّ النفسِ في خدمةِ الرسالةِ. ومتىٰ تحقَّق هذا المعنىٰ في النفوسِ، استطاعت الدعواتُ أن تحافظَ علىٰ وحدتِها، وأن تتجاوزَ الخلافاتِ، وأن تمضيَ في طريقِها ثابتةَ الخطىٰ، لا تُحرِّكُها الأهواءُ، ولا تُفرِّقُها العصبياتُ، وإنما يجمعُها الإخلاصُ لله، والتجرُّدُ للحقِّ، والالتزامُ بمنهجِه القويم.

(191) السابق، ص 49.

رُكْنُ الأُخُوّةِ

يَقُـولُ الإِمَـامُ البَنَّـا: «وَأُرِيـدُ بِالْأُخُـوَّةِ: أَنْ تَرْتَبِـطَ الْقُلُـوبُ وَالْأَرْوَاحُ بِرِبَـاطِ الْعَقِيـدَةِ، وَالْعَقِيـدَةُ أَوْثَـقُ الرَّوَابِـطِ وَأَغْلَاهَـا، وَالْأُخُـوَّةُ أُخْتُ الْإِيمَـانِ، وَالتَّفَرُّقُ أَخُـو الْكُفْرِ، وَأَوَّلُ الْقُـوَّةِ: قُـوَّةُ الْوَحْـدَةِ، وَلَا وَحْـدَةَ بِغَيْـرِ حُـبٍّ، وَأَقَـلُّ الْحُـبِّ: سَـلَامَةُ الصَّـدْرِ، وَأَعْـلَاهُ: مَرْتَبَـةُ الْإِيثَـارِ، ﴿وَيُؤْثِـرُونَ عَلَـىٰ أَنْفُسِـهِمْ وَلَـوْ كَانَ بِهِـمْ خَصَاصَـةٌ وَمَـنْ يُـوقَ شُـحَّ نَفْسِـهِ فَأُولَـئِكَ هُـمُ الْمُفْلِحُـونَ﴾ [الْحَشْـرِ: 9].

وَالْأَخُ الصَّـادِقُ يَـرَىٰ إِخْوَانَـهُ أَوْلَـىٰ بِنَفْسِـهِ مِـنْ نَفْسِـهِ؛ لِأَنَّـهُ إِنْ لَـمْ يَكُـنْ بِهِـمْ، فَلَـنْ يَكُـونَ بِغَيْرِهِـمْ، وَهُـمْ إِنْ لَـمْ يَكُونُـوا بِـهِ كَانُـوا بِغَيْـرِهِ، (وَإِنَّمَـا يَـأْكُلُ الذِّئْـبُ مِـنَ الْغَنَـمِ الْقَاصِيَـةَ)، (وَالْمُؤْمِـنُ لِلْمُؤْمِـنِ كَالْبُنْيَـانِ، يَشُـدُّ بَعْضُـهُ بَعْضًـا)، ﴿وَالْمُؤْمِنُـونَ وَالْمُؤْمِنَـاتُ بَعْضُهُـمْ أَوْلِيَـاءُ بَعْـضٍ﴾ [التَّوْبَـةِ: 71]، وَهَكَـذَا يَجِـبُ أَنْ نَكُـونَ»[192].

الأُخَـوَّةُ سِيَاجٌ لِصَفِّنَا

لَـمْ يَنْسَ الإِمَـام البَنَّـا رَحِمَهُ اللَّهُ فِي أركانِ بَيعتِـهِ أَنْ يُـضمِّنَها مَـا يَحْمِـي وَحْـدةَ الصَّـفِّ، وَيُوثِّـقَ رَابطَـةَ الإِخـوَانِ بَعضِهِـم بِبعـضٍ، فَـإِذَا كَانـتْ بَعـضُ أَركانِ البَيعـةِ كَالفهـمِ والتجَـرّدِ والثَّبـاتِ والتَّضحِيَـةِ تَضبِـطُ مَسـارَ العمـلِ، وتَضمَـنُ استِمرَارَاهُ ودَوامَـهُ؛ فـإِنَّ بَعضَهـا يُمثِّـلُ سِيَاجًا لِصَـفِّ الإِخْـوَانِ يَحمِيـهِ مـن التفَـرُّقِ وَالتشَـرْذُم، وَيُـوثِّـقُ رابطـةَ المحبـةِ بيـنَ الإِخْـوَانِ، ومِـن أَجْـلِ ذَلِـكَ كَانَ الركـنُ التاسِـعُ هُـو رُكـنَ الأُخـوَّةِ؛ لأنَّ الأخـوَّةَ مِـن مُقتضيَـاتِ الإِيمَـانِ،

(192) *رسالة التعاليم* - ركن الأخوة. ص276.

والأصْـلُ أنّهـا رَابطـةٌ بيـنَ كُلِّ مَـن شَـهدَ أنْ لا إلـهَ إلا اللهُ، وأنَّ مُحمـدًا رسـولُ اللهِ، فَكيْـفِ بِـإخْوةٍ جَمعتْهُـم بَيعـةٌ واحـدةٌ، وغايـةٌ واحـدةٌ؟

إنَّ درجـةَ الحُـبِّ والأخـوَّةِ هُنـا لا بُـدَّ أنْ تكونَ أَقْوىٰ وأوثَـقَ، وَيَعـرِفُ كُلُّ مَـنِ انتمَـىٰ إلَـىٰ الإخـوانِ المُسـلمينَ أنَّ رابطَـةَ الأُخـوَّةِ بَينَهم قَـدْ تتفَـوَّقُ أَحيانًا علَـىٰ رابطـةِ النسَـبِ، والحـقُّ أنَّ أَيَّ فئـةٍ أو جماعـةٍ تَجمَعُهَـا غايـةٌ واحـدَةٌ، لَا يُمكِـنُ أَنْ تَنجَـحَ مَتَـىٰ تَنافـرَتِ القُلـوبُ، وَدَبـتْ بينَهَـا الشَّـحْنَاءُ وَالبغْضَـاءُ، وَلِهـذَا حَذَّرنَـا رَسـولُنا الكَريـمُ مِـنْ فَسـادِ ذَاتِ البَيـنِ وَسَـمَّاهُ (الحَالقَـة)، فَعَـنْ أَبـي الـدرْدَاءِ أنَّ رسُـولَ اللهِ ﷺ، قـالَ: «أَلَا أَدُلُّكُـم علـىٰ أَفْضَـلَ مِـنْ دَرجَـةِ الصـلَاةِ وَالصِّيَـام والصَّدقَـةِ ؟ قَالُـوا: بَلَـىٰ يـا رَسُـولَ اللهِ. قـالَ: إِصْـلاحُ ذاتِ البَيْـنِ فـإنَّ فَسَـادَ ذَاتِ البَيْـنِ هـي الحَالِقَـةُ. لَا أَقُـولُ: إنَّهـا تَحْلِـقُ الشَّـعْرَ ولكـن تَحْلِـقُ الدِّيـنَ»[193].

وَمِـن رَحمَـةِ اللهِ تَعالـىٰ بِهـذِهِ الدعـوَةِ؛ أنْ وَفَّـقَ الإمـامَ البنَّـا إِلَـىٰ دُعـاءٍ يَهـزجُ بِـه الإخـوانُ كُلَّ يـومٍ صَباحًـا وَمَسـاءً، فَكُلُّ الإخـوَانِ عَلَـىٰ اختـلافِ مشَـارِبِهِم وَبِلادِهِـم لَهُـم كَلَّ صَبَـاحٍ وَمَسـاءٍ زَجَـلٌ بِـوِرْدِ الرابطَـةِ؛ حَيـثُ يَستحضِرُ الأَخُ فِي صبَاحِهِ ومَسَائِـهِ مَـنْ يُحِـبُّ مِـنْ إخوَانِـهِ، ثُـمَّ يترنَّـمُ بِهـذِهِ الكلمَـاتِ الطَّيبـاتِ: «اللهُـمَّ إنَّـكَ تَعلَـمُ أنَّ هـذِهِ القُلـوبَ قَـد اجتمَعَـتْ عَلَـىٰ مَحبَّتِـكَ، والتقَـتْ عَلَـىٰ طَاعتِـكَ وَتوحَّـدَتْ عَلَـىٰ دَعوتِـكَ، وتَعاهـدَتْ عَلَـىٰ نُصـرَةِ شَـريعتِكَ. فَوثِّـقِ اللَّهُـمَّ رابِطَتَهـا وَأَدِمْ وُدَّهَـا، وَاهْدِهَـا سُـبُلَهَا وَامْلَأْهَـا بِنُـورِكَ الـذِي لَا يَخبُـو. وَاشْـرَحْ صُدورَهَـا بِـفَيْضِ الإيمَـانِ بِـكَ وَجَميـلِ التَّـوكُّلِ عَليـكَ، وَأَحْيِهَـا بِمعرِفَتِـكَ، وَأَمِتْهَـا عَلَـىٰ الشَّـهادَةِ فِـي سَـبِيلِكَ، إِنَّـكَ نِعْـمَ المَوْلَـىٰ وَنِعْـمَ النَّصِيـرُ. اللَّهُـمَ آمِيـن. وَصَـلِّ اللهـمَّ عَلَـىٰ سَـيدِنَا مُحمّـدٍ،

(193) أخرجه أبو داود (4919)، والترمذي (2509) باختلاف يسير، وأحمد (6/ 444).

وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلِّمْ»[194].

وَمِنْ ثَمَّ تُمثِّلُ عَاطفةُ الحُبِّ وَالأُخُوَّةِ التِي يَتمتعُ بِها صَفُّ (الإخوانِ المُسلمينَ)؛ دِرْعًا واقيةً لِهذَا الصَّفِّ، تَتآلَفُ بِهذِهِ العَاطفَةِ القُلوبُ وَلَا تَختلِفُ، وَإنّمَا القُوّةُ فِي المَحبَّةِ وَالتآلفِ وترْكِ التنازعِ، قالَ تَعالَىٰ: ﴿**وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾ [**الأنفال**: 46]، وفسَّرَ الطبريُّ: ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ بقولِهِ: «وتَذهَبَ قَوتُكُم وَبَأسُكُم، فَتضعفُوا ويَدخُلَكُم الوَهنُ وَالخَلَلُ».

وَكُلّنا نَعلَمُ حُبَّ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِصَحابتِه الكِرَامِ، وَرَحمَتَهُ بِهِم، فَقدْ كَانَ يَتقدَّمُهُمْ إِلَىٰ المَخاطِرِ، وَيُؤثِرَهُم فِي العَطَاءِ، يقولُ سَيدُنا عَليُّ بنُ أَبِي طَالبٍ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ): «كُنَّا إِذَا احمَرَّ البَأْسُ، وَلَقِيَ القَوْمُ القَوْمَ، اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللهِ ﷺ، فَمَا يَكُونُ مِنَّا أَحَدٌ أَدنىٰ إِلَىٰ القَوْمِ مِنْهُ»[195]، وَيقُولُ أنسُ بنُ مَالكٍ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ): «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ، وَأَجْوَدَ النَّاسِ، وَأَشْجَعَ النَّاسِ، قَالَ: وَقَدْ فَزِعَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ لَيْلَةً، سَمِعُوا صَوْتًا، قَالَ: فَتَلَقَّاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ عَلَىٰ فَرَسٍ لِأَبِي طَلْحَةَ عُرْيٍ، وَهُوَ مُتَقَلِّدٌ سَيْفَهُ، فَقَالَ: لَمْ تُرَاعُوا لَمْ تُرَاعُوا، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: وَجَدْتُهُ بَحْرًا»، يَعْنِي: الْفَرَسَ»[196].

وَلِهَذَا بَادَلَهُ صَحابتُه الكِرَامُ حُبًّا بِحُبٍّ، حَتَّىٰ كَانَ رَسولُ اللهِ ﷺ أَحبَّ إِلَيهِم مِنْ آبائِهِمْ وَأُمّهاتِهِمْ، وَأَبنائِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ، وَقَد تَجلَّىٰ ذَلِكَ الحُبُّ فِي أَقوالِهِمْ وَأفعَالِهِمْ، فَأَمَّا أَقوَالُهُم فيكفِينَا مِنهَا شَهَادَةُ أَبِي سُفيانَ ، قَبلَ أَنْ يُسلِمَ، إِذَا كَانَ مِمَّنْ شَهِدَ مَقتَلَ الصَّحابِيِّ الجليلِ زَيْدِ بنِ الدَّثِنَّةِ ، يَومَ

(194) حسن البنا: *مجموعة رسائل الإمام البنا، رسالة المأثورات*، ص 223.
(195) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، رقم (1347)، والحاكم في المستدرك، رقم (2680)، وإسناده صحيح.
(196) أخرجه البخاري (3040)، ومسلم (2307).

أَخرَجَتْـهُ قُرَيْـشٌ مِـنَ الحَـرَمِ لِيَقْتُلُـوهُ، وَاجْتَمَـعَ رَهْـطٌ مِـنْ قُرَيْـشٍ، فِيهِـمْ أَبُـو سُـفْيَانَ بـنُ حَـرْبٍ، فَقَـالَ لَـهُ أَبُـو سُـفْيَانَ حِيـنَ قُـدِّمَ لِيُقْتَـلَ: أَنْشُـدُكَ اللهَ يَـا زَيْـدُ، أَتُحِـبُّ أَنَّ مُحَمَّـدًا عِنْدَنَـا الآنَ فِي مَكَانِـكَ نَضْـرِبُ عُنُقَـهُ، وَأَنَّـكَ فِي أَهْلِـكَ؟ قَـالَ زَيْـدٌ: وَاللهِ مَـا أُحِـبُّ أَنَّ مُحَمَّـدًا الآنَ فِي مَكَانِـهِ هُـوَ فِيـهِ تُصِيبُـهُ شَـوْكَةٌ تُؤْذِيـهِ، وَأَنِّـي جَالِـسٌ فِي أَهْلِـي. فَقَـالَ أَبُـو سُـفْيَانَ: مَـا رَأَيْـتُ مِـنَ النَّـاسِ أَحَـدًا يُحِـبُّ أَحَـدًا كَحُـبِّ أَصْحَـابِ مُحَمَّـدٍ مُحَمَّـدًا، ثُـمَّ قُتِـلَ زَيْـدُ بـنُ الدَّثِنَّـةِ»[197].

وَأَمَّـا أَفعالُهُـم فَيكفِينَـا مِنهَـا حِـرْصُ أَبِـي بكـرٍ الصِّديـقِ عَلَـىٰ سـلامَةِ رَسـولِ اللهِ ﷺ، أثنـاءَ الهجـرةِ، لَمَّـا خَـرَجَ رسـولُ اللهِ ﷺ مِـنْ مَكَّـةَ هَارِبًـا مِـنَ الْمُشْـرِكِينَ خَـرَجَ لَيْـلًا، فَتَبِعَـهُ أَبُـو بَكْـرٍ، فَجَعَـلَ يَمْشِـي مَـرَّةً أَمَامَـهُ، وَمَـرَّةً خَلْفَـهُ، وَمَـرَّةً عَـنْ يَمِينِـهِ، وَمَـرَّةً عَـنْ يَسَـارِهِ. فَقَـالَ لَـهُ رَسُـولُ اللهِ ﷺ: «مَـا هَـذَا يَـا أَبَـا بَكْـرٍ؟ مَـا أَعْـرِفُ هَـذَا مِـنْ فِعْلِـكَ «. فَقَـالَ: يَـا رَسُـولَ اللهِ، أَذْكُـرُ الرَّصْـدَ فَأَكُـونُ أَمَامَـكَ، وَأَذْكُـرُ الطَّلَـبَ فَأَكُـونُ خَلْفَـكَ، وَمَـرَّةً عَـنْ يَمِينِـكَ، وَمَـرَّةً عَـنْ يَسَـارِكَ، لَا آمَـنُ عَلَيْـكَ. فَمَضَـىٰ رَسُـولُ اللهِ ﷺ عَلَـىٰ أَطْـرَافِ أَصَابِعِـهِ حَتَّـىٰ حَفِيَـتْ. فَلَمَّـا رَأَىٰ أَبُـو بَكْـرٍ أَنَّهَـا قَـدْ حَفِيَـتْ حَمَلَـهُ عَلَـىٰ عَاتِقِـهِ، حَتَّـىٰ أَتَـىٰ بِـهِ فَـمَ الْغَـارِ، فَأَنْـزَلَهُ، ثُـمَّ قَـالَ: وَالَّـذِي بَعَثَـكَ بِالْحَـقِّ لَا تَدْخُلُـهُ حَتَّـىٰ أَدْخُلَـهُ، فَإِنْ كَانَ فِيـهِ شَـيْءٌ فَيَبْـدَأُ بِـي قَبْلَـكَ، فَلَـمْ يَـرَ شَـيْئًا يَسْـتَرِيبُهُ، فَحَمَلَـهُ فَأَدْخَلَـهُ، وَكَانَ فِـي الْغَـارِ خَـرْقٌ فِيـهِ حَيَّـاتٌ، فَلَمَّـا رَأَىٰ ذَلِـكَ أَبُـو بَكْـرٍ أَلْقَمَـهُ عَقِبَـهُ، فَجَعَلَـنَ يَلْسَـعْنَهُ أَوْ يَضْرِبْنَـهُ، وَجَعَلَـتْ دُمُوعُـهُ تَتَحَـادَرُ عَلَـىٰ خَـدِّهِ مِـنْ أَلَـمِ مَـا يَجِـدُ، وَرَسُـولُ اللهِ ﷺ يَقُـولُ: «لَا تَحْـزَنْ يَـا أَبَـا بَكْـرٍ إِنَّ اللهَ مَعَنَـا» « فَأَنْـزَلَ اللهُ سَـكِينَتَهُ وَطُمَأْنِينَتَـهُ لِأَبِـي بَكْـرٍ»[198].

بِمِثْـلِ هَـذَا الحُـبِّ المُتبـادَلِ بَيـنَ القَـادَةِ وَأتبَاعِهِـمْ، أَوِ التّلاميـذِ وَأُسـتَاذِهِم

(197) انظر سيرة ابن هشام (3/ 191)، والطبَّقَات الكُبْرىٰ لابن سعد (2/ 277).

(198) انظر ابـن تيميـة: *منهـاج السـنة النبويـة*، تحقيـق محمـد رشـاد سـالم، ط 1، جامعـة الإمـام محمـد بـن سـعود الإسـلامية، 1406 هـ - 1986 م، 4/ 158.

تَنجَحُ الدعَواتُ، لأنَّ هَذَا الحُبَّ يَحمِي الدَّعوَةُ وَيَحفَظُهَا، وهُو دَلِيلٌ علَىٰ تَمكُّنِ رُوحِ (الأُخُوَّةِ) دَاخِلَ الصَّفِّ؛ وإِنَّما تَنجَحُ الدعواتُ بِأصحَابِها الذيـنَ يَتبنَّوْنَهَا وَيَحمِلُونَهَا، ومما ينسب إلىٰ الإمَامُ البنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ: قولـه: إننَا أَصحَابُ دَعوةٍ هَادِيةٍ، الجَهرُ بِهَا وَدعوةُ النَاسِ إِلَيْهَا فريضَة عَلينَا، وَحِمَايتُها والـذَّوْدُ عَنهَا فَرِيضَةٌ عَلينَا كَذلِكَ.

ولقَدْ أَلَمَّتْ بِبعضِ الأُخْوةِ لحظةُ ضَعفٍ، وَهَتْ فِيهَا رابطةُ الأخوَّةِ، فاغتَفَرهَا إِخوَانُهم، والتَمسُوا لَهمُ الأعذارَ، ويَحضرُنِي فِي هذَا السيَاقِ المَوقفُ النَّبيلُ لِلأستَاذِ سَيدِ قُطْب رَحِمَهُ اللَّهُ، لقد كانَ أَوَّلَ مَنِ اعتُقِلَ جرَّاءَ اعترافِ بَعضِ الإخوَةِ عليهِ، ولكنَّه كَانَ آخِرَ مَن تكلَّمَ، وكَتبَ فِي اعترافاتِه: الآنَ أتكلمُ، لَا من أجل أنْ أُخفِّفَ عَلَىٰ نفسِي، ولكنْ مِن أجل أنْ أَتحمَّلَ المَسؤوليّةَ كاملةً عَنْ هَؤلاءِ الذينَ أَرَاهُمْ خَيرَ شَبابِ حَملَتْهَ هَذِهِ الأرضُ فِي هَذَا الجِيل، أمَّا قَبلَ هَذِهِ اللحظَةِ بَعدَ أَنْ أَدْلَىٰ كُلٌّ مِنهُم بِدَلْوِهِ، أَقولُ بِأَنَّنِي المَسؤُولُ عَنهُم «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ وَلَا يَحْقِرُهُ التَّقْوَىٰ هَاهُنَا وَيُشِيرُ إِلَىٰ صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، بِحَسْبِ امْرِئٍ مِن الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَىٰ الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ»[199].

وَلْيَعْلَمْ كُلُّ أخٍ أَنّ قِوامَ دَعوتِنَا أَمْرَانِ: بَذْلٌ وَحُبٌّ، فالبذلُ مِن أجل الفكرَةِ الّتِي تُبذَلُ مِن أَجْلِهَا التضحياتُ، والحُبُّ لِحمَايَةِ الحَركَةِ، وقَد كنتُ مِمَّنِ اعتُقِلَ مَعَ أ. سَيّد رَحِمَهُ اللَّهُ، وجَمعَنا قَفصُ اتِّهامٍ وَاحدٌ، وكانَ كُلَّ فَترةٍ يَنظُر إلينَا، ونَحْنُ جَالِسُونَ خَلفَه فِي زِنزانَةٍ جَمعَتْ أَربعينَ أَخًا، والأستاذُ سَيّد يَرمقُنا بنظرةٍ عَاطفةٍ حَانيةٍ؛ كَأنّه يريدُ أنْ يَقولَ لنَا عِندَمَا وَقَفَ يُدافِعُ عنَّا: أنتُمْ خَيرُ شَبابٍ حَملَتْهُ الأرضُ فِي هَذَا الجِيلِ. ولمَّا

(199) أخرجه البخاري (6064) مختصراً، ومسلم (2564) باختلاف يسير.

قَالُـوا لَـه: اعترفُـوا عَلَيْـكَ، أَجَابَهـم: إِنَّ مَـا يَحـدُثُ هُنَـا فَـوقَ طَاقـاتِ البشَـرِ، إِنَّهـم مَعـذورُونَ إِذِ اعترفُـوا عَلـيَّ، وأَنَـا مُسـامِحُ الجَميـعِ.

لقَـدْ مَنحَنَـا الرجـلُ حُبَّـه واحترامَـهُ وعَطْفَـه، رُغـمَ مَـا ارتكبنَـاهُ في حقِّـه مِـن خَطـأٍ وحُمْـقٍ، ورَأَيْـنَا هـذَا الحُـبَّ العَاطِفَ فِـي عَينيـهِ، وَنظَراتِـهِ الحَانيَـةِ الـوَدُودِ. بَـل كانَ يقـولُ: لَـن أُفـرِّطَ فِيكُـم وَلَا فِيمَـا تُمثِّلونَـه، لَـن أفـرطَ في الفِكـرَةِ وَلَا فِيكُـم. وسَـوفَ أستشـهدُ وَأُوثِـرُكُم بحَيـاةٍ طَويلـةٍ، وَمِـنْ ثَـمَّ عِشْـنَا ومَـا زِلنَـا نَعيـشُ وَهُـوَ مُتألِّـقٌ فِـي قُلوبِنَـا، وإِنْ كَانَ قَـد مَضَـىٰ شـهيدًا إِلَـىٰ رَبِّـهِ.

وَعِندمَـا بَايعْنَـا الشـهيدَ عَبـدَ الفتـاح إسـمَاعِيل عَلَـىٰ نُصـرَةِ الإسـلام عَـامَ (1964م)، بَايَعَنَـا هُـوَ بَيعَـةً غَريبـةً، لَقَـدَ عَاهدَنـاهُ عَلَـىٰ نُصـرَةِ الإِسْـلام، فَقـالَ أَمَّـا أنتُـم فَقـدْ أَديتُـم مَـا عَليْكُـم، وَأَمَّـا أَنَـا فَأُعَاهِدُكُـم أَنْ لَا أُدلَّ عَليكُـم، سَـوفَ أَحميكُـم لآخِـرِ قَطـرةٍ فِـي دِمَائـي، وَقَـدْ رَأينَـاهُ فِـي السِّـجنِ الحَربـيِّ، وَلَـم يَـدُلَّ عَلينَـا وَهُـوَ يَـرَانَا أَمَامَـه، وَقَـد أَحضَـرُوهُ بَينَنَـا وَجَمعُـوا حَولَـه كُلَّ أفـرَادِ الأُسَـرِ الّتِي كَانَ مَسـؤُولًا عَنهَـا، كُنّـا أكثـرَ مِـن ثلاثيـنَ أخًـا، ثُـم أَخَـذُوا يُهينُونَـهُ ويَسـخرونَ مِنـهُ أَمَامنَـا، وَهُـوَ يَصـرخُ فِـي وُجوهِهـم مُتمثِّـلًا قَـولَ الحَـقِّ تبـارك وتعالَـىٰ: ﴿إِنْ تَسْـخَرُوا مِنَّـا فَإِنَّـا نَسْـخَرُ مِنْكُـمْ كَمَـا تَسْـخَرُونَ (38) فَسَـوْفَ تَعْلَمُـونَ مَـنْ يَأْتِيـهِ عَـذَابٌ يُخْزِيـهِ وَيَحِـلُّ عَلَيـهِ عَـذَابٌ مُقِيـمٌ(39)﴾ [هـود].

كَمـا اعترَفْنـا عَلـىٰ الشـهيدِ إِسْـمَاعيل الفيُّومِـي رَحِمَـهُ اللهُ، وتقَبّلـه فِـي الشـهدَاءِ، لَقِـيَ ربَّـهُ دُونَ أَنْ يَذكُـرَ اسـمَ واحـدٍ مِنَّـا، وقـد كَان فِـي استَطاعةِ هذَا الشَّـهيدِ رَحِمَهُ اللهُ أَنْ يَقتُـلَ جَمـالَ عَبـدِ النَّاصـرِ؛ إِذْ كَانَ حَارسَـهُ الخَـاصَّ يَدخُـلُ معَـه غرفـةَ نَومـهِ بِالسِّـلَاحِ مُعبَّـأً بِالذخِيـرَةِ، وَلَـو فعَلَهـا لقتَلُونَـا جَمِيعًـا فِـي السِّـجْنِ الحَربـيِّ.

وَاعْتَرفْنَـا عَلَـىٰ الشَّـهِيدِ مُحمَّـد عَـوّاد كَذلِـكَ، وَلكنَّـه تحمَّـلَ العـذابَ

الشَّـديدَ، دُونَ أنْ يَذكُـر اسْـمَ وَاحـدٍ مِنَّا، وَأَذكـرُ أنَّنـا زُرْنَـا أخَانَـا الشَّـهيدَ مُحمَّـد عَـوّاد هَـذَا، وَكَانَ أَيضًـا مِـنَ الأُسَـرِ الّتِـي كانَ الشـهيدُ عَبـدُ الفتَّـاح إِسـماعِيلَ مَسـؤُولًا عَنهَـا، وَقَـد ذَهبنَـا يَومًـا فِـي رِحْلـةٍ كَشـفِيَةٍ مِـنَ القَاهِـرَةِ إِلَـىٰ قَريتِـهِ الّتِي كَانَـتْ تَبعُـدُ عَـنِ القَاهِـرَةِ (45) كِيلُـو مِتْـرًا، وَاستضَافَنَا فِـي بَيتِـه، وَكَانَ لَا يَعرِفُنَـا، ثُـمّ طلـبَ مِنَّـا الشَّـهيدُ عَبـدُ الفَتـاح إِسـمَاعِيل أَنْ نَتعـرَّفَ عَليـهِ، فلمّـا أَحسَّ بِتَردُّدِنَـا وَخَوْفِنَـا، قَـالَ: أَتَخافُـونَ؟ أَنَـا لَـن أَدُلَّ عَليكُـم. وَبِالفعـلِ قُبِـضَ عَلينَـا جَميعًـا فِـي وَقْـتٍ وَاحـدٍ فِـي يـوم (19) أَغْسُـطُس سَـنةَ (1965م)، وأَحضَـرُوهُ أَمامَنَـا وَسَـأَلُونَا: هَـلْ تَعرفُونَـه؟ وَمِـنْ شِـدَّةِ التعْذيـبِ قُلنَـا: نَعَـمْ نَعرِفُـه. هَـلْ ذَهبتُـمْ إِلَـىٰ بيتِهِ؟ قُلنَـا: نَعَـمْ. فَيسـأَلُونهُ: هَـلْ تَعرِفُهُـمْ؟ فَيقُـولُ: لَا أَعرِفُهُـمْ. فَيسُـبُّونَه وَيقولُـونَ لَـه: أَلَـمْ تَسـمَعْهُمْ؟ فَيقـولُ: انظُـروا مَـاذا فَعلتُـم بِهِـمْ حَتَّـىٰ يَكذِبُـوا عَلـيَّ هَـذِهِ الكِذْبَـةَ، وَمَـا زَالُـوا يُعذِّبُونَـهُ، حَتَّـىٰ سَـقَطَ بَيـنَ أَيدينَـا شَـهيدًا فِـي تِلـكَ الليلَـةِ، تَقبّلَـه اللهُ فِـي الشُّـهدَاءِ.

تِلـكَ مَعالِـمُ الأُخـوَّةِ الّتِـي أَحسَّـهَا هَـؤلَاءِ الرجَـالِ، وَكَانَ استِشْـهَادُ هَـؤلاءِ الأَبطَـالِ، هُـوَ نُقطـةَ الانطـلَاقِ الحَقيقيـةِ لِهَـذِهِ الحَركَـةِ، **فَـإِنَّ الذِيـنَ يَموتُـونَ مِـن أَجْـلِ حِمَايَـةِ الآخَريـنَ يَعتبِرُهُـمُ الجَميـعُ شُـهدَاءَ بِحَـقٍّ.**

رُكنُ الثِّقةِ

الـثِّـقَةُ تَاجُ الأَرْكَانِ وَخِـتَامُهَا

أَمَّـا آخـرُ ركـنٍ فِـي أركَانِ هَـذِهِ البيعَـةِ، فهُوَ رُكـنُ «**الثِّـقَةِ**»، وهوَ مِـنَ الأَرْكَانِ التِي تُوثِّـقُ رَابِطَـةَ الصَّـفِّ، فَإِذَّا ازدادَتِ الثقـةُ بيـنَ أبنـاءِ الصَّفِّ، قَوِيَ الشـعورُ بالاطمئنَـانِ، وهَـذَا مَـا عبَّـرَ عَنـهُ الإمـامُ البنّـا رَحِمَهُ اللَّهُ حيـنَ قـالَ: «**وَأُرِيـدُ بِالثقَـةِ: اطْمئنَـانَ الجُنـدِيِّ إِلَـىٰ القَائـدِ فِـي كفَاءتِـهِ وإِخْلاصِـهِ اطْمِئْنانًـا عَميقًـا يُنتِـجُ الحُـبَّ والتقْدِيـرَ والاحتـرَامَ وَالطَّاعـةَ**»[200].

وَالثقَـة شُـعورٌ ولَيـسَ أَمْـرًا، شُـعُورٌ يتراكَـمُ بِالصُّحبَـةِ وَالمُعايشَـةِ، حَيـثُ يُعايـشُ الأخُ إِخْوَانَـه فِي كثيرٍ مِـنَ لقـاءَاتِ الدعْـوَةِ، بَـلْ يُعايِشُـهم فِـي المَـأكل وَالمَشـرَبِ وَالعسـرِ وَاليُسـرِ، وَالفَـرحِ وَالحُـزْنِ وَالبأسَـاءِ وَالضَّـراءِ، وَالمَنْشَـطِ وَالمَكـرَهِ، حتـىٰ إِذَا ابتُلُـوا بِالاعتِقَـالِ، كَانَ السِّـجْنِ اخْتبَـارًا لِعاطفَـةِ الأُخـوَّة وَقْتَ المِحنَـةِ، وَلَكَـمْ ضَـربَ الإِخـوانُ فِـي ذَلِـكَ أَرْوعَ الأَمثِلَـةِ، وهُـمْ خَلْـفَ جـدرانِ السُّـجُونِ، وكانـتْ لَهـم قِصـصٌ وَمَوَاقِـفُ مِـنَ المَحبَّـةِ وَالإِيثَـارِ وَالفِـدَاءِ، تَصلُـحُ لِتأليـفِ كُتـبٍ مُسـتقِلَّةٍ، وَفِـي مُذكِّـرَاتِ بَعضِهِـمْ مَـا يُـؤَكِّدُ ذَلِـكَ.

وَلَا رَيْـبَ أَنَّ مِثـلَ هَـذِهِ المُعايشَـةِ كَفيلَـةٌ بِـأَنْ تَبنِـي ثِقَـةً بَيـنَ القُلـوبِ تَعصِمُهَـا مِـنْ سُـوءِ الظَّـنِّ؛ ذَلِـكَ أَنَّ سُـوءَ الظَّـنِّ أَولُ مَداخِـلِ الشيْطَانِ لِإِفْسَـادِ ذاتِ البَيْـنِ، وتوهيـنِ رَابطَـةِ الأخـوَّةِ، وزَعزَعَـةِ الثَّـقَةِ.

(200) حسن البنا: مجموعة *رسائل الإمام البنا*، [رسالة التعاليم]، ص 277.

تأملُـوا حَديـثَ رَسُـولِ الله ﷺ وهـوَ يُحذِّرُنَـا مِـنْ سُـوءِ الظَّـنِّ ويَجعَلُـه مَدْرَجَـةً لإضعَـافِ رَابطـةِ الأخـوةِ، فعـن أبـي هريـرةَ أنّ رسـولَ اللهِ ﷺ قـالَ: «إيَّاكُـم والظَّـنَّ؛ فـإنَّ الظَّـنَّ أكـذَبُ الحَديـثِ، ولا تَحَسَّسُـوا، وَلَا تَجَسَّسُـوا، وَلَا تَنافَسُـوا، ولا تَحَاسَـدُوا، وَلَا تَباغَضُـوا، وَلَا تَدَابَـرُوا، وَكُونُـوا عِبـادَ اللهِ إِخْوَانًـا»[201].

ولقَـد كَانَ الإمـام البنـا رَحِمَهُ اللَّهُ نمُوذجًـا لِلثقَـةِ التِـي أُسِّسَـتْ عَلَـىٰ التقْـوَىٰ والمَحبَّـةِ؛ إِذْ كانَ رَحِمَـهُ اللهُ يُكِـنُّ لإخْوانِـهِ عَاطفـةً جيّاشـةً، ومَـودةً صادقـةً، كُنا نَلحظُهُمَا فِي كلمَاتِـهِ وَأفعَالِـه؛ أمَّا كَلمَاتُـه فتجلَّتْ فِي تعبيرِهِ عَـن شـوقِه إِلَـىٰ لِقَـاءِ إخْوانِـه، فَعندَمَا نَلتقِي بِـهِ نَـرىٰ فِي عينيهِ اللهفَةَ عِندَ اللقَاءِ، فنسألُـهُ عَـن ذَلِـكَ فيقُـولُ: لأنَّ مـن طبيعَـةِ دَعوتِنَا التَّجمُّـعَ، فلنَحْـرِصْ عَلَـىٰ اللقَـاءِ، وَعَلـىٰ التشـوُّقِ لِلقـاءِ، وكُنَّـا نَـرَىٰ فِي عَينيهِ أيضًـا اللوعَـةَ عِندَ فِراقنـا، حَتَّـىٰ عِندَمـا كان يفَارقُنـا تدمَـعُ عَينـاهُ، وَكنَّـا نَسـألُه عـن ذَلِـكَ فيقـولُ: وتُسَـاوِرُنِي الظنـونُ وَالحـرصُ يولِّـدُ الشَّـكَّ وأنتُـم رَأسُ المـالِ، وَهُـوَ قَليـلٌ أَسـألُ اللهَ ألا يُرِيَنِـي الفَجيعَـةَ فِيكُـم.

لَقَـدْ بَـنَىٰ الإِمَـامُ البنَّـا مُؤسِّـسُ الدعْـوَةِ، بينَـه وَبيـنَ إِخْوانِـهِ ثِقَـةً أَثْبَـتَ مِـنَ الشَّـمِّ الروَاسِـي، فَلَيـسَ يَعرُوهَـا شَـكٌّ، أو تُـزعْزِعُها رِيبـةٌ؛ لأنَّ البنَّـا رَحِمَهُ اللَّهُ أيقـنَ أنَّ الهِدَايـاتِ الكُـبرَىٰ تحتـاجُ إِلَـىٰ شَـخصِيّاتٍ كُـبرَىٰ، تأخـذُ بيـدِ الجُمـوعِ الهـادرةِ، وَتتعاهَدُهَـا بِالنصْـحِ وَالتوْجِيـهِ، وَقَـدْ نَـدَبَ الرجُلُ نَـفْسَهُ لِهـذَا الأَمْرِ الجَلـلِ، فَضحَّـىٰ - كَمـا أَشَـرنَا مِـن قَبـلُ - ببعثَـةٍ دراسـيةٍ كَانَـتْ مِـن حَقِّـه؛ إِذْ كَانَ تَرتيبُـه الأَوَّلَ عَلَـىٰ زُملائِـهِ فِـي دَارِ العُلـومِ، وتَخلَّـىٰ عـن وظيفـةٍ كانَ يَرتـزِقُ مِنهَـا، وَرَضِـيَ بِـرَاتِبٍ تَقاعُـديٍّ ضَئيـلٍ، وَانتقَـصَ مِـن مُتعـةِ عَيشِـه؛ حَتَّـىٰ يَظفُـرَ إِخْوَانُـهُ بجُهـدِهِ كُلِّـه غَيـرَ مَنقُـوصٍ، وَلَا مَظنُـونٍ فَارتَـقَىٰ فَـوقَ

(201) أخرجه مسلم في صحيحه، رقم (2563)، وأخرجه البخاري (5143) باختلاف يسير.

مَواطنِ الشُّبهَاتِ وَالظُّنونِ؛ وَلأَنَّـهُ كَانَ يَـرَىٰ أنَّ تَواجُدَه الشخصيَّ مِنْ أَجل أَنْ يُعلِّمَهُم ويُرشِدَهم، ومِنْ أَجْلِ أَنْ يتعَهَّدَهُم وَيَرعَاهُم، ثُمَّ مِن أَجْلِ أنْ يُنظِّمَهُم وَيُراقِبَهم؛ هُوَ أَمْرٌ ضَرورِيٌّ للهِدايَاتِ الكُبْرَىٰ، أو الغَايةِ الكُبرَىٰ التِي أَمَّـهَا.

كيف يَبني القَائِدُ الثقةَ في نُفوسِ إخوانِه؟

لَا تَجِدُ أخًا عَاصرَ الإمَامَ البنَّا وَتَعامَلَ مَعهُ عَن قُربٍ، وَلَـمْ يَترُكْ فِيهِ أَثَـرًا، ولَقَدْ حَرصَ كَثِيرٌ مِنَ الإخوَانِ الذِينَ عَاصرُوا علَىٰ أنْ يذكُروا بَعضَ مَواقِفِهِمْ مَعَه، وكُلُّ هَـذِهِ المَواقفِ تَشهَدُ بِأنَّ الرجُلَ كَانَ قُدوَةً لإِخْوَانِهِ فِي أَقوَالِهِ وَأَفعَالِهِ، وَلَيسَتْ كَلِمَاتُهُم فِي هَـذَا السِّيَاقِ إلَّا شَهَادَةَ حَقٍّ، وَدلِيلَ صِدْقٍ عَلَىٰ أنَّ الإمامَ البَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ قَد بَـنَىٰ الثقَةَ فِي نفُوسِ إِخْوَانِـهِ وَمَا طَلَبَهَا، فَرفعُوهُ فَوقَ الرِّيَبِ وَالظُّنُونِ، وَمَا طَلَبَ إلَيْهِم - بَعْدَ أنْ وَثقُوا بِـهِ - أَمْـرًا فتأَخَّـرُوا فِي تَنفيذِهِ، لأَنَّهُم خَبرُوهُ فِي كُلِّ أَحْوالِـهِ، وَعَاملُوهُ فِي المَنشَطِ وَالمَكـرَهِ والعُسْـرِ وَاليُسْـرِ، فَوجـدُوهُ نَموذَجًا لِلقائِـدِ الجَديـرِ بِـأَنْ يُـتَّبَعَ وَيُحتَـذَىٰ، وَمَـا ذَلِـكَ بِغَريـبٍ عَلَىٰ إِمَـامٍ عَـرفَ قَـدْرَ القَائِـدِ وَدَوْرَهُ فِـي بِنَـاءِ الثقَـةِ وتَأسِيسِـهَا فِـي نفُـوسِ أَتبَاعِـهِ وَمُرِيدِيـهِ، كَمَـا عَـرَفَ الإمَـامُ البنَّـا رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّ الخُططَ مَهمَـا كَانَـتْ مُحكمَـةً، فَـلَا بُـدَّ لَهَـا مِـنْ مُنفِّذِيـنَ، وَعِنـدَ التنفِيـذِ إِذَا كَثُرتِ الآرَاءُ وَالاجتِهَـادَاتُ فَسَـدَ التدْبيرُ، فَـلا بُـدَّ مِـن جِهـةٍ مَعروفَـةِ الصِّفَـةِ يَـنقَطِعُ بِهَـا الخِـلَافُ وَهِيَ القيـادَةُ، وَلِذلِكَ قَالَ الإمَامُ البنَّا: «والقَائِـدُ جُزْءٌ مِنَ الدَّعـوَةِ وَلَا دَعـوةَ بِغَيرِ قِيَـادَةٍ، وَعَلَـىٰ قَـدْرِ الثقَةِ المُتبَادَلَـةِ بَينَ القِائِـدِ والجنود تَكُـونُ قُـوَّةُ نِظَـامِ الجَمَاعَـةِ، وَإِحْـكَامُ خُطُطِهَـا، وَنَجاحُهَـا فِـي الوُصُـولِ إِلَـىٰ غَايتِهَـا، وَتَغلُّبُهَـا عَلَـىٰ مَـا يَعترِضُهَـا مِـنْ عَقبـاتٍ وَصِعـابٍ ﴿**فَأَوْلَىٰ لَهُـمْ طَاعَـةٌ وَقَـوْلٌ مَّعْـرُوفٌ**﴾ [محمـد : 20، 21]»[202].

(202) حسن البنا: مجموعة *رسائل الإمام البنا*، [رسالة التعاليم]، ص 277.

وَلِهـذَا حَـرصَ الإمَـامُ البنَّـا عَلَـىٰ أَنْ يَكُـونَ أَوَّلَ قُائِـدٍ يُرسِـخُ مَعْنَىٰ بِسُـلُوكِهِ وَأفعَالِـهِ، وَمِـنْ أَجـلِ هَـذَا دفـعَ رَحِمَهُ اللَّهُ مِـن حَياتِـهِ ورَاحتِـهِ وَاسـتقْرارِهِ الأُسْـرِيِّ ثَمنًـا بَاهِظًـا مِـنْ أَجـلِ أَنْ تكـونَ شَـخصِيّتُه أَوَّلَ قِيَـادَةٍ تَـزْرَعُ الثقَـةُ في النفُـوسِ، وَلِكَـيْ يَتَعَلَّـمَ تَلَامِذَتُـهُ كَذَلِـكَ كَيْـفَ يَكُونُـونَ مِثْلَـهُ شَـخْصِيَّاتٍ جَدِيـرَةً بِالثِّقَـةِ، وَكَيْـفَ يَبْنُـونَ هَيَـاكِلَ تَحْظَـىٰ بِالثِّقَـةِ وَالِاحْتِـرَام . وَتِلْـكَ المَعاييـرَ الّتِـي يُـوزَنُ بِهَـا الأَشْـخاصُ فَيستَحِقُّونَ تِلـكَ الصفَـةَ وَيأْخذُونَهـا بِحقِّهَـا، وَفِـي أَسَـالِيبَ وَطُـرقٍ يَصـدُرُ عَنهَـا الحُكْـمُ فَيطمَئِـنُّ الجَميـعِ إِلَـىٰ صِحَّتِـهِ، وَهِـيَ الشُّـورَىٰ التِي تُوحِي بِالثقَةِ كَذلِكَ.

يَقُـولُ الأستاذُ أَحمَـدُ عَـادِل كَمَـال فِـي كِتابـهِ (النُّقـط فـوقَ الحـروفِ.. الإخـوان المسـلمون والنظـامُ الخـاصُ): «مَـا كُنْـتَ تُحِبُّ أَنْ تَـراهُ بَيننَا يَومًا إِلَّا رَأيتَـهُ .. يُصلِّـىٰ بِنَـا الجُمعَ، يَخطُبُ لَنـا العِيدينِ، يَـؤُمنا فِي صلاةِ التّراويـحِ خـلالَ شَـهرِ رَمضـانَ، يَعقِـدُ بَينَ الإِخـوَانِ عِنْـدَ زَواجِهـم، وَيستقبِلُ مَواليدَهم، وَيُسـمِّيهِم، ويَدعُـو لَهُـم، يَـتفقَّد الغائـبَ، وَيعـودُ المريـضَ، ويتَعهَّـدُ المُنقطِـعَ ويَمشِـىٰ فِـي جنائزِنَـا وَيحضُـرُ كَتائبَنـا، ويَبِيـتُ فِـي مُعسْـكَراتِنَا، وَلَا يتخَلَّـفُ عَـنِ اجتِمَاعَاتِنَـا إِلَّا لعُـذرٍ قَاهـرٍ؛ إِذَا كانَ فِي خَـارجِ البلادِ فَقـطْ. وَكَانَ يُـؤْثرنَا بمَودتِـه وَحُبِّـه دائمًـا، فَكُنَّـا نُبادِلُـه الحُـبَّ مِـنْ أَعمَـاقِ قُلوبِنَـا». وَلذلِـكَ فَـرضَ الرجُـلُ حُبَّـه واحترَامَـه عَلَـىٰ الجَميـعِ. ومِـن ثَـمَّ حَـازَ الثقـةَ مِنْ جَمِيـعِ إِخْوَانِـهِ.

لَقـدْ دَفَـعَ الإِمَـامُ البنَّـا رَحِمَهُ اللَّهُ هـذَا الثَّمـنَ البَاهِـظَ مِـنَ حَيَاتِـه لِتَرسِـيخِ مَعنَىٰ (الثقَـةِ) فِـي نفُـوسِ إِخوَانِـهِ، ولِذَلِـكَ عِندمَـا طَلَـبَ مِنهُـم: أَنْ تَفـترِضَ فِـي نَـفْسِكَ الخَطَـأَ وَفِـي القِيَـادَةِ الصَّـوَابَ، قَالُـوا: صَدَقْـتَ.

ولَمَّـا طلـبَ مِنهُـم أَنْ تَعتبِرَ الأوامِرَ الصـادرَةَ إِلَيْكَ مِـنَ القِيـادَةِ - فِـي غَيـرِ مَعصِيَـةٍ قَطْعًـا - لَا مَجـالَ فِيهَـا للتحْويـرِ وَلَا للجَـدَلِ وَلا الانتِقَـاصِ، قالُـوا: صَدَقْـتَ.

وَلَمَّا طلبَ مِنهم أَنْ يَضعَ كُلٌّ مِنْهُم ظُروفَ حياته تَحتَ تَصرُّفِ قِيادَتِهِ، قَالُوا: صَدَقْتَ.

وَلَمَّا طَلَبَ مِنهُم أَنْ تُحِيطَ القِيادَةَ عِلْمًا بكلِّ ظُروفِكَ، وَأَنْ لَا تُقدِمَ عَلَىٰ عَمَلٍ يُؤثِّرُ فِيهَا تَأثِيرًا جوهرِيًّا إِلَّا بِإِذْنٍ، قَالُوا: صَدَقْتَ.

لَمْ يَطلُبِ الإمامُ البنَّا الثقةَ مِنْ إِخوَانِهِ طَلَبًا مُباشِرًا؛ فلَمْ يَقُلْ لَهُمْ: ثِقُوا دُونَ أَنْ تَختَبِرُوا كَفَاءَتِي وَحِكمَتِي وَإِخْلاصِي وَجَدارَتِي، لَمْ يَفعَلِ الإمامُ البنَّا ذَلِكَ لأنَّه يَعلَمُ أنَّ (الثقةَ) شُعُورٌ يُغرَسُ أَوْ يُبنَىٰ فِي النفُوسِ، وَلَا يُطلَبُ مُباشَرَةً، وَلكِنَّه يُولَدُ فِي النفْسِ بِكثْرَةِ اختِلَاطِ الأَخِ بِقَائِدِهِ وَرُؤيتِهِ لَهُ فِي مَواقِفِ الحَيَاةِ المُختلِفَةِ، فيتوَلَّدُ لَديهِ شُعورٌ بِأَنَّ هَذَا القَائِدَ جَديرٌ بِأَنْ يُتَّبَعَ، وَجَدِيرٌ بِأَنْ يُوثَقَ فِي قَرارَاتِهِ وَرُؤيَتِهِ. وَلَعلَّكَ تَلحَظُ أنَّ الإِمَامَ البنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ استَخدَمَ كَلمةً دَقيقَةً جِدًا فِي تَعرِيفِهِ رُكْنَ (الثقَةِ)، وَهِيَ (الاطْمِئْنَانُ)؛ حَيْثُ قَالَ: «وَأُرِيدُ بِالثقَةِ: اطْمِئنَانَ الجُنديِّ إِلَىٰ القَائِدِ فِي كَفَاءَتِهِ وَإِخْلاصِهِ اطمِئْنَانًا عَمِيقًا يُنتِجُ الحُبَّ وَالتقْدِيرَ وَالاحْتِرَامَ وَالطَّاعَةَ»[203]، ثُم يَستشْهِدُ بقَولِهِ تَعالَىٰ: ﴿**فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**﴾ [النساء: 65].

وَالثِّقةُ فِي رُؤيَةِ الإِمَامِ البنَّا شُعُورٌ مُتبَادَلٌ، وَلَيسَ شُعُورًا أُحَادِيًّا مِنْ طَرفٍ وَاحِدٍ، وَلِهذَا جعَلَ القَائدَ بِمثَابةِ الوَالِدِ أَوِ الأُسْتَاذِ أَوِ الشَّيخِ لإِخْوَانِهِ، وَعَلَىٰ كُلِّ طَرفٍ أَنْ يُؤهِّلَ نَفسَهُ لِيكُونَ أَهْلًا لِهذَا الشُّعُورِ، وَمِنْ ثَمَّ فَإِذَا لَمْ يَشْعُرِ الأخُ بِأنَّ قَائدَهُ مِثلُ أَبيهِ أَو شَيخِهِ أَوْ أُستَاذِهِ، فَثمَةَ خَلَلٌ عَظِيمٌ، وَإِذَا لَمْ يَشْعُرِ القَائِدُ بِأنَّ إِخوَانَهُ مِثْلُ أَبنَائِهِ أَوْ تَلامِيذِهِ وَمُرِيدِيهِ، فَثمَّةَ خَلَلٌ عَظِيمٌ كَذلِكَ، يَقولُ الإِمَامُ البنَّا: «وَلِلقِيَادَةِ فِي دَعوَةِ الإِخْوَانِ

(203) حسن البنا: *مجموعة رسائل الإمام البنا*، [رسالة التعاليم]، ص 277.

حَقُّ الوَالِدِ بالرابطَةِ القَلبيَّةِ، وَالأُستَاذِ بالإفادَةِ العِلْميَّةِ، وَالشَّيخِ بالتَّربيَةِ الرُّوحيّةِ، وَالقَائدِ بحُكمِ السِّيَاسَةِ العَامَّةِ لِلدَّعْوَةِ، ودَعوَتُنا تَجمَعُ هَذِهِ المعانِي جَمِيعًا، وَالثِّقَةُ فِي القِيَادَةِ هِيَ كُلُّ شَيْءٍ فِي نَجَاحِ الدَّعَواتِ»[204].

وَأيُّ نِظامٍ يُحاولُ عملَ تَغييرٍ اجتِمَاعِيٍّ، لَا بُدَّ لَه مِن أُمورٍ ثَلاثَةٍ:

- نِظَامٍ يَحتَرِمُه الجَميعُ.
- جِهَةٍ مَعروفَةِ الصِّفَةِ يَرْفَعُ حُكْمُهَا الخِلافَ.
- بُرْهَانٍ (مَرجِعيّة) مِنْ شَرعٍ وعَقْلٍ، فَأَمَّا الشَّرْعُ فَهُوَ الضَّابطُ لَنَا جَميعًا، وَفِيهِ الرُّخْصَةُ والعَزيمَةُ (وَتَختَارُ بَينَهُما القِيَادَةُ)، وأمَّا العَقْلُ فَهُوَ العَقْلُ العَامُّ رَفيعُ الشَّأنِ، الذِي لَا يَخَافُ المُجتَمَعُ الإسلاميُّ مِنْ أَفكارِهِ الّتِي صَاغتْهَا الشَّريعَةُ بِمَا فِيهَا مِنْ نَقاءٍ وَطُهرٍ وَسَلامَةٍ وَصِحَّةٍ (الشُّورَىٰ). وَبِهذَا تَكُونُ الشخْصِيَّاتُ الّتِي سَوْفَ تُختَارُ قَد أَوْحَتْ لَنَا بالثقَةِ لِكَفاءَتِهَا وَإِخْلَاصِهَا وَجَدارَتِهَا وَحِكْمَتِهَا كَذلِكَ.

فَإِنْ أَردْتَ نَمُوذَجًا تَحقَّقَتْ فِيهِ قِيَمُ (الكَفَاءَةِ وَالإِخْلَاصِ وَالجَدارَةِ)، وَهِيَ القِيَمُ التِي تَبعَثُ عَلَىٰ الثقَةِ بِأَيِّ شَخْصٍ يَتمَتَّعُ بِهَا؛ فَإِنَّ شَخصِيَّةَ الإِمَامِ البنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ قَد جَمَعَتْ هَذِهِ القِيَمَ فَأَوْعَتْهَا، لَا نقُولُ ذَلِكَ تَعصُّبًا لَهُ بِوَصْفِهِ مُؤسِّسَ دَعْوَةِ (الإِخْوَانِ المُسلِمِينَ) التِي أَحْبَبنَاهَا وانتَمَيْنَا إِلَيْهَا، وَلَكِنَّنَا نَدَعُ شَهادَاتِ العُلمَاءِ وَالإِخْوَانِ الذِينَ عَاصرُوهُ تُحدِّثُنَا عَنْ هَذِهِ الشَّخْصِيّةِ الفَذّةِ التِي قَيضَهَا اللهُ تَعالَىٰ لِدِينِهِ وَدَعوتِهِ فِي عَصرِنَا الحَديثِ:

يقولُ الإخوةُ الذينَ عَايشُوا الإمامَ البنَّا وعَاصَروهُ: إِنَّه كَانَ يُلِمُّ بِالدُّنيَا عَلَىٰ هَوادَةٍ، وَهُوَ صاحِبُ المواهِبِ والمَدارِكِ، كَانَ لَا يجمعُ مِنهَا وَلا يَمنَعُ، وَلَا يَهتَمُّ لِشَيْءٍ مِنهَا إِلا بِمقْدَارٍ، ولا يُصِيبُ مِنْهَا إِلَّا لضرُورةٍ، يأكُلُ مَا حَضَرَ ويَلبَسُ مَا تَيَسّرَ، ويتخِذُ مِنَ السكَنِ مَا قَلَّ وكَفَىٰ، هَمُّه أَنْ يَرىٰ

(204) حسن البنا: *مجموعة رسائل الإمام البنا*، [رسالة التعاليم]، ص 278.

دعوتَه عَاليةً تَحْيَا بينَ الناسِ، وَأنْ يُعلِنَ إِلَيهِم مَا فِي صَدرِهِ مِنَ الأَسرَارِ.

يقولُ عنهُ الأستَاذُ فَريدُ عبدِ الخالقِ: «حضرتُ مَعَه يومًا مَكتبَ إِدَارِي الإسكندريّةِ، فَحانَ وَقْتُ الصلَاةِ، فَخلَعَ حِذَاءه وجَورَبَه مِنْ أَجْلِ أَنْ يَتوضَّأَ، فرأيتُ جَورَبَه مُهترئًا بهِ ثُقُوبٌ كَثِيرَة (وَهُوَ صَاحِبُ المَواهِبِ وَالمَدَارِكِ)، فَاستَحييتُ مِنْ نَفْسِي وَذَهبْتُ واشْتريتُ لَه جَوربًا جَديدًا وَوضَعتُه فِي مَكانِ القَدِيم، فلمَّا عَادَ مِن وُضُوئِهِ وَجَاءَ يَلبسُ جَوربَه وَوجدَهُ جَديدًا نظَرَ إِلَيَّ مِن بَينِ الحَاضِرِينَ، ولَا أَدْرِي كَيفَ عَرفَ أَنِّي مَنْ فَعلْتُ ذَلِكَ وقَالَ لِي بِعَينيهِ: «إِنَّنِي أَستطيعُ أَنْ أَعيشَ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، ولكنَّنِي رَاضٍ بِحَالِي.. عَلَىٰ العُمُومِ أَشْكُرُكَ».

سَألَه رُوبيرُ جَاكسُون: أينَ تَسكُن؟ فَابتَسمَ ابتِسَامةَ المُتواضِعِ الّذِي يَعرِفُ قَدْرَهُ وَقَالَ: فِي أَحشَاءِ القَاهرَةِ فِي حَيِّ الغُورِيَّةِ فِي حَارَةِ الرّومِ فِي سِكَّةِ الخَازِنِ فِي عَطْفَةِ سِنْجِر وَهُوَ مَكانٌ بَسيطٌ جِدًّا يَعيشُ فِيهِ بُسطَاءُ النَّاسِ.

يقولُ الأستَاذُ أَحمَدُ أَنَس الحَجَّاجِيّ: إِنَّ الإِمامَ البنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ كَانَ قَدْ كَلَّفَه برعَايةِ شُؤونِ أَولادِهِ، وذَلِكَ لِكثْرةِ غِيَابِهِ عَنِ المَنزِلِ، وَكَانَ المَصرُوفُ المَالِي فِي بَيتِ الإِمَامِ البنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ فِي يَدِ الأستَاذِ سَعدِ تَاجِ الدِّين، وذَلِكَ لأَنَّه كانَ يُرِيدُ أن يظلَّ فوقَ الظُّنونِ والشُبهَاتِ.

تقولُ السيدَةُ آمَالُ العَشْمَاوِيّ زَوجَة الأُستَاذِ مُنير الدَّلّة أحَد أَعضَاءِ مَكتَبِ الإِرْشَادِ: حَدَّثَنِي الأستاذُ البنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ يومًا وَسَألَ عَن الأستَاذِ مُنير، فَقُلْتُ: إِنَّهُ فِي المَحكمَةِ.

فقالَ: أَخبريهِ أَنِّي اتصلتُ بِهِ.
فقلْتُ: هَل تُرِيدُ شَيئًا فَضِيلَتك؟

فقـالَ: نَعَـمْ، كُنّـا نُريـدُ قَـدْرًا مِـنَ المَـالِ، وذَكـرَ المَبلـغَ الكَبيـرَ الّـذِي كَانَ يَطلبُـه لأمـورٍ مِـنْ مُقتضَيـاتِ الدَّعـوةِ.

تقـولُ: فَأَخَـذْتُ مَصُوغَاتِـي وَبِعْتُهـا، وبعـضَ المَـالِ مِـنَ البيـتِ، وعِندمَـا عَـادَ الأسـتاذُ مُنيـرُ وَضَعـتُ المـالَ فِـي يَديْـهِ، وَبَلَّغتُـه رِسـالةَ الإمـامِ البنَّـا رَحِمَهُ اللَّهُ فذهـبَ إِلَيْـهِ وأعطَـاهُ المَـالَ.

فالرجـلُ الّـذِي يأتِيـهِ المَـالُ بِهـذَا الشَّـكْلِ لَا بُـدَّ أنْ يَرتَفِـعَ فَـوقَ مَنـاطِ الظُّنـونِ، وَيَعـرفُ القَاصِـي وَالدَّانِـي نَفقَاتِـه، وَمَـا الّـذِي يَـدخُلُ بَيتَـه وَيخْـرُجُ مِنـهُ؛ لِذلِـكَ جَعـلَ نَفَقـاتِ بيتِـه فِـي يَـدِ الأسـتاذِ سَـعدِ تَـاجِ الديـنِ، ليتّقِـيَ مَواطِـنَ الشبهاتِ والظنُـونِ والرِّيَـبِ، حَتَّـىٰ لَا يَظُـنَّ ظَـانٌّ أنّـه حيـنَ نظَـرَ إِلَـىٰ هِدَايَـةِ النَّـاسِ نَظـرَ إِلَـىٰ مُتعَـةِ نَـفْسِهِ فكَانَـتْ مِـن جُملَـةِ آمَالِـهِ.

يقـولُ الأسـتَاذُ أَحمَـدُ البسّ عَـنِ الإِمَـامِ البنَّـا رَحِمَهُ اللَّهُ: «كَانَ يَنـزِلُ مِـنْ عَلَـىٰ سُـلَّمِ دَارِ المَركـزِ العَـامِّ الجَديـدِ للإِخـوانِ المُسـلمينَ، وأنَـا مُقبِـلٌ عليـهِ، وقَابلَنِـي عَلَـىٰ الدرجـةِ الأُولَـىٰ مِـن عَلَـىٰ الأرضِ، وكَان يَضـعُ يَـدَهُ فِـي جَيبِـه يَتحَسَّـسُ نُـقُودًا فَلَـمْ يَجِـدْ، فقـالَ لِـي: اصْعَـدْ وَارجِـعْ بِخَمسَـةِ قُـروشٍ مِـنَ الأخ (الطُّوبجـيِّ) مُراقـبِ الـدَّارِ فأخرجْـتُ خَمسـةَ القـروشِ مِـن جَيبِـي وَقَدمتُهـا لَـه فَلَـم يَقبَـلْ، وَقَـالَ: نَـفِّذْ مَـا أقُـولُ لأَنِّـي مُحتـاجٌ إِلَـىٰ مشـوَارٍ سَـرِيعٍ بِالـترَامِ، وَلَيـسَ مَعِـي نُـقُودٌ، فَعَلـتُ وَعَلِمْـتُ مِـنْ يَومِهَـا أنّـه لَيـسَ مَشـغُولًا بِالمَـالِ»[205].

ويؤكـدُ الأسـتاذُ مَحمُـودُ عَبـدِ الحَلِيـمِ هَـذَا المَعنَـىٰ حَيـثُ يقُـولُ: «وَلكـنَّ الأسـتَاذَ المُرشِـدَ كَانَ لَا يُعِيـرُ النواحِـيَ المَاديَّـةَ اهتِمَامًـا، فهـوَ يُـقدِّمُ كُلَّ مَـا يَملِـكُ وَيَعتقِـدُ بَعـدَ ذَلِـكَ أنَّ اللهَ لَـن يَخذُلَـه، وكانَ اللهُ سُـبحانَه دَائِمًـا يُحقِّـقُ

(205) أحمد البس: *الإخوانُ في رِيفِ مِصْرَ*، دار التوزيع والنشر، ص 71.

أَملَه، وَصَدَقَ اللهُ إِذْ يَقولُ فِي الحَديثِ القُدسِيِّ (أَنَا عِنْدَ حُسْنِ ظَنِّ عَبْدِي بِي)»[206].

وَلَيسَ المَقصودُ أَنْ يفعلَ الجَميعُ ذَلِكَ، فحملُ النفسِ علىٰ العَزائِمِ فِي كلِّ الأُمُورِ ليسَ هُوَ الأَصْلَ فِي المَعاشِ، وَلكنَّ الإِمَامَ البنَّا رَحِمَهُ اللهُ يُعلِّمُنَا أننَا إِذَا دُعِينَا إِلَىٰ وَاجبٍ لَا نَتأَخَّرُ عَنهُ مَهمَا كَانَتِ الأَعذَارُ.

وَحِينَ سَعَىٰ وزيرُ الداخليةِ فِي زمانِه مُرتضىٰ باشَا المَراغي، ليفسدَ ذَاتَ بَينِه وَإِخْوَانِهِ؛ بِأَنْ قال لَه: «أَصحَابُك لَا يفهمُونَ مَا تفهَمُ»، أفحمَه الإِمامُ البنَّا رَحِمَهُ اللهُ بِرَدِّه: «أَعلَمُ ذَلِكَ، وَأَنَا أُصحِّحُ لَهُم، وهُم يَستجِيبونَ لِي»، كأنهُ يقُولُ: ذَرُونِي وإخوانِي، وَلَا تتعَجَّلُوا نِهايَتِي.

وقَد شَهِدَ الأستاذُ أَبُو الحسَنِ الندوِيّ رَحِمَهُ اللهُ بأثرِ الإمامِ البنَّا رَحِمَهُ اللهُ فِي الجِيلِ الذِي عَاصرَهُ، فقَالَ بأَنَّ البنَّا وأمثالَه مِنَ المُصلحِينَ قَد ظَهرُوا فِي «شَعْبٍ أُصِيبَ بشَللِ الفِكرِ، وَخَوَاءِ الرُّوحِ، وخُمودِ العَاطفَةِ، وضَعْفِ الإِرَادَةِ، وخَورِ العَزيمَةِ، وَسُقوطِ الهِمّةِ، وَرخَاوَةِ الجِسْمِ وَرِقَّةِ العَيشِ، وَفسادِ الأخلاقِ، وَالإِخْلادِ إِلَىٰ الراحَةِ، وَالخضُوعِ لِلقُوَّةِ، واليَأْسِ مِنَ الإِصْلاحِ، وأَصبحَ الجِيلُ المُعاصِرُ كَأَنَّهُ طَبعةٌ واحدَةٌ مِن كِتابٍ وَاحِدٍ»[207].

وَمَن يَقرَأْ كلامَ الأستَاذِ الندوِيِّ السالفَ، يشعُر بأنَّ الإمامَ البنَّا وَاجهَ جِيلًا تُودِّعَ مِنهُ، لكنَّ الرجلَ قد استطاعَ بِعزيمَتِه وَهِمّتِه، أنْ يجعلَ مِنهُ جِيلًا يَحمِلُ مِشعلَ الهِدايةِ وَالعزَّةِ لكلِّ الأمّةِ، وَذلكَ مَا يؤكدُه الأستاذُ أَبُو الحسنِ الندويّ نفسهُ؛ إِذْ يقولُ عَنِ الإمامِ البنَّا كذلكَ: «وَقَد تَجلَّتْ عَبقريةُ

(206) محمود عبد الحليم: *الإخوانُ المسلمونَ: أحداثٌ صنعت التاريخ*، ط 5، دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع، الإسكندرية، 1414هـ - 1994م، ١/ 110.

(207) من مقدمة الأستاذ أبي الحسن الندوي لكتاب *مذكرات الدعوة والداعية*، ص 14.

الدَّاعِي، مَعَ كثرَةِ جَوانبِ هَذهِ العبقريةِ ومَجالاتِهَا، في ناحيتينِ خَاصتَينِ، لا يُشارِكُه فِيهَا إلا القَليلُ النَّادرُ مِنَ الدعَاةِ وَالمُربينَ وَالزعَماءِ وَالمُصلِحينَ: أَولُهمَا شغَفُه بدَعوتِه، واقتنَاعُه بها، وتَفانِيهِ فِيهَا وانقِطاعُه إِلَيهَا بجَميعِ مَواهبِه وطَاقاتِهِ وَرسَائلِه. وذلكَ هُوَ الشرْطُ الأَسَاسِيُّ، والسمَةُ الرئِيسةُ للدعَاةِ وَالقَادةِ الذينَ يُجرِي اللهُ عَلَىٰ أَيدِيهم الخَيرَ الكَثيرَ. وَالناحيةُ الثانيةُ تأثيرُهُ العميقُ في نفوسِ أصحابِهِ وتَلاميذِه، ونجَاحُه المدهِشُ في التربيةِ والإنتاجِ؛ فقد كَانَ مُنشِئَ جِيلٍ، ومُربِّيَ شَعبٍ، وصَاحِبَ مدرَسةٍ عِلميةٍ فِكريةٍ خُلقيةٍ»[208].

لقَد أخرجَ الإمامُ البنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ لأُمتِنَا جِيلًا فَرِيدًا، كَمَا قَالَ الأستاذُ أَبُو الحَسَنِ الندوِيّ بِأنَّ دَعوةَ الإخوَانِ «أَعادَتْ إِلَىٰ الجِيلِ الجَديدِ فِي العَالَمِ العَرَبِيِّ الثقَةَ بِصَلاحيَّةِ الإِسْلام وَخُلودِ رِسَالتِه، وَأَنشَأَتْ فِي نفُوسِهِ وَقُلوبِهِ إِيمَانًا جَدِيدًا، وَقَاوَمَتْ (مُركَّبَ النَّقْصِ) فِي نُفوسُهِمْ، وَالهزيمَةَ الدّاخليةَ التِي لَا هزيمَةَ أَشْنَعُ مِنْهَا وَأكبَرُ خَطرًا، والمُيوعةَ وضَعفَ النفُوسِ، والانسياقَ تَحتَ رِبقَةِ الشهَواتِ وَالطغْيانِ، وَخَلقَتْ – كَمَا يقُولُ شَاعرُ الإِسلام الدكتُورُ مُحمَّدُ إِقبَال: (فِي جِسْمِ الحَمَامِ الرَّخْوِ الرَّقيقِ قَلْبَ الصُّقُورِ وَالأُسُودِ)، حتَّىٰ استطاعَ هَذَا الجِيلُ أَنْ يَصنَعَ عجَائبَ فِي الشجَاعةِ وَالبسَالَةِ وَالاستِقَامَةِ وَالثَّباتِ»[209]، فَمِنْهُمْ مَن وَاجَهَ المَوْتَ لاَ يحفلُ بمقَاومةِ ذِي بَأسٍ أو سُلطانٍ، وتلكَ مُقوماتُ التربيةِ الصَّحيحَةِ، والتكوِينِ الدقيقِ الفعالِ، وَهَذَا فِي حدِّ ذاتِه نَجاحٌ فِي أسلُوبِهِ فِي التغيِيرِ والإِصْلاحِ؛ لأنه وَاجَهَ مُجتمعًا فَقَدَ قُوةَ الإِيمانِ وقُوةَ الجَماعةِ، ثُمَّ أَقبلَ عَليهِ الإِمَامُ البنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ يُربّيهِ، ويُعيدُ تَكوينَه، عَلَىٰ مِنهَاجِ النُّبوةِ، وَهُوَ مُؤمنٌ بأنَّ هَذَا التكْوِينَ الجَديدَ بِدايةٌ لِمَسيرةٍ تَنتهِي بِأُستَاذيّةِ العَالَم.

(208) السابق، ص 17.

(209) حسن البنا: *مذكرات الدعوة والداعية*، ص 19.

إِعَادَةُ الـثِّـقَةِ فِي أُصُولِ دَعوَتِنَا وَمَناهِجِهَا

لَا شـكَّ أنَّ الدعـوةَ تَمـرُّ الآنَ بِظُـروفٍ صَعبـةٍ وَمُجهِـدَةٍ، وهَـذهِ الظُّـروفُ تَقتَضِـي مِنّـا أَمْرَيـنِ، أَوْ تَستَوجِبُ أَنْ نَسْـعَىٰ فِـي مَسَـارَيْنِ:

أَوَّلُهُمَـا- إِعَـادَةُ الثقَـةِ فِـي أُصُـولِ دَعوَتِنَـا وَمَناهِجِهَـا وَأركَانِهَـا؛ لِكَـيْ تَنتَشِـرَ الدعْـوَةُ بَيـنَ أَبنَـاءِ أُمتِنَـا.

ثَـانِيهِمَا- إِعَـادَةُ الثقَـةِ فِـي الفِكـرةِ وَسَـلامَتِهَا، فِـي المِنهَـاجِ وَصَلاحِيَّتِـهِ، فِـي القِيَـادَةِ وَصَوابِهَـا وَرُشْـدِهَا، إِعـادَةُ الثقَـةِ فِـي الصَّـفِّ وَنَقائِـهِ وَطَهارَتِـهِ، إِعَـادَةُ الثقَـةِ فِـي أَنْـفُسِنَا وقُدراتِنَـا، إِعَـادَةُ الثقَـةِ فِـي الجَـزاءِ كَمَـا يقُـولُ الإمـامُ البنَّـا رَحِمَهُ اللَّهُ، فِـي عَدالَتِـهِ وجَزالَتِـهِ.

كَثِيـرًا مَـا كُنَّـا نسـمعُ مِنَ الأستاذِ سَيدِ قُطبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ أثنـاءَ مِحنـةِ (٦٥)، عِندَمَا سَأَلَـهُ بَعضُنـا: كيـفَ تَـرىٰ الغَـدَ؟ فَكانَ يقـولُ: لَـو شَـاءَ رَبُّـكَ مَـا فَعلُـوهُ فَذرْهُـم وَمَـا يَفتـرُونَ، وإِذَا سُـئِلَ عَـنِ القصَـاصِ مِـنْ هَـؤلاءِ الذِينَ عَتَـوْا وَظَلَمُـوا، قَالَ: إنّ الآخـرةَ وحدَهَـا مَوعِـدٌ لِلفصْـلِ وَالجـزَاءِ؛ ثِقـةً مِنـهُ فِيمَـا عِنـدَ اللهِ مِـنَ الرضَـا وَالمتَاعِ.

إِعَادةُ الثقَةِ فِي الفِكرَةِ وسَلامتِهَا

لَا نَجَـاحَ لأَيِّ دَعـوةٍ أَوْ حَركَـةٍ تَبتَغِـي العـزّةَ لِلإسـلامِ وَالمُسـلمينَ؛ دُونَ تَوفُّـرِ عُنصُرَيـنِ مُهمَّيـنِ: قُـدرَةُ المُعلِّـمِ وَإِخْـلاصُ التَّلميـذِ،

فأَمّـا **قُـدرَةُ المُعلِّـمِ**، فتكُـونُ فِـي فَهمِـهِ الوَاسِـعِ الفَسـيحِ لِلإسْـلامِ، وَقَـد تَجَلَّـتْ قُـدرَةُ الإمَـامِ البَنَّـا رَحِمَهُ اللَّهُ فِـي عَرضِـهِ اللائـقِ الكَريـمِ، وَتَطبيقِـهِ العَـادلِ الحَكيـمِ، وَمُمارَسَـتِهِ قِيـادَةَ النفُـوسِ وَالأخطَـارِ، وَقَـد أَشَـرْتُ مِـن قَبـلُ إِلَـىٰ أَنَّ هَـذِهِ الفِكـرَةَ الّتِي طَرحَهَـا الإمـامُ البنَّـا رَحِمَهُ اللَّهُ كَلفَتْـهُ رَاحتَـهُ وَحَيَاتَـهُ؛ لأَنَّـه كَمَـا يقولُـونُ طَـرح فِكْـرًا نَضِيجًـا يَصعُـبُ القضـاءُ عَلَيـهِ، كَمَـا يُـقِرُّ بذَلِـكَ بعـضُ

أَبنَـاءِ الغَـربِ، مثـلَ رُوبيـر جَاكسُـون وَتَقاريـرِ السِّـفَارةِ البريطَانيـةِ، وانظـرُوا مَـا يقولُـهُ رُوبيـر جَاكسُـون عَـنِ الإمَـامِ البَنَّـا: «لَقـد لَفـتَ هَـذَا الرجُـلُ نَظـرِي بِصُورَتِـهِ الفَـذَّةِ، عِنْدَمَـا كُنـتُ أَزورُ القاهـرَةَ بَعـدَ أَنِ التقيـتُ بطائفـةٍ كُـبرَىٰ مِـن زُعمَـاءِ مِصْـرَ وَرؤسَـاءِ الأحـزَابِ فِيهَـا.. كَانَ هَـذَا الرجُـلُ خَـلّابَ المَظهَـرِ، دَقِيـقَ العِبـارَةِ، بالرّغْـمِ مِـن أنّـهُ لَا يَعـرِفُ لُغـةً أَجنبيـةً. لَقـدْ حَـاولَ أَتباعُـهُ الذِيـنَ كَانُـوا يُترجِمُـونَ بَينِـي وَبينَـهُ أَنْ يُصـوِّرُوا لِـي أَهـدافَ هَـذهِ الدَّعْـوَةِ؛ وَأَفاضُـوا فِـي الحَديـثِ عَلَـىٰ صُـورَةٍ لَـم تُقنِعْنِـي.. وَظَـلَّ الرجُـلُ صَامِتًـا، حَتَّـىٰ إذَا بـدَتْ لَـه الحيـرَةُ فِـي وَجْهِـي، قَـالَ لَهُـمْ: قُولُـوا لَـهُ شَـيئًا وَاحِـدًا: هَـلْ قَـرأْتَ عَـن مُحمَّـدٍ ﷺ؟ قُلْـتُ نَعَـمْ. قَـالَ: هَـلْ عَرفْـتَ مَـا دَعَـا إِلَيـهِ وَصَنَعَـهُ؟ قُلْـتُ: نَعَـمْ. قَـالَ: هُـوَ مَـا نُريـدُهُ .. وَكَانَ فِـي هَـذهِ الكلمَـاتِ القَليلَـةِ مَـا أَغْنَانِـي عَـنِ الكَثيـرِ مِمَّـا حَـاوَلَ بَعـضُ أَنصَـارِ البَنَّـا أَنْ يَقولُـوهُ لِـي .. لَفـتَ نَظـرِي إِلَـىٰ هَـذَا الرجُـلِ سَـمتُه البَسِـيطُ، وَمَظهـرُهُ العَـادِيُّ، وَثِقتُـه التِـي لَا حَـدَّ لَهَـا بِنَفْسِـهِ، وَإِيمَانُـهُ العَجِيبُ بِفكرَتِـهِ .. كُنـتُ أَتوقَّـعُ أَنْ يَجِـيءُ اليَـومُ الـذِي يُسيطِـرُ فِيـهِ هَـذَا الرجُـلُ عَلَـىٰ الزعَامَـةِ الشَّـعبيةِ، لَا فِـي مِصْـرَ وَحْدَهَـا، بَـلْ فِـي الشَّـرقِ كُلِّـهِ .. وَسَـافَرتُ مِـنْ مِصـرَ بَعـدَ أَنْ حَصَلْـتُ عَلَـىٰ تَقارِيـرَ وَافِيَـةٍ ضَافِيَـةٍ عَـنِ الرَّجُـلِ وَتَارِيخِـهِ، وأهدَافِـهِ وَحَياتِـهِ، وَقَـد قَرأْتُهَـا جَميعًـا، وَأَخَـذْتُ أُقـارِنُ بَينَـهُ وَبيـنَ جَمـالِ الدِّيـنِ الأفغَانِـي، وَمُحمَّـدِ عَبـدُهُ، وَمُحمَّـدِ أَحْمَـد المَهْـدِي، وَالسَّـيدِ السُّنوسِـيِّ، وَمُحمَّـدِ عَبـدِ الوهَّـابِ، فَوصَـلَ بِـيَ البَحـثُ إِلَـىٰ أنَّ الرجُـلَ قَـدْ أَفَـادَ مِـنْ تَجـارِبِ هَـؤلاءِ جَميعًـا، وَأَخـذَ خَيـرَ مَـا عِنْدَهُـم، وَأَمكنَـهُ أَنْ يَتفَـادَىٰ مَـا وَقَعُـوا فيـهِ مِـنْ أَخطَـاءٍ»[210].

وَإِذَا أَغْضَينَـا الطَّـرفَ عَـنِ الغَايـةِ التِـي حَملَـتْ رُوبيـر جَاكسُـون عَلَـىٰ لِقَـاءِ الإمَـامِ البنَّـا رَحِمَهُ اللَّهُ وَمُحاوَرتِـهِ، وَهِـيَ كِتابـةُ تَقارِيـرَ وَافِيَـةٍ عَنـهُ وَعَـن دَعوتـهِ

(210) روبير جاكسون: حسن *البنا الرجل القرآني*، ترجمة أنور الجندي، ط 1، المختار الإسلامي للطباعة والنشر، القاهرة، 1297هـ - 1977م، ص 5، 6.

تُقـدَّمُ إِلَـىٰ الغَـربِ، لِيكُـونَ عَلَـىٰ حَـذرٍ مِـنَ هَـذهِ الدَّعْـوةِ النَّاشِـئَةِ فِـي الشَّـرقِ، وَيُقاوِمُهَـا إِنْ لَـمْ يَـقْضِ عَلَيْهَـا! أقولُ: إِذَا أغضَيْنَا الطَّـرْفَ عَنْ ذَلِـكَ فَإِنَّنَا نَلحَظُ أَنَّ رُوبيـر جَاكسُـون مُلِـمٌّ بِحـرَكَاتِ الإِصْـلَاحِ وَقَادَتِـهِ فِـي العَالَـمِ الإِسْـلامِيِّ، حَتَّـىٰ إِنَّـه لِيُقِيـمُ مُقارَنـةً بَيـنَ فِكـرَةِ الإِمَـامِ البنَّـا وَأَفكَارِهِـم، فَيَشـهَدُ - والحـقُّ مَـا شَـهِدَتْ بِـهِ الأعـدَاءُ - بِـأَنَّ فِكـرةَ الإِمَـامِ البنَّـا أَنْضَـجُ مِـنْ أَفكَارِهِـم؛ لأَنَّـهُ أَفـادَ مِنهُـم، وتَجنَّـبَ أَخطَاءَهُـمْ، وَمِـنْ ثَـم تَوقَّـعَ لِفِكرَتِـهِ أَنْ تَنتشِـرَ وَتَسُـودَ، وَفِـي هَـذهِ الشـهَادَةِ مَـا يَحْمِـلُ أبنَـاءَ الدَّعْـوةِ عَلَـىٰ الفَخْـرِ بِفِكرَتِهِـمْ وَالثقَـةِ بِهَـا.

كَمَـا أننَـا نَلحَـظُ أَنَّ الإِمَـامَ البنَّـا أَكَّـدَ فِـي حِـوارِهِ مَـعَ رُوبيـر جَاكسُـون أَنَّ «فِكرَتَـه إِسْـلامِيَّةٌ صَمِيمَـةٌ»، تَمتَـاحُ مِمَّـا دَعَـا إِلَيـهِ مُحمَّـدٌ ﷺ، وتُرِيـدُ مَـا أَرادَهُ، وَهَـذَا أَهـمُّ عَامـلٍ يُغرِيـكَ بِـأَنْ تَثِـقَ بِفِكْرَتِـكَ ثِـقةً لَا يَتطَـرَّقُ إِليهَـا شِـكٌّ أَوْ رَيْـبٌ، وَأَنْ تُوقِـنَ بِأَنَّهَـا أَصَـحُّ الفِكَـرِ، وإِنْ أرادَ لهـا أعداؤُهـا غيـرَ ذلـك.

وَرُبَّمَـا تكـونُ هـذِهِ (الثقَـةُ) قَـدِ اهتـزَّتْ، جَـرَّاءَ الظُّـروفِ التِـي مَـرَّتْ بِهَـا الدعْـوَةُ، وَالواقِـعِ الـذِي تَحيَـاهُ الآنَ، وَمِـنْ ثَـمَّ فَواجِبُنَـا أَنْ نُعِيـدَ الثقَـةَ بِالفكـرِ الّـذِي طَرَحَـهُ الإِمَـامُ البَنّـا رَحِمَهُ اللَّهُ، آخِذِيـنَ فِـي الاعتِبَـارِ أَنَّ الثقـةَ بِـأيِّ فِكـرَةٍ تَقتضِـي أَنْ يتوَفَّـرَ لَهـا عُنصـرَانِ: أولهمـا الاعتِقَـادُ فِـي صَلاحِيتِهَـا، وَثانيهمـا الشُّـعُورُ بِفَائِـدَةِ المُحافظَةِ عَلَيْهَـا، نَاهِيكَ بِما اشتَرطْنَاهُ مِنْ قبلُ مِن ضَـرورَةِ أَنْ يَتوفَّـرَ فِـي كُلِّ دَعـوةٍ أمرَانِ: قُـدرةُ المُعَلِّـمِ وَإِخْـلاصُ التلَامِيذِ، وَقَـد تَجلَّتْ قُـدرةُ الإِمـامِ البنّـا رَحِمَهُ اللَّهُ فِـي اختِيَـارِهِ للصـوَابِ مِـن بَيـنِ تُـراثٍ هَائِـلٍ مُشـرِقٍ مُنِيرٍ، تَأَثَّـرَ بِالعصُـورِ الّتِي تَقلَّـبَ فِيهَـا، وَالشـعُوبِ الّتِي عَايَشَـتْهُ، فَحَـرَّرَهُ مِـنْ دَخَنِـهِ، ونَـفَىٰ عَنْـهُ خَبثَـهُ، وَقَدَّمَـهُ لأُمَّتِـهِ نَقِيًّـا طَيِّبًـا، يَشْـمَلُ كُلَّ مَـا تَحـرِصُ عَلَيْـهِ مِـنْ خَيْـرٍ، وَمَـا تَطْمَـحُ إِلَيْـهِ مِـنْ كَمَـالٍ. فكانَ جَديـرًا بـأنْ يَقـولَ عَنـهُ أعـدَاؤهُ: إِنّـه قـدَّمَ لأمتِـهِ فِكْـرًا نَضِيجًـا يَصعُـبُ القضَـاءُ عَلَيـهِ وهَنـاكَ قَـرنٌ مِـنَ الزمَـانِ يُطِـلُّ عَلَيْنَـا رُغـمَ مُحـاوَلاتِ الهَـدْمِ وَالتشْوِيـهِ.

وَسِـرُّ هـذَا النضْـجِ وَالاكتِمَـالِ فِـي فِكْـرةِ الإمَـام البنَّـا رَحِمَهُ اللَّهُ أنّـه اسْـتَرفَدَهُ واستَمَدَّهُ مِن كِتابِ اللهِ وَسُـنَّةِ رَسُـولِهِ؛ وَهـذَا مَا كَلفَهُ رَاحتَهُ وَحَياتَـهُ، ودَليلُ ذَلِـكَ مَـا يَروِيـهِ السَّـيدُ حَامـدُ أبـو النصْـرِ، وَسَـمعتُهُ مِنـهُ؛ إِذْ يَـقولُ بأَنَّـهُ دَخـلَ عَلَيـهِ فِـي المَركـزِ العـامِ فِـي مَكتبـهِ فَوجـدَ مَجموعـةً مِـن الشـبَابِ الذيـنَ انفَصَلُـوا وَكَوَّنـوا مَـا عُـرِفَ بِاسْـمِ (شَـبابُ مُحمَّـدٍ)، وطَلَبُـوا إِليـهِ أَنْ يَتحـوَّلَ مِن مَنهجِهِ السِّـلمِيِّ المُعتدلِ إِلَىٰ الصـراعِ وَالارتِطـامِ، أَوْ يَستقِيلَ مِن مَكتبِ الإرشَـادِ، فَمَـا كَانَ مِن الإمـامِ البنَّـا إِلَا أَن كَشَـفَ عَـنْ صَـدرِهِ وَقَـد رَفَعُـوا فِـي وَجهِـهِ السـلاحَ، وقَـالَ أَطْلِقُـوا الرصَـاصَ لَـن أدَعَ يَـقِينِي لِشـكُوكِكُمْ.

إِلَـىٰ هَـذَا الحَـدِّ كَانَ الإمَـامُ البنَّـا رَحِمَهُ اللَّهُ مُؤمِنًـا بِفِكرَتِـهِ، وَاثِـقًا بِهَـا، وَنحـنُ نُريـدُ إِعَـادةَ الثقَـةِ وتَجدِيدِهَـا فِـي الفكـرَةِ وَسَـلامتِهَا، وَالمِنهـاجِ وصَلاحيتِـهِ، وَالقيَـادةِ وَصَوابِهَـا، وَالصَّـفِّ وطَهارَتِـهِ، وَالجـزَاءِ وعَدالتِـهِ وَجَزالتِـهِ وأنَّ الآخـرَةَ وَحْدَهـا مَوعِـدٌ للفَصْـلِ والجَزاءِ، ونَريـدُ بعـدَ هَـذا كُلِّـهِ أَنْ نُعيـدَ الثقَـةَ فِـي أنفِسـنَا بِأَنَّنـا قَـادِرُونَ عَلَـىٰ النهُـوضِ مِـنْ جَديـدٍ.

إِنَّ الإمـامَ البنّـا رَحِمَهُ اللَّهُ استَمدَّ فِكرتَـه مِـنْ كِتَـابِ اللهِ تعالـىٰ، وَسُـنةِ رَسُـولِهِ ﷺ، وَاستَقْـرَأَ تَاريـخَ الإسْـلامِ وَمَـا مَـرَّ بِـهِ مِـنْ عَثـراتٍ وَنَهضَاتٍ، فقدَّمَ **فِكرةً وَاضِحَـةً** تَصِـلُ إِلَـىٰ النـاسِ بِـلَا عَوائِـقَ، وقَدَّمَهـا **بَسِيطَـةً** تُناسِـبُ كلَّ بيئـةٍ: الأغنيَـاءَ وَالبُسـطاءَ المَغمُوريـنَ. وقَـدْ رَأيـتُ ذَلِـكَ بنَـفْسِي، فَمَـا فهمَهُ الأسـتاذُ سيدُ قُطْـب رَحِمَهُ اللَّهُ الأَديـبُ الدَّرعمِـيُّ، كَانَ يَفهمُه إسـمَاعيلُ الفَيّومِيّ العَسـكَرِيُّ فِـي الحـرَسِ الجُمهـورِيّ، وقَدَّمَهـا **مُحـدَّدَةً** كَذلِـكَ يَسـهُلُ الاسـتِدلَالُ عَلَيهَـا مِـنَ القُـرآنِ الكَريـمِ والسـنَّةِ المُطهـرَةِ، وَهُمـا مَرجِـعُ كُلِّ مُسـلِمٍ فِـي فَهْـمِ الإسْـلامِ؛ وَلِذلِـكَ نَجَحَـتْ دَعـوةُ الإخْـوَانِ المُسـلِمينَ وَانتشَـرَتْ فِـي دُولِ العَالَـمِ كُلِّـه، وَأَصبَـحَ القَضـاءُ عَليهَـا صَعبًـا عَسِـيرًا. وَصحيـحٌ أنّهـا قَـدْ تَكبُـو أَوْ تَتعثَّـرُ، لكنَّهـا بِفضْـلِ اللهِ، ثُـمَّ بإخـلاصِ أَبنَائِهَـا وَثَباتِهـم تَسـتَرِدُّ عَافِيتَهَـا

وتَنهَـضُ مِـن جَديـدٍ، وَالمِحـنُ فِـي هَـذِهِ الدعـوةِ خَيـرُ دَليـلٍ.

وَيَستطيعُ أَيُّ أخٍ بَـلْ أيّ مُسـلِمٍ أَنْ يَلحـظَ ارتِبـاطَ هَـذِهِ الدعْـوَةِ بِالكتَـابِ وَالسُّـنّةِ ارتِبَاطًـا وَثِيقًـا إِذَا ألقَـىٰ نظـرةً سـريعةً عَلَـىٰ رسَـائلِ الإمَـامِ البنَّـا، وَهِـيَ رَسَـائلُ وَجِيزَةٌ لَا تكادُ بعضُ رَسَائِـلِهِ تَتجاوَزُ عِشـرينَ صَفحـةً، لَكنَّهـا رُغْـمَ وَجازَتِهَـا مَليئَـةٌ بالآيـاتِ القرآنيـةِ وَالأحَاديـثِ الشَّـريفَةِ؛ لأنّهـا مُسـتَمدَّةٌ مِـن كِتـابِ اللهِ وَسُـنةِ رَسُولِـهِ؛ ممَّـا أورَثَـهُ الثقَـةَ بِهَـا وَالاطمِئنـانَ حَتَّـىٰ لِمَـا ينتَـجُ عَنهَـا مِـنْ مَشـقَّةٍ وعَذابَـاتٍ.

ودَعـوةُ الإمـام البنَّـا بِهـذَا الاسـتِمَدَادِ **أَصيلَـةٌ**، لَا اختِـرَاعَ فِيهَـا، وَلا ابتِـدَاعَ يخرجهـا عَـنْ ثَوابَـتِ أُمتِنَـا أَوْ ذَاكِرَتِهَـا، التِـي مَـا تَـزَالِ تَعِـي رَسَـالةَ الإِسْـلَامِ وَتُـؤمِنُ بِـهِ، وَتَحفَـظُ مَبادِئَـهُ وأصُولَـه وَقِيمَـهُ وأَخلاقَـهُ، غَيـرَ أنَّ بعـضَ الغُبـارِ قَـدْ رَانَ عَلَـىٰ تِلْـكَ المَعالِـمِ وَالقِيَـمِ، فَجـاءَ حَسَـنُ البَنَّـا وَأزالَ ذَلـكَ الغُبـارَ، وَلِهـذَا يقُـولُ:

«هَـذَا كَلامٌ طَـالَ عَهـدُ المُسـلِمينَ بِاسـتِمَاعِهِ فَقـدْ يَكـونُ غَامِضًـا عَليهِـم غَيـرَ مَفهُـومٍ لَديهِـم، وَقـدْ يقـولُ قائـلٌ: مَـا لهَـؤُلَاءِ الجَماعـةِ يَكتبـونَ فِـي هـذِهِ المَعانِـي التِـي لَا يُمكِـنُ أَنْ تَتحقَّـقَ، وَمَـا بَالُهـم يَسـبَحُونَ فِـي جَـوِّ الخَيـالِ وَالأحْـلامِ؟ عَلَـىٰ رِسْـلِكُم - أيّهَـا الإخـوانُ فِـي الإِسْـلامِ وَ المِلّـةِ - فـإِنَّ مَـا تَـرَونَـهُ اليَـومَ غَامِضًـا بَعيـدًا كَانَ عِنـدَ أَسْـلافِكُمْ بدَهِيًّـا قَرِيبًـا، وَلَـنْ يُثمِـرَ جِهَادُكُـمْ حَتَّـىٰ يَكُـونَ كَذلِـكَ عِندَكُـمْ، وَصَدِّقُونِـي إِنَّ المُسـلِمينَ الأوَّلِيـنَ فَهِمُـوا مِـنَ القُـرآنِ لأَوَّلِ مَـا قَـرَءُوهُ وَنَـزَلَ فِيهِـمْ، مَـا نُـدلِي بِـهِ اليـوْمَ إِلَيكُـمْ وَنَـقُصُّه عَلَيكُـمْ»[211]. لَقَـدْ حَـرَّرَ الإمَـامُ البنَّـا هَـذَا الفكـرَ مِـنْ دَخنِـهِ وَقـدَّمَ لأمتِـه مَـا تَحـرِصُ عَلَيـهِ مِـنْ خَيـرٍ.

(211) حسن البنا: مجموعة *رسائل الإمام البنا*، [رسالة إلىٰ أي شيء ندعو الناس]، ص 41.

وَقَد آمَنَ الجِيلُ الذِي رَبَّاهُ الإِمَامُ البنا بِسَلامَةِ الفِكرَةِ، فَاعتَقدُوا صَلاحِيَّتَها، وَآمنُوا بفَائدِةِ الحِفَاظِ عَليهَا؛ وَدَليلُ ذَلِكَ مَا قَدَّمه الجِيلُ السابقُ فِي سَبيلِ نُصرَةِ هَذِهِ الفكرَةِ مِن أَوقَاتِهِم وأَعمارِهِم، وَوَاجِبُ هَذَا الجِيلِ أَنْ يُكمِلَ المَسِيرَ.

وَثَمّةَ آمْرٌ آخَرُ أَسْهَمَ فِي بَقاءِ هَذِهِ الفِكْرَةِ؛ وَهوَ الفَهمُ الّذِي جعلَهُ الإِمَامُ البَنَّا رَحِمَهُ اللهُ أَوَّلَ رُكنٍ مِنْ أَركانِ البيعَةِ، وَهُو فَهْمٌ وَاسِعٌ رَحِيبٌ، يَبتَعِدُ بِالأُمّةِ عَنْ مَواطِنِ الخِلافِ، لأنه أراد أن يجمع ولا يفرق، فقال: «اعْلَمْ - فَقَّهَكَ اللهُ - أَوَّلًا: أَنَّ دَعوةَ الإخوانِ المُسلمينَ دَعوةٌ عَامةٌ لَا تَنتسِبُ إِلَىٰ طَائفَةٍ خَاصَّةٍ، وَلَا تَنحازُ إِلَىٰ رَأْيٍ عُرِفَ عِندَ النَّاسِ بِلَوْنٍ خَاصٍ وَمُستلْزمَاتٍ وَتَوابِعَ خَاصّةٍ، وَهِيَ تَتوجَّهُ إِلَىٰ صَمِيمِ الدِّينِ وَلُبِّهِ، وَتَودُّ أَنْ تَتوحَّدَ وِجْهَةُ الأَنظَارِ وَالهِمَمِ حَتَّىٰ يَكُونَ العَملُ أَجْدَىٰ، وَالإِنْتَاجُ أَعْظَمَ وَأكبرَ، فَدعوةُ الإخوَانِ دَعوَةٌ بَيضَاءُ نَقِيَّةٌ غَيرُ مُلوَّنَةٍ بِلَونٍ، وَهِيَ مَعَ الحَقِّ أَيْنَمَا كَانَ، تُحِبُّ الإجمَاعَ، وَتَكرَهُ الشُّذُوذَ وَإِنَّ أَعْظَمَ مَا مُنِيَ بِهِ المُسلِمونَ الفُرقةُ والخِلافُ، وَأَسَاسُ مَا انتَصَرُوا بِهِ الحُبُّ وَالوَحْدَةُ. وَلَنْ يَصْلُحَ آخِرُ هَذِهِ الأُمّةِ إِلَّا بِمَا صَلُحَ بِهِ أَوَّلُهَا»[212].

ولَمْ يَبعُدِ البنَّا بِدعْوتِه عَنِ مَواطِنِ الخلافِ فَحسبُ، وإنّما عَرضَهَا عَرْضًا لَائِقًا كَريمًا يَتفِقُ مَعَ رُوحِ العَصرِ، مُتذرِّعًا بمناطِقِ القوةِ، وَهِيَ غَاياتُ الدِّينِ وَعزائِمُه الكُبرَىٰ، وقَال لإخوانه: «إِذَا قِيلَ لكُمْ: إِلامَ تَدعُونَ؟ فَقُولُوا: نَدعُو إِلَىٰ الإسلامِ الذِي جَاءَ بِهِ مُحمَّدٌ ﷺ، وَالحُكُومَةُ جُزءٌ مِنْهُ، وَالحُريَّةُ فَريضَةٌ مِنْ فَرائِضِهِ، فَإِنْ قِيلَ لَكُمْ: هَذِهِ سِيَاسَةٌ! فقُولُوا: هَذَا هوَ الإِسْلامُ، وَنَحنُ لَا نَعرِفُ هَذِهِ الأَقْسَامَ»[213]. اختَارَ الإِمَامُ البنَّا رَحِمَهُ اللهُ

(212) حسن البنا: *مجموعة رسائل الإمام البنا*، *رسالة دعوتنا*، ص 137.
(213) حسن البنا: *مجموعة رسائل الإمام البنا*، [رسالة بين الأمس واليوم]، ص 517.

مَنطقَـةَ قُوتِـهِ لِيبـدُوَ صَاحِـبَ قَضيـةٍ، ولَيـسَ مشـاغبًا، فَحِيـنَ أَطلـبُ الحُريـةَ لِنَفْسِي، فأنَـا أَطلُبهـا لِلآخَريـنَ كَذلِـكَ، فَالفَهـمُ الـذِي قَدّمَـه الإِمَـامُ البنَّـا رَحِمَهُ اللَّهُ لِلإِسْـلام، وَاسِـعٌ فَسِـيحٌ رَحِيـب، يَجْمَـعُ وَلَا يُفـرِّقُ، وَلَا يُضيـعُ وَقـتَ الأمـةِ فِـي مَسـائِلِ الخِـلافَ الفَرعيَّـةِ، أَوْ يَشـغَلُ أبناءَهَـا بِمَعَـارِكَ هَامِشـيّةٍ، بَـل أَنـا زَعِيـمٌ بِـأنَّ الإِمَـامَ البنَّـا رَحِمَهُ اللَّهُ قَـدَّمَ فِي عِبـارَاتٍ وَجيـزَةٍ دَقيقَـةٍ أَيسَـرَ الحُلـولِ وَأَنجَعِهَـا لِقَضايَـا الخِـلافِ المُتعَـدِّدَةِ التِـي مَزقَـتِ هَـذِهِ الأُمّـةَ شِـيعًا؛ حيـثُ قَـالَ فِـي الخِـلافِ الفِقْهِـيِّ: «وَلَا مَانِـعَ مِـنَ التحْقيـقِ العِلمِـيِّ النزِيـهِ فِـي مَسـائِلِ الخِـلافِ فِـي ظِـلِّ الحُـبِّ فِـي اللهِ وَالتعَـاوُنِ عَلَـىٰ الوُصُـولِ إِلَـىٰ الحَقيقَـةِ، مِـنْ غَيـرِ أَنْ يَجُـرَّ ذَلِـكَ إِلَـىٰ المِـرَاءِ المَذمُـومِ وَالتعَصُّـبِ»[214].

وَقَـالَ فِـي الخِـلافِ حَـوْلَ البِـدَعِ التَركيـةِ والإِضَافِيّـةِ: «لِـكُلٍّ فيـهِ رَأْيُـهُ، وَلَا بَـأسَ بِتمْحيـصِ الحَقيقَـةِ بِالدلِيـلِ وَالبُرهَـانِ»[215].

وَقَـالَ فِـي الخِـلَافِ العَقَـدِيِّ: «وَآيـاتُ الصِّفَـاتِ وَأحاديثُهَـا الصَّحيحَـةُ وَمَا يَلحَـقُ بِذَلِـكَ مِـنَ التشَـابُهِ، نُؤمِـنُ بِهَـا كَمَـا جَـاءَتْ مِـنْ غَيـرِ تَأوِيـلٍ وَلَا تَعطِيـلٍ، وَلَا نَتعـرَّضُ لِمَـا جَـاءَ فِيهَـا مِـنْ خِـلافٍ بيـنَ العُلمـاءِ، وَيَسـعُنا مَـا وَسِـعَ رَسُـولَ اللهِ ﷺ وَأَصحَابَـهُ، ﴿وَالرَّاسِـخُونَ فِـي الْعِلْـمِ يَقُولُـونَ آمَنَّـا بِـهِ كُلٌّ مِـنْ عِنْـدِ رَبِّنَـا﴾ [آل عمـران:7]»[216]. حَتَّـىٰ مَـا شَـجَرَ بَيـنَ الصَّحْـبِ الكـرام مِـن خِـلافٍ أَنْهـاهُ بِقَولِـهِ: «وَلِـكُلٍّ مِنهُـم فَضْـلُ صُحبَتِـهِ وَجَـزاءُ نِيَّـتِهِ وَفِـي التَّأوُّلِ مَندُوحَـةٌ»[217].

وَكَذلِـكَ الخِـلافُ الشـهيرُ بيـنَ العَقْـلِ وَالوَحْـيِ، يقُـولُ فيـهِ الإِمَـامُ البنَّـا:

(214) السابق: الصفحة نفسها.
(215) حسن البنا: مجموعة رسائل الإمام البنا، [رسالة التعاليم]، ص 270.
(216) السابق: الصفحة نفسها.
(217) السابق: الصفحة نفسها.

«فَإِنْ كَانَا ظَنِيَّيْنِ فَالنظَرُ الشَّرعِيُّ أَوْلَىٰ بِالاتِّبَاعِ، حَتَّىٰ يَثبُتَ العَقلِيُّ أَو يَنهَارَ»[218].

كُلُّ هَذِهِ المَعانِي تؤكِّدُ حقًّا سَلامَةَ الفِكْرَةِ وَصِحَّتَها وأنَّ هُناكَ جُهدًا مَبذُولًا، وَأَنَّهَا لَيستْ وَلِيدَةَ أحلامٍ وَأَوهَامٍ وَإِنَّما بَذلَ الإمَامُ البَنَّا لِتأْسِيسِهَا جُهدًا مُضْنِيًا فِي قِراءَةِ تُراثِنا الإسلاميِّ الهَائل؛ غيرَ أنَّه وجدَ أنَّ كثيرًا مِنْ كُتبِ التراثِ تَلوَّنَتْ بلَونِ العَصرِ الذِي كُتِبَتْ فيهِ، ولِهذَا تَمسَّكَ بالكِتَابِ وَالسُّنةِ، فَهُمَا المَصْدَرَانِ البَاقِيَان الخَالِدَانِ الصَّافِيَانِ لِشرْعِنَا، وَأَبَىٰ أَنْ تَتقيَّدَ دَعوتُه بِقَيْدٍ غيرِ قَيدِ الشَّرْعِ أَوْ تَتلوَّنَ بِلَونٍ يَرفضُه العَصْرُ، يقُولُ الإمامُ البنَّا: «يعتقدُ الإخوَانُ أنَّ أَسَاسَ التعَالِيمِ الإسلاميةِ ومَعِينَها هو كتابُ اللهِ تباركَ وتَعالَىٰ اللذَانِ إنْ تمسكتْ بِهِمَا فَلَنْ تَضِلَّ أبدًا، وأَنَّ كَثِيرًا مِنَ الآراءِ وُالعُلومِ التِي اتصَلَتْ بِالإسلامِ، وَتَلوَّنَتْ بِلوْنِهِ تَحمِلُ لَوْنَ العُصُورِ التِي أَوْجَدتْهَا، وَالشُّعوبِ التِي عَاصرَتْهَا، وَلِهذَا يَجبُ أَنْ نَستَقِيَ النظُمَ الإسلاميةَ التِي تُحمَلُ عَليهَا الأمةُ مِنْ هَذَا المَعينِ الصَّافِي، مَعِينِ السُّهُولَةِ الأُولَىٰ، وَأَنْ نَفْهَمَ الإسْلامَ كَمَا كَانَ يَفهَمُهُ الصحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ مِنَ السَّلَفِ الصَّالِحِ رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِم، وَأَنْ نَقِفَ عِندَ هَذِهِ الحُدُودِ الرَّبَّانِيةِ النَّبويةِ حَتَّىٰ لَا نُقيِّدَ أَنفُسَنَا بِغَيرِ مَا يُقيدُنَا اللهُ بِهِ، وَلَا نُلزِمُ عَصْرَنَا لَونَ عَصرٍ لَا يَتفِقُ مَعهُ، والإسلامُ دِينُ البشَريةِ جَمِيعًا»[219].

يَجِبُ أَنْ يَعلَمُ شَبابُ الدَّعْوَةِ وَمَن نَهتَمُّ بِتَربِيَتِهِم وَإِرشَادِهِم كُلَّ هَذِهِ المَعَانِي؛ لأَنَّهُم مَهمَا بَحثُوا فَلَنْ يَجِدُوا مِثْلَ هَذِهِ الفِكْرَةِ فِي سَلامتِهَا وصِحَّتِهَا، فقَدْ كَانَ الإمَامُ البَنَّا - بِمَا فَتحَ اللهُ عَلَيهِ - مُجتهِدًا لِقرُونٍ خَلَتْ، وَقَدْ تَجمَّعَتْ فِيهِ مَحاسِنُ تَفرقَتْ فِي غَيرِهِ، كَمَّا أَنَّهُ اسْتفَادَ مِن

(218) حسن البنا: مجموعة *رسائل الإمام البنا*، [رسالة التعاليم]، ص 271.
(219) حسن البنا: مجموعة *رسائل الإمام البنا*، [رسالة المؤتمر الخامس]، ص 331.

تَجـارِبِ كُلِّ مَـنْ سَـبقُوهُ، وَمِـنْ ثَـمَّ فَليـسَ سَـهلًا أَنْ يَقُـولَ هَـذَا الرَّجُـلُ عَـنْ فِكرَتِـهِ: «أَنْ تُوقِـنَ بـأنَّ فِكرتَنـا إِسـلاميَّة صَمِيمَـةٌ»، فَـلا يَقـولُ هَـذا الـكلامَ إِلَّا عَالِـمٌ مُجتَهِـدٌ بَلـغَ دَرجـةً مِـنَ العِلْـمِ، وَالبَحْـثِ والقِـراءَةِ وَالتنْقِيـبِ، تُجيـزُ لَـه أَنْ يَقُـولَ ذَلِـكَ، وَإِلَّا كَانَ مُدَّعِيًـا يَهـدِمُ فِكرَتَـهُ بِيدَيـهِ، وَلَقـدْ قِيـلَ إِنَّ الإِمَـامَ البنَّـا قَـرَأَ قَبـلَ أَنْ يَكتُـبَ (الأُصُـولَ العِشـرينَ) خَمسَـةً وَعِشْـرينَ مَرجِعًـا في أُصُـولِ الفِقْـهِ والشـريعة (فيهـا مراجـع تتجـاوز عشـرة أجـزاء)، كَـيْ يَسـتنْبِطَ هَـذِهِ (الأُصـولَ العِشـرينَ) التِي وُصِفَـتْ بِأَنَّهـا دُسـتُورُ وَحـدةٍ مَعرفيـةٍ وَثقافيـةٍ بَيـنَ المُسـلِمينَ.

هَـذَا، وَلَيسَـتْ سَـلامةُ الفِكْـرَةِ وَقْـفًا عَلَـىٰ مَـا استنبطَـهُ الإمـامُ البنَّـا وَفَهِمَـهُ وَعَرضَـهُ فِـي يُسـرٍ وسَلاسَـةٍ؛ وَلكـنَّ سَـلامةَ الفِكـرَةِ تَتجلَّـىٰ كَذلِـكَ فَـي تَطبيقِـهِ لَهـا تَطبيقًـا عَـادِلًا حَكِيمًـا؛ حَيـثُ عَالَـجَ بِهـذَا الفَهْـمِ الرَّحيـبِ نُفوسًـا، ووَاجـهَ أَخْطَـارًا وتَحدِّيـاتٍ هَائلَـةً مِـن شَـأنِهَا أَنْ تَكسِـرَ إِرَادَاتٍ، أَو تَدفَعُـهُ إِلَـىٰ الانسِحَابِ وَالعُزلَـةِ، أَوْ تَحمِلَـهُ عَلَـىٰ التَّصادُمِ والارْتِطَامِ، لَكِـنَّ الرجُلَ لِفَهمِـهِ الرَّحيـبِ وَعَرضِـهِ السَّـلسِ، وَتَطبيقِـهِ الحَكِيـمِ استَطَاعَ أنْ يُذَلِّـلَ الصِّعـابَ، وَيتجَـاوَزَ المَخاطِـرَ والعَقبـاتِ، وَمِمَّـا يُذكَـرُ فِـي هَـذَا الصَّـدَدِ أَنَّ الإِمـامَ البنَـا سُـئِلَ فِـي قَضايَـا شَـائكَةٍ، فَـأَبَىٰ أنْ يَتـورَّطَ فِـي مَـا تَـورَّطَ فِيـهِ غيـرُهُ، وأعَانَـهُ عَلَـىٰ ذَلِـكَ فَهمُـه الوَاسـعُ الفَسيحُ وعَرضُـه اللائـقُ الكَريـمُ لِمِثْـلِ هَـذِهِ القضَايَـا الشَـائكَةِ.

فلَمّـا **سَـأَلُوهُ عَـنِ الخِلافَـةِ وَكانَـتْ مَصـدَرَ إِزعَـاجٍ لِلشَّـرقِ وَالغَـربِ عَلَـىٰ السـوَاءِ**، أجَـابَ: **إِنَّهـا خُطـوةٌ تَسـبِقُها خُطـواتٍ**. وَلِهـذَا عَلَّـقَ مَـنْ سَأَلَـهُ عَلَـىٰ إِجَابتِـهِ: إِنَّـه أَجَـابَ إِجابَـاتٍ حَـذِرَةٍ مُهذَّبَـةٍ وَأَحالَهـا إِلَـىٰ مَقْعَـدِ الانتِظَـارِ فِـي التَّاريـخِ، أَفْسَـحَ لِنفْسِـهِ وَدعْوتِـهِ مَكانًـا ولأُمتِـه إِلَـىٰ جـوارِهِ مَكانًـا تَلتَحِـقُ بـهِ لِتتعَلَّـمَ وَتَسـتَفِيدَ، إِجَابـاتٌ حَـذِرَةٌ أَمَـامَ وَاقـعٍ مُتربّـصٍ، وَمُهذَّبـةٌ أَمـامَ سُـلطةِ

الأَزهَـرِ الفِقهيَّة، لأنّه لَـو أَخْطَأَ لَهاجَموهُ، وَلَـو أَجَابَ إِجَابَـةً مُستفِـزَّةً، فقالَ مَثلًا: إِنّهَـا واجبُ الوَقْـتِ وَعَلَىٰ المُسلِمينَ أَن يُعيدُوهَـا أَقْـرَبَ مَـا يكُـونُ؛ لَهيّـجَ الوَاقِـعَ المُتربِّـصَ الّـذِي يُريـدُ أَنْ يُلجِئَـهُ إِلَـىٰ المُواجَهـةِ، ولَعجَّـلَ بِالقضـاءِ عَلَيـهِ وَعَلَـىٰ دَعوتِـهِ.

وَقَـد يُجيـبُ الإِمـامُ البنَّـا إِجابَـاتٍ غَيـرَ مُباشـرَة؛ حَيـثُ سَـألتْهُ صَحيفَـةٌ غَرْبيَّـةٌ، يَـومًا عَـنْ مَوقفِـهِ مِـنَ الخِلافَةِ وَتَـفضيلِه لإعَادَتِهَـا فأجابَ: إِنَّ رَغبتنَـا أَنْ نكـونَ بيـنَ صُفـوفِ هَـذَا الشَّـعْبِ حَتَّىٰ يَحْصُـلَ عَلَـىٰ حُريتِـهِ كَاملـةً، فَـإِذَا حَصَـلَ عَلَيهَـا تَكـونُ الجَماعـةُ حَققَـتْ هَدفَهـا فِـي احْـترَام إِرَادَةِ الأُمَّـةِ؛ فكَأَنّـهُ يقـولُ لَهُـمْ: أَيُّهـا الواهِمُون، أُمَّـةٌ مُستعمرَةٌ مُستَعبَدَةٌ غَيرُ مُستقِلَّةٍ، كَيفَ تُفكِّـرُ فِـي الخِلافَـةِ دُونَ تَحريـرِ الوَطـنِ؟! تَنـالُ الأمـةُ حُريتَهَـا أَوّلًا، فَـإِذَا تَحقَّـقَ لَهَـا ذَلِـكَ، فَحينَئـذٍ تُـقرِّرُ شُـعوبُهَا مَـا تُريـدُ! إِجَابـاتٌ حَـذِرَةٌ مُهذبـةٌ؛ ولِذلـكَ أَيضًـا عَلقَـتِ الصحيفَـةُ عَلَيـهِ: حَسَـنُ البنَّـا مُـدرِّسٌ لَـه احترَامُـهُ شَـديدُ الحـذَرِ يَسيرُ إِلَـىٰ هَدفَـهِ الّـذِي وضَعَـهُ لنفْسِـهِ بِخُطًـىٰ حَثِيثـةٍ، دُونَ أَنْ يَلفِـتَ إِلَيْـهِ الانتبَـاهَ. وهُـمْ يَعلَمُـونَ طَبعًـا مَـاذَا يُريـدُ، لكـنَّ الإجابـاتِ كَانـتْ نَوعًـا مِـنَ التَّحييـدِ.

كَمَـا **سُـئلَ الإِمـامُ البنَّـا** رَحِمَهُ اللَّهُ **عَـن موقفِـه مِـنَ الحاكـم**، فأجـابَ إجابـاتٍ حَـذرةً، قـالَ: ليسَ مِنَ الإسلام مُخاصمَةُ الحَاكـمِ وإِحرَاجُه فِي كُلّ الظُّروفِ؛ فَقـد يَـقِفُ الحَاكـمُ أَمـامَ عَـدُوٍّ قَـويٍّ لِلمُسـلمينَ يَدفعُـه، وَيَحُـولُ دُونَ غَايتِـه مِنْهُـم، فَتكُـونُ مِـنَ الحمَاقـةِ وَلَيسِ مـن الديـنِ أَن يُحرِجَـه المُسـلمونَ، وَهُـوَ يَحُـولُ دُونَ وُصـولِ عَدوِّهِـم إِلَـىٰ غايتِـه مِنهُـم، إجابـةٌ حَـذِرَةٌ مُهذَّبـةٌ كذلـك.

وَلِهَـذا حِيـنَ كَانـتِ الداخليـةُ تَمنَعُـه مِـن تَنظِيـمِ مُظاهـرَةٍ، وَيَعلَـمُ المَلِـكُ بِخَـبرِ المَنـعِ، يَقـولُ لَهـم اسْـمَحُوا لَـهُ، لَكـنِ اشـتَرِطُوا عَلَيـهِ ألّا يَـهْتِفَ ضِـدَّ الإنجلَيـزِ، فَـكانَ يقُـودُ المُظاهـرَة، هَاتِـفًا: يَسْـقُط الاحْتِـلَالُ، وَلا يَذكُـرُ الإنجليـزَ.

بَـلْ **سُـئِلَ الإمـامُ البنَّـا عَـن مَوقِفِـه مِـنَ المَلِـكِ**، فَقـالَ: الجَالِـسُ عَلَـىٰ العَـرشِ احتِرَامُه والـوَلاءُ لَـهُ وَاجبٌ عَلينَا، وَهُـوَ بحَمـدِ الله يُـؤدِّي الفرائـضَ. وإفهـامُ رِجَـالِ السَّـرايَا ذَلِـكَ، وَاجـبٌ عَلينَـا كَذلِـكَ. وقَـد كَتـبَ الإمـامُ البنَّـا إِلَـىٰ المَلـكِ مَـرةً، فَقـالَ: أَتـدرِي مَـاذا فِـي مِصـرَ يَـا مَـولايَ؟ شَـعبٌ مُسـلمٌ ومَلِـكٌ غَيـورٌ.

سـألوهُ كذلـكَ عَـن مَوقِفِـه مِـنَ العَالَـم، فقـالَ: إنَّنِـي لَسـتُ مِـنَ الحمَاقـة وَضَعـفِ الإدرَاكِ، لِأَتَصـوَّرَ أَنَّنِـي أَسـتَطِيعُ أَنْ أَعيـشَ بِمعـزِلٍ عَـنِ العَالَـم، أَو بِمَنـأًىٰ عَـن تِلـكَ الوَحـدَةِ العَالميّـةِ الّتِـي تَهيَّـأَ لَهـا سـكانُ الأرْضِ جَميعًـا، وَالّتِـي بُحَّـتْ بِهَـا أصوَاتُنـا مِـنْ قَبـلُ ﴿وَمَـا أَرْسَـلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَـةً لِّلْعَالَمِيـنَ﴾ [الأنبيـاء: 107]. إِنَّنِـي أُنَاشِـدُ أحـرارَ العَالَـمِ أَنْ يُسـانِدُونِي، أَن يَسـتفِيدُوا مِـنَ قِيَـمِ القُـرآنِ التِـي تُعطِـي لِلعَالَـمِ أَمنَـهُ وسَـلامَه.

لَقَـد أَفْلتَ الرجـلُ مِـن تَـقسيمِ العَالَـمِ إِلَـىٰ فُسْـطَاطَينِ: دارِ الإسـلامِ وَدَارِ الحَـربِ، وَهُـذَا مَـا تَـورَّطَ فِيـهِ غيـرُهُ، وَأَدهَـشَ النـاسَ فِـي كلِّ لَحظـةٍ مِـن لَحظـاتِ حَياتـهِ.

سَـألوهُ كذلـكَ عَـن مَوقِفِـهِ مِـنَ الأزهـرِ - بِمَـا لَـه مِـن سُـلطةٍ فِقهيّـةٍ - فقـالَ: إنّـه أَمـلُ المسْـلِمينَ الباقِـي، ومَظهـرُ الفِكـرَةِ الإسـلاميَّةِ، فَالمُحافظـةُ عَلَـىٰ مَجـدِ الأزهـرِ مُحافظَـة عَلَـىٰ الإسـلام، وَالنيـلُ مِنـهُ نَـيْلٌ مِـنَ الإسـلام، وَعُلمـاؤُهُ أَوعيَـةُ العِلـمِ، ومَـادةُ الإسـلامِ وَكَسْـبُهُم إِلَـىٰ جَانـبِ دَعوتِنَا لَا بُـدَّ أَنْ يَكـونَ مَهمَـا كانَ الثمَـنُ.

وَسُـئِلَ عَـنِ مَوقفِـهِ مِـنَ الأحـزابِ وَزُعمائِهِـم، فَقـالَ: إنّنـا فِـي حاجـةٍ إِلَـىٰ جُهدِهِـم الّـذِي بَـذلُوهُ، وَهُـمْ أنصـارُ القَضيّـةِ الوَطنيـةِ، إِلَـىٰ الحَـدِّ الّـذِي وصلـتْ إِلَيْـهِ، لَا نَبخَسُـهُمْ فِـي ذَلِـكَ حَقَّهُـمْ، وَأعلَـنَ أَنَّ مِصْـرَ لَـو سَـارَتْ كُلُّهـا

في طريقِ الأفغَانِيِّ ومُحمَّدِ عَبدُه وَمُصطفَىٰ كَامِل؛ لَوصلَتْ إِلَىٰ بُغيتِهَا إِنَّهَا حَلقاتٌ مُتصلَة تَلتقِي كُلُّها فِي مَيدانٍ وَاحدٍ، وَهُمْ زُعماءُ سَبقوهُ.

يُـثْنِي عَلَىٰ الجَميع، فَهَـذِهِ كُلُّها قضَايَا شَائِكَةٌ حَرِجَـةٌ، لكـنَّ إِجابـاتِ الإمـامِ البنَّـا رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْهَـا حَـذرَةٌ حَكيمَـةٌ.

وَيَتعـرضُ الإِمـامُ البنَّـا رَحِمَهُ اللَّهُ لِقضيّةِ (الاحْتِلَالِ) خِـلالَ حَديثِه عَـنْ قَضيتِنَا (الوطنيّةِ)، فَيُقَـرِّرُ أهميـةَ الجهـادِ لحمَايَـةِ الحُريَّـةِ، ثُـمّ يقُـولُ: «وَمَـعَ هَـذَا فَقَـدْ رَحَّـبَ الإِسـلامُ بالوسَـائلِ السِّـلميّةِ وَإِنْهـاءِ الخُصُومَـةِ مَتَـىٰ أدتْ هَـذهِ الوسَـائلُ إِلَـىٰ الاعـترافِ بالحَـقِّ الكامِـلِ لأَصْحابِـهِ، ﴿وَإِنْ جَنَحُـوا لِلسَّـلْمِ فَاجْنَـحْ لَهَـا وَتَـوَكَّلْ عَلَـىٰ اللهِ﴾ [لأنفال:61]. وَمَـا خُيِّـرَ رسـول الله ﷺ بيـنَ أَمريـنِ إِلَّا اختـارَ أَيسَـرَهُمَا مَـا لَـم يَكُـنْ مُحرَّمًـا. وَمِـنَ السَّـلْمِ المَفاوضَـةُ إِذَا أَوصَلَـتْ إِلـىٰ الحـقِّ الكامِـلِ، وقَـد فـاوضَ رَسـولُ الله ﷺ فِي الحُديبيَـةِ، وَمِـنَ السَّـلْمِ التحَاكُـمُ إِذَا أَدَّىٰ إِلَـىٰ هـذَا الحَـقِّ أيضًـا، وَإِنْ كُنَّـا لَا نَعلَـمُ أَنَّ رَسـولَ اللهِ ﷺ، أَوْ أحـدًا مِـن الخُلفـاءِ الراشـدينَ المهْدِيّـن، رَضِـيَ بِتَحكيـمِ كَافـرٍ، وَلكنَّـه مُقتضَـىٰ عُمُـومِ الآيَـةِ؛ وَلازِمُ الاتفـاقِ عَلَـىٰ الخيـرِ الـذِي لَا يَمنعُـه الإِسْـلامُ بيـنَ المُسـلِمِينَ وَغيرِهِـم مَتَـىٰ كَانَ فيـهِ مَصلحـةٌ لَهُـم وَلَيـسَ فِيـهِ ضَـررٌ عَليهِـم»[220]؛ يقصـدُ الأمـمَ المتحـدَةَ وَمَجلـسَ الأمـنِ، وَلَيـسَ أَمَامَـه غَيرَهُـم، مَـا دام فِيـهِ مَصلحَـةٌ لِلمُسـلمينَ وَلَيسَ فِيـهِ ضـررٌ عَلَيهِـم. أُفُـقٌ وَاسِـعٌ أَمَـامَ هَـذِهِ القَضايَـا الشـائكَةِ، ولهَـذَا اسـتطاعَ أَنْ يَتَجاوُزَهـا لِيُفسِـحَ لِدعوتِـهِ طَريقًـا وَلإِخوَانِـهِ مَكانًـا ليلتحِقُـوا بِـهِ ويَتعَلَّمُـوا وَيَستَفِيدُوا مِمَّـا أُوتِيَـهُ الإِمـامُ البنَّـا رَحِمَهُ اللَّهُ؛ فـإِنَّ أجمـعَ مَـا يُـقالُ فِي وَصفِـهِ: فَهمٌ وَاسِـعٌ رَحِيبٌ وَعَـرْضٌ لَائِـقٌ كَريـمٌ، وتَطبيـقٌ عَـادِلٌ حِكيـمٌ، عِـلاجُ نُـفوسٍ وَقيـادَةُ أَخطَـارٍ، وَإِعْـلَانٌ لِلحَـقِّ، وَإِرْشَـادٌ إِلَـىٰ الصَّـوَابِ مَتَـىٰ وَجَـبَ ذَلِـكَ، مَـعَ الاحْتِـرَامِ وَالـوَلَاءِ.

(220) حسن البنا: *مجموعة رسائل الإمام البنا*، [رسالة مشكلاتنا في ضوء النظام الإسلامي]، ص 636.

وَمِـنَ الحـقِّ أنْ نَقـولُ: إنّ أجيـالًا كثيـرةً في هـذه الأمـة قـد حِيـلَ بينَهَـا وبيـنَ أَنْ تَعـرِفَ حَسَـنَ البنَّا وَفِكرَتَه وَدَعْوتَـهُ وَأنْ تَعـرِفَ كَذلِكَ كُلَّ انطلاقَـةٍ بَعيـدَةٍ عَـنْ فِكـرِهِ إِمَّا قَاصـرَةٌ، وَإِمَّـا مُستحِيلَـةٌ، فَحيثُمَـا وَصَـلَ نَـفَسُ الأستاذِ البنَّـا فَثـمَّ حَيويّـةٌ للإسـلامِ وَالمُسـلِمِينَ، وَحَيـثُ انعـدَمَ وُصُـولُ هَـذَا النَّـفَسِ نَجـدُ استِسْـلامًا رَهِيبًـا للقُـوىٰ العالَميـةِ المناوئـة للإسـلام، وَللقُـوَىٰ المَحليّـةِ الظَّالِمَـةِ؛ كَمَـا يقـولُ الأستاذُ سَـعيدُ حَـوَّىٰ فِـي كتابِـهِ (آفَـاقُ التعَالِيـم)[221]، وَلِذَلِـكَ فَمِـنْ وَاجِبِنَـا أَنْ نُعرِّفَهـم عَلَـىٰ هَـذَا الفكـرِ، لأنَّ هَـذِهِ الفكـرةَ إذَا اعتقَـدُوا صَلاحيّتَهَـا شَـعرُوا بفائـدةِ المُحافظَـةِ عَلَيهَـا، وسَـيبذُلُونَ الغَالِـيَ وَالنفِيـسَ مِـنْ أجـلِ المُحافظَـةِ عَليهَـا.

وَنَحـنُ نُـرِيدُ أَنْ يَعلـمَ شَـبابُنَا هَـذِهِ النمَـاذجَ الفريـدة التـي ذكرتهـا آنفـا، فِـي هَـذِهِ الظـرُوفِ العَصيبـةِ المُجهِـدَةِ الّتِـي يَمـرُّ بِهَـا هَـذَا الجِيـلُ، وَالكَثيـرُ يَسـمَعُ وَيَـرَىٰ مَـا يُقـال هُنَـا وهُنـاكَ فِـي وَسـائل التوَاصـل، وهُـم فِـي الحَقيقَـةِ مَعـذورُونَ؛ لأنّهُـم لَـم يَعرِفُـوا حَسـنَ البنَّـا، وَلَـم يَتعرَّفُـوا عَلَـىٰ فِكْـرِهِ كَذلِـكَ؛ ولِهـذَا جَعـلَ الإمَـامُ البنَّـا الفَهْـمَ رُكنًـا مِـنْ أَركَانِ البيعَـةِ، وَوَاجِبُنَـا الآنَ تَفعِيـلَ هَـذَا الركْـنِ بـكُلِّ أُصُولِـهِ العِشْـرِينَ؛ لأنَّـه هُـوَ الّـذِي يُعِيـنُ عَلَـىٰ اختِيَـارِ الصَّـوابِ وَسْـطَ زِحَـامِ البَدائـلِ وَضَجيـجِ الأَصـوَاتِ.

إِعَادَةُ الثّقةِ فِي المِنهَاجِ وَصَلاحِيتِهِ

هَـذَا مِـن نَاحيَـةِ الفِكـرَةِ وَالاطمئنـانِ إِلَـىٰ سَـلامتِهَا، وأمَّـا نَاحِيَـةُ العَمـلِ (المِنْهَـاج وصَلاحِيّته)، فالإمَـامُ البنَّـا رَحِمَهُ اللَّهُ قَـد جَعـلَ (العَمـلَ) مَراتِـبَ ، وَكَانَ يُرِيـدُ بِذلِـكَ أَنْ يُعطِـيَ كُلَّ عَقبـةٍ مَـا تَحتَـاجُ إِليـهِ مِـنَ الجُهـدِ، ولذَلِـكَ جَعلَـه مَراتِـبَ وخُطـواتٍ وَخُططًـا مُحكمـةً، وَلَحظَـاتٍ مُؤقَّتـةً، رُغـمَ أنَّ الأهـدَافَ الّتِـي وَضعَهَـا قَـد تَبـدُو مُستَحِيلَـةً، لَكنَّـه وضَعَهـا فِـي إِطَـارِ المُمكِـنِ أَو

(221) انظر سعيد حوىٰ: *في آفاق التعاليم*، دار عمار – بيروت، 1408 – 1988م، ص 7، 14.

المُستطاعِ، وَبَـدَأَ بالهـدَفِ الأقْـرَبِ، وَهَـذَا مِـنْ وَاقعِيّتِـه رَحِمَهُ اللَّهُ، رُغْـمَ قُدرتِـه عَلَـىٰ الخَيَـالِ. كُلُّ خُطـوةٍ عِنْـدَهُ تُـؤَدِّي إِلَـىٰ الّتِـي تَلِيهَـا، وَلَا وَقْـتَ لِلضيَـاعِ وَلَـم يَكتَـفِ بِرُكْـنِ العَمـلِ فَحسْـبُ؛ لأنـكَ بِالعَمـلِ قَـدْ تُنتِـجُ فَائـدةً، وَلكـنْ مِـنْ أَجْـلِ إِزَالَـةِ العَوائِـقِ وَضـعَ رُكْـنَ (الجِهَـادِ)؛ لأنَّ العَمـلَ معنـاهُ: أَنْ تُـؤدِّيَ وَاجِبًـا، أَمَّـا الجهـادُ فمَعنَـاه: أَنْ تُزِيـلَ عَائقًـا، وَهُـذَا مُقتضَـىٰ النجـاحِ، وَخَوفًـا مِـنْ أَن يَلتَصِـقَ بِلَفـظِ (الجِهَـادِ) بَعـضُ صُـورِ العُنـفِ الجَامـحِ الّـذِي لَا غَنـاءَ فِيـهِ، رَبَطَـه بِسُـموِّ الدعْـوَةِ وَسَـعَةِ أُفقِهَـا، وَمَعْنَـىٰ سُـمُوِّ الدَّعـوَةِ: أنّـه أَعْطَـىٰ للوَسـائلِ حُكـمَ المَقاصِـدِ وَالغَايـاتِ، ومَعنَـىٰ سَـعةِ الأُفُـقِ أَنَّـهُ رَبـطَ الدعـوةَ بالواقـعِ عَلَـىٰ تنوعِـهِ وَاستمرَارِهِ، لِذلِـكَ رَبطَ الجهـادَ بالسـمُوِّ وَالسَّـعةِ لتعـدُّدِ أَنواعِـهِ؛ ابتِـدَاءً مِـنَ الجِهـادِ بِالقلْـبِ حَتَّـىٰ كَلمـةِ الحَـقِّ عِنـدَ سُـلطَانٍ جَائـرٍ، كَمَـا رَبـطَ العَمـلَ وَالجِهـادَ بِالوسَـائلِ الشَّـرِيفَةِ؛ لأنَّ الوسَـائلَ الخَبِيثَـةَ لَا تُـؤدِّي إِلَـىٰ غايـاتٍ شَـرِيفةٍ، والوَسِيلَـةُ الدَّنِيئَـةُ تُلـوِّثُ أيَّ هَـدفٍ مَهمَـا سَـمَا، وَالعُنـفُ الجَامِـحُ لَا غَنـاءَ فِيـهِ. وَمـن كَلمَاتِـهِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «إِنَّ الإِخـوَانَ المُسـلِمينَ سَيستخْدِمُونَ القُـوَّةَ العَمليـةَ حَيـثُ لَا يُجـدِي غَيرُهَـا»؛ فَـإِذَا أَجْـدَىٰ غَيرُهَـا قَيّدَهَـا أَوْ أَلغَاهَـا، وَدلِيـلُ ذَلِـكَ صُلـحُ الحُدَيبِيـةِ، لَمَّـا عَلِمَـتْ قُرَيـشٌ بِمَسـيرِ رَسُـولِ اللهِ ﷺ جَـاءَهُ مَـن يُخبِـرُهُ بِخُروجِهِـمْ لِحَربِـهِ، فَفِـي مُسْـنَدِ الإِمَـامِ أَحْمَـدَ بِسَـنَدٍ حَسَـنٍ، قَـالَ الْعَيْـنُ: يَـا رَسُـولَ اللهِ، هَـذِهِ قُرَيْـشٌ قَـدْ سَـمِعَتْ بِمَسِـيرِكَ، فَخَرَجَـتْ مَعَهَـا الْعُـوذُ الْمَطَافِيـلُ، قَـدْ لَبِسُـوا جُلُـودَ النُّمُـورِ، يُعَاهِـدُونَ اللهَ أَنْ لَا تَدْخُلَهَـا عَلَيْهِـمْ عَنْـوَةً أَبَـدًا، وَهَـذَا خَالِـدُ بْـنُ الْوَلِيـدِ فِـي خَيْلِهِـمْ قَـدْ قَدَّمُوهَـا إِلَـىٰ كُـرَاعِ الْغَمِيـمِ.

فَقَـالَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ: «يَـا وَيْـحَ قُرَيْـشٍ، لَقَـدْ أَكَلَتْهُـمُ الْحَـرْبُ، مَـاذَا عَلَيْهِـمْ لَـوْ خَلَّـوا بَيْنِـي وَبَيْـنَ سَـائِرِ النَّـاسِ، فَـإِنْ أَصَابُونِـي كَانَ الـذِي أَرَادُوا، وَإِنْ أَظْهَرَنِـي اللهُ عَلَيْهِـمْ، دَخَلُـوا فِـي الْإِسْـلَامِ وَهُـمْ وَافِـرُونَ، وَإِنْ لَـمْ يَفْعَلُـوا،

قَاتَلُوا وَبِهِمْ قُوَّةٌ، فَمَاذَا تَظُنُّ قُرَيْشٌ، وَاللهِ إِنِّي لَا أَزَالُ أُجَاهِدُهُمْ عَلَىٰ الذِي بَعَثَنِي اللهُ لَهُ حَتَّىٰ يُظْهِرَهُ اللهُ لَهُ أَوْ تَنْفَرِدَ هَذِهِ السَّالِفَةُ»، وَيُفْهَمُ مِن كَلامِ رَسولِ اللهِ ﷺ أَنَّ قُرَيشًا مُنهكَةٌ، وَأَنَّ القُوةَ وَوَسَائِلَها فِي صَفِّ المسلمينَ، وَرُغم هَذَا أَجَابَهم الرسُولُ ﷺ إِلَىٰ المُصالَحَةِ، فَالرسُولُ ﷺ لَمْ يَستخْدِمِ القوةَ حينَ أَجْدَىٰ غَيرُهَا مِنَ المُفاوضَةِ وَالمُصالحَةِ وَالتقَارُبِ، وَلِذلِكَ يُعلِّقُ ابنُ القَيِّمِ عَلَىٰ صُلْحِ الحُديبيةِ، وَيُشيرُ إِلَىٰ الفَوَائِدِ الفِقْهِيّة مِنْ هَذَا الصُّلْحِ، فَيقولُ: «وَمِنْهَا: أَنَّ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلَ الْبِدَعِ وَالْفُجُورِ وَالْبُغَاةِ وَالظَّلَمَةِ إِذَا طَلَبُوا أَمْرًا يُعَظِّمُونَ فِيهِ حُرْمَةً مِنْ حُرُمَاتِ اللهِ تَعَالَىٰ، أُجِيبُوا إِلَيْهِ وَأُعْطُوهُ وَأُعِينُوا عَلَيْهِ، وَإِنْ مَنَعُوا غَيْرَهُ فَيُعَاوَنُونَ عَلَىٰ مَا فِيهِ تَعْظِيمُ حُرُمَاتِ اللهِ تَعَالَىٰ، لَا عَلَىٰ كُفْرِهِمْ وَبَغْيِهِمْ، وَيُمْنَعُونَ مِمَّا سِوَىٰ ذَلِكَ، فَكُلُّ مَنِ الْتَمَسَ الْمُعَاوَنَةَ عَلَىٰ مَحْبُوبٍ لِلَّهِ تَعَالَىٰ مُرْضٍ لَهُ، أُجِيبَ إِلَىٰ ذَلِكَ كَائِنًا مَنْ كَانَ، مَا لَمْ يَتَرَتَّبْ عَلَىٰ إِعَانَتِهِ عَلَىٰ ذَلِكَ الْمَحْبُوبِ مَبْغُوضٌ لِلَّهِ أَعْظَمُ مِنْهُ، وَهَذَا مِنْ أَدَقِّ الْمَوَاضِعِ وَأَصْعَبِهَا وَأَشَقِّهَا عَلَىٰ النُّفُوسِ، وَلِذَلِكَ ضَاقَ عَنْهُ مِنَ الصَّحَابَةِ مَنْ ضَاقَ»[222].

وَمَعْنَىٰ هذَا أَنَّ الحَرْبَ أَوِ القوةَ لَيستْ مَطلوبَةً لِذاتِهَا، فَإِذَا أَغْنَىٰ عَنهَا غَيرُهَا قَيدَهَا أَوْ أَلغَاهَا، وَلِهَذَا أَقْسَمَ النبيُّ ﷺ يومَ الحُديبيةِ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ اللهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا»[223]، وَذَلِكَ مَا أَدرَكَهُ الإِخوان خِلالَ حُكْمِ: عَبدِ الناصر أَوِ السَّاداتِ أَوْ مُبارِكٍ؛ لأنَّ دُخُولَ جَمَاعَة فِي مُواجهَةٍ عنيفةٍ معَ سُلطَةٍ، مَهمَا كَانتْ قُوةُ هذه الجماعة أَوْ ضَعفُهَا، فَهِيَ الخَاسِرُ فِي النهَايَةِ. أَمَّا الشَّعبُ أَمامَ دَولَةٍ وَإِنْ تَجبرَتْ وَعَتَتْ، فَهُوَ المنتَصِرُ فِي النهايَةِ، وَهُوَ مَا أدرَكَه البنَّا رَحِمَهُ اللهُ، وَلهذا أَعْلَنَ مِنْ بِدايَةِ دعوتِه حَاجتَه إِلَىٰ جمهورٍ يُكافِحُ بِهِ ويُسانِدُهُ، وَإِنْ لَم يَكُنْ مَوجُودًا

(222) ابن القيم: *زاد المعاد في هَدي خير العباد*، 3/ 269.

(223) أخرجه البخاري، وهو جزء من حديث طويل، رقم (2731).

أَوجَـدَهُ، وَإِنْ لَـم يَكُـنْ فاعِـلًا فَعَّلَـه، وَإِنْ كَانَ مُتفرِّقًـا وَحَّـدَهُ؛ لأنّـه كَانَ يُـدرِكُ أنَّ إزاحـةَ الـدولِ تَحتـاجُ إِلَـىٰ المُطالبَـةِ القَويّـةِ وَالعُصبَـةِ وَالمَنعَـةِ، وأنَّ مَشـرُوعَ قِيَـامِ الدوْلَـةِ مَشـرُوعٌ طَويـلُ الأمَـدِ، وأنَّ العُنـفَ ليـسَ مِـنْ وَسـائلِ تَحقيقـهِ، وَنحـنُ نَهتَـدِي بِسُـنةِ رَسُـولِ اللهِ ﷺ فِـي حَقـنِ الدِّمَـاءِ، فَقَـدْ حَـالَ المُشـركُونَ بَيْنَـهُ وَبَيْـنَ الْبَيْـتِ الحَـرَامِ، وَمَنعُـوهُ مِـنْ أَداءِ شَـعيرَةٍ مِـنْ شَـعائرِ الإسْـلامِ، فَرضِـيَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ لأنّـه يَعلَـمُ أَنّـه يَحتَـاجُ إِلَـىٰ فُسـحَةٍ مِـنَ الوَقْـتِ.

وَقَـد عَـرضَ الإِمَـامُ البنَّـا مَنهَجَـهُ فِـي العَمـلِ فَأَحسَـنَ عَرضَـهُ؛ إِنَّـهُ مَنهَـجٌ سِـلْمِيٌّ هَـادئٌ مُعتَـدِلٌ بعيـدٌ عَـنِ العُنـفِ الجَامـحِ الّـذِي لَا غَنـاءَ فِيـهِ، ثُـمَّ إنَّ الرَّصَاصـةَ الأُولَـىٰ يُطلِقُهـا كُلُّ أَحـدٍ، أمّـا الرَّصَاصـةُ الأَخِيـرَةُ فَيُطلِقُهـا المُنتَصِرُ فَحَسْـبُ، وَهَـذَا مَـا عَلَّمَـهُ لإِخوَانـهِ.

وأَذكـرُ أنَّ أَخَانَـا إسـمَاعيلَ الفيُّومـي أحـدَ حُـراسِ الحَـرسِ الجُمهـورِيِّ الخَـاصِّ لِجَمـالِ عَبـدِ النَّاصـرِ، وَكَانَ معَنـا فِـي الأُسْـرَةِ عِندَمَـا اعتقَلُـوا الجميعَ عَـامَ (65)، وَكَانَ يَـقِفُ عَلَـىٰ رأسِ جَمـالِ عَبـدِ الناصـرِ فِـي غُرفَـةِ نَومـهِ، وَكُنّـا نَسـمَعُ هَـذَا الـكَلامَ مِـنْ أَخِينَـا فِـي السَّـجْنِ، فنقُـولُ: (مِـشْ مُمْكِـنْ!)، لكِـنْ تَأكـدْتُ مِنهُ عِندَمَـا سَـمِعْتُ هُـدَىٰ جَمـالِ عَبـدِ الناصـرِ فِـي إِحْـدَىٰ الفضائيّـاتِ تَـروِي هَـذِهِ القصَّـةَ، فَتَقُـولُ: وَصَـلَ بِهِـمُ الحَـدّ أَنْ كَانَ أَحدُهُـم يَحـرسُ أَبِـي وَهُـوَ نَائِـم، ولكـنَّ الرجُـلَ تَعلَّـم أَنَّ القُـوَّةَ (وَإِنْ قُـدِرَ عَلَيهَـا) إِذَا أَجْـدَىٰ غَيرُهَـا قَيدَهَـا أَوْ ألغَاهَـا، وأنَّ الفَصيـلَ أمـامَ الدولَـةِ مَهمَـا كَانـتْ قُوتُـه وَضَعفُهـا هُـوَ الخَاسِـرُ فِـي النهَايـةِ، وَلِذلِـكَ كَانَ يقـفُ أمـامَ عَبـدِ الناصـرِ بِسـلاحِهِ، وَلَـم يُحرِّكْـهُ أحـدٌ، مَـع أنّـهُ فِـي هَـدأةِ اللَّيـلِ كَانَ يَسـمَعُ أنّـاتِ النـاسِ فِـي السُّـجُونِ، وَيَعلَـمُ أنَّ أحدَهُـم قَـدْ يَـدُلُّ عَلَيـهِ، وقَـدْ كَانَ؛ إِذِ اعـترَفَ عَلَيـهِ أحـدُ الإِخْـوَةِ فَجـاءُوا بِـهِ، وعَذبُـوهُ فَقضَـىٰ شَـهِيدًا فِـي أَوَّلِ لَيلـةٍ، وَهُـوَ يَسـطَعُ وَيتألّـقُ، لَكِـنَّ الرَّصَاصـةَ كَانَـتْ مَـا تَـزَالُ فِـي جَيْبِـهِ.

كَمَا سألَ القاضِي العَسْكَرِي الأُستَاذَ سَيد قُطْب: أَنْتَ تُخطَّطْ لِتقْتُلَ عَبدَ النَّاصرِ؛ فَقالَ لَهُ: حَياةُ عَبدُ النّاصرِ أَتْفَهُ مِنْ أَنْ تُكلِّفَنَا كُلّ هَذَا العَنَاءِ، فَلو كَانَ عَبدُ الناصِرِ قُتِلَ كَانَ قُضِيَ عَلينَا جَمِيعًا، وَهَذَا مِنَ الفَهمِ الوَاسِعِ الفَسيحِ، وَمِنَ الاطمئْنَانِ لِلمنهَاجِ كَما عَلَّمَنَا الإمَامُ البنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ: أَنَّ العُنفَ الجَامحَ لَا غَناءَ فِيهِ، وَأَنَّ الوَسيلَةَ الدَّنِيئَةَ لَا تَخدُمُ غَايةً شَريفَةً، وَلِذلِكَ رَبطَ الجِهادَ بِسُّمُوِّ الدَّعوةِ عِندَمَا أَعْطَىٰ لِلوسَائلِ حُكْمَ المَقاصِدِ وَالغَاياتِ، كَمَا رَبطَهُ بِالسَّعَةِ عِنْدَمَا رَاعَىٰ مُقتضَياتِ الوَاقِعِ؛ فالجهادُ ماضٍ إِلَىٰ يومِ القيامةِ، لكنَّ تَفعِيلَ هَذِهِ المَعانِي فِي نُفُوسِ كُلِّ مَنْ أَدَّىٰ بَيعتَهُ أَوِ التحَقَ بِصَفِّنَا مُهمٌّ جِدًّا فِي هَذِهِ الظُّروفِ الصَّعبَةِ الآنَ، وَهَذَا دَوْرُنا وواجِبُنَا فِي الوقتِ الّذِي حِيلَ فِيهِ بينَ أجيالٍ كَثيرةٍ مِنَ الشبابِ، وبينَ أَنْ تَعرِفَ حَسَنَ البنَّا وَفِكرَتَه وَدَعْوتَهُ، فَشَكَّ بَعضُهُم فِي سَلامةِ الفِكرَةِ وَفِي صِحَّةِ المِنهَاجِ القَادرِ عَلَىٰ تَحقِيقِهَا. وَالحَقيقةُ أَنَّ فِكْرًا يَصعبُ القَضاءُ عَلَيهِ قُرابَةَ قَرنٍ مِنَ الزمَانِ لَهُو فِكرٌ نَاجِحٌ، فَضلًا عَمَّا ثَبتَ مِن صَلاحِيّتِه وَقُدرتِهِ عَلَىٰ النَّجَاحِ لأنَّ مَا وَصَلنا إِلَيْهِ بعدَ هَذِهِ الفترَةِ الطويلَةِ مِنَ الاستِفَادَةِ مِنْ تَجارِبِ مَن سَبقَ؛ لَا شَكّ أنّه حَالةُ نَجاحٍ.

يُؤكِّدُ الإمامُ البنَّا صَلاحيّةَ هَذَا المِنهَاجِ، بِأَنَّه جُرِّبَ مِنْ قَبلُ وَثَبتتْ صَلاحِيتُه، وأنَّ النجَاحَ مَكتُوبٌ لهذَا المَنهاجِ، يقُولُ الإمَامُ البنَّا: «المِنهَاجُ الإِسْلَامِيُّ قَدْ جُرِّبَ مِنْ قَبلُ، وشَهِدَ التَّاريخُ بصَلاحيّتِه، وَأَخرجَ لِلنّاسِ أُمَّةً مِنْ أَقْوَىٰ الأُمَمِ وَأَفضَلِهَا وَأَرْحَمِهَا وَأَبرِّهَا وَأَبرَكِهَا عَلَىٰ الإِنْسَانِيةِ جَمِيعًا؛ وَلَهُ مِنْ قُدسِيّتِهِ وَاستِقرَارِهِ فِي نفُوسِ النَّاسِ، مَا يُسَهِّلُ عَلَىٰ الجَميعِ تَناوُلَه وَفِقْهَهُ وَالاستِجَابةَ لَهُ وَالسَّيرَ عَليهِ مَتَىٰ وُجّهُوا إِلَيهِ»[224].

وَيُفهَمُ مِن ذَلِكَ أَنَّ الإمَامَ كانَ مُطمَئِنًّا إِلَىٰ أَنَّ المنهجَ الّذِي ارتضَاهُ

(224) حسن البنا: *مجموعة رسائل الإمام البنا*، [رسالة نحو النور]، ص 153.

سَـوفَ يُـؤدِّي إِلَـىٰ المَقصُـودِ مَـعَ عَظيـمِ الأجْـرِ وَالمَثوبَـةِ مِـنَ اللهِ عَـزَّ وَجَـلَّ رُغْـمَ طُـولِ الطَّريـقِ، وَلِـذَا تَـراهُ يَجـزِمُ فِـي أَكثـرَ مِـنْ مَوضِـعٍ مِـنْ رَسَـائلِهِ بَـأَنَّ هَـذَا المِنهَـاجَ هُـوَ وَحـدَهُ القَـادِرُ عَلَـىٰ النهُـوضِ بِالأمَّـةِ الإِسـلاميَّةِ؛ كَأَنْ يَطـرحَ الإِمـامُ البنَّـا هـذَا السـؤَالَ: «هَـلْ هُنـاكَ طَرِيـقٌ أُخْـرَىٰ؟»، ثُـمَّ يُجِيـبُ فَيقُـولُ: «إِنَّ هَـذِهِ الطَّريـقَ مَهمَـا طَالَـتْ فَليـسَ هُنـاكَ غَيْرُهَـا فِـي بِنَـاءِ النَّهضَـاتِ بِنـاءً صَحِيحًـا، وَقَـد أَثبتَـتِ التَّجرِبَـةُ صِحَّـةَ هَـذِهِ النظَرِيَّـة»[225].

وَلَـمْ يَكُـنْ غَرِيبًـا بعـدَ هَـذَا اليقِيـنِ أنْ يَتمسَّـكَ الإِمَـامُ البنَّـا بِمنهاجَـهِ الـذي اطمَـأنَّ إليـهِ، رُغـمَ مَـا تَعـرّضَ لَـه فِـي حِيَاتِـهِ، ففـي عَـام (1948م) طلـبَ مِنـهُ بعـضُ الإِخـوةِ العَائِدِيـنَ مِـنْ فَلسـطينَ - عِندَمَـا حُلـتْ الجَماعَـةِ - أنْ نَتغـدَّىٰ بِهِـم قَبـلَ أَنْ يَتعَشَّـوْا بِنَـا، فَقـالَ أَسْـلِمُوا أكتَافَكُـم لِلسَّـعدِيّينَ(الحكومة)، لَـن أُضِيـعَ الأُمَّـةَ مِـنْ أَجـلِ الحُكومَـةِ، ولَا الوَطَـنَ مِـنْ أَجْـلِ الدّولَـةِ، فَكُلُّ أُمّـةٍ تَسـتَحِقُّ الحُكْـمَ الّـذِي تَصبِـرُ عَلَيـهِ، وَالعِـبرَةُ بأَخْـلاقِ الأُمَـمِ وَلَيـسَ بِشَـكْلِ الحُكومَـاتِ.

وَفِـي لَحظَاتِـهِ الأخيـرَةِ، وَهُـوَ يخـرجُ مِـنْ أَجْـلِ التفَـاوُضِ مَـع مُمثِّلِـي الحُكومةِ بَعـدَ حَلِّ الجَماعَـةِ فِـي جَمعيّـةِ الشُـبّانِ المُسـلِمينَ تَقـولُ لَـهُ زوجته: المَسْـرَحُ مُجهَّـزٌ لِاغتِيالِـكَ، فيقُـولُ: أَعلَـمُ ذَلِـكَ، ولَكـنْ حَتَّـىٰ لَا يُقـالَ: إِنَّ هُنـاكَ بَابًـا مِـنَ الأمَـلِ لَـمْ أَطْـرُقْه، ثُـمَّ نَهـضَ وَقَامَـتْ زَوجتُـه تَحتَضِنُـه وَهِـيَ تُودِّعُـه وَقَامَـتِ ابنتُـه الكُـبرَىٰ (وَفَـاء) فَأخرجَـتْ مُسدّسًـا مِـنْ مَكتبِـه تُقدِّمُـه إِليـهِ، وتقُـولُ: لعَلَّـكَ تَحتـاجُ إِلَيْـهِ يَـا أَبِـي، فقـالَ لَهـا: رُدِّيـهِ يَـا وَفَـاءُ، لَا حاجـةَ لِـي بِـهِ، هَـلْ تَظنّيـنَ أَنَّهُـم لَـو أَطْلَقُـوا عَلَـيَّ الرَّصَـاصَ سَـأَرُدُّ عَليهِـمْ، ثُـمَّ قـالَ:

مِـنْ أَيِّ يَـوْمَـيَّ مِـنَ المَـوْتِ أَفِـرّ أَيَـوْمَ لَـمْ يُقْـدَرَ أَمْ يَـوْمَ قُـدِرْ[226]

(225) حسن البنا: مجموعة *رسائل الإمام البنا*، [رسالة إلىٰ أي شيء ندعو الناس]، ص 69.
(226) يُنسَبُ هذَا البيتُ إِلَىٰ سَيدِنَا عليٍّ بنِ أَبِي طَالِبٍ.

وَخَـرجَ ولَـمْ يَعُـدْ رَحِمَهُ اللَّهُ، فَهُـوَ مُطمئِـنٌّ للمنهَـجِ الّـذِي وَضَعَـه، وَحياتُـهُ نَـفسُهَا تَتعرَّضُ لخطرٍ أَكيدٍ فَلَا يَتراجَعُ أَوْ يَحيدُ عَنهُ. وَعِندَمَا احتدَّ الصراعُ مَعَ رِجَالِ الثَّـورَةِ، طَلَـبَ بَعـضُ الإخـوَةِ مِـنَ الأستَاذِ الهُضيبِيِّ المُواجهَـةَ، فقـالَ: إنَّ مَـا بَينَنَـا وَبيـنَ مَـا فَرضَـه اللهُ عَلينَـا مِـنَ الكِفَـاحِ آمَـادٌ بعيـدَةٌ، يَـقْصِدُ لَيـسَ هَـذَا وَقْـتَه ثُـم قَـالَ ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْـدَ اللهِ حَـقٌّ وَلَا يَسْـتَخِفَّنَّكَ الَّذِيـنَ لَا يُوقِنُـونَ﴾ [الـروم: 60] . وكانَ ذلـكَ قبـلَ وقـوعِ المِحْنَـةِ الضَّـرُوسِ سَـنةَ (1954م).

وَمِـنْ ثَـمَّ فـإنَّ أمـورًا كثيـرَةً يُمكِـنُ أَنْ تُحَـلَّ بِالتقـارُبِ وَالتفـاوُضِ، وَالهُـدْنَةِ، فالأستاذُ عُمرُ التلمِسَـانِيّ رَحِمَهُ اللَّهُ، مثـلًا، أُفـرِجَ عَنـهُ قَبلَنَـا وَنَحـنُ فِـي السَّـجنِ، فَبـدأَ كَمَـا يقولـونَ رَحـلاتٍ مَكّوكيـةٍ بَيـنَ القَصـرِ الرئَاسـيِّ وَوزارَةِ الدَّاخلِيّـةِ مِـنْ أَجـلِ حَسْـمِ القَضِيّـةِ وَإِخـرَاجِ الإِخْـوَانِ، وَقَـد عـابَ عليـهِ بعـضُ الإخـوةِ ذَلِـكَ، وَرَأَوْا فِيمَـا فعـلَ نَوعًـا مِـنَ التـرخُّـصِ وَالتراجُـعِ غيـرِ الجَائـزِ، فقَـالَ لَهُـم: إنَّ المَـدَّ الشُّـعورِيَّ العَالِـيَ إنَّمـا هُـوَ فِـي حَيـزٍ مَحـدودٍ وَلِوقْـتٍ مَحـدودٍ صَلاحِيّتـه، أمَّـا الحيـاةَ فَـلَا بـدّ أَنْ تَعـودَ إِلَـىٰ طَبيعَتِهَـا لِتَسِـيرَ فِـي هَوادَةٍ وَيُسـرٍ، وَلِذلِـكَ بـدأَ فِـي أحاديـثِ التفَـاوضِ، لَكـنْ لا يَخْفَـىٰ عَليكُـم طَبعًـا أَنَّ السَّـادَات كَانَ هـوَ الحاكِـمَ حينئـذٍ، وَهُـوَ الّـذِي بـدَأَ يُغـازِلُ الإخـوانَ وَيُـفرِجُ عَـن بَعضِهِـمْ، وَيَلتقِـي بِالأسـتَاذِ التِّلمسَـانِيّ، فالتقَـطَ الأسـتاذُ التلمسَـانِيُّ الخَيـطَ بسـرعةٍ، وأَكمَـلَ هَـذَا الطريـقَ، رُغـمَ اعـتراضِ أغلـبِ الإخـوةِ فِـي ذَلِـكَ الوقـتِ، وَهُـوَ يقـولُ لَهـم إِنَّ الحيَـاةَ يَنبغِـي أَنْ تَعـودَ لِتسـيرَ فِـي هَـوادةٍ ويُسـرٍ، لأنـهُ يعلـمُ أَنَّ آفـةَ مُقاومَـةِ الظُّلـمِ العِنَـادُ وَاللَّجَـاجُ، الـلاءاتُ الشَّـهيرَةُ: لَا للتصَالُـحِ، لَا للتقَـارُبِ، لَا للتفَـاوُضِ، فالأستَاذُ عُمَـرُ كَانَ يَعـرِفُ مُـا يُريـدُ، والتجَـارِبُ تَختلِـفُ باختـلافِ كُلِّ بيئـةٍ.

وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

إِسْطَنْبُول، الخَمِيس 24 المُحَرَّم 1448هـ، المُوَافِق 9 يُولْيُو (تمُّوز) 2026م

المحتويـات

رِسَالَـةُ التَّعالِيمِ 3

تعريف بالمؤلف 5
مقدمة 9

مِهَادٌ عَامٌّ 15

شُـبهَاتٌ متجـدِّدَةٌ .. وإجاباتٌ واضحَة حَاسمَةٌ 15
ثَـلَاثَـةُ مُقومَاتٍ لِلنَّجَاحِ 18
لَـحْظَتَانِ فَارقتَانِ 23
تَـفَـرُّدٌ فِي الـرّؤْيَـةِ وَالـفَهْمِ (شُموليّة الفِكرةِ وَوَحدَةُ الأمّةِ) 26
رُؤيـةٌ علَىٰ مِنهَاجِ الـنُّبوّةِ 28
حَتْمِيّةُ العَملِ المـنَظَّـمِ 29
مِـنْهاجُ العَملِ وَدُستُورُه 31
جُـهْـدٌ لَا يُـضيِّعُـه اللهُ تَعالَىٰ 39

ضَوابِطُ بَيْعَتِنَا وَأَركَانُهَا 41

تَمهيـدٌ 41
أُسْلُوبُ الإِمَامِ البَنَّا فِي خِدْمَةِ الدَّعْوَةِ 53

ركنُ الفَهمِ 61

الـفَهْمُ أَوَّلُ الأَركَانِ 61
مَواقِفُ فِي الفَهمِ السَّدِيدِ 68

رُكنُ الإِخْلَاصِ **73**
رُكنُ العَملِ **79**

العَمَلُ رُكْنُ الأَرْكَانِ 79
أَوْهَامٌ لَـحقَتْ بِرُكْنِ العملِ 89
بِاتِّسَاعِ العِلْمِ يَتسِعُ العَملُ 93
ثَـمرَةُ الَـدِّيـنِ وَالتدَيُّنِ 94
الـجمَاعَـةُ ضَرورَةٌ وَاقِعيّةٌ 97
وَاجِبُ الفَـرْدِ فِي الْـجمَاعةِ 99
مَراتِبُ العَمل 101
إِحْيَاءُ الإِسْـلَامِ فِي النفُوسِ 102
بِنَاءُ الكَفاءَاتِ وَاكتِشَافُ القُدرَاتِ 104

رُكْنُ الْـجِهَادِ **108**

مَرتبةُ الْـجِهَادِ بَينَ أَركانِ البَيعةِ 108
تَـصوُّراتٌ خَاطِئَةٌ لِـمَعْنَىٰ الْـجِهَادِ 112
فَهْمٌ غَالِـطٌ لمـرَادِ سَيِّدِ قُطْب مِنِ الْـجِهَادِ بِالقُوّةِ 121
بَينَ فِـقْهِ الْـمِحْنَةِ وَاغْتِنَامِ الـفُـرَصِ 127

ركن التَضحِيَة **135**

رُكْنُ الطَّاعَةِ..... 140

شُبهَاتٌ حَوْلَ الطَّاعَةِ فِي دَعْوَتِنَا..... 144

وَقفَاتٌ مَعَ رُكْنِ الطَّاعَةِ..... 147

رَفْعُ الْحرَجِ وَجَلْبُ التَّيسِيرِ 165
التربيةُ الإيمانيةُ العَالِيةُ 168
المراجعَةُ بَينَ القَائِدِ وَالْجُندِيّ..... 169
قِيَادَةٌ تَسبِقُ وَصَفٌّ يُطِيعُ 172
التَّشْعِيبُ وَالتكْوِينِ 176
المُعِيناتِ علىٰ الطَّاعَةِ 179
أَوْتَادُ الدَّعوةِ مَبعَثُ ثِقَةِ الصَّفِّ واطْمئْنَانِهِ 191
مَهَابَةُ القِيَادةِ تُيسِّرُ الطَّاعَةَ 193
رَئِيسُ تَنظِيمِ السُّجُونِ..... 195
صَدِيقُ الزّنْزانَةِ 196

رُكْنُ الثَّباتِ..... 198

الثَّبَاتُ زَادٌ فِي الْمِحَنِ الطِّوَالِ..... 198
نَماذِجُ مِنَ الصبر وَالثَّباتِ..... 202
ثِمَارُ التّعهُّدِ وَالتَربِيَةِ 204

رُكْنُ التَّجرُّدِ..... 210

التَّجَرّدُ أَمَارَةُ وَلَاءٍ 210

رُكْنُ الأُخُوّةِ 215

رُكنُ الثِّقةِ 222

الـثِّقَةُ تَاجُ الأرْكَانِ وَخِتَامُهَا 222
كيف يَبني القَائِدُ الثقةَ في نُفوسِ إخوانِه؟ 224
إِعَادَةُ الـثِّقَةِ فِي أُصُولِ دَعوَتِنَا وَمَناهِجِهَا 232

المحتويات 251

فِي ظِلَالِ الرِّسَائِل

لَيْسَ هَذَا الْكِتَابُ شَرْحًا لِأَلْفَاظِ رِسَالَةِ التَّعَالِيمِ، وَلَا تَعْلِيقًا عَلَى عِبَارَاتِهَا، وَإِنَّمَا هُوَ وُقُوفٌ فِي ظِلَالِهَا، وَاسْتِكْشَافٌ لِمَا تَخْتَزِنُهُ أَرْكَانُ الْبَيْعَةِ مِنْ مَعَانٍ تَرْبَوِيَّةٍ وَدَعَوِيَّةٍ وَحَرَكِيَّةٍ، أَسْهَمَتْ فِي بِنَاءِ أَجْيَالٍ مِنَ الْعَامِلِينَ لِلْإِسْلَامِ، وَرَبَطَتْ بَيْنَ صَفَاءِ الْفِكْرَةِ، وَصِدْقِ الْإِيمَانِ، وَحَيَوِيَّةِ الْعَمَلِ، وَصَلَابَةِ الثَّبَاتِ.

يَقْرَأُ الْكِتَابُ أَرْكَانَ الْبَيْعَةِ الْعَشَرَةَ:

الْفَهْمَ، وَالْإِخْلَاصَ، وَالْعَمَلَ، وَالْجِهَادَ، وَالتَّضْحِيَةَ، وَالطَّاعَةَ، وَالثَّبَاتَ، وَالتَّجَرُّدَ، وَالْأُخُوَّةَ، وَالثِّقَةَ؛ لَا بِوَصْفِهَا عَنَاوِينَ تُحْفَظُ، بَلْ مَعَالِمَ لِبِنَاءِ الْإِنْسَانِ، وَتَكْوِينِ الصَّفِّ، وَإِعْدَادِ الْجَمَاعَةِ الْقَادِرَةِ عَلَى حَمْلِ رِسَالَةِ الْإِسْلَامِ وَمُوَاجَهَةِ تَحَدِّيَاتِ الْوَاقِعِ.

وَقَدْ وُلِدَ هَذَا الْكِتَابُ مِنْ مَجَالِسَ عِلْمِيَّةٍ وَتَرْبَوِيَّةٍ، تَلَاقَى فِيهَا النَّصُّ مَعَ التَّجْرِبَةِ، وَالْمَنْهَجُ مَعَ الْوَاقِعِ، ثُمَّ نَضَجَ عَبْرَ سَنَوَاتٍ مِنَ الْمُعَايَشَةِ وَالتَّأَمُّلِ وَالْمُرَاجَعَةِ؛ لِيَطْرَحَ أَسْئِلَةً لَا تَزَالُ حَاضِرَةً : كَيْفَ يُبْنَى الْإِنْسَانُ صَاحِبُ الرِّسَالَةِ؟ وَكَيْفَ تَصْمُدُ الدَّعَوَاتُ فِي زَمَنِ الْمِحَنِ ؟

وَكَيْفَ تَتَحَوَّلُ مَبَادِئُ الْأُخُوَّةِ وَالثِّقَةِ وَالطَّاعَةِ وَالثَّبَاتِ إِلَى طَاقَةٍ تَحْفَظُ الصَّفَّ وَتَنْهَضُ بِالْأُمَّةِ ؟

إِنَّهُ كِتَابٌ لِلْمُرَبِّي وَالدَّاعِيَةِ وَالْعَامِلِ لِلْإِسْلَامِ ، وَلِكُلِّ مَنْ يُؤْمِنُ بِأَنَّ نَهْضَةَ الْأُمَّةِ تَبْدَأُ مِنْ بِنَاءِ الْإِنْسَانِ، وَأَنَّ قُوَّةَ الْجَمَاعَاتِ تُقَاسُ بِعُمْقِ تَرْبِيَتِهَا، وَوُضُوحِ رُؤْيَتِهَا،وَصَلَابَةِ رِجَالِهَا، وَقُدْرَتِهَا عَلَى تَحْوِيلِ الْمَبَادِئِ إِلَى حَيَاةٍ.

د.صَلَاح عَبْدالحَق

ISBN: 978-605-74168-2-7